

دعوة التقريب بين الأديان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دعوة التقريب بين الأديان

دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية

تأليف

الدكتور: أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

الجزء الأول

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة «الدكتوراه» في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - وقد جرت مناقشتها ضحى يوم الاثنين الموافق ١٧ / ٨ / ١٤٢١هـ، ومنح الباحث مرتبة الشرف الأولى، مع التوصية بطبع الرسالة وتبادلها بين الجامعات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد منَّ الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأقام الله به الحجة، وأوضح المحجة. أرسله الله تعالى على حين فترة من الرسل بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وقد كان الناس في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، يستوي في ذلك كتابيهم، ومشركهم، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ [البينة]، (والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصم بكتاب؛ إما مبدل، وإما منسوخ، ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك. وإما أمي من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنته، وظن أنه ينفعه: من نجم، أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك) (١) فحق عليهم، قوله تعالى في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني.

تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل. مكتبة الرشد. الرياض. الطبعة الرابعة (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م). (١/٦٣).

وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتيك، وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء...»^(١)، ففتح الله به قلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صماً، ممن سبقت لهم من الله الحسنى، من أهل الكتاب والأميين. فقال من آمن من أهل الكتاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٢٨]، وقال من آمن من الأميين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [١٩٣] رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ [١٩٤] فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ [١٩٥] ﴿[آل عمران].

وأما الذين غلبت عليهم شقوتهم، واستنكفوا، واستكبروا، فشقروا بدعوته ولم يرفعوا بها رأساً، ولم يقبلوا ما بعثه الله به من الهدى والعلم.

لقد كانت رسالته ﷺ رحمة للعالمين، وبركة على الخلق أجمعين. فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وخلفه ﷺ في

(١) صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. نشر وتوزيع: إدارات البحوث العلمية والإفتاء. الرياض. الطبعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م). (٢١٩٧/٤).

أمته الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون، الذين يمسكون بالكتاب، وينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. فأحيا الله بهذا النبي الكريم ما اندرس من ملة إبراهيم، وسنن المرسلين، من توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ونبذ ما ابتدعه من سفه نفسه، ورغب عن ملة إبراهيم، من اليهود والنصارى والمشركين. وأكمل الله لهذه الأمة الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً، حتى صارت خير أمة أخرجت للناس، كما وصفها ربها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران] فنسخ الله بدين الإسلام سائر الأديان، وجعل القرآن، آخر كتبه نزولاً، وأحدثها عهداً به؛ مصداقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيماً عليه، وافترض على جميع الخلق الإيمان بنبيه الخاتم واتباعه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الَّذِي يَأْتِي الْوَيْلَ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف]، فمن ابتغى غير الإسلام ديناً خاب وخسر: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]، ومن طلب الهدى من غير القرآن أضله الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة]. ومن سمع بنبيه محمد ﷺ ولم يؤمن به أكبه الله في النار: «والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»^(١). وكل هذا معلوم من الدين بالضرورة، لكونه من أصول الإسلام، ومعاقداً للإيمان.

(١) صحيح مسلم (١/١٣٤).

ولم يدر بخلد أحد من أمة الإسلام أن يسعى إلى توفيقٍ أو تلفيقٍ أو توحيد أو تقريب، بين دين الإسلام وما سواه من الأديان، بل ولا يخطر بالبال، ولا يكاد، عند من فقه مراد الله، ودخل الإيمان قلبه. إن هي إلا همهمات ومؤامرات في دهاليز الباطنية المظلمة، وهذيانات وشطحات في عقول غلاة المتصوفة ما كانوا ليجهروا بها على الملأ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون. وإلا لسحقتهم أقدام، وانبرت لهم أقلام، ورفعت لحربهم أعلام.

ولكن الزمان استدار، فعز العلم، وفشا الجهل، وانخذل أهل الإسلام، واستطال الكفار، فعصفت بأمم الأرض مذاهب شتى، ومقالات سوء، نشأت في أحضان الغرب النصراني، ترضع من لبان يهود، حتى نمت وترعرعت، وامتدت أغصانها، واسترسلت في فناء المسلمين وعقر دارهم، وليس لعرقٍ ظالم حق.

فمن هذه المقالات التي استحالت دعوات، دعوة التقريب بين الأديان، التي خرجت من حيز الكمون إلى فضاء الاستعلان، ومن طور الفكرة، إلى مرحلة التنفيذ، في العقود الأربعة الماضية. تدعو المسلمين إلى حل عرى الدين، وموادّة الكافرين وجعل المسلمين كالمجرمين، وكسر حاجز النفرة من المشركين. وقد تذرّع دعائها بألوان الحيل، وتوسّلوا بزخرف القول، وبهرج العمل، لتسليكهها بين المسلمين، وتأنيسها، وتوطئتها، وأوضعوا خلالهم ييغونهم الفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

فمنذ انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م) الذي تواضع فيه أساقفة الكاثوليك على هجر عبارتهم العتيقة: (لا خلاص خارج الكنيسة)، وتوسيع مفهوم «الخلاص» ليشمل غير النصارى، ومؤتمرات التقريب بين الأديان بعامّة، وبين الإسلام والنصرانية خاصة تجري على قدمٍ وساق، حتى بلغ عددها خلال العقود الأربعة المنصرمة

- حسب علمي - ثلاثمائة مؤتمر، بل فاق. وأنشئت لها المراكز المتخصصة، وجمعيات الصداقة، بل وشيدت لها مجامع الأديان المؤلفة من كنيس وكنيسة ومعبد ومسجد، وأقيمت لأجلها الصلوات المشتركة!!!

إن ظهور «دعوة التقريب بين الأديان» بثوبها الجديد، وانتشارها الواسع في جميع بقاع المعمورة، يعد «نازلة» جديدة، «وبدعة» حديثة، تتطلب مواجهة واعية تقوم على دراسة حقيقتها، وتتبع أصولها، واستقراء واقعها، لمعرفة أهدافها وبواعثها، وكشف عوارها وخطورها على المسلمين.

ومما يؤكد ضرورة الاهتمام بهذه الدعوة، ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية ما يلي:

أولاً: خطر هذه الدعوة على أصول الاعتقاد عند المسلمين، من الإيمان بالله وكتبه ورسله، واستنزالهم إلى تصويب عقائد الكفار، وتصحيح أديانهم.

ثانياً: مواكبة هذه الدعوة للاتجاه العالمي السائر نحو «العولمة»، التي ترمي إلى القضاء على الخصائص العقدية والتشريعية والاجتماعية وغيرها، للمجتمع الإسلامي، وصهره في بوتقة «العالمية» مع اليهود والنصارى والذين لا يعلمون.

ثالثاً: الدعم الكبير الذي تحظى به هذه الدعوة من قبل أئمة الكفر، وترويجها بمختلف الوسائل الإعلامية، وإدانة ما يضادها، ووصفه بـ«التعصب» و«الأصولية» تمهيداً لسلخ المسلمين عن دينهم الذي ارتضاه الله لهم.

رابعاً: الانفتاح العالمي الهائل الذي حصل في العقود الأخيرة، اجتماعياً وثقافياً وإعلامياً، واختلاط الأعراق والشعوب المختلفة،

وشيوع المعتقدات والعادات المتنوعة عبر القنوات الفضائية، مما أحال العالم الفسيح إلى قرية كونية دانية الأطراف، وسوغ الدعوة إلى التقريب بين الأديان والحضارات.

خامساً: عدم التكافؤ المادي بين الأمم الإسلامية، وكثير من أمم النصرى واليهود، حيث يريزح المسلمون تحت ضغط التخلف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، ويسلبهم الشعور بالاستعلاء والخيرية الضروريين للأخذ بزمام المبادرة، ويجعلهم مسوقين للطرف الأقوى.

سادساً: انزلاق بعض المنتسبين إلى الإسلام، والمحسوبين عليه، إلى مزالق عقدية خطيرة في هذا المجال، حيث فاهوا بما يخالف الكتاب والسنة والإجماع، واجترحوا من الأفعال والممارسات ما ينقض عقيدة الولاء والبراء. ثم نالوا حظاً من التصدير والتفخيم ليغتر بهم العامة، ويتخذوهم أئمة.

سابعاً: عدم وجود دراسة متوسعة - حسب علمي - عنيت بفحص نشاط هذه الدعوة على المستوى العالمي، وتحليلها، ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية.

ثامناً: وهو الأهم، الحاجة الماسة إلى إحياء المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، واهتبال الإمكانيات الإعلامية الكبيرة، والأوضاع الديموقراطية السائدة في الغرب لتبليغ دين الله، وهداية الخلق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

لهذه الأسباب، وقع اختياري، وانصب اهتمامي على هذا الموضوع.

وقد أدركت منذ البداية - إدراكاً مجملاً - سعة الموضوع في

الرقعة الزمانية والمكانية، وتشعب طرقه، وصعوبة لوازمه، من حيث جمع المادة ودراستها ولكنني استخرت الله تعالى، واستعنت به، واستشرت أهل الخبرة من مشايخي الأجلاء وإخواني الكرام، فألفت انشراحاً في نفسي، وهمة في عزمي، وتشجيعاً وحفزاً من مشايخي وإخواني، وما ندم من استخار الخالق، وشاور المخلوق، وثبت في أمره. وإني لأرجو الله أن يكون هذا البحث عملاً مبروراً، وجهداً مشكوراً، خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده، مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشر، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مراحل إعداد هذه الدراسة:

أ - جمع المادة العلمية: قام الباحث بحضور معارض الكتب التالية، لتوفير مادة البحث:

١ - معرض «عمّان» الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (٢٤ - ٢٨ / ١٤١٧هـ).

٢ - معرض الكتاب اللبناني الدائم في بيروت، ومكتبات النصارى المختلفة.

٣ - معرض القاهرة الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (١٤ - ٢٤ / ٩ / ١٤١٧هـ).

٤ - معرض الشارقة الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (٤ - ١٥ / ٧ / ١٤١٨هـ).

بالإضافة إلى الاستفادة من الخدمات الثقافية المميزة التي يقدمها كلٌّ من:

■ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض.

■ مكتبة الملك فهد الوطنية، في الرياض.

وغيرهما من المكتبات الجامعية والعامة في الداخل والخارج، ومحفوظات رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. كما أن حيوية الموضوع والاهتمام العالمي به، وتتابع مؤتمراته ومنتدياته في العديد من المواقع في العالم، أوجب متابعة مستمرة لما تنشره وسائل الإعلام حول هذه القضية، ومراجعة لما سبق نشره.

ب - زيارة المراكز والمؤسسات المعنية بقضية التقريب والحوار بين الأديان، والوقوف عن كثب على أهدافها، ومناشطها، وإنتاجها الفكري، ومشاريعها العملية. وكان منها:

١ - زيارة المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمّان - الأردن - يوم الأربعاء الموافق ٢٧/٥/١٤١٧هـ.

٢ - زيارة مركز الدراسات المسيحية الإسلامية، التابع لجامعة البلمند الأرثوذكسية قرب طرابلس - لبنان - يوم الاثنين الموافق ٨/٤/١٤١٨هـ.

٣ - زيارة معهد الدراسات الإسلامية والمسيحية، التابع لجامعة القديس يوسف في بيروت يوم الاثنين الموافق ٨/٤/١٤١٨هـ.

٤ - زيارة مقر المجمع البابوي للحوار بين الأديان PCID في الفاتيكان، يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/٣/١٤١٩هـ.

٥ - زيارة مقر جمعية سانت إيجيديو، في روما - إيطاليا - يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/٣/١٤١٩هـ.

٦ - زيارة مقر جمعية «كريسلام» CRISLAM في مدريد - إسبانيا - يوم الأربعاء الموافق ٥/٤/١٤١٩هـ.

٧ - زيارة المركز الثقافي في القلعة الحرة، في قرطبة - إسبانيا - مؤسسة روجيه جارودي يوم الجمعة الموافق ٧/٤/١٤١٩هـ.

كما قام الباحث بزيارة بعض دول جنوب شرقي آسيا (ماليزيا،

سنغفورة، أندونيسيا) والوقوف على بعض آثار هذه الدعوة في الأوساط الإسلامية، في صيف عام ١٤٢٠هـ.

ج - إجراء لقاءات ومحاورات مع المعنيين بقضية التقريب والحوار بين الأديان لاستجلاء أبعاد الموضوع وجوانبه التي لا تكشفها الكتابات والشعارات المعلنة، بل تتبدى في ماجريات النقاش. وقد تحاور الباحث مع العديد من المسلمين وغير المسلمين، النصارى خاصة، في هذا الموضوع، ومن أبرزهم:

١ - المونسنيور: ميشيل فيتزجيرالد، أمين المجمع البابوي للحوار بين الأديان في الكنيسة الكاثوليكية يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/٣/١٤١٩هـ، في الفاتيكان.

٢ - الدكتور: ياناري، نائب رئيس جمعية سانت إيجيديو يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/٣/١٤١٩هـ، في روما.

٣ - الدكتور طارق متري، أمين مجلس الكنائس العالمي للعلاقات بين الأديان، يوم الاثنين الموافق ٨/٤/١٤١٨هـ، في بيروت.

٤ - الدكتور رضوان السيد رئيس تحرير مجلة الاجتهاد، المشارك، يومي الجمعة والسبت الموافق ٢٩، ٣٠/٥/١٤١٧هـ، ويوم الجمعة ٥/٤/١٤١٨هـ، في بيروت.

٥ - الدكتور جورج مسُوح نائب مدير جامعة البلمند، ومدير مركز الدراسات الإسلامية والمسيحية يوم الاثنين الموافق ٨/٤/١٤١٨هـ، في البلمند، قرب طرابلس.

٦ - الأب الأسباني إيميليو غاليندو آغيلار، مؤسس جماعة «كريسلام»، يوم الأربعاء ٥/٤/١٤١٩هـ، في مدريد.

بالإضافة إلى عددٍ من الشخصيات العلمية والدعوية في أوروبا وأندونيسيا وماليزيا، ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

د - صياغة البحث: توفر لدى الباحث مادة علمية كثيرة، متعددة الجوانب، متشعبة الأطراف، تحتل مساحة جغرافية واسعة، وتوغل في أعماق التاريخ. وتتفاعل باستمرار في الراهن، وتستشرف المستقبل. وكانت أبرز صعوبات البحث تتمثل في الجوانب التالية:

١ - سعة مجال البحث، فهو لا يختص بحقبة تاريخية معينة، ولا يقتصر على دراسة قضية التقريب بين الأديان في بلد معين، ولا يقف عند حد زمني معين.

٢ - تعدد اللغات التي كتبت بها بعض مراجع البحث، مما حمل الباحث على ترجمة بعض النصوص إلى العربية، بنفسه، كالإنجليزية، وبالاستعانة بالناطقين بها كالإيطالية والاسبانية والإندونيسية.

٣ - كثرة محاولات التقريب في السنوات الأخيرة، وتلاحقها، بما يشق معه حصرها والإحاطة بما يكتب حولها في الصحف والمجلات ودور النشر. فلا يكاد يمر أسبوع أو نحوه، حتى يقع الطرف، أو يطرق الأذن نبأ جديد ذو صلة بالموضوع.

وقد قسمت البحث إلى: تمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وبعض الملاحق التوثيقية والتوضيحية.

فجعلت **التمهيد** متضمناً جملةً من الأصول العقدية والتشريعية التي تضبط العلاقة بين دين الله الإسلام، وسائر الملل والنحل التي تسمى «أدياناً» عبر خمسة مباحث:

فعرفت بدين الإسلام، ثم أتبعته بتعريف الراغبين عنه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكيف حادوا عن ملة إبراهيم، وثلثت ببيان الأحكام العقدية التي يستحقونها في باب أسماء الدين والإيمان، والأحكام العملية في باب الموالاة والمعاداة، وصفة معاملتهم. ثم

كشفت عن موقف أهل الكتاب، الذين يريد دعاة التقريب مقاربتهم، من الإسلام وكتابه ونبيه ﷺ. وأخيراً، ألممت بلمحة تاريخية عن طبيعة العلاقات بين أهل الإسلام وأهل الكتاب عبر القرون الخالية، حتى عصرنا الراهن، فيها عبرة وذكرى لمن هم أن يخرق النواميس الشرعية، والسنن الإلهية.

أما **الباب الأول**: فخصصته لاستجلاء حقيقة التقريب، وتحديد مدلولاته المختلفة، ودرجاته المتفاوتة، وبيان الخطوط العريضة لكل درجة، والتمثيل لها ببعض المحاولات القديمة والحديثة.

ثم تتبعت الأصول التاريخية لنشأة الدعوة إلى التقريب بين الأديان لدى مختلف الفرقاء، من يهودٍ ونصارى ومنتسبين إلى الإسلام في العصور السالفة.

ثم أفضت في الحديث عن حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث، من خلال ما صدر عن المجامع الدينية، والقيادات المرجعية لأهل الكتاب من مختلف طوائفهم الكبرى كالكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، ومجالس النصارى العرب. وما جرت به أقلام بعض المفتونين من الإسلاميين العصرانيين من دعاة التقريب. وحاولت تحليل مفهوم التقريب لدى كل طرف، واستخلاص نتائجه.

ثم ختمت الباب الأول باستنباط بواعث التقريب المختلفة والمتعددة، التي تحمل كل طائفة على السعي في هذا المضمار.

وبعد بيان الجانب النظري لحقيقة التقريب في الماضي والحاضر، ومعرفة بواعثها في الباب الأول، جعلت **الباب الثاني** في بيان المحاولات الفردية والجماعية للتقريب بين الأديان في العصر الحديث. فاخترت في الفصل الأول منه نماذج بارزة جمعت بين التنظير الفكري، والنشاط العملي لترسيخ هذه الدعوة. أما الفصل الثاني فحشدت فيه كل

ما بلغه علمي من أنواع المحاولات الجماعية الصادرة عن هيئات أو جهات دينية أو مدنية في صورة مؤتمرات ثنائية، أو ثلاثية، أو متعددة، حتى تجاوز عددها ثلاثمائة مؤتمر في شتى أصقاع المعمورة. وحاولت إلى جانب التوصيف الإحصائي تحليل بعض المحاولات ودوافعها لدى الأفراد والجهات المختلفة.

أما الباب الثالث: فأفرده للنقد والتقويم. ففي الفصل الأول منه نقدت هذه الدعوة في ضوء العقيدة الإسلامية، واستشهدت بدلالة الواقع الراهن على فسادها ثم كشفت بعض الشبهات التي يتعلل بها الراكضون خلف سراب التقريب.

وفي الفصل الثاني قدمت الأصل الشرعي - ولا أقول البديل - الذي يتعين الرجوع إليه، والعض عليه بالنواجذ، وهو الدعوة بدعاية الإسلام مضموناً وأسلوباً، مهتدياً بنصوص الكتاب والسنة والسيرة النبوية المحفوظة، مستنيراً بعمل سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسانٍ إلى عصرنا الحاضر.

ثم إنني ختمت البحث بخاتمة تتضمن تلخيصاً مركزاً لأهم نتائجه، وجملةً من التوصيات العملية التي تعتمد سلامة المنهج، وتأخذ في حساباتها الواقع الذي آلت إليه الأمة الإسلامية، والمجتمع البشري، متحاشياً أنماط التفكير الغالية، والعبارات الخطابية العاطفية. فالأمة الإسلامية مؤهلة لأن تقوم بدورها الريادي الهادي لجميع الناس، إن هي أخذت بأسباب الخير، وسلكت منهج النبيين.

وقد ذيلت البحث ببعض الملاحق التوثيقية لفتاوى بعض علماء الأمة المعاصرين، حول هذه النازلة، من هيئات وأفراد، ونصوص من خطب تحذر من خطر هذه الدعوة من أكرم منابر الإسلام في الحرمين الشريفين، إضافةً لبعض الملاحق التوضيحية التي وردت الإحالة إليها في ثنايا البحث.

هذا، وقد التزمت - ما وسعني - بقواعد البحث العلمي المقررة، ومعاييره المعتمدة، من:

- ١ - ترقيم الآيات القرآنية، وعزوها إلى مواضعها في كتاب الله.
 - ٢ - تخريج الأحاديث النبوية، والآثار، وبيان درجتها. فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما، اكتفيت بالعزو إليهما. وإن كانت في سواهما نقلت ما وجدت من كلام الأئمة المتقدمين أو المتأخرين في الحكم عليها.
 - ٣ - ترجمة الأعلام، سوى المشهورين، في أول موضع يرد ذكرهم فيه من البحث.
 - ٤ - توثيق المادة العلمية من مصادرها الأصلية - ما أمكن - من كتبٍ ودوريات ونشرات معتمدة.
 - ٥ - التعريف بالفرق والطوائف والمواضع والمصطلحات الغريبة.
 - ٦ - التعليق والاستدراك في الحاشية على بعض المعاني والألفاظ الخاطئة التي لا يعالجها صميم البحث، وترد كثيراً في المنقولات عن اليهود والنصارى وبعض العصريين من المسلمين. فأكتفي بالتنبيه عليها في موضع، عن تكرار ذلك في سائر المواضع.
- كما صنعت بعض الجداول والفهارس الفنية لتسهيل الرجوع والاستفادة من مادة البحث، وهي:
- ١ - جدول يتضمن مسرداً بمؤتمرات التقريب بين الأديان، حسب ترتيب وقوعها الزمني، وتاريخ انعقادها، وأماكنها، وموضوعاتها، والجهات المنظمة لها.
 - ٢ - جدول يتضمن قائمة بالجمعيات والمؤسسات والمراكز المعنية بقضية التقريب - حسب الترتيب الهجائي - ومقارّها. مع الإحالة في الجدولين على مواضع ورودها في غضون البحث.

- ٣ - فهرس بالأحاديث النبوية الشريفة، ومواقع ورودها في البحث.
- ٤ - فهرس بالآثار، ومواقع ورودها في البحث.
- ٥ - فهرس بالأعلام المترجم لهم في الحاشية، ومواقع ورود أسمائهم في البحث.
- ٦ - فهرس بالفرق والطوائف، ومواقع ورودها في البحث.
- ٧ - فهرس بالمراجع، من كتب عربية وأعجمية، ودوريات، ونشرات وخلافه.
- ٨ - فهرس عام بالموضوعات.

وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت إلى إمطة اللثام عن الوجه الكالح لهذه البدعة الخطيرة التي هي من آخر ما تفتقت عنه عقول أهل الكتاب والمشركين لاستزلال المسلمين عن دينهم الحق، واستدراجهم إلى سبيل المجرمين، وفتنتهم عما أنزل الله إليهم، أو بعضه.

كما أرجو أن أكون قد أوقفت الباحثين والمعنيين على حجم المحاولات الضخمة التي يبذلها دعاة التقريب بين الأديان من الغربيين والعصرانيين من بني جلدتنا، عن طريق الكتابات والمؤتمرات والمشاريع العملية، لإرساء هذه الدعوة الكفرية، وإحلالها محل الدعوة الإيمانية إلى توحيد الله تعالى وعبادته، عن طريق الجمعيات والمراكز المختلفة، التي عرّفت بالعشرات منها في هذه الدراسة، وناقشت شبهاتهم، وكشفت عن أهدافهم ومراميهم، تحذيراً للأمة، ونصحاً لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

وإني لمدرّك تماماً أن إيفاء الموضوع حقه، يتطلب توفر عدد كبير من الباحثين عليه لسعة رقعته الجغرافية، وعمقه التاريخي، وتجدد مادته، وحسبي أن أكون رسمت بعض الخطوط العامة، وشرعت السبيل لغيري لاستكمال النقص، فما كان من خيرٍ وصواب فمن الله وحده، وبفضله وتوفيقه، وما كان سوى ذلك فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله أولاً وآخراً.

ولا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير والامتنان لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، التي أتاحت لي الفرصة، وأعانتني على جمع المادة العلمية. وأزجي بالغ الشكر والعرفان بالجميل لشيخ الفاضل، المشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور ناصر بن عبد الله القفاري، حفظه الله، الذي تابع جميع مراحل إعداد الرسالة، وأفادني بتوجيهاته وتصويباته، وغمرني بلطفه وتواضعه، وكريم خلقه، جزاه الله عني خيراً. كما أشكر فضيلة الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد الذي زودني ببعض المعلومات والملاحظات القيمة.

كما أشكر جميع الهيئات والمؤسسات العلمية والثقافية والدعوية التي قدمت لي يد العون والتشجيع، وعلى رأسها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وغيرها، في الداخل والخارج، وكل فاضل، من عالم أو أخ أو أهل، أمدني برأي ثاقب، أو لفت انتباهي إلى كتاب أو خبر، أو قضى لي حاجة، أو دعا لي دعوةً صالحة، أسأله تعالى أن يعظم له الأجر والثوبة، وأن يجعل له سهماً في هذا العمل، يفرح به يوم يلقاه. كما أرجو ممن وقف على هذا الكتاب، ورأى فيه خطأً أو خللاً أو نقصاً، أن ينبهني عليه كتابياً أو هاتفياً، مشكوراً مأجوراً. فإن العبد مظنة الزلل والقصور، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وحتى يمكن تداركه في طبعات لاحقة إن شاء الله.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين، المبعوث إلى الناس أجمعين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه والتابعين.

كتبه/ د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

عنيزة. المملكة العربية السعودية

ص.ب. (٢٤٦) الرمز البريدي (٨١٨٨٨)

هاتف (٠٦٣٦٤٦٩٠٦) جوال (٠٥٥١٣٢٤٦٨)

البريد الإلكتروني qadisa@yahoo.com

التمهيد

ويتضمن خمسة مباحث:

- * المبحث الأول: دين الإسلام.
- * المبحث الثاني: أهل الكتاب.
- * المبحث الثالث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.
- * المبحث الرابع: موقف أهل الكتاب من الإسلام.
- * المبحث الخامس: لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب.

المبحث الأول

دين الإسلام

خلق الله آدم ﷺ بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه وزوجه جنته، وأباحها لهما يأكلان منها رغداً حيث شاءا، ومنعهما من قربان شجرة معينة، فأزلهما الشيطان بوسوسته وإغرائه وفتنته ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ [طه].

ثم أنشأ ذريته من الأرض واستعمرهم فيها، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وجعلهم خلائف فيها، ليلوهم فيما آتاهم من فضله، وما خولهم من نعمه، وينظر كيف يعملون ﴿وَكَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي على دين واحد، وملة واحدة، وشريعة من الحق، فاختلفوا^(١)، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. مكتبة مصطفى البابي الحلبي. مصر. الطبعة الثالثة (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م). (٢/٣٣٤ - ٣٣٧).

فأنبياء الله هم صفوته من خلقه، والواسطة بينه وبين عباده في تبليغ أمره ونهييه، وخبره وموعظته، أنزل عليهم كتبه، وأيدهم بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات التي على مثلها يؤمن البشر، يقيم الله بهم الحجة، ويدحض بهم الشبهة، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٦٥﴾ [النساء].

فمن رحمته بخلقه، وإعذاره إليهم، أنه لم يدع أمة إلا بعث فيها رسولاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿١٦٤﴾ [فاطر].

الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل (الإسلام العام):

ودين الله الذي بعث به أنبياءه من أولهم إلى آخرهم واحد هو «الإسلام»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. ودعوة الأنبياء واحدة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ومفتاح دعوتهم التي يبادئون بها أقوامهم واحد: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]. ومنهجهم واحد: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. فلا يجوز التفريق بين رسل الله، وقد جمعهم الله، ووجد دينهم ودعوتهم: ﴿لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وأكفر سبحانه من فرق بينه وبين رسله، فقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٥٢﴾ [النساء].

وسماهم الله المسلمين، ووصفهم بالإسلام، الذي هو الاستسلام لله والخضوع والانقياد والإذعان؛ فقال عن نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس]، وقال عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة]، وعنه وعن إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران]، ووصف بذلك أنبياء بني إسرائيل قاطبة فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وعن يعقوب وبنيه: ﴿يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة]، وقال عن لوط وأهل بيته: ﴿فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات]، وعن يوسف عليه السلام: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف]، وعن موسى وقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس]، ولهذا قال سحرة فرعون لما آمنوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف]، وكذا فاه بذلك فرعون لما أدركه الغرق لعلمه من موسى أنه سبيل النجاة فقال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس]، ولكن حيث لا ينفعه ذلك. وعن سليمان ومملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل]، وعن الحواريين، أصحاب عيسى عليه السلام: ﴿ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة] حتى الجن تسموا بذلك فقالوا: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَلِيسُطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن].

وبما أمر الله به الأولين من الأنبياء والمرسلين، أمر نبيه محمداً ﷺ فقال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر]، ﴿وَأُمِرْتُ

﴿أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر]، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٢) [النمل]، فامتثل أمر ربه وقال: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٣) [الأنعام].

وبذلك يتبين أن دين الله واحد هو «الإسلام»، ولا دين سواه. ولهذا أرشد الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يعتصم بهذا الأصل العظيم، ويأوي إلى هذا الركن المتين عند مجادلة أهل الكتاب وغيرهم، ويفاصلهم على أساسه فقال: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَكَدُوا وَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠) [آل عمران]، فمن سبقت له من الله الحسنی اغتبط بنعمة الله، وعرف دين الله: ﴿الَّذِينَ آمَنَهُمْ أَلَكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) وَإِذَا يُنَالِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفصل: ٥٢ - ٥٤]، ومن تولى وأعرض، فقد أمر الله عباده أن يقولوا لهم: ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران]. فليس لله دينٌ يعبد به سوى الإسلام، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) [آل عمران].

وإنما حصل التنوع في الشرائع التي شرعها الله لكل أمة على لسان نبيها ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(١). قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢) رحمه الله تعالى: (فدينهم واحد، وهو عبادة الله

(١) صحيح البخاري: البخاري، محمد بن إسماعيل. المكتب الإسلامي. استانبول. طبعة ١٩٧٩ م. (٤/١٤٢)، صحيح مسلم (٤/١٨٣٧).

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، ابن تيمية، ولد في حران ثم انتقل إلى دمشق، فنبغ واشتهر وبرع في كل فن، وأفتى ودرس وهو دون العشرين، وكان قوياً في ذات الله، =

وحده لا شريك له، وهو يعبد في كل وقتٍ بما أمر به في ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت. وتنوع الشرائع في الناسخ والمنسوخ من المشروع، كتنوع الشريعة الواحدة. فكما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ هو دين واحد، مع أنه قد كان في وقتٍ يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة، كما أمر المسلمون بذلك بعد الهجرة ببضعة عشر شهراً، وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة، ويحرم استقبال الصخرة. فالدين واحد وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته. فهكذا شرع الله تعالى لبني إسرائيل السبت، ثم نسخ ذلك وشرع الجمعة، فكان الاجتماع يوم السبت واجباً إذ ذاك ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة وحرم الاجتماع يوم السبت. فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلماً ومن لم يدخل في شريعة محمد ﷺ بعد النسخ لم يكن مسلماً^(١).

وهذا هو المعنى الصحيح الوحيد لوحدة الدين، وما سوى ذاك وسواس الشياطين. وقد ختم الله النبوة بمحمد ﷺ: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ

= شديداً على أهل البدع، ولقي بسبب صدعه في الحق الأذى الكثير، وسجن مراراً بسبب ذلك، فصبر واحتمل حتى لقي ربه وهو معتقل في قلعة دمشق سنة (٧٢٨هـ)، فخرجت دمشق كلها في جنازته. وكان ﷺ يحارب التقليد والبدع، وتعتبر مؤلفاته مرجعاً لمذهب أهل السنة والجماعة، فمن مؤلفاته «منهاج السنة النبوية» و«درء تعارض العقل والنقل» و«الإيمان» وغيرها كثير. وهي غزيرة الفوائد، مكنوزة بالعلم المستند على الكتاب والسنة، وقد جمع فتاويه الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في سبعة وثلاثين مجلداً. راجع الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت - لبنان. الطبعة السادسة ١٩٨٤م. (١/١٤٤)، فوات الوفيات (١/٣٥ - ٤٥)، الدرر الكامنة (١/١٤٤)، البداية والنهاية (١٤/١٣٥)، آداب اللغة (٣/٢٤٣)، النجوم الزاهرة (٩/٢٧١).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/٨٤٨ - ٨٤٩).

وَحَاتَمَ التَّبَعِثِ ﴿[الأحزاب: ٤٠]﴾، وجعل رسالته للناس كافة عربهم وعجمهم: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. فالإسلام العام هو ما بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين من لدن نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والإسلام الخاص هو ما جاء به محمد ﷺ من هدى وبيان، وحلالٍ وحرام ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٨٤]، فنسخ الله به جميع الرسالات والشرائع السابقة، فمن أدركه ولم يدخل في عقده كان من أهل النار، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي هريرة^(١) مرفوعاً: (والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت وهو لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)^(٢). فتلك هي وحدة الدين التي تنتظم الشرائع جميعاً في عقد الإسلام العام، ثم تختمها بما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة وهو الإسلام الخاص. فلا يعبد الله في المشرق بما لا يعبد به في المغرب، بل الدين واحد، كما أن المعبود واحد. فمن جوزَّ أو سوغ «تعدد الأديان» وأنها الآن طرق تؤدي إلى الله فقد افترى على الله الكذب، وقال على الله بغير علم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ولهذا ذهب بعض المحققين المعاصرين، وهو الشيخ محمود

(١) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث. قدم على رسول الله ﷺ، في السنة السابعة من الهجرة، وروى عنه ما يقرب من (٥٣٧٤) حديثاً، وتوفي سنة ٥٩ هـ رضي الله عنه وأرضاه.
الأعلام (٣/٣٠٨)، الإصابة ت (١١٧٩)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٧٠)، حلية الأولياء (١/٣٧٦)، الجواهر المضوية (٢/٤١٨).

(٢) صحيح مسلم: (١/١٣٤).

محمد شاكر^(١) رَحِمَهُ اللهُ، إلى منع إطلاق لفظ «الدين» على ما سوى «الإسلام» فقال: (فصار بيناً بعد هذا أن الله سبحانه لا يرضى لنا أن نسمي شيئاً من الملل، من نصرانية ويهودية وغيرهما «ديناً»، سوى ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وملة أنبيائه جميعاً، وهي «الإسلام» «دين الله» الذي لا يقبل من عباده ديناً سواه، والذي أرسل به رسوله محمداً ﷺ ليبطل الملل كلها، ولا يكون شيءٌ منها يسمى «ديناً» سوى «الإسلام». وإذا فقول المسلم مثلاً: «الأديان السماوية» قول مخالف لعقيدة أهل الإسلام في حقيقة هذه الملل)^(٢). وما قاله رَحِمَهُ اللهُ حقٌ لا مرية فيه بالنظر إلى المدلول الشرعي لكلمة «دين»، وهو ما بعث الله به أنبياءه ورسله، فهو واحدٌ لا يتعدد، وهو «الإسلام». ولكن بالنظر إلى المعنى اللغوي الدال على العادة والشأن ومطلق الطاعة^(٣)، فإن الأمر واسع، فيتناول الدين

(١) ولد في الإسكندرية عام (١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م). تلقى تعليمه الأولي في القاهرة. وفي عام (١٩٢٦م) التحق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بالجامعة المصرية، وأستمر بها إلى السنة الثانية، ثم نشب بينه وبين طه حسين خلاف شديد حول منهج دراسة الشعر الجاهلي أدى إلى تركه الدراسة الجامعية. سافر إلى الحجاز عام (١٣٤٧م - ١٩٢٨م)، وأسس مدرسة جدة السعودية الابتدائية بناءً على طلب من الملك عبد العزيز آل سعود - رَحِمَهُ اللهُ - عاد إلى القاهرة بعد عام واحد واشتغل بالتأليف والكتابة الصحفية، وتحقيق النصوص وإخراج التراث. من مؤلفاته: (المتنبي)، (أباطيل وأسمار)، وحقق ثمانية كتب من كتب التراث، وله قصائد ومقالات متنوعة. نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام (١٩٨١)، وعضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة، وجائزة الملك فيصل، وتوفي في الثالث من ربيع الآخر عام (١٤١٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ. انظر النشرة التعريفية الصادرة عن هيئة جائزة الملك فيصل.

(٢) أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة. الطبعة الثانية. ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م. (٢/ ٥٥٠ - ٥٥١).

(٣) قال الجوهري: (والدينٌ بالكسر: العادة والشأن. قال:

تقول إذا درأت لها وضيئي أهذا دينه أبداً وديني... =

الحق الذي هو الإسلام، وسائر البدع والضلالات والأحوال والتقاليد التي يسير عليها بعض الناس. ولهذا قيد الله تعالى لفظ «الدين» في مواضع من كتابه فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ووصفه بما يخصه فقال: ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، و﴿الدِّينَ الْقَيِّمَ﴾ [التوبة: ٣٦، يوسف: ٤٠، الروم: ٣٠، ٤٣]. و﴿دِينَ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، و﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

كما أضاف سبحانه لفظ «الدين» إلى غيره، فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، وسمى ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب والكفار ديناً فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون]، وعن فرعون وقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦]، وعن اليهود: ﴿وَعَزَّزْتُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران]، وذمَّ ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩، الروم: ٣٢]، وعن أهل الكتاب: ﴿وَلَا يَذْيُبُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩]، وإنما تدينوا بسواه. بل سمي سبحانه ما أحدثه المحرفون من اللعب واللهو ديناً فقال: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوَ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوَ وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١].

فتبين بذلك جواز إطلاق لفظ «الدين» و«الأديان» على ما سوى الإسلام، باعتبار تدينهم بها، كما جاز إطلاق لفظ «الآلهة» على ما يعبد من دون الله، مع أنه «الإله» الواحد الحق، باعتبار تأليههم لها.

= والدين: الطاعة. ودان له، أي أطاعه. قال عمرو بن كلثوم:
وأيام لنا ولهم طوال عصينا المَلِكُ فيها أن نديننا
ومنه الدين؛ والجمع الأديان. يقال: دان بكذا ديانةً، وتدين به، فهو دَيِّنَ ومتدَيِّن. الصحاح: الجوهري، إسماعيل بن حماد. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الثانية (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م). (٥/ ٢١١٨ - ٢١١٩).

وعلى هذا الإطلاق جرى المصنفون من المسلمين قديماً وحديثاً^(١).

أما وصف تلك الأديان - سوى الإسلام - بـ: «السماوية» فوصفٌ باطل، لما يحمله من دلالة باطلة، من كونها نزلت من السماء، والواقع أنها تحريف لما نزل من السماء^(٢). وكذلك التعبير بـ«الأديان الثلاثة» عن الإسلام واليهودية والنصرانية، فإن فيه غصاً من الإسلام، وإيحاءً بأن هذه «الثلاثة» متساوية. قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين^(٣)

(١) من ذلك قول الإمام مالك رحمه الله في كتاب الأفضية: (ولا من يغير دينه من أهل الأديان كلها، إلا الإسلام) الموطأ (٢/٧٣٦). دار إحياء الكتب العربية. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) انظر في هذا أيضاً رسالة بعنوان: (الدين السماوي هو الإسلام) للدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي. ط: دار المجتمع للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

(٣) فضيلة شيخنا محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين، من آل مقبل الوهبي التميمي، أبو عبد الله. ولد في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٤٧هـ في مدينة عنيزة، بالمملكة العربية السعودية. تتلمذ على العالم الرباني المفسر الفقيه، شيخ عنيزة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ)، رحمه الله، فقرأ عليه التوحيد والفقه والتفسير والأصول والنحو. ثم سافر إلى الرياض سنة ١٣٧٢هـ، للدراسة في المعهد العلمي، فتتلمذ على الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٣٣٠ - ١٤٢٠هـ) رحمه الله، وتأثر به في علم الحديث، والشيخ المفسر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ) وغيرهما من الأفاضل. وبعد وفاة شيخه السعدي سنة ١٣٧٦هـ، خلفه في الإمامة والخطابة والتدريس في الجامع الكبير في عنيزة، بالإضافة إلى تدريسه في المعهد العلمي في عنيزة منذ عام ١٣٧٤هـ. ثم انتقل من المعهد إلى التدريس في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم سنة ١٣٩٨هـ إلى قريب وفاته. وكان مواظباً على التدريس والإمامة، وله حضور قوي في مختلف المناسبات، ومشاركات علمية في وسائل الإعلام، والتدريس والإفتاء في المسجد الحرام في شهر رمضان. وأمتاز بحسن التقرير، وتنظيم العرض والتقسيم، وتسهيل =

حفظه الله: (قد يسمع ما بين حين وآخر كلمة «الأديان الثلاثة» حتى يظن السامع أنه لا فرق بين هذه الأديان الثلاثة، كما أنه لا فرق بين المذاهب الأربعة. ولكن هذا خطأ عظيم. إنه لا يمكن أن يحاول التقارب بين اليهود والنصارى والمسلمين، إلا كمن يحاول أن يجمع بين الماء والنار) من خطبة يوم الجمعة «الأولى» الموافق ١٥/١/١٤٢٠هـ.

والإسلام بالمعنى العام الذي جاءت به جميع الرسل متضمنٌ لأصول الإيمان وآثاره، وأمّهات العبادات والشرائع، وإن اختلفت كیفياتها، وأحوال المعاد والجزاء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: (إن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده، في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم. وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصول إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه).

فالأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

= العلم، ودقة الفتيا. فقصده الطلبة من كل مكان حتى بلغوا المئين في حلقاته، وانتشرت كتبه ودروسه المسجلة وفتاواه في أصقاع الأرض. ونال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة ١٤١٤هـ، وعين عضواً في هيئة كبار العلماء سنة ١٤٠٧هـ.

كان وقته عامراً بالإفادة والاستفادة، وقضاء حوائج الناس، وكان ورعاً عابداً صواماً قواماً دؤوباً على الوظائف الدينية لا يكل ولا يمل، حازماً في أموره كلها. كما كان سهلاً يكره التكلف، بسيطاً في ملبسه ومسكنه ومركبه، قصداً في منطقته، يكره التملق والتشدد والمديح. ألف عشرات الكتب في الفقه والتوحيد والمصطلح والأصول والفرائض. توفي رحمته الله بعد مرض عانى منه سبعة أشهر، ليلة الخميس ١٦/١٠/١٤٢١هـ عن أربع وسبعين سنة.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله ويكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب. وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح وموقفه عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل^(١). قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة].

وقال واصفاً حال مؤمني أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [يونس] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران]. وقال ناعياً على الذين تفرقوا منهم: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة].

ثم أكمل الله الدين وأتم النعمة ببعثة نبيه الخاتم، ورسوله إلى الناس كافة محمد بن عبد الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وذلك هو الإسلام الخاص الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وإليه ينصرف المراد عند الإطلاق.



(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، وابنه محمد. الطبعة الأولى - ١٣٩٨ هـ (١٩/٩٥ - ٩٦).

الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ (الإسلام الخاص):

* قال تعالى مبيناً ما عليه رسوله محمد ﷺ وأتباعه من أصول الاعتقاد: ﴿ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

* وعين لهم أركان البر الاعتقادية والعملية فقال: ﴿لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤُوفَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

* وعرف أهل الكتاب بعلامات نبيه الخاتم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

* ولهذا عرفه هرقل - عظيم الروم - حين سأل أبا سفيان، لما بلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام، فكان من جملة ما سأله: ماذا يأمركم؟ فقال أبو سفيان - وكان إذ ذاك على الشرك -: يقول: (اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة)^(١).

* ولما أراد الله تعالى أن يبين معالم دينه، ويرتب لعباده أركانه،

(١) صحيح البخاري: (٥/١).

انتدب أفضل رسول ملكي إلى أفضل رسول بشري، كما في هذا الحديث العظيم الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال لي: يا عمر! أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)^(١).

* وعن عبد الله بن عمر^(٢) رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،

(١) صحيح مسلم: (٣٧/١ - ٣٨). قال ابن رجب في شرحه: (وهو حديث عظيم جداً، يشتمل على شرح الدين كله) جامع العلوم والحكم: (٩٧/١).

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن، ولد بعد المبعث ببسبر، واستُصغر يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة. وهو أحد المكثرين من الصحابة، والعبادة. وكان من أشد الناس اتباعاً للأثر. مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو أول التي تليها. تقريب التهذيب (٤٣٥/١).

وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان^(١).

* وعن عمرو بن عبسة^(٢) رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله! ما الإسلام؟ قال: (أن يسلم قلبك لله ويعتق، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأبي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان. قال: وما الإيمان؟ قال: تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: فأبي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال: تهجر السوء. قال: فأبي الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد. قال: وما الجهاد؟ قال: أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم. قال: فأبي الجهاد أفضل؟ قال: من عُقر جواده، وأهريق دمه. قال رسول الله ﷺ: ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما: حجة مبرورة أو عمرة^(٣).

* وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو^(٤) رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: (أن تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)^(٥).

(١) صحيح البخاري: (٨/١)، صحيح مسلم: (٤٥/١).

(٢) عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد السلمي، أبو نجيح، صحابي مشهور، أسلم قديماً، وهاجر بعد أحد. ثم نزل الشام. تقريب التهذيب (٧٤/٢).

(٣) رواه أحمد. مسند الإمام أحمد بن حنبل: ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني تحقيق: أبو عاصم، حسن بن عباس بن قطب وآخرون. مؤسسة قرطبة - القاهرة، مكتبة الخراز - جدة الطبعة الأولى (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م): (١١٤/٤)، (٣/٥). وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات (٦٤/١).

(٤) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي، صحابي جليل، من الزهاد النساك أسلم قبل أبيه، وشهد مع النبي ﷺ حروبه وغزواته، وكان من المكثرين من الحديث وله ما يقرب من (٧٠٠) حديث توفي سنة ٦٥ هـ.

انظر: الأعلام (١١١/٤)، طبقات ابن سعد (القسم الثاني من الجزء الرابع ٨ - ١٣)، الإصابة رقم (٤٨٣٨)، حلية الأولياء (٢٨٣/١)، صفة الصفوة (٢٧٠/١).

(٥) صحيح البخاري: (٩/١) صحيح مسلم: (٦٥/١).

* وفيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى)^(١).

فتبين من هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التعريف الجلي بدين الإسلام، وأنه متضمنٌ للهدى ودين الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف]. فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح.

فأصول الإيمان ستة:

(١) أعظمها الإيمان بالله تعالى وتوحيده:

• في ربوبيته: فلا خالق سواه، ولا مالك سواه، ولا مدبر سواه. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف]. فمن زعم أن للكون خالقان أو أكثر، أو أن العبد يخلق فعل نفسه، أو سمى أحداً من خلقه - كعيسى عليه السلام - رباً فقد أشرك في ربوبيته.

• في ألوهيته: فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه. كما قال: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة القلبية من محبة أو خوفٍ أو رجاءٍ أو توكل، أو العملية من سجودٍ أو ركوعٍ أو ذبحٍ أو طواف، أو لسانية من دعاءٍ أو ذكرٍ أو تلاوة، أو مالية من زكاةٍ أو صدقةٍ أو نذر، لغير الله فقد أشرك في ألوهيته.

• في أسمائه وصفاته: فله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لا شبه له ولا ندٌّ ولا سمي ولا كفوء له سبحانه، ولا يقاس بخلقه، ولا تضرب له الأمثال. ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي

(١) صحيح البخاري: (١١/١ - ١٢)، صحيح مسلم: (٥١/١ - ٥٣).

أَسْمَاءَهُ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ [الأعراف]. فمن سَمِيَ الله بما لم يسم به نفسه، كتسمية النصارى له أباً، أو وصفه بصفات النقص والعيب ومماثلة المخلوقين كقول اليهود ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأنه استراح بعد خلق السماوات والأرض، سبحانه وتعالى، فقد ألحد في أسمائه وصفاته.

فهذا هو التوحيد الحق، المبني على محبة الله وتعظيمه، المستلزم لإفراده بالعبادة دون ما سواه من ملكٍ مقرب، أو نبي مرسل، أو ولي صالح، أو هوى متبع.

(٢) الإيمان بملائكته الكرام: الذين وصفهم بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْقُونَهُمْ أَلْقَالٌ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [فصلت]، وما صح في السنة المطهرة من أسمائهم وصفاتهم وأعمالهم، ووجوب محبتهم وموالاتهم، خلافاً لليهود الذين عادوا جبريل عليه السلام، والنصارى الذين غلوا فيه واتخذوه إلهاً في عقيدة التثليث الفاجرة.

(٣) الإيمان بكتب الله التي أنزلها على رسله من عنده، مما سماه الله لنا كالقرآن والتوراة والإنجيل والזبور، وما لم يسم لنا نؤمن به على سبيل الإجمال، وتصديق ما صح من أخبارها، والعمل بما لم ينسخ من أحكامها. وقد حفظ الله القرآن من التحريف والتبديل فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر]، ونسخ به الشرائع السابقة فقال بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي حاكماً وأميناً وشاهداً عليه^(١).

(١) انظر: جامع البيان (٦/٢٦٦ - ٢٦٧)، تفسير القرآن العظيم ابن كثير، =

(٤) الإيمان برسُل الله جميعاً، وعدم التفريق بينهم، واعتقاد أنهم بشرٌ تلحقهم خصائص البشرية من المرض والجوع والعطش والموت، لكن اصطفاهم الله واختارهم لتحمل وحيه، وتبليغه للناس، وأنهم أكمل الناس عبوديةً، ليس فيهم شيءٌ من صفات الألوهية البتة. ثم تصديق ما صح من أخبارهم والعمل بشريعة خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

(٥) الإيمان باليوم الآخر: ويشمل الإيمان بكل ما جاء في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ الصحيحة، مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه أو نعيمه والبعث بعد النفخ في الصور، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

(٦) الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وذلك يتضمن الاعتقاد الجازم بعلمه سبحانه بالكائنات، ذواتها وصفاتها، جملة وتفصيلاً، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومشيتته النافذة، وقدرته الشاملة، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وهو خالق كل شيء. والعباد فاعلون حقيقة، مختارون حقيقة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال: ﴿لَمَن شَاءَ مِنكُم أَن يُسْقِمْ ۖ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ ۖ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

وتفاصيل هذه الأركان، والأصول العظام معلومة موجودة في كتب أهل الإسلام. وهي بحمد الله عقائد متينة، لا تفاوت فيها ولا خلل، ولا تناقض ولا اضطراب، موافقةً للفطر السليمة، والعقول المستقيمة. عباراتها بيّنة، ودلالاتها واضحة. يقبلها العامي البسيط، ولا يشبع منها العالم المحيط.

= أبو الفداء، إسماعيل بن عمر. تحقيق: سامي بن محمد السلامة. دار طيبة - الرياض. الطبعة الأولى (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م) (٣/ ١٢٧ - ١٢٨).

ومباني الإسلام العملية خمسة:

(١) الشهادتان: المعبر عنهما باللسان لقصد الاستعلان. فمن أقرَّ بهما صار مسلماً حكماً، ثم لزمته بقية خصال الإسلام. ومن لم يتلفظ بهما لم يدخل في عقد الإسلام. وهما أساس صحة سائر الأعمال وشرط قبولها. فشهادة أن لا إله إلا الله تدل على الإخلاص، كما في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)^(١). وشهادة أن محمداً رسول الله تقتضي كمال المتابعة، لقوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)^(٢)، وفي رواية: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)^(٣). فلا يمكن لأحدٍ كائناً من كان أن يرفع شيئاً أو يضع شيئاً في دين الله، كما صنع اليهود والنصارى في أديانهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فيحلون لهم ما حرم الله عليهم، ويحرمون عليهم ما أحل الله لهم^(٤). فدين الإسلام مبني على الاتباع لا على الابتداع، كما أنه مبني على الإخلاص لا على الشرك.

(٢) إقام الصلاة: وهي خمس صلوات في اليوم والليلة في أوقاتها وهيئاتها الشرعية.

(٣) إيتاء الزكاة المقدرة شرعاً في الأموال الزكوية إلى مستحقيها.

(٤) صوم رمضان من كل عام بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(٥) حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً مرة في العمر.

(١) صحيح مسلم: (٢٢٨٩/٤).

(٢) صحيح البخاري: (١٦٧/٣)، صحيح مسلم: (١٣٤٣/٣).

(٣) صحيح مسلم: (١٣٤٤/٣).

(٤) انظر جامع البيان: (١١٣/١٠ - ١١٥).

فمن أتى بهذه الأركان الخمسة صار مسلماً حقاً واستحق الجنة. ويلتحق بكل واحدٍ من هذه العبادات الواجبة تطوع من جنسها، لمن كان لديه نهمة في العبادة، ورغبة في التزود من العمل الصالح. والعبادات في الإسلام مبنية على اليسر والتخفيف ورفع الحرج، بخلاف ما عليه اليهود من إفراطٍ وتشديد، وما عليه النصارى من تفريط وتساهل.

فالضرورات تبيح المحظورات، والمشقة تجلب التيسير. قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وأما الإحسان فوصفٌ يدل على إتقان العبادة، والنصح فيها، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها كما لو كان العابد يرى معبوده تُجاهه، أو يستشعر رؤيته إياه. قال ابن رجب رحمته الله: (فقوله ﷺ في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه... إلخ» يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي: استحضار قربهِ، وأنه بين يديه كأنه يراه. وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم... ويوجب أيضاً النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها^(١)، وتفاصيل هذه العبادات وأحكامها وآدابها مبثوثة في كتب الفقه ودواوين السنة.

كما تضمنت الشريعة الإسلامية المبنية على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تنظيمًا دقيقاً لأحكام المعاملات والعقود والولايات التي تتناول جميع الجوانب الشخصية والاجتماعية والمالية والسياسية للفرد والأمة. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل]. فليس الإسلام مقتصرًا على النسك الخاص كما هو الحال في النصرانية المحرفة، بل يتناول جميع مجالات الحياة المختلفة لتحقيق العبودية التامة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٢٦).

الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لِيُذْكَرُ بِذَلِكَ أَمْرٌ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ [الأنعام]. فلا فصل بين الدين والدنيا، ولا بين الدنيا والآخرة، وليس ثم إلا حكم الله أو حكم الجاهلية: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ [المائدة].

ومن أصول الإسلام الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال من الصدق والعفاف والصلة والعفو وحسن الجوار والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام.

وفي سبيل تحقيق هذه المقاصد العظام شرع الله لعباده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، وجعل ذلك شارة مميزة لهذه الأمة الإسلامية. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فرسوله ﷺ للناس جميعاً، ورسالته للناس كافة، وأمته تعلم الناس الخير، فليس في الإسلام «شعب مختار» منكفئ على نفسه، ولا «رهبانية» مبتدعة سلبية، بل هو الأمر والنهي والدعوة والتعليم. حتى إذا حيل بين هذه الأمة وتبليغ رسالة ربها، وخشي أن تكون فتنة، فهو الجهاد في سبيل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ أُنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ [الأنفال].

وقد صدق الله وعده، فأظهر دينه على الدين كله بالحجة والبيان، والسيوف والسنان على يد صحابة رسوله الكرام، فلم يكذب ينقض قرنهم حتى كان الإسلام قد بلغ الصين شرقاً وبلاد الغال «فرنسا» غرباً، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

ثم لم يزل حال أهله يعلو ويهبط، بحسب تمسكهم بحبل الله، والتزامهم بشرعه، وفقاً للناموس الرباني المطرد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

المبحث الثاني أهل الكتاب

ورد هذا المصطلح «أهل الكتاب» في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، على سبيل الخبر أو الطلب. وورد مثل هذا العدد بلفظ «الإيتاء» بتصرفاته المختلفة مثل «أوتوا الكتاب»، «آتيناهم الكتاب» ونحوها، وفي أربعة مواضع بلفظ «الميراث» مثل: «أورثوا الكتاب». فضلاً عن المواضع الكثيرة التي يعبر عنهم بأسمائهم الخاصة. ومجموع ذلك يدل على العناية التامة التي أولاها الإسلام لدعوة أهل الكتاب، كيف لا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ [النمل].

فمن هم «أهل الكتاب» الذين يتناولهم هذا اللفظ بأخباره وأحكامه؟

قال ابن جرير^(١) رحمه الله: (يعني تعالى ذكره بقوله: «يا أهل الكتاب»: يا أهل التوراة والإنجيل)^(٢). وقال أيضاً: (عنى بقوله: «يا

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، ولد سنة ٢٢٤هـ في آمل طبرستان، واستوطن بغداد، إمام في التفسير والتاريخ، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق. اهـ. له «جامع البيان في تفسير القرآن»، و«أخبار الرسل والملوك» وغيرها. توفي سنة ٣١٠هـ.

انظر: الأعلام (٦/٦٩)، إرشاد الأريب (٦/٤٢٣)، تذكرة الحفاظ (٢/٣٥١)، الوفيات (١/٤٥٦)، طبقات السبكي (٢/١٣٥)، مفتاح السعادة (١/٢٠٥).
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٣/٣٠٤).

أهل الكتاب»: أهل الكتابين، لأنهما جميعاً من أهل الكتاب. ولم يخصص جل ثناؤه بقوله: «يا أهل الكتاب» بعضاً دون بعض، فليس بأن يكون موجهاً ذلك إلى أنه مقصود به أهل التوراة بأولى منه، بأن يكون موجهاً إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل، ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دون غيرهم من أهل التوراة، وإذ لم يكن أحد الفريقين بذلك بأولى من الآخر، لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر، ولا أثر صحيح، فالواجب أن يكون كل كتابي معنياً به... وأهل الكتاب يعم أهل التوراة وأهل الإنجيل، فكان معلوماً بذلك أنه غني به الفريقان جميعاً^(١).

فأهل الكتاب إذا هم اليهود والنصارى، وهذا أمر واضح متقرر لدى جميع المفسرين ويزيد الأمر وضوحاً إضافة «الكتاب» إلى هاتين الطائفتين خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ [الأنعام]. قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: (فأما الطائفتان اللتان ذكرهما الله، وأخبر أنه إنما أنزل كتابه على نبيه محمد، لثلاث يقول المشركون: لم ينزل علينا كتاب فنتبعه، ولم نُؤْمَرْ، ولم ننه، فليس علينا حجة فيما نأتي ونذر، إذ لم يأت من الله كتاب ولا رسول، وإنما الحجة على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا، فإنهما: اليهود والنصارى. وكذلك قال أهل التأويل)^(٢). ثم روى بسنده عن ابن عباس^(٣)

(١) جامع البيان: (٣/٣٠٢ - ٣٠٣).

(٢) جامع البيان: (٨/٩٣).

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الإمام البحر الحبر، ابن عم رسول الله ﷺ، ولدَ وبنو هاشم في الشعب قبل الهجرة بثلاث، دعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، كان يلقب بحبر هذه الأمة، وقال فيه ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. مات بالطائف سنة ٦٨ هـ رضي الله عنه وأرضاه. الأعلام (٤/٩٥)، الإصابة ت (٤٧٧٢)، صفة الصفوة (١/٣١٤)، حلية الأولياء (١/٣١٤)، ذيل المذيل (٢١).

ومجاهد^(١) وقتادة^(٢) والسدي^(٣) نحوه. وهذه القبليّة المتقررة لدى المشركين بشأن طائفتي أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، هي القبليّة المذكورة في حديث أبي سعيد الخدري^(٤) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لاتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»^(٥).

وإطلاق مصطلح «أهل الكتاب»، وإرادة اليهود والنصارى بذلك خاصة مستفيض في السنة المطهرة. ومن شواهد ذلك:

(١) ما روى البخاري^(٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «مثلكم

(١) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، ولد سنة (٢١هـ) ويعد من كبار التابعين، من الأئمة المفسرين، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس، توفي سنة (١٠٤هـ).

الأعلام (٢٧٨/٥)، صفة الصفوة (١١٧/٢)، ميزان الاعتدال (٩/٣)، حلية الأولياء (٢٧٩/٣)، غاية النهاية (٤١/٢).

(٢) قتادة بن دعام بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت. مات سنة مائة وبضع عشرة سنة. تقريب التهذيب (١٢٣/٢).

(٣) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، أبو محمد الكوفي، صدوق يهيم، ورمي بالتشيع. مات سنة مائة وسبع وعشرين. تقريب التهذيب (٧٢/١).

(٤) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، من الملازمين للنبي ﷺ، توفي سنة ٧٤هـ. الأعلام (٨٧/٣)، تهذيب التهذيب (٤٧٩/٣)، صفة الصفوة (٢٩٩/١)، حلية الأولياء (٣٦٩/١).

(٥) رواه البخاري: (١٥١/٨)، ومسلم: (٢٠٥٤/٤).

(٦) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ صاحب «الجامع الصحيح». ولد عام ١٩٤هـ، في بخارى، وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠هـ في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وله من التصانيف: «التاريخ الكبير»، و«خلق أفعال العباد»، و«الأدب المفرد»، و«جزء =

ومثل أهل الكتابين، كمثّل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من غدوةٍ إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيته من أشياء^(١).

(٢) وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير... الحديث»^(٢).

(٣) وفي مسند الإمام أحمد^(٣) عن زياد بن لبيد^(٤) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا أوان ذهاب العلم، قال شعبة: أو قال: هذا أوان

= القراءة خلف الإمام» وغيرها، وكتابه الصحيح انتقاه من ستمائة ألف حديث يحفظها، وكانت وفاته سنة ٢٥٦هـ.

الأعلام (٣٤/٦)، تذكرة الحفاظ (١٢٢/٢)، تهذيب التهذيب (٤٧/٩)، وفيات الأعيان (٤٥٥/١)، تاريخ بغداد (٤/٢ - ٣٦)، طبقات السبكي (٢/٢).

(١) صحيح البخاري: (٤٩/٣ - ٥٠).

(٢) صحيح مسلم: (١١٥/١).

(٣) أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني، الإمام الحافظ المحدث الفقيه أحد الأئمة الأربعة، ولد سنة ١٦٤هـ ببغداد، وسافر في طلب الحديث. امتحن في فتنه القول بخلق القرآن، فثبت، وأوذى فصبر، وأعز الله به السنة. من مصنفاته: «المسند»، و«فضائل الصحابة»، و«الزهد»، و«الأشربة» وغيرها. توفي سنة ٢٤١هـ. الأعلام (٢٠٣/١)، حلية الأولياء (١٦١/٩)، صفة الصفوة (١٩٠/٢)، البداية والنهاية (٣٢٥/١٠)، تاريخ بغداد (٤١٢/٤).

(٤) زياد بن لبيد بن ثعلبة الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الله، صحابي شهد بدرًا. وكان عاملاً على حضرموت لما مات النبي ﷺ. مات سنة إحدى وأربعين. تقريب التهذيب (٢٧٠/١).

انقطاع العلم. فقلت: وكيف وفيما كتاب الله، نعلمه أبناءنا، ويعلمه أبناءهم أبناءهم؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن لييد! ما كنت أحسبك إلا من أعقل أهل المدينة. أليس اليهود والنصارى فيهم كتاب الله تعالى؟ قال شعبة^(١): أو قال: أليس اليهود والنصارى فيهم التوراة والإنجيل ثم لم ينتفعوا منه بشيء؟ أو قال: أليس اليهود والنصارى أو أهل الكتاب، شعبة يقول ذلك، فيهم كتاب الله وَعَلَى؟^(٢).

(٤) وفي سنن أبي داود^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة. وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة. وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». ثم رواه من حديث معاوية^(٤) بن أبي سفيان بلفظ: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا، فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب، افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي، مولاهم، أبو بسطام الواسطي، ثم البصري، ثقة حافظ متقن. كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث. وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذبح عن السنة. وكان عابداً. مات سنة مائة وستين. تقريب التهذيب (٣٥١/١).

(٢) المسند: (٢١٩/٤). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: (٣٧٧/٢).

(٣) سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، أبو داود، إمام أهل الحديث في زمانه، أصله من سجستان، ورحل رحلة كبيرة في طلب الحديث، وتوفي بالبصرة، من تصانيفه: «السنن»، و«المراسيل»، و«الزهد». وهو من تلاميذ الإمام أحمد، وله عنه «مسائل». توفي سنة ٢٧٥هـ.

الأعلام (١٢٢/٣)، تذكرة الحفاظ (١٥٢/٢)، تهذيب ابن عساكر (٢٤٤/٦)، تاريخ بغداد (٥٥/٩)، وفيات الأعيان (٢١٤/١)، الذريعة (٣١٦/١).

(٤) معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية، الأموي أبو عبد الرحمن، الخليفة، صحابي، أسلم قبل الفتح، وكتب الوحي. ومات في رجب سنة ستين، وقد قارب الثمانين. رضي الله عنه وأرضاه. تقريب التهذيب (٢/٢٥٩).

على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»^(١).

وعند أحمد من حديث معاوية رضي الله عنه، أيضاً، قال: «إن أهل الكتابين... الحديث»^(٢).

فتبين بهذا أن الله سبحانه سمي «اليهود» و«النصارى» «أهل الكتاب»، ولم يسمهم «مسلمين»، وذلك لرغبتهم عن ملة إبراهيم «الإسلام» ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة]. قال ابن جرير رحمته الله: (عنى الله بذلك اليهود والنصارى لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام، لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى ذكره: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ - ثم ساق بسنده عن قتادة -: رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم، يعني الإسلام حنيفاً، كذلك بعث الله نبيه محمداً صلوات الله عليه بملة إبراهيم. - وعن الربيع بن أنس^(٣) مثله -^(٤).

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا بمسلمين، ولا يشملهم وصف الإسلام لمفارقتهم ما كان عليه أنبياءهم، وتحريفهم الكلم عن

(١) سنن أبي داود: أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد. دار الحديث. بيروت. الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ. (٤/٥ - ٦).

(٢) المسند: (١٠٢/٤). وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (٢٠٤) وجمع طرقه وشواهده.

(٣) الربيع بن أنس البكري، أو الحنفي، بصري، نزل خراسان، صدوق له أوهام. رمي بالتشيع. مات سنة مائة وأربعين أو قبلها. تقريب التهذيب (١/٢٤٣).

(٤) جامع البيان: (١/٥٥٨ - ٥٥٩).

مواضعه. وقد زعم بعض المتأخرين، المداهنين لأهل الكتاب، الداعين إلى التقارب معهم، أنهم مؤمنون، وأنه يسعهم - فيما بينهم وبين ربهم - البقاء على دينهم، والعمل بما في أيديهم من كتب، وأنه لا يلزمهم الدخول في الإسلام، والإيمان برسالة محمد ﷺ^(١)، وشبهوا ببضع آيات، وهي:

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة].

• وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧].

• وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

• ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

والجواب عن ذلك يسير - بحمد الله -:

• فأما آية البقرة وما شابهها، فللمفسرين فيها ثلاثة مسالك:

الأول: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]. وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جرير رحمه الله: (كان يرى أن الله جل ثناؤه، كان قد وعد من عمل صالحاً من اليهود والنصارى والصابئين على عمله في الآخرة الجنة، ثم نسخ ذلك بقوله: «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ»^(٢)).

الثاني: أن معنى القيد في قوله: ﴿مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أن:

(١) سيرد ذكر مقالاتهم في مبحث «الإسلاميون العصرانيون» من الباب الأول.

(٢) جامع البيان: (٣٢٣/١).

(إيمان اليهود والنصارى والصابئين، التصديق بمحمد ﷺ وبما جاء به، فمن يؤمن منهم بمحمد، وبما جاء به وباليوم الآخر، ويعمل صالحاً، فلم يبدل ولم يغير حتى توفي على ذلك، فله ثواب عمله وأجره عند ربه)^(١)، واستظهره ابن جرير^(٢).

الثالث: أن الآية تتناول من كان قبل بعثة نبينا محمد ﷺ وحسب. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي^(٣) رحمه الله: (الصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ وأن هذا مضمون أحوالهم... وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس، أنهم كلهم يشملهم الذم. فأراد الباري تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه)^(٤).

ولم ير ابن كثير^(٥) رحمه الله منافاة بين هذه المسالك: (فإن هذا الذي

(١) جامع البيان: (١/٣٢٠).

(٢) جامع البيان: (١/٣٢٤).

(٣) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي: (١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ)، التيمي، مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد. مولده ووفاته في عينة بالقصيم، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها سنة ١٣٥٨هـ. له نحو ثلاثين كتاباً، منها: «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن»، و«طريق الوصول إلى العلم المأمول»، و«توضيح الكافية الشافية لابن القيم» وغيرها. الأعلام (٣/٣٤٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي. المؤسسة السعيدية. الرياض - السعودية، مطابع الدجوي - القاهرة طبعة عام ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م. (١/٩٣).

(٥) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه محدث، ولد سنة (٧٠١هـ) في قرية من أعمال بصرى، ثم انتقل إلى دمشق، ورحل في طلب العلم، من تصانيفه «البداية والنهاية» و«شرح صحيح البخاري» ولم يكمله، وتفسير القرآن العظيم و«جامع المسانيد والسنن» وغيرها، توفي عام ٧٧٤هـ.

قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به. فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل نجاة^(١).

• وأما قوله: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] فتوجيهه على القراءتين في (وليحكم).

(«وَلِيَحْكُمُ» بالنصب على أن اللام لام كي، أي وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ليحكم أهل ملته به في زمانهم. وقرئ: «وَلِيَحْكُمُ» بالجزم، اللام لام الأمر، أي ليؤمنوا بجميع ما فيه وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وُجد^(٢)).

• وأما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلَكُنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَقٍّ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآية [المائدة: ٦٦، ٦٨] فإن المراد بـ: «وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ» وما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ: (ما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقان فتعملوا بذلك كله، وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه، وتقرؤا بأن كل ذلك من عند الله، فلا تكذبوا بشيء منه، ولا تفرقوا بين رسل الله، فتؤمنوا ببعض وتكفروا

= الأعلام (١/٣٢٠)، الدرر الكامنة (١/٣٧٣)، البدر الطالع (١/١٥٣)، (٢٥٨٢)، شذرات الذهب (٦/٢٣١)، آداب اللغة (٣/١٩٣).

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٢٨٥). وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم. تحقيق: د. علي بن حسن ناصر، د. عبد العزيز العسكر، د. حمدان بن محمد الحمدان. دار العاصمة. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ. (٣/١٢١ - ١٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٣/١٢٦)، وانظر: جامع البيان: (٦/٢٦٤ - ٢٦٥).

ببعض، فإن الكفر بواحدٍ من ذلك كفر بجميعه، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، فمن كذب ببعضها فقد كذب بجميعها^(١).

فلم يبق بحمد الله مستمسك للذين يريدون أن يفرقوا دين الله، أو يفرقوا بين رسل الله، ويكونوا شيعاً، ثم ينادي بعضهم بالتقريب بين الأديان. فدين الله واحد، ووحدته وتوحيده باتباع ما جاء به الرسول الخاتم ﷺ.

ويحسن في هذا المقام أن ننبه على ثلاث شُبه تتعلّق بمدلول: «أهل الكتاب».

الشبهة الأولى: أن اليهود والنصارى، أو معظمهم - على الأقل - لا يستحقون اليوم وصف «أهل الكتاب»؛ إذ قد هجروا دينهم وغيروا وبدلوا، وليسوا كأهل الكتاب وقت تنزل القرآن. وناتج هذه المقدمة أنه لا تجري على المنتسبين إلى هاتين الملتين الأحكام العلمية والعملية المتعلقة بأهل الكتاب.

والجواب: أن هذه دعوى باطلة، فإن انحرافهم عن كتاب ربهم وتغييرهم له وتحريفهم الكلم عن مواضعه، سابق لإطلاق هذا الوصف عليهم. فإن الله تعالى الذي أباح للمسلمين ذبائحهم والمحصات من نساءهم، بوصفهم أهل الكتاب في صدر سورة المائدة بقوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة] هو الذي أكفرهم بعدها ببضع آيات بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]، وبقوله في نفس السورة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وحكى عنهم في

(١) جامع البيان: (٦/٣٠٩).

آخرها مقالة الكفر في خطابه لنبيه عيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

وكذلك الحال بالنسبة لليهود، وقد لعنهم الله في هذه السورة بنفسه، وعلى لسان أنبيائه. فقال: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٦٤] وحكى عنهم فيها مقالة السوء والكفر فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وكانت سورة المائدة من آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما إخلالهم اليوم بشرائع دينهم، وهجرهم لأحكام كتبهم، فإنه قديم فيهم، وليس حادثاً، فقد كانوا يتحايلون على أحكام التوراة ووصايا الأنبياء. ومع ذلك استحقوا هذا الاسم، فلا يزول عنهم لمجرد تماديهم في الكفر والفسوق والعصيان.

وجماع القول: أن القوم ما داموا ينتسبون إلى أديانهم، ويظهرون تعظيم أنبيائهم، وبيعهم، وكنائسهم، ويحتفلون بأعيادهم الدينية وغير ذلك من شعائرهم الظاهرة، وتقاليدهم الدينية الخاصة، فهم «أهل الكتاب» الذين عنى الله بكتابه، ورسوله صلى الله عليه وسلم في سنته. فتتعلق بهم أحكام أهل الكتاب العلمية والعملية. ولا يزول هذا الوصف عن جملتهم وآحادهم إلا إذا فارقوا ذلك بإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيكونون من جملة المسلمين، أو تحولوا إلى ملّة من الملل الإلحادية أو الوثنية، سوى اليهودية والنصرانية، فحينئذ تجري عليهم أحكام سائر المشركين والملحدين، وتزول عنهم خاصية «أهل الكتاب».

الشبهة الثانية: تتعلق بالنصارى خاصة. ومفادها: أن النصارى المذكورين في القرآن، المشمولين بوصف «أهل الكتاب»، ليسوا هم

«نصارى اليوم»، بل هم فرقة تاريخية خارجة عن النصرانية الرسمية التي أقرها مجمع نيقية عام ٣٢٥م. وبالتالي فنصارى اليوم غير معنيين بأحكام الكفر والغلو والضلال التي دمج القرآن بها تلك الفرقة، ولا تنسحب عليهم آثارها.

ويروج لهذه الشبهة بعض دعاة التقارب والحوار من النصارى العرب خاصة، وربما تابعهم عليها بعض المنتسبين إلى الإسلام. والحق أنه لا فرق بين النصارى المذمومين في القرآن، ونصارى اليوم البتة مهما تمحل هؤلاء وتحذلقوا بالألفاظ، فالحقائق واحدة، وعقائدهم متطابقة^(١).

الشبهة الثالثة: أن مصطلح «أهل الكتاب»، يشمل المسلمين أيضاً! بناءً على أن الكتاب إذا أطلق في القرآن يقصد به كل كتاب جاء من عند الله. ومراد القائلين بذلك مؤانسة اليهود والنصارى بالاندماج معهم في هذا الوصف تحقيقاً للتقارب، لإقامة جبهة «أهل الكتاب» في وجه الإلحاد^(٢). ولا ريب أنه قول ساقط متهافت شاذ لم يسبق إليه قائله، ولا يغير شيئاً من ثوابت الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

فكما تجب المحافظة على الألفاظ الشرعية، ويحرم العدول عنها إلى مصطلحات حادثة، تجب المحافظة على مدلولاتها التي أرادها الشارع، فلا يُدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها، ما هو منها، بأنواع التعطيل والتحريف.

وحتى تستبين سبيل أهل الكتاب، من يهودٍ ونصارى، وأنها مجافية لسبيل المؤمنين، راغبة عن ملة إبراهيم، نقدم تعريفاً باليهودية والنصرانية من حيث هما ديارتان فقط، دون الاستطراد في الجوانب التاريخية، إلا ما دعت إليه الحاجة، لمقارنتهما بدين الإسلام الذي جاءت به الرسل.

(١) سيرد ذكر مزاعم هؤلاء النصارى ومناقشتها في مبحث «النصارى العرب» في الباب الأول.

(٢) سيرد ذكر هذه الدعوى في مبحث «الإسلاميون العصريون» في الباب الأول.

اليهودية

بعث الله نبيه موسى ﷺ لغايتين:

إحداهما: دعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله وحده، وموعظته وهدايته.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدِّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾﴾ [النازعات]، ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

الثانية: تخلص بني إسرائيل من أذى فرعون وقومه، وقيادتهم وهدايتهم.

﴿فَأْتِيََا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء].

﴿فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَى ﴿٤٧﴾﴾ [طه].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم].

فأما المهمة الأولى، فقد جرى في سبيلها مواقف مشهودة، انتهت بإغراق فرعون وقومه، بعد عنادهم واستكبارهم وجحدهم آيات الله، وقد استيقنتها أنفسهم.

وأما المهمة الثانية: فقد تمت بآية باهرة، ومنة عظيمة على بني إسرائيل حين فرق بهم البحر، فكان كل فرقٍ كالطود العظيم. وتحقق

مراد الله ﷻ في قوله: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥) وَنُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ [القصص].

﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٢٧) [الأعراف].

ولكن هذه الأمة المنة لتوها من نير العبودية والاستذلال لم تفقه الحكمة، ولم تشكر النعمة، ولم تع حقيقة التوحيد التي جاء بها نبيها ﷺ، ففاجأوه بجملة من الاقتراحات الكفرية، والأفعال الشركية، والتمرد على طاعة الله:

• ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

• ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٨) [الأعراف].

• ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ولما قال لهم نبيهم:

﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٦) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٧﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (١٤) [المائدة].

موقف اليهود من التوراة:

تلك حال أسلاف هذه الأمة المغضوب عليها؛ من الكفر بالله، وسوء الأدب معه، وأذية نبيه الذي كتب الله نجاتهم من عدوهم على يديه. ولكن المصيبة الأعظم التي منيت بها هذه الأمة المغضوب عليها، وتجاوز أثرها ذلك الجيل إلى كل يهودي في الأرض - إلا من رحم الله - موقفهم من كتاب الله ووحيه الذي به العصمة والنجاة، والهدى والنور. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَهُودُ وَآمَرُوا قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] ﴿وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] فكان موقف أسلافهم الذين عاينوا الآيات البينات، الرفض والعصيان:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَانُمْ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] فلم يرفعوا بذلك رأساً، ولم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله. وسلك خلفهم مسالك شتى في الحيدة عن هدى الله منها:

• تحريف الكلم عن مواضعه: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]. فوقع التحريف منهم في التأويل، وهو الأكثر، وفي التنزيل بزيادة ألفاظ أو تبديلها بغيرها^(١).

(١) انظر: إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان: ابن القيم، محمد بن أبي بكر. تحقيق وتعليق: محمد عفيفي. المكتب الإسلامي. بيروت - مكتبة الخاني - الرياض. الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م). (٢/ ٤٨٠ - ٤٩٦).

• كتمان ما أنزل الله وإخفاؤه: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة] ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرِاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

• التحايل على شرع الله بوجوه الحيل للتخلص منه: وهم أئمة هذا المسلك الدنيء، ولهم فيه أفعال مشينة ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله يهود حرمت عليهم الشحوم، فجمّلوها، فباعوها - وفي رواية -: وأكلوا أثمانها»^(١)، جمّلوها أي أذابوها.

(١) رواه البخاري: (٤٠/٣)، ورواه مسلم: (٣/١٢٠٧ - ١٢٠٨).

ومن حيلهم المسفّة التي وصفها أحدهم للتحايل على تحريم الحلب يوم السبت، فقال: (رأى الحاخامات الصهاينة أن الحلب الممنوع يصبح مباحاً إذا لم يكن الحليب أيضاً وصيغ باللون الأزرق. وهذا الحلب السبتي الأزرق يخصص لصناعة الجبن حصراً. ويغسل الصباغ الأزرق بالمصل. وابتدع الحاخامون غير الصهاينة حيلة أكثر مكرراً، شاهدت بنفسي إجراءاتها في أحد الكيبوتزات الدينية - أي المستوطنات التي أقاموها في فلسطين - عام ١٩٥٢م؛ اكتشفوا حكماً قديماً يسمح بإفراغ ضروع البقرة يوم السبت بغرض تخفيف معاناة البقر من امتلاء ضروعها، بشرط أن يسيل الحليب على الأرض ويهمل. والآن ما الذي يجري فعلاً؟ صباح السبت يذهب أحد المتدينين في الكيبوتز إلى حظيرة الأبقار، ويضع الدلاء تحت البقرة... ثم يذهب إلى الكنيس ليصلي. فيأتي زميل له معتزماً «بحسن نية» تخفيف معاناة الأبقار، بجعل حليبها يسيل على الأرض. فإذا وجد بالصدفة، دلاء تحت الأبقار، فهل هو ملزم بإزاحتها؟ بالطبع لا. ولذلك يتجاهل الدلاء ويؤدي مهمته الرحيمة ويذهب إلى الكنيس. وختاماً يأتي ثالث من زملائه المتدينين إلى =

وهذا مشابه لما فعله أسلافهم «أصحاب السبت» الذين مسخهم الله قردة وخنازير، لما حرم عليهم الصيد يوم السبت، فاحتالوا على صيد الحيتان يوم السبت، ولم يأكلوها إلا ليلة الأحد^(١). قال تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ نَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿١٢٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٢٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف].

• هجر العمل به: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣].

• الاستعاضة عنه بغيره: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُذْبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].



= حظيرة الأبقار، ويكتشف، مندهشاً، الدلاء المملأى بالحليب، فيضعها في براد، ويلتحق برفاقه في الكنيس. الأمر كله جيد الآن، ولا حاجة لتبديد الأموال لشراء الصباغ الأزرق). التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية وطأة ثلاث آلاف سنة: للكاتب اليهودي: إسرائيل شاحاك ترجمة: صالح علي سوداح. بيسان للنشر والتوزيع بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٥م. (٦٩). وقد ذكر أمثلة عجيبة لتحاييلهم على شرائعهم. انظر أيضاً: (٧٨ - ٧٩).

(١) انظر جامع البيان: (٩٠/٩ - ١٠١).

الكتب المقدسة عند اليهود:

١ - تورا «عزرا»:

قد كان للأحداث التاريخية التي عصفت باليهود من بعد موسى ﷺ، أثر بالغ في ضياع التورا ثم محاولة صياغتها من جديد، ثم استحداث كتب أخرى تزاخمها في المنزل حتى فاقتها. يقول السموأل بن يحيى^(١)، الذي كان من أحبار اليهود ثم اهتدى إلى الإسلام في القرن السادس الهجري: (ذكر السبب في تبديل التورا. علماءهم وأحبارهم يعلمون أن هذه التورا التي بأيديهم، لا يعتقد أحد من علمائهم وأحبارهم، أنها المنزل على موسى البتة؛ لأن موسى صان التورا عن بني إسرائيل، ولم يثبها فيهم، وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد ليوى... وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم، لأن الإمامة وخدمة القرايين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم. ولم يبذل موسى من التورا لبني إسرائيل إلا نصف سورة^(٢)... فأما بقية التورا فدفعتها

(١) كان اسمه ﷺ شموايل بن يهوذا بن أبوان. وكان والده من فاس وأمه من البصرة، وكلاهما من علماء اليهود. وقد اشتغل في صباه بعلوم الآلة والمنطق والرياضيات، ثم قرأ التواريخ ففاده ذلك إلى التفكير في المذاهب والأديان، فقرأ القرآن، فبهرتة فصاحته، ورأى النبي ﷺ مرتين في المنام فأسلم، وحسن إسلامه. وصنّف «إفحام اليهود» توفي ﷺ سنة ٥٧٠هـ. انظر قصته في كتابه المذكور آنفاً: (٧٤ - ٧٥).

(٢) لعل المراد نصف سورة من نسخة التورا المكتوبة، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي دُخَانٍ مُبِينٍ وَرَحِمَهُ رَبُّهُ لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وأما تبليغ الرسالة فقد جرى كاملاً ولا ريب، ولم يكتف شيئا منه عليه السلام، حاشا رسل الله من الكتمان: ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب] قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ =

إلى أولاد هارون، وجعلها فيهم، وصانها عن سواهم. وهؤلاء الأئمة الهارونيون، الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها، قتلهم «بخت نصّر»^(١) على دم واحد، يوم فتح بيت المقدس. ولم يكن حفظ التوراة فرضاً ولا سنة بل كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة.

فلما رأى «عزرا»^(٢) أن القوم قد أحرق هيكلمهم، وزالت دولتهم، وتفرق جمعهم، ورفع كتابهم، جمع من محفوظاته، ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفق منه هذه التوراة التي بأيديهم الآن... فهذه التوراة التي بأيديهم - على الحقيقة - كتاب عزرا، وليس كتاب الله^(٣).

لقد سبق السموأل بن يحيى المغربي الباحثين الغربيين بقرابة تسعة قرون في الإفصاح عن هذه الحقيقة. فقد ظل اليهود والنصارى يعتقدون لقرون طويلة أن موسى هو كاتب التوراة. ولكن هذا الاعتقاد الموروث

= وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٧٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٧٨﴾ [الجن].

(١) بخت نصّر/ أو نبوخذ نصّر: ملك كلداني بابلي، اجتاحت دولة يهوذا، ودمّر أورشليم ونهب الهيكل سنة ٥٨٦ ق.م، وأهلك الكثير من سكانها، واستاق الناجين إلى بابل، فيما عرف بالسبي البابلي. انظر: العهد القديم. سفر الأخبار الثاني (٨٣٠).

(٢) عزرا: كاهن وكاتب يهودي، ظهر في فترة السبي البابلي، عاصر عفو الملك الفارسي «قورش» عن اليهود، وإذنه لهم بالعودة لفلسطين. وكان له دور بارز في تنظيم اليهود، وجمع شملهم، وعزلهم عن باقي الشعوب، وإعادة شريعتهم. انظر: العهد القديم. سفر عزرا (٨٤٧ - ٨٥٣).

(٣) إفحام اليهود، للسموأل بن يحيى المغربي تحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي، طبع ونشر إدارات البحوث العلمية والافتاء. الطبعة الثانية (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) (١٣٥ - ١٤٠).

قد تداعى تحت مطارق النقد الحديث. يقول الدكتور موريس بوكاي^(١):
 (أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تماماً)^(٢)، ثم ذكر بعض الدراسات
 النقدية الجادة التي قام بها المتخصصون، وخلص إلى النتيجة التالية:
 (بهذا إذاً يمتد تحرير نص أسفار موسى الخمسة على ثلاثة قرون بأقل
 تقدير... وبهذا يتضح تكون أسفار موسى الخمسة من أقوالٍ موروثه
 مختلفة، جمعها بشكل يقل أو يزيد حذفاً محزون وضعوا تارةً ما
 جمعوا جنباً إلى جنب، وطوراً غيروا من شكل هذه الروايات بهدف
 إيجاد وحدة مركبة، تاركين للعين أموراً غير معقولة، وأخرى متناثرة،
 كان من شأنها أن قادت المحدثين إلى البحث الموضوعي عن
 المصادر)^(٣)، ويكفي أن تلك الأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام قد
 ختمت بحكاية وفاة موسى نفسه^(٤).

(١) كاتب وطبيب فرنسي معاصر، كان كاثوليكياً، عاش فترة شبابه في المغرب
 إبان الاحتلال الفرنسي. اطلع على القرآن الكريم، وانبهر بما فيه من الآيات
 المتعلقة بالخلق والفلك والظواهر الكونية والإنسانية المطابقة للحقائق العلمية
 الحديثة، فأعتنق الإسلام عام ١٩٧٢م في الرياض، وزار مكة والمدينة،
 وتعلم اللغة العربية. من مؤلفاته بعد إسلامه: (القرآن الكريم والتوراة
 والإنجيل والعلم) و(ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة). انظر
 التعريف به في كتاب، مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا
 القرآنية. د. محمد بن عبد الله السحيم. ج ١ (٣٨٣ - ٤٠٦).

(٢) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف
 الحديثة. د. موريس بوكاي. ترجمة: قسم الترجمة بالدار. مكتبة مدبولي -
 القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٦م. (٣٠).

(٣) المرجع السابق. (٣٣).

(٤) انظر العهد القديم: دار المشرق - بيروت. توزيع: المكتبة الشرقية. جمعيات
 الكتاب المقدس في المشرق - بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٨٩م. (٤١٣ -
 ٤١٤). سفر التثنية: (١/٣٤ - ١٢).

ويقول العالم اليهودي باهليل سلفر في كتابه «موسى والتوراة الأصلية»:

(حتى الوصايا العشر^(١) التي يكاد يجمع العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية، لم تكن بكاملها، وعلى هيئتها الحالية كالتي أتى بها موسى^(٢)).

فإذا كان هذا في «التوراة» التي عليها المعول في الديانة اليهودية، فكيف غيرها مما كتبه الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ وأي سند رباني لليهودية وقد اختلط كتابها، وصبّت فيه روافد متعددة؟.

لقد تزعم «عزرا» حركة الكتابة هذه، ويصفه مؤلف (التوراة: تاريخها وغاياتها) بأنه: (أول الكتبة، ومعه ابتدأت تلك الفئة من المؤلفين الذين «وضعوا» التوراة والشريعة الشفهية، والتي سيطرت لقرون

(١) وردت هذه الوصايا في سفر التثنية (١/٥ - ٢٢). العهد القديم: (٣٦٧ - ٣٦٨). وملخصها:

- لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي.
- لا تصنع لك منحوتاً، أية صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. ولا تسجد لها، ولا تعبدتها، لأنني أنا الرب إلهك إله غيور...
- لا تلفظ اسم الرب إلهك باطلاً...
- احفظ يوم السبت لتقديسه، كما أمرك الرب إلهك... فلا تصنع فيه عملاً...
- أكرم أباك وأمك... لا تقتل - لا تزن - لا تسرق - لا تشهد على قريبك شهادة زور.
- لا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيته ولا حقله ولا خادمه ولا خادمتها ولا ثوره ولا حماره...

(٢) نقلاً من: اليهود تاريخ وعقيدة: (١٤٢).

عديدة على عقول وجميع مقدرات اليهود. وكان للكتبة هؤلاء حزبٌ منظم، هو حزب «الفريسيين». وهم الذين حملوا فيما بعد اسم الحاخاميين، أي معلمو الشريعة. تقول الموسوعة اليهودية أمام كلمة «كتبة»: (هم هيئة من المعلمين، كانت مهمتهم تفسير الشريعة للشعب. وقد ابتدأ تنظيمهم مع عزرا الذي كان رئيسهم. وهؤلاء الكتبة كانوا أول من علم التوراة، وهم واضعو الشريعة الشفهية)^(١).

٢ - العهد القديم:

لقد تتابع هؤلاء الكتبة على الإضافة إلى التوراة، وإلحاق أسفار جديدة حتى تكوّن لديهم ما يسمى بـ«العهد القديم»، وصار يبلغ خمسة أضعاف الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى ﷺ، والتي تؤرخ لبني إسرائيل حتى سنة ٢٤٠٠ ق.م. وتؤلف القسم الأول، المسمى: «أسفار الشريعة» أو «التوراة» وهي: سفر التكوين، والخروج، الأحبار «اللاويين»، العدد، وتثنية الاشتراع. يتلوها أسفار تاريخية تبلغ ستة عشر سفرًا تغطي تاريخ اليهود منذ دخولهم الأرض المقدسة في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد. ثم سبعة أسفار تعرف بكتب الحكمة تضم أشعاراً وأناشيد وأمثالاً. ثم ثمانية عشر سفرًا تعرف بكتب الأنبياء تغطي الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني قبل الميلاد^(٢).

لقد استغرق تدوين «العهد القديم» زمناً طويلاً (يربو على تسعة قرون وبلغات مختلفة، واعتماداً على التراث المنقول شفويًا. وقد

(١) التوراة. تاريخها وغاياتها: ترجمة وتعليق: سهيل ديب. دار النفائس. بيروت. الطبعة الرابعة. (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م). (٤٧). وقد نسبته إلى لاهوتي أمريكي.

(٢) انظر في دراسة هذه المجموعات ونقدها: القرآن والتوراة والإنجيل. موريس بوكاي (٢٠ - ٦٥) تاريخ بني إسرائيل. محمد عزة دروزة.

صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار، بسبب أحداثٍ حدثت، أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحياناً... ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح، كما يرى الكثيرون^(١).

ولا يخفى أن هذه المدة الطويلة، وما شهدته من أحداثٍ جسيمة تعرض لها بنو إسرائيل من داخلهم وخارجهم قد حادت بهم عن نهج النبوة والدين الحق.

يقول السموأل بن يحيى رحمته الله: (إن الدولة إذا انقرضت عن أمة باستيلاء غيرها عليها، وأخذها بلادها، انطمست حقائق سالف أخبارها، واندرس قديم آثارها وتعذر الوقوف عليها... وهذه الطائفة، بلا شك أعظم الطوائف خطأً مما ذكرناه، لأنها من أقدم الأمم عهداً، ولكثرة الأمم التي استولت عليها من الكنعانيين والبابليين والفرس واليونان والنصارى والإسلام.

وما من هذه الأمم إلا من قصدهم أشد القصد، وطلب استئصالهم، وبالغ في إحراق بلادهم، وإخربائها، وإحراق كتبهم^(٢)، إلا

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. (٢٦ - ٢٨).

(٢) ذلك مصداق قضاء الله عليهم بقوله: (وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) (الأعراف: ١٦٧). ومن أشهر الحوادث التي وقعت عليهم في التاريخ:

- تسلط فرعون مصر «شيشنق» عليهم حتى نهب أورشليم في حدود ٩٠٠ ق.م.

- هجوم «سارجون» ملك الآشوريين عليهم، وقضائه على دولة يهوذا، وسبي بعض أهلها سنة ٧٢٢ ق.م.

- هجوم «نبوخذ نصر» ملك البابليين عليهم مرتين سنة ٥٩٨ ق.م و٥٨٦ ق.م وتدمير أورشليم، وإحراق الهيكل، واستياع عشرات الألوف من اليهود أسرى فيما عرف بالسبي البابلي.

المسلمين. فإن الإسلام صادم اليهود تحت ذمة الفرس، ولم يبق لهم مدينة ولا جيش إلا العرب المتهودة بخير.

فأشد على اليهود من جميع هذه الممالك، ما نالهم من ملوكهم العصاة... وغيرهم من الملوك الإسرائيليين، الذين قتلوا الأنبياء، وبالغوا في تطلبهم ليقتلوهم، وعبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنة للأصنام لتعظيمها، وتعليم رسوم عبادتها، وابتنوا لها البيع العظيمة، والهيكل، وعكف على عبادتها الملوك ومعظم بني إسرائيل، وتركوا أحكام التوراة والشرع مدة طويلة، وأعصاراً متصلة. فإذا كان هذا تواتر الآفات على شرعهم من قبل ملوكهم، ومنهم على أنفسهم، فما ظنك بالآفات المتفننة التي تواترت عليهم من استيلاء الأمم فيما بعد، عليهم، وقتل أئمتهم، وإحراق كتبهم، ومنعهم إياهم عن القيام بشعائهم^(١).

٣ - التلمود:

وإلى جانب «العهد القديم» طوّر حاخامات يهود عبر القرون تراثاً دينياً ضخماً، يعدونه الأصل الثاني في ديانتهم، وإن كان في حقيقة الأمر هو محل عنايتهم وحفاوتهم ودرسهم، ذلك هو «التلمود» ويعني بالعبرية «التعليم».

- = - تسلط السلوقيين والبطالسة عليهم في حدود سنة ٣٠٠ ق.م.
- اضطهاد القائد الروماني «تيتوس» إياهم وتدمير أورشليم وحرق الهيكل، واسترقاقهم سنة ٧٠ ق.م.
- تجدد الاضطهاد الروماني على يد تراجان ١١٦ م، وهادريان ١٣١ م وهيرقليدس.
- اضطهاد «يزدجرد» الثاني ملك الفرس إياهم سنة ٤٣٨ م.
انظر: اليهود تاريخ وعقيدة (١٨ - ٢٦).
(١) إفحام اليهود. وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي ﷺ. (١٤٣ - ١٤٥).

ويتكون التلمود، حسب دائرة المعارف اليهودية Jewish Encyclopaedia من جذرين أساسيين:

أحدهما: المشناه: Mishnah وهي مجموع المرويات الشفهية المنسوبة إلى موسى ﷺ التي يزعم الحاخامات أنهم تناقلوها جيلاً بعد جيل.

وقد شرع في تدوينها الحاخام «يوضاض» بعد المسيح بمائة وخمسين عاماً. ثم ضمها مع زيادات ألحقت بها الحاخام يهوذا هاناسي في حدود عام ٢٠٠م. ويحاول اليهودي المستعرب «موسى بن ميمون» تنظير هذه المرويات، بالسنة النبوية لدى المسلمين فيقول: (منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس يهوذا هاناسي لم يتفق أحد من علماء اليهود على أي عقيدة من العقائد التي كانت تدرس علانية، باسم «القانون الشفهي»، بل كان رئيس محكمة كل جيل أو نبيه يضع مذكرة عما سمعه عن سلفه وموجهيه، لينقلها شفهاً إلى شعبه... وهكذا تقدم الزمن حتى أتى حاخامنا المقدس الذي جمع لأول مرة كل ما يتعلق بالسنة والأحكام والقرارات وشرح القانون المروي عن موسى، - معلمنا - المأمور به في كل جيل)^(١).

وقد قام الحاخام يهوذا هاناسي بتنسيق مدونات مائتي عالم يهودي يعرفون باسم «تنائيم»، كتبوها لفترة تمتد من السنة العاشرة للميلاد حتى نهاية القرن الثاني للميلاد. ويضارع مشروع المشناه كتاب «بريثا» Braitha، الذي وضعه الحاخام اليعازر بن يعقوب.

الثاني: جمارا Gemara: وهي شرح لما استغلق فهمه من المشناه مع زيادات وتعليقات، ابتدأها ابنا الحاخام هاناسي، وتابعهم آخرون

(١) عن التلمود: تاريخه وتعاليمه. ظفر الإسلام خان. دار النفائس - بيروت. الطبعة السادسة (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م). (١٢ - ١٣).

في هذه المهمة عرفوا باسم «أمورائيم». ولهذا فإن كلمة جمارا تعني الإكمال.

وتم نوعان من الجمارا: جمارا أورشليم، أو فلسطين، صنف في حدود ٤٠٠م وقيل ٣٢٠م، وجمارا بابل، صنف في حدود ٥٠٠م، نسبة إلى موطن الشراح من الحاخامات. فمن ثم تنوع «التلمود» إلى: تلمود أورشليم وتلمود بابل.

ويزعم اليهود أن أصل التلمود هي «الوصية» المذكورة في سفر الخروج: (وقال الرب لموسى: اصعد إليّ إلى الجبل، وأقم هنا حتى أعطيك لوحى الحجارة والشرعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم) ١٢/٢٤^(١) بحسبان أن لوحى الحجارة هما ما يتضمن الوصايا العشر، والشرعة هي التوراة المكتوبة، والوصية هي المشناه وذلك مصداق قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويصفه السموأل بن يحيى: (وأما التلمود، فهو الكتاب الأكبر، ومبلغه نحو نصف حمل بغل لكثرتة. ولم يكن الفقهاء الذين ألفوه في عصر واحد، وإنما ألفوه في جيل بعد جيل)^(٢). أما الطبقات الحديثة التي ظهرت في هذا القرن ما بين عامي ١٩٣٥ - ١٩٥٢م فقد بلغت خمسة وثلاثين مجلداً^(٣).

(١) العهد القديم: (١٩٤ - ١٩٥)، وجاء في التلمود. تاريخه وتعاليمه: (قد أعطى الله الشريعة على طور سيناء، وهي التوراة والمشناه والجمارا، ولكنه أرسل على يد موسى الكليم التلمود شفهيًا). عن الكنز المرصود في قواعد التلمود: ترجمة كتابي: اليهودي على حسب التلمود د. روهلنج، تاريخ سوريا لسنة ١٨٤٠م. شارل لوران. ترجمة د. يوسف نصر الله. دار القلم - دمشق، دار العلوم - بيروت. طبعة دار القلم الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م). (٥١).

(٢) إفحام اليهود: (١٦٢).

(٣) التوراة تاريخها وغاياتها: (٨٢).

وقد أضفى أحبار السوء من الحاخامات على «التلمود» هالة من القداسة والتبجيل ليعظمه البله من بني إسرائيل، وبالغوا في وصفه وإطرائه وصونه. فمن مآثراتهم:

■ (إن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها، ومن درس المشنا فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها، ومن درس الجمارا فعل أعظم فضيلة.

■ من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت أكثر ممن احتقر أقوال التوراة ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى.

■ إن التوراة أشبه بالماء، والمشنا أشبه بالنيذ، والجمارا أشبه بالنيذ العطري. والإنسان لا يستغني عن الثلاثة كتب المذكورة، كما أنه لا يستغني عن الثلاثة أصناف السالف ذكرها^(١).

تلك نظرة شاملة على مصادر الديانة اليهودية، وكتبها المقدسة لديهم، تكشف بوضوح عن انقطاع السند بين اليهودية وملة إبراهيم، وطروء زيادات خطيرة، وحصول تحريف، وكتمان لما أنزل الله، أنتج ديانة محرفة، لا تستقيم وقانون الإسلام العام في شقيها العقدي والتشريعي على نحو ما سنوضحه في الصفحات التالية:

العقائد اليهودية:

(١) في باب الإيمان بالله:

بالرغم مما بقي في الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، والمعدودة عندهم توراة، من التأكيد على التوحيد، ونبذ الوثنية والشرك، فقد حفل العهد القديم والتلمود بأنواع الكفر والشرك في

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود: (٥٠ - ٥١).

الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، مما تقشعر منه الأبدان، ولا يصدر من أهل إيمان، ومن شواهد ذلك:

□ **فِرْيَة الرُّؤْيَة فِي الدُّنْيَا:** جاء في سفر الخروج: (ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، فرأوا إله إسرائيل، وتحت رجله شبه صنع بلاط سفير أشبه بالسماة نفسها نقاءً. وعلى أعيان بني إسرائيل هؤلاء لم يمد يده، فرأوا الله وأكلوا وشربوا) ٢٤/٩ - ١١^(١). وفي سفر العدد يَرِدُ تَشَفُّعُ من موسى، وهو يناجي الله قائلاً - حسب زعمهم -: (... إنك يا رب، في وسط هذا الشعب الذي تراءيت له، يا رب، وجهاً لوجه، وأن غمامك مقيم فوقهم، وأنتك سائر أمامهم بعمود غمام نهاراً، وبعمود نار ليلاً) ١٤/١٤ - ١٥^(٢). وهذا مما افتروه على الله. فإذا كان موسى ﷺ قد سأل الرُّؤْيَة فلم ينلها في الدنيا، فكيف بهؤلاء الذين شرطوها على موسى لقاء إيمانهم، فأخذتهم الصاعقة. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي فَأَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف]. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة].

□ **فِرْيَة وصفه تعالى - بالندم -:** جاء في سفر التكوين: (فندم الرب على أنه صنع الإنسان على الأرض، وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقت، الإنسان مع البهائم والزحافات وطيور السماء، لأنني ندمت على أنني صنعتهم) ٦/٦ - ٧^(٣).

(١) العهد القديم: (١٩٤).

(٢) العهد القديم: (٣٠٨).

(٣) العهد القديم: (٧٧ - ٧٨).

وفي سفر الخروج: (فعدل الرب عن الإساءة التي قال إنه ينزلها بشعبه) ١٤/٣٢^(١). ويرى السموأل بن يحيى أن المترجم حرف اللفظ، وصوابه: فندم^(٢).

وفي سفر صموئيل الأول: (إني قد ندمت على إقامتي شاول ملكاً) ١١/١٥^(٣) فسبحان العليم الحكيم.

أما التلمود فيغرق كاتبه في الإسفاف والتفريط في جنب الله، فيقول: (يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة، حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل)^(٤). فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم.

□ فِرْيَة وصفه - تعالى - بالتعب: جاء في سفر التكوين: (وانتهى الله في اليوم السابع من عمله الذي عمله، واستراح في اليوم السابع) ٢/٢^(٥). وقد أكذبهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق].

□ فِرْيَة وصفه - تعالى - بالنوم والغفلة: حكى السموأل بن يحيى أن اليهود يقولون في العشر الأول من كل سنة، في صلاتهم دعاءً بشعاً معتدئ فيه: (لِمَ تقول الأمم: أين إلههم؟ انتبه! لِمَ تنام يا رب، استيقظ من رقدتك) ثم علق قائلاً: (وهؤلاء إنما نطقوا بهذه الهذيان والكفريات من شدة الضجر من الذل والعبودية والصغار، وانتظار فرج

(١) العهد القديم: (٢٠٩).

(٢) إفحام اليهود: (١٣٣). ويرى رحمته الله أن متأخريهم هذبوا بعض الألفاظ بما استفادوه من توحيد المسلمين: (١٣٢).

(٣) العهد القديم: (٥٤٩).

(٤) الكنز المرصود: (٥٦).

(٥) العهد القديم: (٧٠).

لا يزداد عنهم إلا بعداً^(١). فسبحان من ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٢) في باب أنبياء الله:

إذا كان القدح وسوء الأدب والجرأة في كتب اليهود قد بلغت جناب الله سبحانه وتعالى، فلا غرو أن تطال أذيتها رسله الكرام، ومصطفيه الأخيار، عليهم صلواته سبحانه. ومن شواهد ذلك:

□ **نوح** عليه السلام: جاء في سفر التكوين: (وابتدأ نوح حارث الأرض يغرس الكرّم، وشرب من الخمر، فسكر، وتكشف في داخل خيمته) ٢٠/٩ - ٢١^(٢). وصدق الله، وكذبت يهود: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء].

□ **إبراهيم** عليه السلام: يصوره سفر التكوين باذلاً عرض زوجته سارة لرؤساء الفراعنة حين قدومه مصر، لتحقيق مطامع دنيوية: (فلما قارب أن يدخل مصر، قال لساراي امرأته: أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني، ويبقونك على قيد الحياة. فقلولي: أنك أختي حتى يُحسن إلي بسببك وتحيا نفسي بفضلك... فأحسن إلى أبرام بسببها، فصار له غنم وبقر وحمير وخدام وخدامات وحمائر وجمال) ١٢/١١ - ١٧ كل هذا وامراته في بيت فرعون^(٣).

(١) إفحام اليهود: (١٣١).

(٢) العهد القديم: (٨٢).

(٣) العهد القديم: (٨٦ - ٨٧). وأصل القصة ثابت في صحيح البخاري: (بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هذا الرجل معه امرأة من أحسن النساء فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري =

فحاشا نبي الله الذي ألقى في النار في ذات الله، أن يتجر بعرضه، وأن يرضى السوء في أهله.

□ إسماعيل عليه السلام: لعل بشارة الملك لهاجر في البرية بتكثير نسل ابنها قد أغاظ كتبة سفر التكوين، فنفتوا فيه من حر غيظهم هذه الجملة: (ويكون حماراً وحشياً بشرياً) ١٦/١٢^(١). وهي عبارة نشاز لا تتفق مع سياق البشارة.

□ لوط عليه السلام وأهل بيته المؤمنون: يقلب كاتب سفر التكوين الحقائق في شأن أهل هذا البيت، فلا يقدر بكلمة واحدة في امرأة لوط الخائنة لزوجها في دينه وضيافته، بل يجعلها مشمولة أصلاً بالنجاة، فيقول عن الملكين حين أمرا لوطاً بالخروج من قرية «سدوم»: (فأمسك الرجلان بيده، وبید امرأته وابنتيه، لشفقة الرب عليه، وأخرجاه، ووضعاه خارج المدينة ١٩/١٥ - ١٦^(٢)). والواقع أنها تبعتهن لما أحست بالخطر. ولهذا لا يكاد يذكر في القرآن إنجاء الله للوط عليه السلام وأهل بيته إلا مقروناً باستثناء امرأته. وبالمقابل فإن سفر

= وغيرك: وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب ليتناولها بيده فأخذ. فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان. فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي، فأوماً بيده: مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر (١١٢/٤). فهذا السياق النبوي المعصوم للقصة، يكشف عن حال إبراهيم عليه السلام في هذه المحنة التي أملت به وزوجه، وأنه فزع إلى الصلاة. ولم يشتغل باستثمار الحمير والجمال مستغلاً حظوة زوجته الجميلة كما يصور سفر التكوين. وانظر فتح الباري: (٢٧٨/٦).

(١) العهد القديم: (٩١).

(٢) العهد القديم: (٩٥).

التكوين يصور لوطاً الذي وصفه الله بقوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ووصف أهل بيته - سوى امرأته - بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات]، بصورة هابطة: (وصعد لوط من صُوعَر، وأقام في الجبل هو وابنتاه معه. لأنه خاف أن يقيم في صوعر. فأقام في مغارة هو وابنتاه. فقالت الكبرى للصغرى: إن أبانا قد شاخ، وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها. تعالي نسقي أبانا خمراً، ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً هذه الليلة، وجاءت الكبرى فضاجعت أباهما، ولم يعلم بنيامها ولا قيامها. فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: ها أنذا قد ضاجعت أمس أبي، فلنسقه خمراً في تلك الليلة أيضاً. وتعالي أنت فضاجعي لنقيم من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغرى فضاجعته، ولم يعلم بنيامها ولا قيامها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما) ٣٠/١٩ - ٣٦^(١). فهذه وقية الذين يفترون على الكذب، ويؤذون أنبياءه، وقد شهد لآل لوط خصومهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِغُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢، والنمل: ٥٦].

□ موسى عليه السلام: لم يسلم من أذاهم مع ما أجرى الله على يديه من إنجائهم من آل فرعون، وقيادتهم وتعليمهم، حتى إنه عاتبهم على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِرْ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]، أي وأنتم تعلمون أنني رسول الله إليكم.

ومن جملة ما سجله سفر الخروج من أذيتهم إياه: (فتذمر الشعب على موسى. وقال: ماذا نشرب؟) ٢٤/١٥^(٢)، (فتذمرت جماعة بني إسرائيل كلها على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل:

(١) العهد القديم: (٩٦).

(٢) العهد القديم: (١٧٩).

ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، حيث كنا نجلس عند قدر اللحم، ونأكل من الطعام شبعنا، في حين أنكما أخرجتمانا إلى هذه البرية لتميتا هذا الجمهور كله بالجوع) ٢/١٦ - ٣^(١)، (فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ماذا أصنع إلى هذا الشعب؟ قليلاً ويرجمني) ٤/١٧^(٢).

وفي سفر العدد: (وتكلم الشعب على الله وعلى موسى، وقالوا: لماذا أصدتتنا من مصر لنموت في البرية؟ فإنه ليس لنا خبز ولا ماء. وقد سئمت نفوسنا هذا الطعام الزهيد) ٥/٢١^(٣).

فلذلك نهى الله هذه الأمة المحمدية عن سلوك سبيل هؤلاء المعتدين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(٤) [الأحزاب].

□ هارون عليه السلام: نسب سفر الخروج إلى هارون عليه السلام الضلوع في صناعة العجل الذهبي، والتهيئة لعبادته، استجابة لطلب مشركي قومه: (ورأى الشعب أن موسى قد تأخر في النزول من الجبل. فاجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا. فإن موسى، ذلك الرجل الذي أصددنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا حلقات الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وبناتكم، وأتوني بها. فنزع كل الشعب حلقات الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها هارون فأخذها وصبها في قالب، وصنعها عجلاً مسبوكة. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصددتك من أرض مصر. فلما رأى هارون ذلك، بنى مذبحاً أمام العجل، ونادى قائلاً: غداً عيدٌ

(١) العهد القديم: (١٧٩ - ١٨٠).

(٢) العهد القديم: (١٨١).

(٣) العهد القديم: (٣٢١).

(٤) انظر في بيان معنى الأذى جامع البيان: (٥٠/٢٢ - ٥٣)، تفسير القرآن العظيم: (٤٨٤/٦ - ٤٨٧).

للرب. فبكروا في الغد، وأصعدوا مُحْرقات، وقربوا ذبائح سَلَامِيَّة، وجلس الشعب يأكل ويشرب، ثم قام يلعب) ٢/٣٢ - ٦(١).

فالحمد لله الذي برأ نبيه في القرآن من بهتان الذين كفروا وظلموا، فقال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ [طه]. وإنما صنعه سلفهم السامري. وقد أشربوا في قلوبهم حب العجل، والشرك بالله تعالى، فلم يزل يعاودهم الحنين إلى عبادة الأوثان، حتى عبدوها في أزمنة لاحقة، كما شهد عليهم سفر القضاة: (وعاد بنو إسرائيل فصنعوا الشر في عيني الرب، وعبدوا البعل والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمّون، وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب، ولم يعبدوه) ١٠/٦(٢).

□ داود عليه السلام: يصمه سفر صموئيل الثاني بوصمة شنيعة، وعمل منحط لا يصدر إلا من أعتى المجرمين، وأدنى الخونة، حيث زعم أنه زنى بزوجة أحد جنوده المجاهدين المخلصين «أوريا»، وتعمد إرساله إلى أخطر جبهات القتال، وحمله كتاباً فيه: (ضعوا أوريا حيث يكون القتال شديداً، وانصرفوا من ورائه، فيضرب ويموت) (٣) ١١/١٥ كل ذلك ليستأثر بها! حاشا نبي الله، وخليفته في الأرض، عن اتباع الهوى، وهو الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص]، ووصف ملكه وحكمه بقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ وَأَعْيَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ [ص] فهل تستقيم هذه الشهادة الصادقة العادلة مع ما تنزل به الشياطين على كل أفاكٍ أثيم للنيل من نبي مبرأ كريم؟!.

فالحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

(١) العهد القديم: (٢٠٨).

(٢) العهد القديم: (٤٨٩ - ٤٩٠).

(٣) العهد القديم: (٤٩٠).

□ عيسى عليه السلام وأمه مريم عليهما السلام: بعث رسولاً إلى بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ١٢٠]، فما صدقوا رسالته، ولا قبلوا بشارته، بل وصموه بأبشع الألقاب، وقذفوا أمه العذراء البتول بأقذع السباب، وسعوا في أذيته وقتله. ﴿وَكُفِّرْهُمْ وَقُولِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هُتَنًا عَظِيمًا﴾ [١٥٦] وَقُولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٦ - ١٥٧]. ومما جاء في تلمودهم: (إن يسوع الناصري موجودٌ في لجّات الجحيم بين الزفت والنار. وأن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا بمباشرة الزنى)^(١)، وجاء وصفه فيه عليه السلام بأنه «ساحر» و«مجنون» و«كافر لا يعرف الله» و«تمثال» و«مرتد» و«تعاليمه كفر»^(٢)، وأنه (ولد يوسف النجار سفاحاً)^(٣).

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

(٣) في باب الإيمان باليوم الآخر:

مع كون الإيمان باليوم الآخر من أسس الإسلام الذي بعث الله به الرسل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وََعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، إلا إن ذكره في العهد القديم نادرٌ جداً، لا يتناسب مع أهميته العقدية في ترتيب الثواب والعقاب على الأعمال والشرائع التي تطفح بها كتبهم الدينية. وربما كان أوضح نصٍ يشير إلى البعث والجزاء والحساب الأخروي ما ورد

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود. المقدمة: (٢٧).

(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود: (١٠٥ - ١٠٦).

(٣) إفحام اليهود: (١٠٣).

في سفر دانيال، وهو من الأسفار التي وضعت في وقت متأخر^(١):
(وكثير من الراقدين في أرض التراب يستيقظون، بعضهم للحياة الأبدية،
وبعضهم للعار والردل الأبدي. ويضيء العقلاء كضيء الجلد، والذين
جعلوا كثيراً من الناس أبراراً كالكوكب أبد الدهور) ١٢/٢ - ٤^(٢).

وقد حدا هذا ببعض الحركات اليهودية الحديثة (الحركة
الإصلاحية) إلى عقد مؤتمر في مدينة «فيلادلفيا» الأمريكية عام ١٨٦٩م،
ثم في مدينة «بيتسبرج» تضمن كلاهما توصية صريحة بـ: (إنكار نظرية
بعث الجسد... مع الاحتفاظ بمبدأ أزلية الروح، ينكر المؤتمر المبدأ
القائل ببعث الأجساد، وبالعذاب بعد الموت)^(٣).

وقد أغرب بعض الكتاب المعاصرين حين زعم أن هذا القدر
الضئيل من الإشارة إلى البعث والحياة الآخرة اقتبسه اليهود من الفرس،
وأنه لا أصل له في ديانتهم^(٤).

والحق أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان الذي
جاءت به رسل الله قاطبة، ولهذا وعظ سحرة فرعون لما آمنوا، فرعون
فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ وَمَنْ
يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ﴾ [طه] وهم حديثو عهد بكفر،

(١) انظر «مدخل» للتعريف بسفر دانيال في العهد القديم: (١٨٥٢)، القرآن
والتوراة والإنجيل والعلم: (٢٨).

(٢) العهد القديم: (١٨٨٥ - ١٨٨٦).

(٣) عن: الملل المعاصرة في الدين اليهودي. د. إسماعيل راجي الفاروقي.
مكتبة هبة - القاهرة. الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م). (٥٥، ٥٦).

(٤) انظر مثلاً: اليهودية أحمد شلبي: (١٩٥)، اليهود تاريخ وعقيدة: (١٦٧)،
قصة العقائد. سليمان مظهر: (٣١٨).

فدل ذلك على أن الإيمان بالبعث من أشهر ما جاء به موسى ﷺ^(١).

أما السبب الحقيقي لندرة ذكر البعث واليوم الآخر في كتبهم الدينية، فلعلمهم بما أعد الله لهم من العقوبة، فهم ينفرون من ذكره، ويطمسونه مواضعه. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقال: ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

الشريعة اليهودية:

كما رغبت اليهودية عن ملة إبراهيم في الإيمان والاعتقاد، رغبت عنها كذلك في الأحكام والشرائع. فإن ملة إبراهيم ﷺ مبنية على رفع الحرج: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) [الحج: ٧٨]، موسومة بموافقة الفطرة: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾^(٣) [البقرة: ١٢٤]. أما الشريعة اليهودية فقد آلت إلى جملة من الأغلال والآصار المضروبة على رقاب اليهود، بعضها عقوبة من الله، بسبب معاصيهم وتفريطهم في جنب الله، وبعضها من وضع أحبارهم وحاخاميهـم.

فأما الصنف الأول، فدل عليه قوله تعالى: ﴿فَيُظَلُّونَ مِنَ الَّذِينَ

(١) قال ابن كثير رحمه الله: (الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون: (٣٠٥/٥)).

(٢) قال ابن جرير رحمه الله: (نصب ملة، بمعنى: وما جعل عليكم في الدين من حرج، بل وسعه عليكم كملة أبيكم) جامع البيان: (٢٠٧/١٧).

(٣) ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بهؤلاء الكلمات خصال الفطرة. والصحيح أن خصال الفطرة من هؤلاء الكلمات. انظر جامع البيان: (١/ ٥٢٤ - ٥٢٨).

هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿١٦١﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١]، وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَعْضِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام]. وقد كان حال بني إسرائيل قبل ذلك على البراءة الأصلية، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقد فتح الله لهم باب الفرج، لو أنهم ولجوه، مرتين؛ حين جاءهم عيسى عليه السلام بالتخفيف ﴿وَلَا حُدَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، ثم حين جاءهم محمد عليه السلام بالمنعوت لهم بجملة أوصاف منها: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأما الصنف الثاني، فمما شددوا به على أنفسهم، في باب الذبائح والأطعمة وغيرها (مما ليس له أصل عن موسى ولا هو في التوراة، وإنما هو من أوضاع الحاخاميم وآرائهم)^(١). ونقتطف جملة من قوانينهم المعقدة التي يسمونها «هالاخاه شوخيطا» أي علم الذبائح: (لا بد من غسل الأطباق والحلل والسكاكين والملاعق مع الصلاة عليها. وهم لا يجيزون أكل اللحم والأسماك معاً، لاعتقادهم أن ذلك يؤدي إلى البرص. كما لا يجيزون الجمع بين اللحم والحليب ومشتقاته. ويحرم طبخ اللحم في السمن أو الزبد، بل يجب أن تطبخ في زيوت نباتية. كما يحرم وضع اللحم في إناء كان قد وضع فيه لبن أو جبن من قبل أو أن تستعمل سكين واحدة في تقطيع اللحوم والجبن وما إليه. ولذلك يتعين على اليهودي الأكل بأوانٍ تخصص للحوم فقط

(١) إغاثة اللهفان: (٢/٤٤٩).

توضع في مكان، وأخرى للألبان ومشتقاتها وتوضع في مكان آخر... ولا يجوز أن يقوم بعملية الذبح إلا رجل دين يسمى «شوحيط» يتقن الذبح بالطريقة الشرعية. فإن لمس الحيوان أو الطير أثناء ذبحها أو قبل أن يصفى دمها غير رجل الدين المسؤول تصبح الذبيحة محرمة... ولا يجوز للذابح أن يذبح إلا بعد حصوله على ترخيص من حاخام... ويجب أن يكون نصل السكين ضعف زور الطائر أو الحيوان المراد ذبحه... ثم يمر بالسكين مرة واحدة وباتجاه واحد على عنق الحيوان وإلا كان الأكل محرماً، وإن ضغط الذابح بالسكين على الزور، كما لو أنه يقطع شيئاً ما أو كمن يضرب بسيفٍ حرمت الذبيحة. وإذا غطى الريش أو الشعر السكين فالذبيحة محرمة^(١).

ومن صور هذا التشديد الذي ابتدعه حاخاماتهم ما حكاه السموأل بن يحيى: (أنهم أمروهم بأن ينفخوا الرئة حتى تمتلئ هواءً، ويتأملوها حتى يخرج الهواء من ثقب منها أم لا؟ فإن خرج منها الهواء حرّموه. وإن كانت بعض أطراف الرئة لاصقة ببعض لم يأكلوه.

وأيضاً فإنهم أمروا الذي قدّ الذبيحة أن يدخل يده في بطن الذبيحة، ويتأمل بأصبعه فإن وجد القلب ملتصقاً إلى الظهر أو أحد الجانبين، ولو كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة، حرّموه ولم يأكلوه، وسموه «طريفاً» ويعنون بذلك أنه نجس^(٢).

ويرجع السموأل بن يحيى الأمر في تشديدهم الإصر على أنفسهم إلى سببين:

(١) الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود: غازي السعدي. دار الجيل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية. عمان - الأردن. الطبعة الأولى ١٩٩٤م. (٦٥ - ٦٦).

(٢) إفحام اليهود: (١٦٦).

أحدهما: (أن الحاخاميم هم الذين شددوا على هذه الطائفة دينهم، وضيقوا عليها المعيشة، والإصر، فقصدوا بذلك مبالغتهم في مضادة مذاهب الأمم حتى لا يختلطوا بهم، فيؤدي اختلاطهم بهم إلى خروجهم من دينهم.

والسبب الثاني في تضيق الإصر عليهم، أن اليهود مبددون في شرق البلاد وغربها. فما من جماعة منهم في بلدة إلا إذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة، يظهر لهم الخشونة في دينه، والمبالغة في التورع والاحتياط. فإن كان من المتفقهة، فهو يشرع في إنكار أشياء عليهم ويوهمهم التنزه عما هم فيه وينسبهم إلى قلة الدين، وينسب ما ينكره عليهم إلى مشائخه وأهل بلده، ويكون في أكثر ذلك الإسناد كاذباً... فأما إن كان القادم، أحد أحبار اليهود وعلمائهم فهنالك ترى العجب من الناموس الذي يعتمده، والسنن التي يحدثها ويلحقها بالفرائض، ولا يقدر أحدهم على الاعتراض عليه، فتراهم مستسلمين إليه، وهو يحتلب درهم ويحتلب - بحيله - درهمهم^(١). فصدق الله العليم بحالهم ومآلهم: ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

(١) إفحام اليهود: (١٧٥، ١٧٧).

النصرانية

بعث الله عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحاً منه، عيسى عليه السلام، إلى بني إسرائيل الذي طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، آية للناس ورحمةً منه، مسبوقاً بالبشارات النبوية والملائكية؛ فقد تقدمه يحيى بن زكريا عليه السلام ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. وقالت الملائكة لأمه مريم بنت عمران: ﴿يَمْرِيءٌ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. ورافق مولده من خوارق العادات، والخروج عن المألوفات؛ بكونه من أم بلا أب، وتكليمه الناس في المهد، ما يوجب أن يهز العقول البليدة، ويلين القلوب القاسية، ويلفت الأنظار والأفكار إلى ما جاء به: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [٢٩] قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ [مريم].

وحين شرع في دعوة بني إسرائيل، أيده الله بروح القدس، فأجرى على يديه الآيات العظام التي لا يعرض عنها إلا مفتون مظموس: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

أما مضمون دعوته ورسالته، فكما قيل للرسول من قبله، عبادة الله وتوحيده:

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [١٤] ﴿الزخرف﴾. وكانت رسالته ﷺ موجهةً إلى بني إسرائيل خاصة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦]، ومن أغراضها التخفيف عليهم: ﴿وَلَا تُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. وقد آتاه الله كتاباً من أعظم كتبه، وهو الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [٤٦] ﴿المائدة﴾. وكانت رسالته ﷺ حلقة وصل بين الرسالات السماوية السابقة واللاحقة: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ ^(١) [الصف: ٦].

ومع ما احتف بحمله ووضعه ومهده من آيات، وما أيدت به رسالته بعد ذلك من معجزات، فإنه بشرٌ خالص البشرية، مخلوقٌ كما خلق آدم ﷺ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٥٩] ﴿آل عمران﴾، وتلحقه صفات البشرية: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنفَ يُؤْفِكُونَ﴾ [٧٥] ﴿المائدة﴾، ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]. وكما كانت ولادته آية، كانت وفاته الأولى آية:

(١) ولهذا قال نبينا ﷺ: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة. قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي) رواه مسلم: (٤/١٨٣٧).

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفُاعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]. ثم إن له جولة أخرى على الأرض قبل موته كما أقسم على ذلك نبينا محمد ﷺ، فيما رواه أبو هريرة: (والذي نفسي بيده! ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)^(١). ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [٣٤] [مريم].

مواقف الناس من عيسى ابن مريم ﷺ ورسالته:

انقسم الناس تجاه عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، عيسى ﷺ، ثلاثة أقسام:

• قسم كفر به، وهم عتاة اليهود، وعادوه وكذبوه، ورموه وأمه بالبهتان العظيم وسعوا في ذمه لدى الحكام الرومان، وراموا صلبه: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَعَقْلُهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [١٥٦] وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَنَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ [النساء: ١٥٦].

• وقسم آمن به وصدقه وناصره ودعا إلى دينه وشريعته، واحتمل الأذى الفظيع في سبيل ذلك، وهم الحواريون ومن تابعهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٥٢] رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

فكانت نتيجة دعوته: ﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ

(١) رواه مسلم: (١/١٣٥ - ١٣٦). ويقع له ﷺ في نزوله هذا أحداث عظام من قتل الدجال واجتماع المؤمنين إليه بعد فتح يأجوج ومأجوج، وحجه وعمرته مما صحت به السنة.

فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿٥٦﴾ [الصف] ﴿٥٧﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ سُبْحَانَكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّيْهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ [آل عمران].

٣ - وقسم غلا فيه، ورفعته فوق منزلته التي أنزله الله إياها، وهي العبودية والرسالة، وبالغ في إطرائه، حتى خرج به من وصف البشرية إلى مرتبة الألوهية - والعياذ بالله - إما انبهاراً بما أجراه الله على يديه من الآيات المعجزات، وإما دسيسة من اليهود الكافرين الحاقدين ليفسدوا دين النصارى، كما وقع من شاول «بولس» وأشياعه من الغلو

(١) للمفسرين في المراد بـ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ قولان:

أحدهما: المؤمنون به حقاً من النصارى، ثم المسلمون من هذه الأمة. قال ابن جرير: (الذين اتبعوك على منهاجك وملتك من الإسلام وفطرتك، فوق الذين جحدوا نبوتك، وخالفوا بسبيلهم جميع أهل الملل فكذبوا بما جئت به، وصدوا عن الإقرار به. فمصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم). جامع البيان (٢٩٢/٣). وقال الشوكاني: (أي اتبعوا ما جئت به. وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله إلهاً. ومنهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى ﷺ ووصفوه بما يستحقه من دون غلو... وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم) فتح القدير (٣٤٥/١).

الثاني: إنهم النصارى من حيث الجملة، فوق اليهود. قال ابن جرير: (وجاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود) جامع البيان (٣٩٣/٣). وقال ابن كثير بعد ذكر تفرق النصارى، وظهور الملك قسطنطين: (وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار عليهم لعائن الله) تفسير القرآن العظيم (٤٨/٢). وللشوكاني في هذا رسالة بعنوان: (وبل الغمامة في تفسير: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾).

كما سيأتي. قال ابن كثير رحمته الله: (إن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته. ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة: وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورد على كل فريق فاستمروا كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة)^(١).

حال النصارى بعد رفع المسيح:

لا ريب أن حواربيي المسيح عليه السلام، ومن تبعهم بإحسان قد ساروا على سنن المرسلين، من توحيد رب العالمين، والعمل بشريعته المبلغة بالإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]. ولكن المصادر الدينية التي تؤرخ لتلك الحقبة المهمة قد صيغت وللأسف وفق اعتقاد ضلال النصارى، السائد اليوم. ومع ذلك فإنها تشير إلى وجود جماعة واحدة من كبار تلاميذ المسيح وأقربائه ملتزمة بالشريعة اليهودية، معظمة للناموس الذي جاء به موسى عليه السلام، ولا تعزل نفسها عن أداء العبادات والصلوات في الهيكل كسائر بني إسرائيل، لكنها تؤمن بالمسيح عليه السلام، وتدعو إلى دينه في أوساط اليهود خاصة دون سائر الأمم، وتلقت في سبيل هذا التميز صنوف الاضطهاد النفسي والبدني من رؤساء الكهنة اليهود.

ومن أقدم المصادر التي تصف حال الحواربيين بعد رفع المسيح سفر «أعمال الرسل»^(٢) وقد جاء فيه: (وكانوا يواظبون على تعليم

(١) تفسير القرآن العظيم: (٤٧/٢).

(٢) يُظن أن كاتب هذا السفر هو «لوقا» صاحب أحد الأناجيل الأربعة. انظر: مدخل إلى أعمال الرسل العهد الجديد: دار المشرق - بيروت. توزيع: المكتبة الشرقية. جمعيات الكتاب المقدس في المشرق - بيروت. الطبعة الثالثة. (٣٧٢).

الرسل، والمشاركة، وكسر الخبز، والصلوات... وكان جميع الذين آمنوا جماعةً واحدة، يجعلون كل شيء مشتركاً بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كل منهم. يلازمون الهيكل كل يوم بقلب واحد... وكان الرب كل يوم يضم إلى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص (٤٢/٢ - ٤٧^(١)).

ويضم ذلك السفر ذكر حكايات وكرامات جرت لـ«الرسل»^(٢)، تشابه آيات عيسى ﷺ من إحياء الموتى، وشفاء المرضى بإذن الله، كما يضم ذكر عظات لبني إسرائيل، على لسان بطرس، أكبر الحواريين، وقد نذت في أحدها الجملة التالية:

(إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إله آبائنا، قد مجّد عبده «يسوع» الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام بيلاطس) ١٣/٣. مما أحوج المُحسّي أن يثبت التعليق التالي: (قد يكون هذا اللقب لقباً طقسياً... يتفرد به سفر أعمال الرسل... ولا شك أنه قديم)^(٣) وتكرر هذا التعبير في هذا السفر، في موضعين آخرين: (على عبدك القدوس يسوع الذي مسحته) ٢٧/٤^(٤)، (ليجري الشفاء والآيات والأعاجيب باسم عبدك القدوس يسوع) ٣٠/٤^(٥)، مما يدل على صفاء العقيدة عند أوائل النصارى، وإن حاول مشركوهم طمسها.

ولعل أول خلافٍ نشأ بين أتباع المسيح ﷺ، ليس حول شخص

(١) العهد الجديد: (٣٨٠).

(٢) مصطلح «الرسل» عند النصارى يعني تلاميذ المسيح الاثني عشر، بعد الاستعاضة عن يهوذا الإسخريوطي، الخائن، بـ«متّى» بطريق القرعة. انظر: أعمال الرسل: (١/٢١ - ٢٦). العهد الجديد: (٣٧٦).

(٣) العهد الجديد: (٣٨١).

(٤) العهد الجديد: (٣٨٥).

(٥) العهد الجديد: (٣٨٥).

المسيح وطبيعته، وإنما حول دعوة الأمم من غير اليهود، والآثار المترتبة على ذلك. فينسب سفر أعمال الرسل إلى بطرس رؤيا أو «جذب»، أولها على مشروعية تعميد الوثنيين، وقبلهم مؤمنين بالمسيح ولو لم يكونوا يهوداً، فاستنكر أصحابه ذلك: (وسمع الرسل والإخوة في اليهودية أن الوثنيين هم أيضاً قبلوا كلمة الله. فلما صعد بطرس إلى أورشليم، أخذ المختونون^(١) يخاصمونهم. قالوا: لقد دخلت إلى أناس قلف وأكلت معهم) ١/١١ - ٣^(٢). وتكرر الموقف مع بعض المؤمنين الفارين إلى الأمصار من اضطهاد اليهود، فكانوا (لا يكلمون أحداً بكلمة الله إلا اليهود... فلما قدموا أنطاكية أخذوا يكلمون اليونانيين أيضاً) ١٩/١١ - ٢٠^(٣). وحين قدمها بولس وبرنابا، ووجها بشغب اليهود قالا بجرأة: (إليكُم أولاً كان يجب أن تُبلِّغ كلمة الله. أما وأنتم ترفضونها، ولا ترون أنفسكم أهلاً للحياة الأبدية، فإننا نتوجه الآن إلى الوثنيين) ٤٦/١٣^(٤). وترتب على هذا التوسع في الدعوة مشكلة تطبيقية في حق المهتدين من الوثنيين: (ونزل أناسٌ من اليهودية، وأخذوا يلقنون الإخوة فيقولون: إذا لم تختتنوا على سنة موسى، لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص. فوقع بينهم وبين بولس وبرنابا خلافٌ وجدال شديد. فعزموا على أن يصعد بولس وبرنابا، وأناس منهم آخرون إلى أورشليم حيث الرسل والشيوخ للنظر في هذا الخلاف) ١/١٥ - ٢^(٥).

وكان أن عقد أول مجمع نصراني لمناقشة وضع المؤمنين من غير

(١) المقصود بهم النصارى الذين يعتقدون لزوم العمل بشريعة موسى، ومنها الختان.

(٢) العهد الجديد: (٤٠٤).

(٣) العهد الجديد: (٤٠٥).

(٤) العهد الجديد: (٤١٢).

(٥) العهد الجديد: (٤١٤ - ٤١٥).

اليهود، تمخض عن القرار التالي: (قد حسن لدى الروح القدس، ولدينا ألا يلقي عليكم من الأعباء سوى ما لا بد منه. وهو اجتناب ذبائح الأصنام والدم والميتة والزنا. فإذا احترستم منها تحسنوا عملاً عافاكم الله) ٢٨/١٥ - ٢٩^(١).

فإن صح النقل فهذه أول بادرة لهجر الشريعة وقعت من النصارى، وما زالت تتفاقم حتى تحللوا من جميع الشرائع، وكان ذلك من أعظم أسباب تفرقهم وعداوتهم وضلالهم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤].

إن مؤرخي النصرانية يمنحون لمن يسمونهم «الرسل» ومن دونهم مزايا تشريعية لا تنبغي إلا لله سبحانه، بدعوى متهافئة، وهي إلهام الروح القدس^(٢)، ومن ثم يسوغون لأسلافهم إحداث تعديلات في صلب الدين. يقول الأرثوذكسي الروسي أفغراف سميرنوف: (لم يكن اليهود المؤمنون بالمسيح يتميزون كثيراً في البداية عن الكنيسة اليهودية العامة. فكانوا يجتمعون للصلاة... في هيكل أورشليم، ويقدمون فيه تقادم، وبالإجمال يتممون كل ناموس الطقوس الموسوي. وبما أنهم نشأوا على احترام الناموس الموسوي، فما استطاعوا بسرعة أن يكونوا لذاتهم فكرة بأن ناموس الطقوس كان ظلاً فقط للخيرات المقبلة، وصار بمجيء المسيح لا لزوم له. وكثيرون منهم كانوا يؤكدون بأنه من الواجب أن يحفظ في المسيحية أيضاً. وتحت تأثير الفكرة اليهودية

(١) العهد الجديد: (٤١٧).

(٢) أبطل الشيخ رحمة الله الهندي هذه الدعوة من سبعة عشر وجهاً. انظر: إظهار الحق: الهندي، رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني. تحقيق: محمد أحمد ملكاوي. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ. (٣٥٣/٢ - ٤٥٢).

القديمة بأن وعود الله بـ«مسيا» ومملكته تختص بالشعب اليهودي وحده، فكثيرون من المؤمنين من اليهود كانوا يؤكدون بأن اليهود وحدهم يجب أن يدخلوا في الكنيسة المسيحية. ولكي يصير قبول الوثنيين في الكنيسة، يجب عليهم أن يصيروا أولاً يهوداً، أعني يقبلوا الختان، ويتمموا كل ناموس الطقوس الموسوي... إن بدء التبشير بين الوثنيين ينسب إلى بدء السنة الأربعين بعد ميلاد المسيح^(١).

ولا شك أن هؤلاء اليهود المؤمنين بالمسيح ﷺ هم أنصاره إلى الله وحواريوه، وإن كانت كتابات ضلال النصارى تبخسهم منزلتهم، وتغمطهم حقهم، وسبقهم، وتحاول إقصاءهم، مع علمهم التام بأنهم كبار تلامذة المسيح وحواريوه، مثل بطرس، وينبزونهم بألقاب التنقص مثل: «أساقفة الختان»، و«المسيحيين اليهود».

ولا شك أيضاً أن هؤلاء هم حفظة الإنجيل الحقيقي المتضمن للهدى والنور والموعظة، فإلام آل أمرهم، ومن ثم أمر دين المسيح؟.

يقول الأمير الحسن بن طلال في تعريفه بالمسيحية - حسب تعبيره -: (ومن بعد يسوع، عمد هؤلاء الأتباع: «العبريون» أي الإسرائيليون، وهم الذين عُرفوا باسم: «النصارى» باليونانية Nazarenoi إلى تنظيم أنفسهم في أورشليم كمذهب خاص بقيادة يعقوب بن يوسف أحد إخوة يسوع الأربعة^(٢))، ثم بقيادة آخرين من أقربائه باعتبارهم من

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية (٢٦). ألفه باللغة الروسية أفغراف سميرنوف. تعريب: الكسندروس جحا. مطرانية الروم الأرثوذكس بحمص - سوريا. طبعة ١٩٦٤م. وقد منحه المجمع المقدم الروسي جائزة، وحبهه ليكون كتاباً مدرسياً لطلبة الصفوف العالية - من المقدمة.

(٢) يزعم النصارى أن عيسى ﷺ هو ابن يوسف النجار، وإخوته هم: يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان. ويسمونهم «إخوة الرب» - تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً - انظر: إنجيل مرقس (٣/٦)، متى (٣٦/١٢) قورنثس الأولى (٥/٩).

نسل داود. فتوجس الرومان خيفةً من أن هؤلاء يطالبون بملك محلي، ولذلك قاموا باضطهادهم بين حين وآخر... وقدامى مؤرخي الكنيسة أسموا يعقوب بن يوسف وخلفاءه «أساقفة الختان»... لا لأنهم كانوا أنفسهم أيضاً مختونين، كونهم إسرائيليين، بل لأن الكنيسة التي قادوها كانت تعتبر نفسها جماعةً دينيةً إسرائيليةً أصوليةً تعتر بتشدها في اتباع شريعة موسى، وفي جعل الختان ملزماً لجميع الذكور من سائر الأمم الذين يختارون اتباع مذهبهم. ولم يختلف مذهب هؤلاء «النصارى» عن اليهودية إلا قليلاً. وأهم اختلاف هو أن «النصارى» اعترفوا بيسوع الناصري مسيح الوعد، في حين أن اليهود لم يقرؤا بذلك. ولهذا أنكر اليهود على «النصارى» مذهبهم، وصنفوهم على أنهم «مينيم»؛ وهي لفظة عبرية تعني «منشقين» أو «هراطقة». أما بالنسبة إلى شريعة موسى فقد كان تمسك «النصارى» بتفاصيلها، بل على نحو أدق، بحذافيرها، كتمسك أكثر اليهود تشدداً. وهم، على التقائهم كأبناء «كنيسة» - باليونانية Ekklesia، أي «جماعة» لها مذهبها الخاص، استمروا يقيمون عباداتهم في كنيس اليهود حتى نحو ٨٠م، عندما منع اليهود جماعات «المينيم» من استعمال كنيسهم. وعندما أخرج الإمبراطور «هدريان» اليهود من أورشليم عام ١٣٥م، كان النصارى من جملة من أخرج من المدينة، على أساس أنهم ليسوا إلا فرقةً من فرق اليهود.

ومع جلاء «النصارى» عن أورشليم في ذلك العام انتهت سلالة «أساقفة الختان» فيها... وبانقضاء هذا المذهب ازدادت الفرص لانتشار المسيحية بدلاً من أن تتضاءل^(١).

(١) المسيحية في العالم العربي: الحسن بن طلال. المعهد الملكي للدراسات الدينية. مكتبة عمان - عمان. الطبعة الأولى ١٩٩٥م. (٢٤).

بولس وإفساد النصرانية:

لقد استحوالت النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام من دين توحيدي إلى نصرانية خداج مشوهة، رسم معالمها خصم عنيد للحواريين، كان يضطهد المؤمنين، من عتاة اليهود، اسمه شاول، فما لبث أن ادعى الإيمان بالمسيح، وتغلغل في خاصة أصحابه، وأحدث في دينه ما أفسده، وخرج به عن ملة إبراهيم، الإسلام، إلى أوضاع شركية، ومقولات كفرية، وتحلل من الشريعة، وشق كلمة القوم، وطرح بينهم بذور الشقاق والافتراق، حتى ساد مذهبه وغلب على أتباع المسيح.

لقد كان ذلك الدعي هو بولس. جاء في سفر أعمال الرسل: (أما شاول فما زال صدره ينفث تهديداً وتقتيلاً لتلاميذ الرب. فقصده إلى عظيم الكهنة وطلب منه رسائل إلى مجامع دمشق. حتى إذا وجد أناساً على هذه الطريقة رجالاً ونساءً ساقهم موثقين إلى أورشليم. وبينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نورٌ من السماء قد سطع حوله فسقط إلى الأرض، وسمع صوتاً يقول له: شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا رب؟. قال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. ولكن قم فادخل المدينة، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل) ١/٩ - ٦، وتمضي الأسطورة لتصنع منه قديساً ممتلاً من الروح القدس - على حد تعبيرهم -^(١) ويبيدي نشاطاً ملحوظاً، وحماساً وقاداً في نشر معتقده بين أبناء الأمم، وتنسب إليه خوارق وتضحيات، ويطوف مدائن فلسطين من أورشليم إلى قيصرية فطرطوس فأنطاكية فقبرص. ثم يمتد إلى مدن آسيا الصغرى واليونان ومالطة حتى بلغ روما في رحلاتٍ متتابعة، ونشاط دائم فرض له مكانةً ومنزلةً في الجماعة الناشئة.

لقد كان واضحاً منذ البداية أن بولس ينتهج خطأً مخالفاً لخط

(١) العهد الجديد: (٣٩٦ - ٣٩٧).

الحواريين ويتكلم بلغة مشوبة بمعتقدات وأفكار غريبة عن الهدى النبوي للمسيح ﷺ، كما يقر بذلك المعجبون به من نصارى اليوم. يقول جون لوريمر، أستاذ تاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة «بروتستانتى»: (يؤخذ من بعض الإشارات أنه كان يمزج في تعاليمه المسيحية بعضاً من الحكمة الوثنية، وربما نوعاً من الغنوسية^(١)، أو بعض الفلسفات اليونانية)^(٢).

وسواءً كان «شاول» يهودياً حاقداً تظاهر بالنصرانية ليفسدها، أم كان «بولس» متنصراً متحمساً ذا مواهب شخصية فذة، لم يستطع أن يتخلص من آثار سابقة ولم يفقه دعوة المسيح وغاياتها، أياً كان الأمر، فقد أحدث شرخاً عظيماً في مسيرة النصرانية، ونقلها نقلةً واسعة من ديانة توحيدية إصلاحية موجهة إلى بني إسرائيل خاصة، إلى ديانة أمشاج صبت فيها ثقافات شتى، في محاولته الرامية لاستيعاب الأمم الأخرى، عبر صياغات عقدية دخيلة، بلغة تفهمها الأمم الوثنية.

وكان بذكائه وأناته يداري تلاميذ المسيح ﷺ، ويحرص على

(١) الغنوصية Gnosticism والغنوسية أيضاً، أو الغنوسطية، فلسفة صوفية. واسم علم على المذاهب الباطنية. غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، وبالوجد لا بالاستدلال. فهي المعرفة بالله التي يتناقلها المريدون سرّاً... وتقول بالهين: أحدهما كبير، خير، مفارق لا يدركه العقل، ولا يحيط به العلم... وروح الشر أو إلهه الملقب أركون، ومنه خرج العلم السفلي... ولقد ظهر الغنوص أول ما ظهر في الأديان الفارسية... وعرفت اليهودية الغنوصية، وتجلت فيما عرف عند اليهود باسم «القبالة». وكانت القبالة أكبر غنوص عرفه تاريخ الأديان... والمسيحية كما طرحها بولس الرسول ديناً غنوصياً. واقتصر الغنوص فيها على المسيح وحده. الموسوعة الفلسفية (٢٩٦ - ٢٩٧).

(٢) تاريخ الكنيسة: جون لوريمر. ترجمة فهم عزيز. دار الثقافة. القاهرة. طبعة ١٩٨٢م. (١/٦٥).

إظهار المرجعية لكنيسة أورشليم، حيث كبار التلاميذ «الرسل» والشيوخ، لينال الشرعية المطلوبة لمشاريعه الأمامية الطموحة، حتى استطاع بقوة بيانه أن ينتزع قراراً من مجمع أورشليم بإعفاء الوثنيين المهتدين من بعض أحكام الشريعة كما تقدم، في حين أنه كان يطوي البساط من تحت النصارى الحقيقيين. وقد بلغ من مداراته لهم أن ختن تلميذه «طيموتاوس» ذا الأب اليوناني والأم اليهودية^(١).

ومع ذلك تحوّل النصارى الخلّص السائرين على درب المسيح أمام التيار البولسي المتنامي إلى مجرد فرقة صغيرة صنفتم فيما بعد ضمن الهراطقة، بعد أن وقفت موقفاً حازماً واضحاً من تجاوزات بولس وتلاميذه.

ويتابع أفغراف سميرنوف وصف مآل هذه الفرقة الأم، فيقول: (في بادئ الأمر لم يكن لهذه العقيدة صفة هرطقة، لأن جميع المسيحيين من اليهود الموجودين في فلسطين كانوا يتممون حسب العادة المرعية ناموس موسى ويختتنون. ولكن في بدء العصر الثاني استقل حزب الغيورين على ناموس موسى كهراطقة. وفي الثلاثين سنة من ذاك العصر بعد خراب أورشليم عندما لم يعد من الممكن المحافظة على ناموس موسى بحذافيره، فقسم المسيحيين من اليهود أعرض عن إتمامه بالكلية، وانضم إلى المسيحيين الذين من الوثنيين وألفوا كنيسة في المدينة التي بنيت مكان أورشليم - إيليا كبيتولينا - ووافقوا على انتخاب أسقف ليس من ذوي الختان).

أما حزب المسيحيين من اليهود المدافع عن إتمام الناموس الموسوي، فقد انفصل بحزم عن الكنيسة، وألف جمعية منفصلة هرطوقية تماماً. وانشق هذا الحزب إلى قسمين: الغيرون المتعصبون

(١) انظر: أعمال الرسل: (٣/١٦) العهد الجديد: (٤١٨).

للاموس، والمعتدلون^(١). فالقسم الأول معروف باسم: يفيونيين^(٢)، والثاني باسم: ناصريين^(٣). فالناصريون لم يتراجعوا عن جوهر التعليم الكنسي العام، معترفين بيسوع المسيح مسياً^(٤) وإلهاً، وموافقين على ولادته الخارقة الطبيعة، وغير ذلك ولكن مع هذا يعدون من الواجب على المسيحيين من اليهود المحافظة على ناموس موسى، ولم يعطوا للناموس مثل هذه الأهمية لأجل المسيحيين من الوثنيين. ويعترفون بالرسول «بولس» من أجل المسيحيين من الوثنيين. وقد نظرت الكنيسة بتساهل إلى هذا الحزب من المتهودين غير حاسبة إياهم «هرطقة» بالمعنى الخاص. وشيعة الناصريين بقيت موجودة بعدد قليل حتى العصر الرابع.

وعكس ذلك شيعة الأفيونيين الذين اتخذوا هذا الاسم من الكلمة العبرانية أفيون ومعناه «فقير». هؤلاء أوجبوا إتمام ناموس موسى على جميع المسيحيين، معتبرين لهذا السبب الرسول بولس، الذي ناهض الناموس، مرتداً عن الإيمان. والديانة اليهودية بموجب مفهومهم، لها

(١) هكذا في الأصل، ومقتضى اللغة: (الغيورين المتعصبين للناموس، والمعتدلين).

(٢) ويقال: الإيونيين. وهو الأشهر في الكتابات الحديثة.

(٣) ناصري: لقب كان يطلق على المسيح نفسه، نسبة إلى الناصرة. وكان يوصف به أتباعه كما في القرآن. ونصارى اليوم يتصلون منه، ويقصرون استعماله على المتهودين منهم. وقد تضمن سفر أعمال الرسل ٥/٢٤ إطلاقه عليهم، حيث وصف بولس أثناء محاكمته لدى الحاكم الروماني فيلكس بأنه (أحد أئمة شيعة النصارى) وعلق المحشي بقوله: (هذه هي المرة الوحيدة التي يسمى فيها المسيحيون «نصارى» على مثال يسوع. العهد الجديد: (٤٤٢).

(٤) (مسياً، أو مשיح (Messiah, Messie) هو المسيح الذي أنبأ العهد القديم بمجيئه لتحرير البشر من عبودية الخطيئة، وإقامة ملكوت الله في الأرض) العهد القديم. مصطلحات لغوية (٢٨).

أهمية عظيمة كالسابق في أمر خلاص البشر حتى بعد مجيء المسيح المخلص. وهكذا صارت الديانة المسيحية محدودة مع أن غاياتها أن تشمل جميع العالم. والأفيونيون لم يعتبروها ديانة جديدة، بل امتداداً للديانة اليهودية ذاتها. ومن هنا كان تعليمهم عن المسيح المخلص هو غير الذي تمسكت وتتمسك به الكنيسة المسيحية الحقيقية. لقد اعتبروه «مسيا» لكن ليس الله الفادي، بل نبياً عظيماً فقط يشبه موسى جاء ليكرز بمجيء مملكته التي يمكن أن يدخلها اليهود فقط. وكل مهمته انحصرت حسب مفهومهم بتفسير الناموس وإكماله بإعطاء وصايا جديدة. وقد أنكروا على يسوع المسيح استحقاق الألوهية معتبرين إياه إنساناً عادياً، ابن يوسف ومريم، ونال قوة إلهية واستحقاق مسيا في المعمودية فقط. وعلى هذا لم تكن عند الأفينيين العقيدة المسيحية عن فداء البشرية، بواسطة الرب يسوع المسيح من الخطيئة واللعنة والموت، وموت المسيح المخلص ليس له عندهم أهمية فدائية...^(١).

ويتضح من هذا السياق أن الأفينيين من جملة النصاري الذين أثنى عليهم القرآن الكريم، في حين ذمَّ غيرهم، وأن عقائدهم كما دَوَّنَها أفغراف سميرنوف، وهو مخالف لهم، هي عين ما يعتقده المسلمون من أمة محمد ﷺ في المسيح، مع التحفظ على نسبة المسيح إلى يوسف النجار، وقد يكون مخالفوهم أرادوا أن يظهروا إلى أي مدى يرفض الأفينيين فكرة تأليه المسيح فألصقوا بهم إنكار الولادة الخارقة من أم بلا أب، وهم من ذلك براء.

لقد كان هؤلاء هم المدافعين عن الدين الصحيح أمام التيار البولسي لتبديل دين المسيح. وقد صمدوا ما شاء الله، ولكن الله غالب على أمره. يقول: جون لوريمر: (لا نعرف من العهد الجديد طول

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٨٥ - ٨٧).

المدة التي استمرت فيها قضية التهوديين مشتعلة داخل الكنيسة ولكن ما نعرفه هو أن الرسول بولس هو الذي حارب واستطاع أن يعيد التوازن إلى الكنيسة كمؤسسة لا يحتاج من يدخل فيها وينضم إليها سوى الإيمان بالمسيح يسوع. ومما ساعد على أفول هذه الحركة اليهودية أفول نجم الكنيسة في أورشليم، وارتفاع نجم كنائس الأمم، وازديادها في العدد والأهمية والتأثير^(١).

وهكذا طويت صفحة هذه الفئة المؤمنة من أنصار المسيح الذين كانوا على ملة إبراهيم، وساد أنصار بولس. فحين جاء الإسلام كان ثمة بقايا من هؤلاء الموحدين من أهل الكتاب منتشرين في بعض الديارات والصوامع، قد فارقوا المشركين الذين صارت لهم الدولة والغلبة. فما أعظم فرحتهم ببعثة محمد ﷺ، وما أشد بهجتهم بالقرآن، وقد وصف الله ذلك الفرج عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغَى الْجَاهِلِينَ (٥٥) [الفصل]، وفي وصف آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤)﴾ [المائدة].

الكتب المقدسة عند النصارى:

إذا كانت الجماعة المؤمنة التي حملت دين المسيح بحق قد توارت عن الأنظار، حتى التحق آخرها بدين الإسلام، فما مآل كتابها الذي آتاه الله نبيها، الإنجيل، ﴿هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

(١) تاريخ الكنيسة (٦٩).

وَهْدَى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٠﴾ [المائدة]؟ ذلك أن الأمم تتعرض لأحوالٍ متفاوتة من الظهور والأفول، فإذا كان بين ظهريها كتابٌ محفوظٌ تعتصم به، أمكن أن تهتدي به وتعود إلى رشدِها، ويستقيم أمرها. فهل «الإنجيل»، الذي أنزله الله لا يزال موجوداً؟ وهل سلم من التحريف والزيادة والنقصان؟.

إن النصارى اليوم يعترفون بـ«الكتاب المقدس» وهو يضم جزئين:

١ - العهد القديم: وقد سبق التعريف به، ونقده عند الحديث عن اليهودية^(١).

٢ - العهد الجديد: ويتكون من الأناجيل المنسوبة لأربعة من رواة سيرة المسيح ﷺ، وهم: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. تمثل أكثر من ثلث الكتاب. يعقبها سفر «أعمال الرسل» يُظن أن كاتبه «لوقا». ثم أربع عشرة رسالة موجهة إلى أهالي بعض المدن، وبعض الأفراد، وضعها «بولس»، تمثل قرابة ربع الكتاب. ثم مجموعة من الرسائل العامة لبعض قديسيهم؛ واحدة ليعقوب واثنتان لبطرس، وثلاث ليوحنا، وواحدة ليهوذا، وتختتم برؤيا يوحنا. فيكون مجموعها سبعة وعشرين سفرًا.

جاء في تصدير الرهبانية اليسوعية للطبعة الثالثة للعهد الجديد عام ١٩٨٩م ما نصه: (كانت السلطة العليا في أمور الدين تتمثل عند مسيحيي الجيل الأول في مرجعين: أولهما العهد القديم، وكان الكتبة

(١) ثم جدال قديم بين اليهود، وبين النصارى في تحديد قائمة الأسفار المعتمدة «القانونية» انعقدت لبحثها مجامع مسكونية. ولا يزال الخلاف قائماً بين مختلف الطوائف حول أسفار بعينها. انظر: مدخل إلى العهد القديم. العهد القديم: (٤٧ - ٥٢).

المسيحيون الأولون يستشهدون بجميع أجزائه على وجه التقريب استشهداهم بوحى الله. وأما المرجع الآخر الذي نما نمواً سريعاً فقد أجمعوا على تسميته «الرب»، وكان يطلق هذا الاسم على كل من التعليم الذي ألقاه يسوع... ولكن العهد القديم كان يتألف وحده من نصوص مكتوبة. وأما أقوال الرب، وما كان يبشر به الرسل، فقد تناقلتها ألسنة الحفاظ مدةً طويلة، ولم يشعر المسيحيون الأولون إلا بعد وفاة آخر الرسل بضرورة كل من تدوين أهم ما علّمه الرسل، وتولي حفظ ما كتبوه... ويبدو أن المسيحيين، حتى ما يقرب من السنة ١٥٠، تدرجوا من حيث لم يشعروا بالأمر إلا قليلاً جداً إلى الشروع في إنشاء مجموعة جديدة من الأسفار المقدسة. وأغلب الظن أنهم جمعوا في بدء أمرهم رسائل بولس واستعملوها في حياتهم الكنسية... ولا يظهر شأن الأناجيل طوال هذه المدة ظهوراً واضحاً، كما يظهر شأن رسائل بولس... ومهما يكن من أمر فليس هناك قبل السنة ١٤٠ أي شهادة تثبت أن الناس عرفوا مجموعة من النصوص الإنجيلية المكتوبة...

وكان بعد السنة ١٥٠ بقليل أن مست الحاجة في الكنيسة إلى قاعدةٍ شاملة. فاتجهت الأنظار إلى مجموعة الأناجيل الأربعة، لأنها نالت، حتى ذلك الوقت انتباه الناس، لما تحلّت به من الصفات، ولصحة الشهادة التي تؤذيها «الرب»^(١).

ويتضح مما سبق بعض الحقائق المتصلة بالكتب المقدسة لدى النصارى:

١ - أن المرجع الديني المكتوب، هو «العهد القديم» الذي يجمعهم مع اليهود. وقد تقدم ذكر ما اعترى هذا المرجع من انقطاع

(١) العهد الجديد: (٨ - ٩).

سند وضياع، وإعادة صياغة، وما لحقه من تحريف وزيادات كتبتها الأيدي الآثمة ونسبتها إلى الله. فيلزم النصارى ما لزم اليهود.

٢ - أن عيسى ﷺ لم يقم بإملاء نص مكتوب هو «الإنجيل»، بل تم حفظ تعاليمه وأقواله عن طريق الحفظ في الصدور. وظل الأمر على هذه الصفة حتى منتصف القرن الثاني للميلاد، بعد انقراض جيل «الرسل».

٣ - أن رسائل «بولس» هي التي حظيت بالاهتمام والدرس والتداول بين أتباع الكنائس خارج أورشليم، وكانت شهرتها وأثرها تفوق الإنجيل.

٤ - أن مسوغ اختيار الأناجيل الأربعة، من بين سائر الأناجيل هو أنها نالت انتباه الناس وصحة الشهادة التي تؤديها.

هذه نظرة ضلال النصارى إلى ظروف تكوين «العهد الجديد». وحقيقة الأمر أن الله تعالى علّم عبده ونبيه عيسى الإنجيل كما علمه التوراة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران]. وهو ﷺ قد بلغ رسالات ربه، وعلم حواريه ما علمه ربه من الإنجيل مميزاً إياه عن سائر مواعظه ووصاياه. وقد وجد بالفعل نسخ متعددة من الأناجيل بعضها منسوب إلى كبار حواريه، كإنجيل بطرس، أو كبار الرسل، كإنجيل برنابا، أو إلى طوائف معينة، كإنجيل الناصريين، وإنجيل الأيوبيين، وإنجيل العبرانيين، وإنجيل المصريين وغيرها. ولكن أتباع بولس الذي نشئوا المتنصرين من أبناء الأمم، غير اليهود، على رسائل بولس أقصوا ما لا يتفق وتعاليمهم الشركية، ووصفوا تلك الأناجيل بأنها «منحولة»، واستبقوا ما يوافق أهواءهم، فكانت هذه الأربعة.

يقول أفغراف سميرنوف: (.. في العصر الرابع اعترفت الكنيسة

بهذه الكتب أنها قانونية. وفيما الكنيسة تقبل في قانون الكتب المقدسة الكتب الرسولية، فقد فرزت من عدد الكتب التي ليست رسولية، ورفضت بكل حزم الكتب المزيفة والمدسوسة. مثلاً: «إنجيل اليهود» و«إنجيل المصريين» و«إنجيل نيقوديم» و«إنجيل توما» و«أعمال بولس» و«رؤيا بطرس» وغيرها^(١).

إنه لمما يدعو للدهشة والاستغراب أن تُضم رسائل بولس الأربع عشرة إلى قانون العهد الجديد، ولم يكن بولس أحد الحواريين الاثني عشر «الرسل»، ولم يلقَ المسيح، وتستبعد كتابات تلاميذ المسيح! سيما وأن رسائل بولس تنحى منحىً مجافياً لتعاليم المسيح وهدية. ويقول: جون لوريمر: (من الأهمية بمكان أن نذكر أن الوثائق الأولى كانت رسائل الرسول بولس. وقد ركزت أساساً على أمور لاهوتية، وتعاليم خاصة بالسلوك الشخصي والأمور الدينية، ولم يكن بها شيءٌ يذكر عن حياة المسيح أو أية اقتباسات من تعليمه أو صلواته أو أمثاله)^(٢).

أما الأناجيل الأربعة المنتخبة وفق شرط الإيمان البولسي فهي عبارة عن قصص تاريخية تروي سيرة النبي يحيى عليه السلام - يوحنا المعمدان عندهم - ثم سيرة عيسى عليه السلام، وما أحاط بحمله وولادته ونشأته من آيات، ثم دعوته وخطبه ومواعظه، وما يصاحب ذلك من آيات أجراها الله على يديه، ثم كيد اليهود له وسعيهم في قتله لدى الحكام الرومان، ثم محاكمته والحكم بصلبه، ودعوى صلبه فعلاً، ودفنه ثلاثة أيام، ثم قيامته من قبره، ومكوته أربعين يوماً، ثم رفعه إلى السماء، ووعدته حواريه بالعودة إلى الأرض ثانية.

إن كنيسة أتباع بولس منذ عام ١٧٠م^(٣) وحتى المجمع الفاتيكاني

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٧٧).

(٢) تاريخ الكنيسة: (٨٣).

(٣) يرجح النصارى أن هذا التاريخ هو تاريخ اعتماد الأناجيل الأربعة قانونياً. =

الثاني المنعقد في روما لعموم أساقفة الكاثوليك في الفترة (١٩٦٢ - ١٩٦٥)^(١) وإلى ساعتنا هذه تؤكد بجمود وإصرار على مصداقية هذه الأناجيل الأربعة، وتخلع عليها ألقاب القداسة والثقة، وتدعو إلى التشبث بها، فقد جاء في وثيقة المجمع «دستور عقائدي» في الفصل الخامس «العهد الجديد» ما نصه: (لا يغرب على أحد أن الأناجيل تفضل حقاً سائر الكتب المقدسة، كانت ما كانت، ولو من العهد الجديد، لأنها شاهد ما بعده شاهد على مخلصنا، لكلمة الله المتجسد: على سيرته وتعاليمه.

لقد اعتبرت الكنيسة في كل مكان وفي كل زمان، أن الأناجيل الأربعة هي من وضع الرسل: إن ما كرز^(٢) به هؤلاء، بأمر من المسيح قد نقلوه فيما بعد، هم أنفسهم أو بعض من أحاط بهم من معاونين، مدونين إياه بوحى من الروح القدس، في أسفار أصبحت سند الإيمان نعني بها الأناجيل الأربعة التي تنوعت شكلاً، على حسب ما وردت على يد متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا.

إن الكنيسة المقدسة، أمناً، قد أصرت دوماً وتصر الآن على التأكيد أن الأناجيل المتعارف عليها، هي من الكتب التاريخية، من غير أن يساورها أي شك، وأن هذه الأناجيل قد نقلت بصدق وأمانة، ما قام به يسوع ابن الله من أعمال، وما نشر من تعليم طيلة حياته بين الناس، لا ينوي منها إلا خلاصهم الأبدي، إلى اليوم الذي رفع فيه... إن الرسل بعد أن صعد الرب عنهم نقلوا إلى مستمعهم كل ما

= انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية (٧٧)، مدخل إلى العهد الجديد (١٠٨)، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (٧٧ - ٧٨).

(١) سيتم التعريف بهذا المجمع على سبيل التفصيل في الباب الأول.

(٢) كَرَزَ كَرَزاً: وعظ وناذى ببشارة الإنجيل. «سريانية». المنجد في اللغة (٦٨٠).

ساقه من أقوال، وكل ما أجراه من أفعال، بعد أن فقهوا كامل معانيها، على ضوء ما جرى له من أحداث مجيدة، وعلى ضوء ما استناروا به من إشراقة روح الحق، فكان أن دوّن الكتاب الإلهيون الأناجيل الأربعة مستخدمين أساليب متنوعة: فتارة انتخلوا بعضاً مما وصل إليهم رواية، أو مما صادف أن انتهى إليهم كتابةً. وطوراً دمجوا أحداثاً وأقوالاً عديدة في خلاصات موجزة، وحيناً شرحوا أموراً مرتبطة بالمسيح على ضوء ما كانت عليه كنائسهم آنذاك. وحيناً اعتمدوا النمط الإرشادي في التبشير برسالة المسيح. لقد حرصوا في كل هذه الأساليب، أن ينقلوا لنا دوماً، عن يسوع، حقائق ثابتة، وخالصة الصدق. لقد سطوروا مؤلفاتهم هذه، فمكنونا من اختبار «قوة» التعليم الذي تسلمناه... سواء اعتمدوا على ذاكرتهم وما سجلوه بأنفسهم، أو ركنوا إلى أقوال أولئك الذين كانوا منذ البدء شهود عيان، وخداماً للكلمة^(١).

إن هذا النص العقدي الذي نقلناه بكامله عن أحدث مجمع من مجامع النصارى ليكشف عن حقائق مهمة، تتعلق بالأناجيل المعتمدة عند النصارى:

١ - أنهم يعترفون أن أيّاً من هذه الأناجيل ليس كلام الله، لا حقيقة ولا مجازاً، وليس من إملاء المسيح ﷺ ابتداءً، بل يسلمون - ولا يستطيعون غير ذلك - بأن تلك الأناجيل عمل بشري من وضع الرسل أو معاونيهم، شأنهم شأن أي مصنف كتاب، فهم مجرد رواة ومؤرخين: نقلوا، ودوّنوا، وانتخلوا، ودمجوا، وشرحوا، وسطوروا، وسجلوا، وركنوا... إلخ من الأفعال البشرية المسندة إلى بشر عاديين.

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني دساتير - قرارات - بيانات: ترجمة الأب حنا فاخوري - معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت حريصا. المكتبة البولسية. بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٢م. (١٣٤ - ١٣٦).

وغاية ما يبهرجون به هذه «المذكرات» أن يزعموا أنها تمت بوحى من روح القدس. وتلك دعوى عريضة يلوح بها النصارى كثيراً لتمرير بدعهم وإفكهم. فإذا كان «الروح القدس» ينزل على الحواريين الاثني عشر «الرسل عندهم» - أعمال الرسل ١/٢ - ٤^(١) وعلى قورنيليوس الوثني، قائد المئة، وأهل بيته أثناء عظة بطرس - أعمال الرسل ١٠/٤٤ - ٤٦^(٢) وغير ذلك من مزاعم، فأى مزية لأنبياء الله على سائر البشر؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

إن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام لا يمكن عقلاً أن يكون قصة حياته، وذهابه وإيابه، وقصة صلبه ودفنه - كما يزعمون -، وغاية ما تبلغ أن تكون بمنزلة «السيرة النبوية» أو «السنة النبوية» التي يشترط لقبولها صحة الإسناد، وفق معايير منضبطة. وبناءً عليه فليست هذه الأناجيل هي «الإنجيل» المنزل من عند الله، بل اكتسبت هذا الاسم الشريف ظلماً وافتياتاً على الحقيقة، وعرفاً فاسداً كما قال أ. تريكو A. Tricot في تعليقه على ترجمة للعهد الجديد: (منذ وقت مبكر جداً، منذ بداية القرن الثاني، استقر العرف على استخدام الكلمة «إنجيل» للإشارة إلى الكتب التي كان القديس جوستين، في نحو ١٥٠ يسميها أيضاً «مذكرات الرسل» (Memoires des Apotres)^(٣)).

وحقيقة الأمر أن النصرانية البولسية طمست كتاب الله «الإنجيل»، واستعاضت عنه بهذه المرويات التاريخية لسيرة المسيح بعد أن لوثتها بتعاليم بولس الكفرية، وخلعت عليها لقب «الإنجيل». وهكذا يتضح

(١) العهد الجديد: (٣٧٦).

(٢) العهد الجديد: (٤٠٣).

(٣) عن: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٧ - ٧٨). ولم يسلم د. موريس بوكاي استناداً على دراسات متخصصين كاثوليك وبروتستانت على وجود تلك الكتب في بداية القرن الثاني، وأقصى تاريخ ممكن هو ١٤٠ م.

باعتراف المجمع الفاتيكاني الثاني، أضخم مجمع مسكوني للنصارى منذ وجودهم، فقدان الكنيسة للإنجيل الأصلي الموحى به من الله إلى عيسى ابن مريم، ولو محرّفاً كالتوراة. وتلك قاصمة الظهر.

٢ - أنهم يعترفون أن واضعي هذه الأناجيل ليسوا جميعاً من تلاميذ المسيح. وتلك حقيقة تاريخية لا يملك النصارى إنكارها وتمثل طعناً في ثبوت ما تضمنته من أخبار بسبب انقطاع السند.

فأهم هذه الأناجيل وأولها في الترتيب لدى الكنيسة «إنجيل متى» المنسوب إلى أحد الحواريين. ويدور جدلٌ عميق بين دارسي العهد الجديد حول صحة نسبة الإنجيل إلى متى الحواري. وقد خلص د. موريس بوكاي إلى القول: (لنقل صراحة إنه لم يعد مقبولاً اليوم القول إنه أحد حواري المسيح)^(١) كما يدور جدل حول تاريخ تدوينه. وقد خلص الشيخ محمد أبو زهرة^(٢) إلى القول: (والحق أن باب الاختلاف في شأن التاريخ لا يمكن سده)^(٣)، كما أن مترجمه من العبرانية إلى اليونانية مجهول تماماً.

أما إنجيل مرقس، وهو أقدمها من حيث الظهور التاريخي، وذلك

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٣).

(٢) محمد بن أحمد أبو زهرة، من الشخصيات البارزة في العصر الحديث ولد سنة ١٣١٦هـ بمصر، وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي وتولى تدريس العلوم الشرعية والعربية، ثم تدرج حتى أصبح أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في الجامعة، وعضواً للمجلس الأعلى للبحوث العلمية، من تصانيفه: «أصول الفقه»، «الوحدة الإسلامية»، «أبو حنيفة»، «مالك»، «الشافعي»، «أحمد». توفي سنة ١٣٩٤هـ.

الأعلام: (٢٥/٦).

(٣) محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي - القاهرة - مصر. الطبعة الثالثة ١٣٨١هـ. (٤٥). وانظر: إظهار الحق: (١٥١/١).

بعد منتصف القرن الأول، ربما بين ٦٥ - ٧٠م^(١)، فليس مؤلفه من الحواريين قطعاً. لكنه تتلمذ لخاله «برنابا»، ورافقه في رحلته مع بولس إلى إنطاكية. وثمّ خلاف بين مؤرخي النصرانية حول كاتبه الحقيقي أهو بطرس عن مرقص، أم هو مرقص بتوجيه من بطرس، أم مرقص بغير توجيه من بطرس^(٢). وهذا «الاضطراب» ولا ريب يوهن النسبة. فضلاً عن العيوب المتعلقة بالتحريير والسرد القصصي المضطرب^(٣).

أما إنجيل «لوقا» فقد ظهر بعد مرقص وقبل متى، ولوقا طبيب أنطاكي وليس من الحواريين، ولا من تلاميذ الحواريين، بل هو تلميذ لبولس صحبه في بعض أسفاره.

أما إنجيل «يوحنا» فأخرها ظهوراً، ويختلف عن الثلاثة السابقة اختلافاً بيناً في ترتيبه وأسلوبه، بل ومضامينه العقدية، حيث إنه الإنجيل الوحيد الذي صرح بألوهية المسيح. والنصارى ينسبونه إلى الحوارى يوحنا بن زبدي الصياد، حبّ المسيح ﷺ - كما تحكي كتبهم -. ولكن هذه النسبة أيضاً محل خلاف. يقول د. موريس بوكاي: (إن الترجمة المسكونية للكتاب المقدس تحدد أن غالبية النقاد لا تأخذ بالفرض القائل بتحريير قام به يوحنا الحوارى، وإن كان ذلك احتمالاً غير مستبعد برغم كل شيء. ولكن كل شيء يدفع للاعتقاد بأن النص المنشور حالياً ينتمي إلى أكثر من كاتب واحد)^(٤) فلا يخلو الأمر من أن يكون قد كتبه «يوحنا» آخر، ويؤيد هذا تأخر ظهوره رغم نسبته إلى أحد الحواريين، أو أن يكون وضع أصله يوحنا الحوارى ثم دس فيه إضافات ليست منه^(٥).

(١) انظر: تاريخ الكنيسة: (٨٣)، والقرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٨).

(٢) انظر: محاضرات في النصرانية: (٤٧)، وإظهار الحق: (١/١٥٢).

(٣) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٨).

(٤) المرجع السابق: (٩٤).

(٥) انظر: إظهار الحق: (١/١٥٤ - ١٥٧).

وعلى كلا الاحتمالين فالباعث الرئيسي لاعتماده قانونياً، وربما لتأليفه، إدراج عقيدة ألوهية المسيح في الأناجيل، بسبب خلو الثلاثة السابقة منها، إذ كيف يعقل أن تهمل الأناجيل هذه العقيدة البولسية الأساسية؟! .

وبهذا تسقط نسبة الديانة النصرانية إلى سنة عيسى ﷺ الشفهية، كما سقطت نسبتها إلى كتاب الله الإنجيل. وحق لنا أن نقول: ﴿أَتُؤْمِنُ بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف]. فلا وحي ولا أثر.

٣ - أنهم يعترفون أن هذه الأناجيل الأربعة متنوعة شكلاً، وأسلوباً، وتتفاوت في طريقة التصنيف وفي النمط الإرشادي... إلخ وهذا كافٍ بالقطع بأنها ليست من عند الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء]، فتحقق جواب «لو» دليل على ثبوت شرطه. ومع ذلك يزعم النصارى أنها نقلت كل أقوال المسيح وأفعاله بأمانة وصدق. والدراسات النقدية الجادة والمتجردة من قبل النصارى، أنفسهم أثبتت وجود ثغرات كبيرة، وتناقضات صارخة، تجعل قارئها من النصارى فضلاً عن غيرهم، في حيرة بالغة لا مخرج منها إلا باليقين التام أنها محاولات بشرية تمت في أجواء خصومة وتحزب، حملت محرريها، سواء كانوا من نُسبت إليهم فعلاً أو من نسبوها إلى غيرهم، وهم منها براء، على التحريف.

وبإزاء التوثيق الفاتيكاني المطلق لهذه الأناجيل الأربعة، تقول دراسة متأنية توفّر عليها أكثر من مائة متخصص من الكاثوليك والبروتستانت، كمقدمة للترجمة المسكونية للعهد الجديد، ونشرت عام ١٩٧٢م، أن هذه الأناجيل (تتكيف مع مختلف الأوساط وتستجيب لاحتياجات الكنائس، وتعبر عن تأمل في الكتاب المقدس، وتصحح الأخطاء، وترد بهذه المناسبة على حجج الخصوم. بهذا الشكل جمع

ودوّن المبشرون، كل بحسب وجهة نظره ما قد أعطتهم إياه الأقوال المتوارثة الشفهية^(١). ويقول الأب كايننجر: (لا يجب الأخذ بحرفية الأناجيل فهي كتابات ظرفية وخصامية حدد محرروها كتابة تراث جماعتهم عن المسيح)^(٢).

وقد أدى هذا التنوع إلى حصول تناقضات كبيرة، في الحدث الواحد مما يقطع بعدم مصداقيتها، وأن النصارى أسسوا بنيانهم على شفا جرفٍ هار. وتفاصيل هذه التناقضات مبسوطة في الكتب المتخصصة في مجادلة أهل الكتاب^(٣).

وهكذا حجب النصارى عن نور الحق، وانقطعت صلتهم بمشكاة النبوة المضئية بسبب مكر بولس وأتباعه الذين غيبوا الإنجيل الحق، واستعاضوا عنه برسائل بولس الكفرية.

العقائد النصرانية:

أدخل بولس جملة من العقائد الوثنية المستمدة من عقائد الأمم الكافرة، على النصارى متخذاً من شخص المسيح ﷺ مظهراً لتلك العقائد. كما أنه ما زال يفتل في الذروة والغارب لفصل النصارى عن شريعة موسى ﷺ التي جاء عيسى ﷺ متمماً لها، لا ناقضاً، حتى فسخهم منها.

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٩).

(٢) المرجع السابق: (٨٠).

(٣) انظر على سبيل المثال:

- الفصل في الملل والأهواء والنحل. لابن حزم: (٢/٢ - ٣٨).

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. لابن تيمية.

- تحفة الأريب في الرد على عباد الصليب. للميورقي. (٢٠٣ - ٢٢٢).

- إظهار الحق. لرحمت الله الهندي. (١٨٧/١ - ٢٤٦)، (٢/٢٩٩ - ٣٥٢).

- مناظرات الداعية المعاصر أحمد ديدات للنصارى.

- القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٧ - ١٣٩).

وقد جُوبه في العقود الأولى التالية لرفع المسيح برفض من الحواريين وكبار التلاميذ بعد أن تكشّف لهم فساد طويته ومذهبه. وقد كان من أوائل الدعاة «الرسل» الذين تبينوا أمره «برنابا»، رغم أنه هو الذي عرّف به أولاً وزكّاه أمام التلاميذ، فقد استصحبه في بعض أسفاره، ثم نشأت بينهما مشادة ومشاجرة شديدة في أنطاكية يصورها سفر أعمال الرسل ١٥/٣٧ - ٤٠^(١) خصومة شخصية حول استصحاب مرقص معهما. ومثل هذا الأمر لا يوجب هذا الافتراق. فلا بد أن برنابا وجد منه ما يستحق النكير الشديد. ولهذا ورد في الكتاب المنسوب إلى برنابا في مقدمته ذكر الذين أضلهم الشيطان بدعوى بنوة المسيح لله، وترك الختان: (الذين ضل في عدادهم أيضاً بولص)^(٢). وفي آخر فصل منه: (وآخرون بشروا ولا يزالون ييشرون بأن يسوع هو ابن الله. وقد خدع في عدادهم بولص) ٥/٢٢٢^(٣).

وثم إنجيل آخر يسمى الأغنسطي ينسج على نفس المنوال في مقدمته وخاتمته في التنديد ببولس^(٤). كما أن قارئ رسائل بولس يلمس بشكل واضح الروح العدائية التي كان يواجه بها بولس من قبل أتباع المسيح أينما توجه، مما يحمله على النيل منهم، ومحاولة إثبات استقلاله عنهم بكونه تلقى عن المسيح مباشرة - رغم أنه لم يلقه - في الحادثة التي يزعم أنها جرت له على طريق دمشق^(٥).

(١) العهد الجديد: (٤١٨).

(٢) إنجيل برنابا: ترجمة: د. خليل سعادة. تحقيق: سيف الله أحمد فاضل. دار القلم. الكويت. الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م). (٣٨). وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً (١٣٢ - ١٣٩).

(٣) إنجيل برنابا: (٢٩٧).

(٤) انظر: مقدمة مترجم «إنجيل برنابا» د. خليل سعادة: (٢٧).

(٥) تقدم ذكرها: (٦٦).

● ففي رسالته إلى أهل غلاطية يصدرها بقوله: (من بولص وهو رسول، لا من قبل الناس ولا بمشيئة إنسان، بل بمشيئة يسوع المسيح والله الأب الذي أقامه بين الأموات، ومن جميع الإخوة الذين معي إلى كنائس غلاطية... عجبت لسرعة ارتدادكم هذا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى بشارة أخرى، وما هي بشارة أخرى، بل هناك قوم يلقون البلبلة بينكم، وبغيتهم أن يبدلوا بشارة المسيح... فأعلمكم أيها الإخوة بأن البشارة التي بشرت بها ليست على سنة البشر، لأنني ما تلقيتها ولا أخذتها عن إنسان، بل بوحي من يسوع المسيح) ١/١ - ٢، ٦ - ٧، ١١ - ١٢^(١). فهو هنا يشير إلى نوعين من البشارة موجّهتين إلى نصارى ذوي كنائس، ويشير إلى مخالفين له يبلبلون تعاليمه. ويؤكد أنه يتلقى الوحي مباشرة من المسيح، فليس بحاجة إلى مرجعية الحواريين. ويتضح الخلاف الناشب بين الفريقين مع قدر أكبر من تحديد الخصوم حين يقول: (أما الأعيان)^(٢) - ولا يهمني ما كان شأنهم: أن الله لا يحابي أحداً من الناس... ولكن لما قدم صخر^(٣) إلى أنطاكية قاومته وجهاً لوجه لأنه كان يستحق اللوم... حتى إن برنابا انتقاد هو أيضاً إلى ريائهم. فلما رأيت أنهم لا يسرون سيرة قويمه، كما تقضي حقيقة البشارة، قلت لصخر أمام جميع الإخوة: إذا كنت أنت اليهودي تعيش عيشة الوثنيين، لا عيشة اليهود، فكيف تلزم الوثنيين بأن يسروا سيرة اليهود) ٦/٢، ١١، ١٣ - ١٤^(٤) ينكر بذلك على كبير الحواريين «بطرس»، وأحد كبار التلاميذ «برنابا» عدم تبشيرهم

(١) العهد الجديد: (٥٧٢ - ٥٧٣).

(٢) قال المعلق: أي الاثني عشر. العهد الجديد: (٥٧٤) حاشية (٦). يعني الحواريين.

(٣) لقب لكبير الحواريين «بطرس».

(٤) العهد الجديد: (٥٧).

الوثنيين القلف، ونهيههم المؤمنين عن مؤاكلتهم، مع زعمه أن بطرس كان يؤاكلهم.

• ومما يدل على حجم الانقسام الذي أحدثه بين النصارى، ما جاء في رسالته الأولى لأهل قورنتس: (كل واحد منكم يقول: أنا بولس وأنا لأبلس وأنا لصخر وأنا للمسيح) ١٢/١^(١).

وأخطر العقائد الكفرية التي دسها بولس في الإيمان النصراني ثم صارت مع مرور الزمن أركان العقيدة النصرانية، ما يلي:

أولاً: دعوى ألوهية المسيح وربوبيته:

• (في البدء كان الكلمة. والكلمة كانت لدى الله. والكلمة هو الله) إنجيل يوحنا ١/١^(٢).

• (أجابه توما: ربي وإلهي! فقال له يسوع: الآنك رأيتني آمنت؟ طوبى للذين يؤمنون ولم يروا) إنجيل يوحنا ٢٠/٢٨ - ٢٩^(٣).

• (وهو فوق كل شيء إله مبارك أبد الدهور) رسالة بولس إلى أهل رومة ٩/٥^(٤).

• (ولا يستطيع أحد أن يقول: «يسوع رب» إلا بإلهام من الروح القدس) رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس ١٢/٣^(٥).

• (فليعلم يقيناً بيت إسرائيل أجمع، أن يسوع هذا الذي

(١) العهد الجديد: (٥١١)، وانظر: النصرانية تاريخاً وعقيدة.. وكتباً ومذاهب: د. مصطفى شاهين. دار الاعتصام. القاهرة. طبعة ١٩٩١م. (١٤٨ - ١٥٣).

(٢) العهد الجديد: (٢٨٩).

(٣) العهد الجديد: (٣٥٨).

(٤) العهد الجديد: (٤٨٧).

(٥) العهد الجديد: (٥٢٨).

صلبتموه، قد جعله الله رباً ومسيحاً) أعمال الرسل ٢/٣٦^(١).
 • (فدنوا منه، وأيقظوه، وقالوا له: يا رب نجنا لقد هلكنا)
 إنجيل متى ٨/٢٥^(٢).
 والأنجيل الأربعة تعج بوصف المسيح بـ «الرب» ومناداته بذلك
 بما يشق حصره.

ثانياً: دعوى بنوة المسيح:

• (... فقال لهم: ومن أنا في قولكم أنتم؟ فأجاب سمعان
 بطرس: أنت المسيح ابن الله الحي. فأجابه يسوع: طوبى لك يا
 سمعان بن يونا، فليس اللحم والدم كشفاك هذا، بل أبي الذي في
 السماوات) إنجيل متى: ١٦/١٥ - ١٧^(٣).
 • (وإذا صوت من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي
 عنه رضيت) إنجيل متى ٣/١٧^(٤).
 • (فقال له عظيم الكهنة: أستحلفك بالله الحي لتقولن لنا، هل
 أنت المسيح ابن الله؟ فقال له يسوع: هو ما تقول) إنجيل متى ٢٦/
 ٦٣ - ٦٤^(٥)، وعند مرقس (أنا هو) ١٤/٦٢^(٦).
 • (لأنهم يصلبون ابن الله ثانية) رسالة بولس إلى العبرانيين ٦/٦^(٧).
 • (فأخذا يصيحان: وما لنا ولك يا ابن الله) إنجيل متى ٨/٢٩^(٨).

(١) العهد الجديد: (٣٧٩).

(٢) العهد الجديد: (٥٩).

(٣) العهد الجديد: (٨٢ - ٨٣).

(٤) العهد الجديد: (٤٣).

(٥) العهد الجديد: (١١٢).

(٦) العهد الجديد: (١٧٣).

(٧) العهد الجديد: (٧٠٢).

(٨) العهد الجديد: (٥٩).

ثالثاً: مقالة التثليث:

• (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم: الآب والابن والروح القدس) إنجيل متى ١٩/٢٨^(١).

• (ولتكن نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس معكم جميعاً) رسالة بولس إلى أهل كورنثس ١٣/١٣^(٢).

إن هذه العقائد الثلاث: ألوهية المسيح وبنوته لله والثالوث الأقدس، عقائد متلازمة:

(فالمسيحيون يعتبرون أن شخص يسوع البشري هو «ابن» الله الذي يشترك مع الله «الآب» في الألوهية والأزلية. وفي إنجيل يوحنا ١/١ - ١٨ أن يسوع هو كلمة الله الأزلية... التي صارت جسداً - أي كائناً إنسياً - فعاش يسوع إنساناً مملوءاً نعمةً وحقاً، مُظهراً للعالم المجد الذي حل به لكونه «الابن» الوحيد لله «الآب».

وعلى هذا الأساس... فإن المسيحية تعد الله «ثالوثاً أقدساً» غير قابل للتجزئة تتوحد فيه ثلاثة أقانيم إلهية - باليونانية Hypostasis مادة طبيعية، ماهية - وهذه الأقانيم الثلاثة هي «الآب» وهو الله المنزه؛ و«الابن» وهو الله المتمثل بالمسيح؛ والروح القدس وهو «الرب المحيي» الذي يمثل الوساطة الإلهية في الكون، التي تكلمت تاريخياً على ألسنة الأنبياء من بني إسرائيل، والتي تستمر في التبيان عن نفسها من خلال «شركة القديسين»، مشكلة بذلك الرابطة الأبدية بين الإلهي والإنساني على الأرض^(٣).

لعل هذه الصياغة الحديثة للعقائد الثلاث السابقة تحاول جاهدة

(١) العهد الجديد: (١١٩).

(٢) العهد الجديد: (٥٦٤).

(٣) المسيحية في العالم العربي: (١٦).

أن تجلي الغموض الذي يكتنف النصوص النصرانية القديمة حول عقيدة التثليث من جنس قول يوحنا: (في البدء كان الكلمة. والكلمة كان لدى الله. والكلمة هو الله. كان في البدء لدى الله. به كان كل شيء. وبدونه ما كان شيء مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة نور الناس... لم يكن هو النور. بل جاء ليشهد للنور. كان النور الحق الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم، كان في العالم. وبه كان العالم. والعالم لم يعرفه... والكلمة صار بشراً، فسكن بيننا. فرأينا مجده. مجداً من لدن الآب لابن وحيد ملؤه النعمة والحق... إن الله ما رآه أحد قط. الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه) ١/ ١ - ٤، ٨ - ١٠، ١٤، ١٨^(١).

ومن جنس نشيد بولس: (قد أظهر في الجسد. وأعلن باراً في الروح. وتراءى للملائكة. وبُشر به عند الوثنيين. وأومن به في العالم. ورفع في المجد) رسالة بولس الأولى إلى طيموتاوس ١٦/٣^(٢).

إن العقل السليم ليحار أمام هذه الجمل والمقاطع، ويتردد الذهن جيئةً وذهاباً بين مدلولاتها المحتملة، فما يكاد يفهم أن المراد بجملة ما «الله»، حتى يطوّح به النص نحو «الابن»، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن عامة العقلاء.

وحقيقة الأمر - مهما حاول النصارى قديماً وحديثاً أن يتصلوا من هذه الحقيقة الدامغة - أنهم يثبتون ثلاثة آلهة منفصلة، ويخلعون على كل منها خصائص الألوهية والربوبية، ولا تغني عنهم مما حكتهم اللفظية الممتنعة ببداهة العقول، كقولهم: الآب والابن وروح القدس إله واحد. تثليث في وحدة، ووحدة في تثليث.

(١) العهد الجديد: (٢٩٨ - ٢٩١).

(٢) العهد الجديد: (٦٦٣ - ٦٦٤).

فها هو ذا يوحنا يقول في إنجيله: (فكما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم. فكذلك الابن يحيي من يشاء. لأن الآب لا يدين أحداً، بل جعل القضاء كله للابن) ٢١/٥ - ٢٢^(١).

فأين القوم من توحيد الربوبية، بله توحيد الألوهية والعبادة؟!.

وقد أكفر الله النصارى بهذه المقالة الفاجرة التي لا تصدر إلا ممن لم يقدر الله حق قدره، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ثم دحض مقالتهم: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. وكرر تكفيرهم، وأقام عليهم الحجة البالغة من قول المسيح نفسه، وحكمه على من وقع منه ذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأما دعوى البنوة فمهما حاولوا تصويرها تصويراً فلسفياً للنأي بها عن صورة الولادة البشرية، فإن مجرد نسبة الولد لله فرية عظيمة مهولة لا انفكاك لهم عن عارها وشؤمها. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَّعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٨٨] ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [٨٩] ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَنَقَّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [٩٠] ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [٩١] ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [٩٢] ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [٩٣] ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [٩٤] ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [٩٥] [مريم: ٨٨ - ٩٥] فلاجل هذه المقالة البائرة قاتلهم الله، ومن قاتله الله قتله: ﴿وَقَالَتِ

(١) العهد الجديد: (٣٠٢).

الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَكَلَّمَهُمُ اللَّهُ أَفَ
يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ [التوبة].

وأما أسطورة «التثليث» بقولهم: «إن الله ثالث ثلاثة» فمن أعظم أسباب شقاء القوم. فهم يعجزون عن تقريرها بعبارة معقولة مقبولة، ويقرون بذلك^(١)، فيفرون إلى ما ينافي العقل، وبئس المفرد، فإن النصوص الشرعية الصحيحة قد تأتي بمحارات العقول، ولكنها لا تأتي بمحالات العقول^(٢). فالعقل يحار ويكل عن إدراك كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، أو أحوال اليوم الآخر، لكنه لا يحكم باستحالة ذلك. يحكم قطعاً بأن التوحيد ينافي التثليث. قال ابن كثير رحمته الله: بعد ذكر تفرقهم إلى ملكية ويعقوبية ونسطورية: (وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحداً أو ما اتحداً، بل امتزجا، أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات. وكل منهم يكفر بالفرقة الأخرى. ونحن نكفر الثلاثة)^(٣).

ولما كانت خرافة التثليث من أسفه المقالات، زجرهم الله زجر السفهاء الذين يلقنون الحق، ولا يُنظر في قولهم لتهافته، فقال تعالى:

(١) نقل الشيخ محمد أبو زهرة رحمته الله عن أحد مصنفيه بعد تقريره عقيدة التثليث قوله: (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاءً في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات والأرض) محاضرات في النصرانية: (١٠٣). وسوف يفهمون حقيقة الأمر جيداً إذا ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ [ق].

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل: (٢٩٧/٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (٤٧٩/٢).

﴿يَتَّاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧٦﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء].

وقد أقام الله دليلاً عقلياً، قاطعاً لمقالة مدعي الولد ومشركي الألوهية، فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

وفي هذه الأدلة القرآنية كفاية في نقض عقائد النصارى، وأما اللوازم الفاسدة التي تترتب عليها فكثيرة واضحة مبسوطة في مظانها^(١).

(١) انظر في الرد على النصارى:

- الفصل في الملل والأهواء والنحل. لابن حزم.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. لابن تيمية.
- المختار في الرد على النصارى. للجاحظ.
- الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل. للغزالي.
- أدلة الوجدانية في الرد على النصرانية. للقرافي.
- الرد على النصارى. للجعفري.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. لابن القيم.
- الأجوبة الجليلة في دحض الدعوات النصرانية. للدمشقي الطيبي.
- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب. للميورقي.
- إظهار الحق. لرحمت الله الهندي.
- المسيح ﷺ بين الحقائق والأوهام. لمحمد وصفي.
- حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة. لعلي الجوهرى.

قال ابن القيم^(١) رَحِمَهُ اللهُ: (إن هذه الأمة ارتكبت محظورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة:

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق، وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، وأنفوا أن يكون عبداً له.

والثاني: تنقُصُ الخالق وسبُّه ورميه بالعظائم... وبالجمله فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة. كما قال عمر: إنهم سبوا الله مسبّةً ما سبه إياها أحدٌ من البشر^(٢) يريد اعتقادهم أن عيسى هو الله مع ما وقع له من حملٍ ووضعٍ ورضاعٍ وسائر صفات البشر ثم ما وقع عليه من إهانةٍ ولطمٍ وبصقٍ وصلبٍ في زعمهم.

-
- = - المناظرة الأولى. لعلّي الجوهر.
- النصرانية: تاريخاً وعقيدة وكتباً ومذاهب. لمصطفى شاهين.
- حقيقة النصرانية. لهشام أحمد عبد الحي.
- مناظرات الداعية أحمد ديدات.
- مناظرة بين الإسلام والنصرانية. لنخبة من المسلمين والنصارى.
- (١) محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان ينتصر لجل أقواله. وهو الذي هذب كتبه ونشرها، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه وطيف به على جمل مضروباً بالعصا، وكان حسن الخلق محبوباً عند الناس، وألف تصانيف كثيرة منها «إعلام الموقعين» و«أحكام أهل الذمة»، و«زاد المعاد في هدي خير العباد» و«الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة» وغيرها. وكان مولده سنة ٦٩١هـ، وتوفي سنة ٧٥١هـ.
- الأعلام (٥٦/٦)، الدرر الكامنة (٤٠٠/٣)، البداية والنهاية (٢٣٤/١٤)، آداب اللغة (٢٤٥/٣)، شذرات الذهب (١٦٨/٦)، التيمورية (٢٥١/٣).
- (٢) إغاثة اللهفان: (٣٩٧/٢ - ٣٩٨).

رابعاً: أسطورة الخطيئة والتكفير والخلص بالصلب والفداء:

• (فكما أن الخطيئة دخلت في العالم عن يد إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت وهكذا سرى الموت إلى جميع الناس لأنهم جميعاً خطئوا... فإذا كانت جماعة الناس قد ماتت بزلّة إنسان واحد، فبالأولى أن تفيض على جماعة الناس نعمة الله والعطاء الممنوح بنعمة إنسان واحد ألا وهو يسوع المسيح) رسالة بولس إلى أهل رومة ٥/١٢، ١٤ - ١٥^(١).

• (مع أننا كنا أمواتاً بزلاتنا، أحياناً مع المسيح «بالنعمة نلتهم الخلاص» وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماوات في المسيح يسوع. فقد أراد أن يظهر للأجيال الآتية نعمته الفائقة السعة بلطفه لنا في المسيح يسوع) رسالة بولس إلى أهل أفسس ١/٥ - ٧^(٢).

• (هو وسيط لعهد جديد، بوصية جديدة، حتى إذا مات فداءً للمعاصي المرتكبة في العهد الأول نال المدعوون الميراث الأبدي الموعود. لأنه حيث تكون الوصية فلا بد أن يثبت موت الموصي... إنه لم يظهر إلا مرة واحدة في نهاية العالم ليزيل الخطيئة بذبيحة نفسه... قُرب مرة واحدة ليزيل خطايا جماعة الناس. وسيظهر ثانية بمعزل عن الخطيئة للذين ينتظرونه للخلاص) رسالة بولس إلى العبرانيين ٩/١٥ - ١٦، ٢٦، ٢٨^(٣).

• (جميع الناس قد خطئوا فحرموا مجد الله، ولكنهم بُرّروا مجاناً بنعمته، بحكم الفداء الذي تم في المسيح يسوع، ذاك الذي جعله الله كفارةً في دمه بالإيمان ليُظهر برّه، بإغضائه عن الخطايا الماضية في

(١) العهد الجديد: (٤٧٨).

(٢) العهد الجديد: (٥٩٢).

(٣) العهد الجديد: (٧٠٨).

حلمه تعالى، ليُظهر برّه في الزمن الحاضر، فيكون هو بارّاً، ويبرر من كان من أهل الإيمان بيسوع) رسالة بولس إلى أهل رومة ٣/ ٢٣ - ٢٦^(١).

إن هذه العقائد المتلازمة من سريان خطيئة آدم إلى ذريته، وحصول التكفير والخلاص بافتداء المسيح نفسه عن البشرية على خشبة الصليب، منظومة فلسفية وضعها بولس وأقام عليها سوق النصرانية. ومع أن الأناجيل الأربعة تفيض في ذكر حادثة الصلب المزعومة، بما يجعلها من المعلوم عندهم بالضرورة، إلا أنها تعرضها عرضاً مأساوياً محزناً، وتظهر المسيح ضحية لخيانة يهوذا الاسخريوطي، وليس بطلاً فداًياً يقوم بمهمة شريفة سامية كما يصور بولس في رسائله^(٢)، ويقررها أتباعه على النحو التالي: (محبة الله ظهرت في تدبيره طريق الخلاص للعالم. لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة. ولكن الله من فرط محبته، وفيض نعمته رأى أن يقربه إليه بعد هذا الابتعاد. فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم... وقد كان التكفير الذي قام به المسيح هو الصلب، ولهذا صُلب. ورضي الله عن صلبه. وهو ابنه، ودفن بعد الصلب، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره)^(٣).

وكل هذا مما أدخله بولس على دين المسيح، وأفسد به أهل ملته، وابتدعه من عند نفسه. وهو طعن في عدل الله سبحانه وحكمته، فكيف يؤخذ اللاحق بجريرة السابق؟ ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٣٧) ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرَهُ وَزَرَ أُخْرَى﴾ (٣٨) ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا

(١) العهد الجديد: (٤٧٢ - ٤٧٣).

(٢) انظر: متى (١١/٢٧ - ٦١)، مرقس (١/١٥ - ٤٧) لوقا (١/٢٣ - ٤٩)، يوحنا (٢٨/١٨ - ٣٧).

(٣) محاضرات في النصرانية: (١٠٧).

سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ ﴿٤١﴾ [النجم].
 فكيف إذا كانت خطيئة آدم ﷺ مغفورة، وصاحبها مجتبي مَهْدِي: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَّ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿٤٢﴾﴾ [طه]. وثالثاً: كيف إذا لم يكن عيسى ﷺ قد صلب: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿٤٣﴾﴾ بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [النساء] (١).

خامساً: دعوى دينونة المسيح:

• (وإذا جاء ابن الإنسان في مجده، تواكبه جميع الملائكة، يجلس على عرش مجده، وتحشر لديه جميع الأمم، ويفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعي الخراف عن الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن شماله. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا من باركهم أبي، فرثوا الملكوت المعد لكم منذ إنشاء العالم... ثم يقول للذين عن الشمال: إليكم عني أيها الملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته... فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبدي، والأبرار إلى الحياة الأبدية) إنجيل متى ٢٥/٣١ - ٣٤، ٤١، ٤٦ (٢).

• (الحقَّ الحقَّ أقول لكم: تأتي ساعة - وقد حضرت الآن - فيها يسمع الأموات ابن الله والذين يسمعونه يحيون. فكما أن الأب له الحياة في ذاته. فكذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته. وأولاه سلطة إجراء القضاء، لأنه ابن الإنسان. لا تعجبوا من هذا فتأتي ساعة فيها يسمعُ صوته جميع الذين في القبور فيخرجون منها أما الذين

(١) وانظر في إبطال عقيدة الصلب والفداء: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (١٠٨/٢ - ١١٦).

(٢) العهد الجديد: (١٠٧).

عملوا الصالحات فيقومون للحياة. وأما الذين عملوا السيئات فيقومون للقضاء) إنجيل يوحنا ٥/٢٥ - ٢٨^(١).

فهذان النصان الصريحان من الأناجيل، وأمثالهما من رسائل بولس يكشفان عن اعتقاد النصارى: أن الذي سيتولى الفصل بين الخلائق يوم القيامة والجزاء على الأعمال هو المسيح وليس ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ [الفاتحة]. وهذا من شركهم في الربوبية، قال تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ [غافر]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ [الانفطار]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ [الغاشية]، ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء].

وفي حديث الشفاعة الطويل أن الناس في الموقف يأتون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ليشفعوا لهم عند ربهم في فصل القضاء فيعتذرون وكل واحد منهم يقول: (نفسي نفسي)^(٢)، حتى تنتهي النبوة إلى محمد ﷺ فينتدب لها، وهذا غاية المجد ذلك اليوم وهو المقام المحمود الذي وعده الله إياه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء]. وهو الشفاعة لأهل الموقف أن يقضي الله بينهم.

وهذه العقائد النصرانية التي أدخلها بولس، مستمدة في الواقع من

(١) العهد الجديد: (٣٠٢ - ٣٠٣).

(٢) رواه البخاري: (٢٢٦/٥).

النحل الوثنية، كما أخبر سبحانه: ﴿يُضْهِتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَنْهَلُهُمُ اللَّهُ أَفَّافٌ يُؤَفِّكُونَ﴾ [التوبة]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (ثم أخذ دين المسيح في التبدل والتغير، حتى تناسخ واضمحل. ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء. بل ركبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عباد الأصنام. وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا أصل لها. ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق. ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل، إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس)^(١).

وقد اعتنى بعض المعاصرين الحاذقين بالتنظير بين العقائد النصرانية والعقائد الوثنية، والمقابلة بينهما بما يكشف كسفاً جلياً عن مضاهاة بولس لقول الذين كفروا من قبل، واستمداده منهم^(٢).

المجامع النصرانية:

ظل الصراع قائماً بين أتباع المسيح وأتباع بولس. وكان الظهور للمؤمنين الموحدين حتى عام ٧٠م حين حصار أورشليم من قبل الرومان، وفتكهم بأهلها من اليهود وحيث إن أتباع المسيح كانوا متمسكين بالناموس الموسوي فقد بدوا في أعين الرومان يهوداً فتعرضوا للاضطهاد والشتات، في حين بدا البولسيون مجافين للمظاهر اليهودية فساعد ذلك في تمكينهم. ومع ذلك فقد احتاج أتباع بولس إلى عدة

(١) إغاثة اللهفان: (٣٨٤/٢).

(٢) انظر كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: لمحمد بن طاهر التنير البيروتي. ت (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م) تحقيق: د. محمد بن عبد الله الشرقاوي. دار عمران - بيروت، مكتبة الزهراء - القاهرة. الطبعة الأولى (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م). وانظر أيضاً: محاضرات في النصرانية: (٣٣ - ٣٩).

قرون لخلخلة العقائد الصحيحة، وزرع العقائد الوثنية في أجيال النصارى. ونظراً للاضطهاد العام الذي لقيه النصارى في أرجاء الدولة الرومانية وتخفي علمائهم، وصعوبة التواصل بينهم فقد حال ذلك دون كشف الشبهات، ومقاومة العقائد الدخيلة، فضلوا ضللاً بعيداً. ولما اطمأن القوم في مطلع القرن الرابع وتنفسوا الصعداء، وجهروا بما يعتقدون تكشف الحال عن خلافٍ عريض، وانقسام عميق، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فلا يجمعهم سوى مجرد الاسم وفوجئ الإمبراطور الروماني قسطنطين لما اعتنق النصرانية عام ٣١٢م بهذا التشردم، فأراد أن يجمع كلمتهم في مجمع يضم رؤوسهم، مفتتحاً بذلك سلسلة من المجامع المتعاقبة لتقرير العقيدة النصرانية، ونبد ما يخالفها.

مجمع نيقية:

هو أول مجمع مسكوني. وقد دعا إليه الإمبراطور قسطنطين، فانعقد في مدينة نيقية في شهر مايو عام ٣٢٥ وحضره ألفان وثمانمائة وأربعون أسقفاً، لمناقشة عقيدة آريوس، وهو كاهن في كنيسة الإسكندرية، أنكر إنكاراً شديداً أن يكون «ابن الله» مساوٍ لـ«الأب» في الجوهر. (وحظيت هذه العقيدة الأريوسية، وما رافقها من تعاليم بالقبول السهل لدى جماعات مسيحية في أرجاء مختلفة من العالم الروماني، وما يحيط به من مناطق. وأفضى هذا إلى بدعة حظيت بانتشار شعبي واسع، فهددت وحدة الكنيسة كما لم تُهدد من قبل. وقد جعلت هذه البدعة من «الابن» في الثالوث الأقدس، وكذلك ضمناً من الروح القدس، وسيطين للآب، وكائنين مخلوقين، الأمر الذي حول المسيحية إلى نوع متطور من الإيمان اليهودي، يجعل الآب هو الله الخالق وهو وحده الأبدي. لكن المذهب الأريوسي أقر في الوقت نفسه الماهية الإلهية للابن وللروح القدس في الثالوث، وبذلك خرج

عن مبدأ التوحيد، إذ جاء في الواقع معترفاً بثلاثة آلهة: واحدٌ أولي واثنين ثانويين^(١).

وكان هذا الحشد الكبير من الأساقفة يمثلون طوائف شتى متباينة الأقوال في أصول الإيمان. فأتاح لهم قسطنطين أن يتناظروا ويتجادلوا، وشارك في تلك المناقشات آريوس نفسه، ثم جنح قسطنطين إلى مقالة أتباع بولس القائلين بتأليه المسيح وعددهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً فقط (أي: ١٥,٥٪ من المجتمعين) واستبعد من سواهم، وفوضهم أن يصوغوا قانوناً للإيمان يحمل عليه الكافة ويبدع من لم يقل به، فكان مجمع نيقية الذي تمخض عن (قانون الإيمان النيقاوي) أو ما يسميه النصارى العرب (الأمانة الكبرى)^(٢). ونصها المعدل بعد مجمع القسطنطينية الأول المنعقد عام ٣٨١م ما يلي:

(أنا أومن: (١) بإله واحدٍ أب قادر على كل شيء، خالق السماء والأرض، وكل ما يرى ولا يرى. (٢) ووبرب واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب، قبل كل الدهور، نور من نور، إلهٌ حق من إلهٍ حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، هو الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء، وصار إنساناً. وصلب عنا في عهد بيلاطس البنطي، وتألم وقبر وقام أيضاً في اليوم الثالث، على ما في الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء، وهو جالس عن يمين الآب. وسيأتي أيضاً بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه نهاية. (٣) وأومن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب (والابن)^(٣)،

(١) المسيحية في العالم العربي: (٣٩).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (التي هي الخيانة الحقيرة) (٤٨/٢).

(٣) هذه اللفظة (الابن) أدخلت على النص اللاتيني دون اليوناني لاحقاً، وصارت مدعاة للخلاف أيضاً.

المسجود له، والممجد مع الآب والابن، الذي تكلم بالأنبياء. (٤) وأعتقد بكنيسة واحدة رسولية. (٥) وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. (٦) وأنتظر قيامة الموتى. (٧) وحياة الدهر الآتي^(١).

وسواء كان آريوس موحدًا حقًا، أو جاء بتوحيد مهجن من توحيد اليهود وتثليث النصارى، فقد انقرض مذهبه تحت حملات الإرهاب البولسي المدعوم بسيف الإمبراطور.

(وقد أمر قسطنطين في الرسالة التي وجهها بعد المجمع إلى جميع الأساقفة والشعوب أن تحرق تآليف آري - أي آريوس - ويهدد بالموت كل من يخفيها)^(٢). فاندثرت مقالة آريوس وسائر المقالات الأخرى التي لا تتوافق مع قانون الإيمان النيقاوي. ولكن ذلك لم يوحد كلمة النصارى، فلم تزل الانشقاقات تعصف بهم حول أتفه خلافٍ لفظي أو سلطة كنسية فيعقدون لذلك المجمع المسكونية الكبرى لفض النزاع، فلا يزيدهم ذلك إلا فرقة^(٣). قال ابن القيم رحمته الله: (وكل مجامعهم كانت تجتمع على الضلال وتفترق على اللعن. فلا ينفص إلا وهم ما بين لاعن وملعون. - وقال بعد أن ذكر مجامعهم الكبار -: فهذه عشرة مجامع كبار من مجامعهم مشهورة، اشتملت على أكثر من أربعة عشر ألفاً من البتاركة والأساقفة والرهبان، كلهم ما بين لاعن وملعون. فهذه حال المتقدمين مع قرب زمانهم من أيام المسيح، ووجود أخباره فيهم، والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم، وعلمائهم إذ

(١) أخذ نَصُّها من: المسيحية في العالم العربي: (٤٢ - ٤٣).

(٢) تاريخ الكنيسة المسيحية (٢٢٨).

(٣) اكتفينا بذكر مجمع نيقية لأهميته البالغة في رسم عقيدة عامة النصارى. وانظر تفصيل القول فيه وفي بقية المجمع: تاريخ الكنيسة المسيحية. الفصل الثاني (٢٢٠ - ٢٩٦). هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: (٣١٨/٣٤٦)، محاضرات في النصرانية: (١٢٠ - ١٤٨).

ذاك أوفر ما كانوا، واهتمامهم بأمر دينهم، واحتفالهم به كما ترى، وهم حيارى تائهون، ضالون مضلون، لا يثبت لهم قدم، ولا يستقر لهم قولٌ في إلههم، بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواه، وصرح بالكفر والتبري ممن اتبع سواه. فقد تفرقت بهم في نبيهم وإلههم الأقاويل. وهم كما قال الله سبحانه: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (١) [المائدة].

الشرعة عند النصارى:

جاء عيسى عليه السلام مصداقاً لما بين يديه من التوراة، ومتمماً لشرعة موسى، ومخففاً عن بني إسرائيل بعض ما جُوزوا به - كما تقدم - ولم يأت ناقضاً لشرعة بني إسرائيل التي أودعها الله في التوراة، وحكم بها النبيون الذين أسلموا - وهو أحدهم - للذين هادوا. وقد جاء في إنجيل يوحنا أنه قال: (لا تظنوا أنني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء: ما جئت لأبطل، بل لأكمل. الحق أقول لكم: لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء، أو تزول السماء والأرض. فمن خالف وصية من أصغر تلك الوصايا وعلم الناس أن يفعلوا مثله، عُذَّ الصغير في ملكوت السماوات. وأما الذي يعمل بها ويعلمها فذاك يعد كبيراً في ملكوت السماوات) ١٧/٥ - ١٩.

وهكذا كان الحواريون وكبار التلاميذ محافظين على الناموس، ملتزمين بالشرعة الظاهرة التي عليها قومهم بنو إسرائيل، حتى أجلب عليهم بولس في شأن المتنصرين من الوثنيين، وطالب بإعفائهم من الختان وأحكام الشريعة، سوى ذبائح الأصنام، والدم، والميتة،

(١) إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان: (٣٨٩/٢، ٣٩٥) وما أصدق قول الله فيهم: ﴿وَمَنْ أَلَدَبَ قَالُوا إِنَّا نَصَدَقُ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

والزنى. أعمال الرسل ١٥/٢٣ - ٢٩، ولم يزل يهون من شأن الشريعة حتى أبطلها بعقيدة الصلب والفداء؛ ذلك أنه لم يكتف باتخاذ هذه العقيدة تكفيراً وخلصاً من خطيئة آدم الموروثة - بزعمه -، بل جعل منها بزخرف القول، وتشقيق الكلام، ذريعة للتحلل من أحكام الشريعة التي كانت مضروبة على بني آدم، وسبباً لحلول اللعنة عليهم بزعمه. يقول في رسالته إلى أهل غلاطية: (إن أهل العمل بأحكام الشريعة هم جميعاً في حكم اللعنة. فقد ورد في الكتاب: «ملعون من لا يثابر على العمل بجميع ما كتب في سفر الشريعة»، أما أن الشريعة لا تبرّر أحداً عند الله فذاك أمرٌ واضح، لأن «البار بالإيمان يحيا»، على حين أن الشريعة ليست من الإيمان، بل من عمل بهذه الأحكام يحيا بها. إن المسيح افتدانا من لعنة الشريعة إذ صار لعنةً لأجلنا، فقد ورد في الكتاب: «ملعون من عُلق على الخشبة» ذلك كيما تصير بركة إبراهيم إلى الوثنيين في المسيح يسوع فننال بالإيمان الروح الموعود به... فقبل أن يأتي الإيمان كنا بحراسة الشريعة مغلقاً علينا من أجل الإيمان المنتظر تجليه. فصارت الشريعة لنا حارساً يقودنا إلى المسيح لنُبرّر بالإيمان، فلما جاء الإيمان لم نبق في حكم الحارس. لأنكم جميعاً من أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع)^(١) (١٠/٣ - ١٤، ٢٣ - ٢٦).

لقد أرسى بولس عقيدة «الإرجاء» لدى النصارى، الذي يجعل الإيمان مجرد المعرفة، وفق الفلسفة التالية: البشر مرتهنون بخطيئة أبيهم آدم. وقد أعطى الله لإبراهيم عهداً بالخلاص لذريته من بني إسرائيل لقاء الالتزام بأحكام الشريعة، فمن خالفها فهو ملعون. وبالتالي فأهل العمل بأحكام الشريعة - فضلاً عن الوثنيين - في حكم اللعنة. والعمل الخلاصي الذي قام به المسيح هو أنه قبل ميتة الملعون، وصار لعنةً من

(١) العهد الجديد: (٥٧٧ - ٥٧٨).

أجل البشر ليحررهم من لعنة الشريعة الناتجة عن الخطيئة، ودفع حياته ثمناً لهذا الخلاص فصار مجرد الإيمان بيسوع من يهودي أو وثني؛ مختون أو غير مختون هو سبب الخلاص دون العمل بأحكام الشريعة. فالإيمان يفتح قلب الإنسان على الحياة التي في المسيح والشريعة تحبسه في الخطيئة وتتركه في اللعنة. وبذلك يتسع العهد الخلاصي الممنوح لذرية إبراهيم - فرع إسحاق - ليشمل جميع البشر ببركة الإيمان بالمسيح وحسب^(١).

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٧﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ [الصفات]. هذا هو الأساس النظري لتنصلهم من الشريعة. وقد ساعد على ذلك ما وقع عليهم من اليهود من اضطهادٍ ومضارةٍ، فأرادوا مفاصلتهم والخروج عن شعارهم الظاهر، كيداً وتشفيًا. قال ابن القيم رحمته الله: (... أخذ القوم في التغيير والتبديل والتقرب إلى الناس بما يهوون، ومكايدة اليهود ومناقضتهم بما فيه ترك دين المسيح والانسلاخ منه جملة. فرأوا اليهود قد قالوا في المسيح: إنه ساحر مجنون ممخرق ولد زنية. فقالوا: هو إله تام وهو ابن الله. ورأوا اليهود يختنون فتركوا الختان. ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة. ورأوهم يتجنبون مؤاكلة الحائض وملامستها ومخالطتها جملة فجامعوها. ورأوهم يحرمون الخنزير فأباحوه، وجعلوه شعار دينهم. ورأوهم يحرمون كثيراً من الذبائح والحيوان فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة، وقالوا: كل ما شئت ودع ما شئت لا حرج. ورأوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة فاستقبلوا هم الشرق. ورأوهم يحرمون على الله نسخ شريعة شرعها فجوزوا هم لأساقفتهم وبتاركتهم أن ينسخوا ما شاءوا ويحللوا ما شاءوا. ورأوهم يحرمون

(١) انظر: الشروحات والتعليقات على النص السابق من رسالة بولس إلى أهل غلاطية. العهد الجديد: (٥٧٥).

السبت ويحفظونه، فحرموا هم الأحد، وأحلوا السبت، مع إقرارهم بأن المسيح كان يحرم السبت ويحفظه... فذهبت النصارى تنقضها شريعة شريعة في مكيدة اليهود ومغايطتهم^(١)، فلا عجب إذاً أن كثر أتباعهم من حصب جهنم.

الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارى:

استعاض النصارى من أتباع بولس بالعبادات الشرعية، طقوساً وثنية كهنوتية لم تَرَح رائحة ملة إبراهيم، ولم تخرج من مشكاة النبوة، وهي ما يسمونها «الأسرار الكنسية» ويعرفونها بأنها: (أعمال مقدسة تمنح بواسطتها بصورة غير منظورة نعمة الله التي تعيد وتجدد وتقدس الإنسان الذي يقبلها... مصدر الأسرار إلهي، وأنه يجب أن تتم بطرق معلومة محددة على أيدي أناس مفوضين بذلك)^(٢).

وهذه الأسرار المزعومة سبعة، ثلاثة أصلية، وأربعة ملحقة:

(١) سر المعمودية أو العماد: وهو غمس الجسم «تغطيسه» في الماء، أو غسله أو رشه ثلاث مرات - على خلاف بين مذاهبهم - ثم مسحه بالزيت المقدس «الميرون» باسم الآب والابن والروح القدس، بغرض تطهير طالب الدخول في النصرانية، أو الطفل المولود لأبوين نصرانيين من الخطيئة الأصلية، خطيئة آدم، وغفران جميع الخطايا.

(٢) سر القربان المقدس «العشاء الرباني»: حيث يقوم الكاهن من أسقف أو قسيس بتقديس خبزٍ وخمر ليأكله الجمهور بعد استدعاء الروح القدس، على التقديم، فالخبز يصبح بمثابة جسد المسيح، والخمر دمه، حقيقة! ويسمى أيضاً «سر الشكر» «الأفخارستيا».

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: (٢٦٦).

(٢) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٨١ - ٨٢).

(٣) سر السيامة: وهي انتقال سلطة يسوع الروحية التي وهبها - بزعمهم - للرسول من جيلٍ إلى جيلٍ لقيادة الكنيسة عن طريق «وضع الأيدي» على الرؤوس، فحينئذٍ تسري «الخلافة الرسولية» في الرتب الكنسية الثلاث: الأسقفية، المشيخة أو القسوسية والشَّمَّاسية. وهذا السر هو ما يميز رجال الدين النصارى «الأكليروس» عن العلمانيين، أي المؤمنين العاديين. فهذه الأسرار الثلاثة أصلية قديمة.

(٤) سر الزواج المقدس: بالاقتران الشرعي - في مقابل المدني - بين الزوجين في مراسم كنسية، فيجعلهما هذا السر جسداً واحداً بمباركة الكنيسة.

(٥) سر الإماتة أو الغفران: وهو نيل الغفران والتكفير عن الخطيئة بالاعتراف أمام الكاهن. ويلتحق به سر الصلاة على المحتضر «الطقوس الأخيرة» لتحقيق الغفران أيضاً.

(٦) سر مسحة الميرون: لمنح نعمة مواهب الروح القدس لتثبيته في الحياة.

(٧) سر مسحة الزيت: لشفاء المرضى نفسياً وبدنياً^(١).

وهكذا اتخذ النصارى دينهم هزواً ولعباً، وهجروا شريعة الله التي فيها الهدى والنور.

إنجيل برنابا:

وقد جدد الله إقامة الحجة على النصارى في القرون الأخيرة حين اكتشفت نسخة تامة وحيدة من كتاب لأحد كبار تلاميذ المسيح المخلصين، وهو «برنابا»، وذلك في مطلع القرن الثامن عشر، عرفت

(١) انظر تفاصيل هذه الأسرار في تاريخ الكنيسة المسيحية: (١٦١ - ١٦٦)؛ و: المسيحية في العالم العربي: (٤٥ - ٥٠).

باسم «إنجيل برنابا»^(١).

والكاتب لم يزعم أن ما كتبه هو «الإنجيل» المنزل من عند الله، رغم أنه كُتب على طرته: الإنجيل الصحيح لعيسى المسمى المسيح^(٢). وغاية ما ذكر أنه حكى في الفصل الحادي والعشرين بعد المائتين، الفصل قبل الأخير، ما يلي: (والتفت يسوع إلى الذي يكتب وقال: يا برنابا عليك أن تكتب إنجيلي حتماً، وما حدث في شأني مدة وجودي في العالم، واكتب أيضاً ما حل بيهوذا^(٣)، ليزول انخداع المؤمنين ويصدق كل أحد الحق. حينئذٍ أجاب الذي يكتب: إني لفاعلٌ ذلك إن شاء الله يا معلم...)^(٤) ١/١٢١ - ٣.

فالكاتب قد كتب في هذا الكتاب ما حدث بشأن المسيح مدة وجوده في العالم من البشارات به، وولادته الخارقة، وآياته المؤيدة بروح القدس، ودعوته إلى عبادة الله تعالى، والبشارة بنبية محمد ﷺ، وما وقع له من أذى اليهود واضطهادهم وسعيهم في محاكمته وصلبه لدى الحاكم الروماني، ثم رفعه إلى السماء، وضمن ذلك خطبه ومواعظه وأمثاله ووصاياه، التي ربما كان بعضها نصوصاً من الإنجيل الحقيقي، كل ذلك بأسلوبٍ إيماني مشرق، ووضوح تام وحمية صادقة، تُشعر القارئ أن كاتبه يقبس من مشكاة

(١) انظر في قصة العثور عليها: مقدمة المترجم لها الدكتور خليل سعادة في كتاب إنجيل برنابا: (١٧ - ٢٠).

(٢) المرجع السابق: (٣٧).

(٣) يهوذا الإسخريوطي: أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، باع معلمه بثلاثين من الفضة، فصار اسمه عنواناً للخيانة. شنق نفسه يأساً. المنجد في الأعلام (٧٥٢) هكذا عند النصاري، والصحيح أن الله ألقى شبه المسيح عليه، فشبه لهم وصلبوه، وأما المسيح عليه السلام فما قتلوه وما صلبوه، بل رفعه الله إليه.

(٤) المرجع السابق: (٢٩٦).

النبوة، ويمتدح من معين التنزيل . حتى إن مترجم هذا الكتاب الدكتور خليل سعادة، رغم كونه نصرانياً مخالفاً لكتابه في المعتقد، أطراه بما يلي: (الحقيقة التي لا مرأى فيها أن كاتب إنجيل برنابا على جانب كبير من الفلسفة، وسمو المدارك، وقوة الحجّة، وشدة العارضة، وجلاء البيان، وإن مباحثه الفلسفية في الجسد والحس والنفس من الوجهة الدينية لمن أسمى ما كتب الباحثون الدينيون في هذا الموضوع)^(١).

وقد أفصح برنابا ﷺ في مفتتح كتابه وختامه بنفرته مما أحدثه بولس وأشياعه من كفر وضلال، فاستهل بالخطبة التالية: (برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح يتمنى لجميع سكان الأرض سلاماً وعزاءً. أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب^(٢) قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعاليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً، مجوزين كل لحم نجس، الذين ضل في عداهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله. وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً. وليكن الله العظيم معكم، وليحرسكم من الشيطان ومن كل شر. آمين)^(٣) ١ - ١٠ فهذا هو

(١) المرجع السابق. المقدمة: (٢٩). والنصارى يعبرون بـ«الفلسفة» و«المباحث الفلسفية» عن «العقيدة» و«المباحث العقديّة».

(٢) هكذا جاء في النص المترجم. ومعلوم أن هذا اللفظ ليس من «الأسماء الحسنى»، ولعل ترجمته الصحيحة: «القدير» كما سيدل عليه نص لاحق: (٣/٢١٦).

(٣) إنجيل برنابا: (٣٧ - ٣٨).

الباعث على تأليف هذا الكتاب. وفي آخر فصلٍ منه يختتم بما يلي: (وبعد أن انطلق يسوع تفرقت التلاميذ في أنحاء إسرائيل والعالم المختلفة. أما الحق المكروه من الشيطان فقد اضطهده الباطل، كما هي الحال دائماً. فإن فريقاً من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ بشروا بأن يسوع مات ولن يقوم. وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام. وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون أن يسوع هو ابن الله. وقد خدع في عدادهم بولص. أما نحن فإنما نبشر بما كتبتُ، الذين يخافون الله ليخلصوا في اليوم الأخير لدينونة الله. آمين) ١/٢٢٢ - ٦^(١).

لقد روى برنابا مما سمعته أذناه ووعاه قلبه عن المسيح مباشرة ما يدحض كفريات بولص وأشياعه، وهو ما يشهد له القرآن العظيم الذي جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتاب. فنذكر أهمها، ونستشهد بموضوع واحد من كتابه لكل مسألة، ونشير إلى مواضع أخرى بأرقامها، طلباً للاختصار:

*** أولاً: إنكاره ﷺ دعوى ألوهيته، وانزعاجه البالغ من ذلك،** وأنه عبد الله ورسوله: (لقد ضللتكم ضلالاً عظيماً أيها الإسرائيليون لأنكم دعوتموني إلهكم وأنا إنسان... أشهد أمام السماء، وأشهد كل شيء على الأرض أنني بريء من كل ما قد قلتم. لأنني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله، مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر) ١/٩٣ - ٢، ١٠^(٢).

*** ثانياً: إنكاره ﷺ دعوى بنوته: (ليكن ملعوناً كل من يدرج في أقوالي أنني ابن الله) ٣٥/٥٣^(٣).**

(١) إنجيل برنابا: (٢٩٧).

(٢) إنجيل برنابا: (١٥٤). وانظر أيضاً: (٩/٤٧ - ١١) (٩٩) ١/٥٩ - ٤ (٢٣٦).

(٣) إنجيل برنابا: (١٠٧). وانظر: ٧٠ (١٢٨)، ٥/٢١٢ (٢٨٥).

*** ثالثاً:** إثباته العهد لإسماعيل عليه السلام وأنه الذبيح: (صدقوني لأنني أقول لكم الحق: إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق) ٣١/٤٣^(١).

(فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما وُلد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟) ١٠/٤٤ - ١١^(٢).

*** رابعاً:** بشارته ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه «مسيا» الذي ينتظره بنو إسرائيل: سأله كهنة الهيكل وغيرهم في مناسبات عدة هل أنت مسيا؟ فمن أجوبته: (لست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه: لأنني لست أهلاً أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا، الذي خلق قبلي، وسيأتي بعدي، وسيأتي بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية) ١٤/٤٢ - ١٥^(٣).

(إن اسم مسيا عجيب، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه... إن اسمه المبارك محمد) ١٤/٩٧، ١٧^(٤).

*** خامساً:** تأكيده على العمل بشريعة الأنبياء: (أتظنون أنني جئت لأجل الشريعة والأنبياء؟ الحق أقول لكم، لعمر الله أنني لم آت لأبطلها ولكن لأحفظها... لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لا يمكن أن يكون مرضياً لله من يخالف أقل وصاياه) ٢/٣٨ - ٣، ٥^(٥).

(١) إنجيل برنابا: (٩٤).

(٢) إنجيل برنابا: (٩٥).

(٣) إنجيل برنابا: (٩٢). وفي نقل برنابا هاهنا ما يستنكر من الغلو، فلينتبه لذلك.

(٤) إنجيل برنابا: (١٦١ - ١٦٢). وانظر: (١٤/٣٩ - ٢٦) (٨٨، ٣٠/٤١) (٩١) (١٩/٤٤ - ٣١) (٩٦، ٧/٨٢ - ١٩) (١٤٢، ١٤٣، ٩٦) (١٥٩) وغيرها

كثير.

(٥) إنجيل برنابا: (٨٦).

*** سادساً:** إثباته الدينونة لله سبحانه وتعالى، والشفاعة العظمى لنبه محمد ﷺ: تضمنت الفصول: ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦ شرحاً وافياً لأحوال يوم القيامة وأهواله ومحاسبة الله للخلائق، وفيه: (تعالوا للدينونة أيتها الخلائق لأن خالقك يريد أن يدينك) ١٨/٥٤، وشفاعة النبي ﷺ، وفيه: (ويكلم الله رسوله قائلاً: مرحباً بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد تنل كل شيء... وبعد أن يتكلم يعطي الله رسوله كتاباً مكتوباً فيه أسماء كل مختاري الله) ١٦/٥٥ - ١٧، ٣٧^(١). حتى لكأن القارئ يقرأ حديث الشفاعة.

*** سابعاً:** إثبات رفع المسيح إلى السماء، ونفي صلبه: (ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع... جاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب. فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد) ١/٢١٥، ٥ - ٦^(٢).

(ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصدع منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياماً. فأتى الله العجيب بأمرٍ عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شهباً بيسوع) ١/٢١٦ - ٤^(٣).

هكذا روى برنابا مشاهداته الأخيرة بوصفه «شاهد عيان». وتفيض الفصول التالية في وصف ما جرى ليهوذا الخائن من محاكمة وإهانة وصلب بنفس الترتيب الذي ترويه الأناجيل الأربعة منسوبة إلى المسيح. كما يصف برنابا الاضطراب الذي حصل في صفوف أتباعه من جراء

(١) إنجيل برنابا: (١٠٥ - ١١٢).

(٢) إنجيل برنابا: (٢٨٨). وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٢) / ٣٠٢ - ٣٠٤.

(٣) إنجيل برنابا: (٢٨٨).

ذلك، وكيف زاغ بعضهم، وثبت الله الراسخين في الإيمان بسياق يتفق من حيث الجملة مع ما قرر القرآن.

يقول الدكتور خليل سعادة، مترجم كتاب برنابا، في مقدمته: (ولما شاع خبر إنجيل برنابا في فجر القرن الثامن عشر، أحدث دويماً عظيماً في أندية الدين والعلم، ولا سيما إنكلترة، فكثر بشأنه الجدل، واحتدمت بين العلماء مناقشات)^(١).

لقد كان اكتشاف هذا الكتاب وشيوعه بارقة أمل وفرصة نادرة للمراجعة واتباع الهدى، وإيثاره على الهوى، سيما والكتاب يفوق ما يسمونها «الأنجيل الأربعة» سموّاً في المعاني، وجزالة ووضوحاً في الأسلوب، وتمكناً في العلم بالكتب السابقة، وعلوّاً في الإسناد، حتى قال مترجمه: (إنك إذا أعملت النظر في هذا الإنجيل وجدت لكتابه إماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد له مثيلاً بين طوائف النصراني إلا في أفراد قليلين من الأخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين كالمفسرين، حتى إنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إمامٌ بالتوراة يقرب من إمام كاتب إنجيل برنابا)^(٢).

فيا سبحان الله لِمَ لا يكون كاتب إنجيل برنابا هو برنابا نفسه؟ لقد نُكس القوم على رؤوسهم، وآثروا رسوم آبائهم، وأصروا على ملة بولس.

وقد تشبث بعضهم بوجود تعليقات باللغة العربية على هوامش المخطوط، فحاولوا نسبة الكتاب إلى مؤلف مسلم مجهول! وما أحسن ما أجاب به الشيخ محمد أبو زهرة رحمته الله: (ومن الغريب أن يُتخذ من

(١) مقدمة مترجم إنجيل برنابا: (٢٠).

(٢) المرجع السابق: (٢٤).

التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامي، ولا يتخذ من صلبه الإيطالي دليلاً على أصله المسيحي^(١).

ومن الثابت لدى مؤرخي النصرانية وجود جملة من الأناجيل والرسائل الرسولية، سوى ما تضمنه قانون العهد الجديد، وأن الكنيسة دأبت على اعتبارها «منحولة» و«مزورة» ومن ذلك «إنجيل برنابا»^(٢). ويذكرون أن البابا «جلاسيوس الأول» أصدر قراراً في أواخر القرن الخامس الميلادي يتضمن قائمة بالكتب المحرّمة، المنهي عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب اسمه: إنجيل برنابا^(٣). وذلك قبل بعثة النبي محمد ﷺ بأكثر من قرنٍ من الزمان. فكيف يتسنى أن يؤلفه مسلمٌ عربي؟! وأما وجود البشارة في النبي محمد ﷺ باسمه الصريح «محمد» فذاك دليلٌ على صدقه لا على تزويره، لموافقته ما في القرآن: ﴿وَبَشِّرِ رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وبعد:

فإن اليهود قد رغبوا عن ملة إبراهيم، ورسالة موسى ﷺ، وهجروا التوراة، واتبعوا «عزرا»، وعظموا التلمود.

وإن النصارى قد رغبوا عن ملة إبراهيم ورسالة المسيح ﷺ، وضيعوا الإنجيل، واتبعوا «بولس» واشتغلوا برسائله.

فخرجت هاتان الأمتان عن دين الإسلام الذي ابتعث الله به جميع رسله، إلى معتقداتٍ وأحوالٍ وأوضاعٍ ليست على هدى الله ولا سنن المرسلين، تتراوح بين الغلو والتساهل، والإفراط والتفريط. فحينئذٍ بعث الله محمداً ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل، وقد مقت أهل

(١) محاضرات في النصرانية: (٦٣).

(٢) انظر: تاريخ الكنيسة: (١٥١)، والقرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (١٠٣).

(٣) مقدمة مترجم إنجيل برنابا: (٢٧).

الأرض: عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا - أو أكثرهم - قبل مبعثه.

والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصمٌ بكتابٍ إما مبدل، وإما منسوخ، ودينٍ دارسٍ بعضه مجهول، وبعضه متروك. وإما أمي من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنته، وظن أنه ينفعه: من نجم أو وثنٍ أو قبرٍ أو تمثالٍ أو غير ذلك، والناس في جاهليةٍ جهلاء، من مقالاتٍ يظنونها علماً وهي جهل، وأعمالٍ يحسبونها صلاحاً وهي فساد. وغاية البارِع منهم علماً وعملاً أن يحصل قليلاً من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين، وقد اشتبه عليهم حقه بباطله. أو يشتغل بعمل القليل منه مشروع، وأكثره مبتدع لا يكاد يؤثر في صلاحه إلا قليلاً، أو أن يكدر بنظره كدح المتفلسفة، فتذوب مهجته في الأمور الطبيعية والرياضية وإصلاح الأخلاق، حتى يصل - إن وصل - بعد الجهد الذي لا يوصف إلى نزرٍ قليلٍ مضطرب، لا يروي ولا يشفي من العلم الإلهي، باطله أضعاف حقه - إن حصل - وأنى له ذلك مع كثرة الاختلاف بين أهله، والاضطراب وتعذر الأدلة عليه والأسباب. فهدى الله ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى، هداية جلّت عن وصف الواصفين، وفاقَت معرفة العارفين، حتى حصل لأمتة المؤمنين عموماً، ولأولي العلم منهم خصوصاً، من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جمعت حكمة سائر الأمم، علماً وعملاً، الخالصة من كل شوب، إلى الحكمة التي بعث بها، لتفاوتت تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضى^(١).

وبهذا يعلم أن من يسعى للتقريب بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية يحاول الجمع بين النقيضين، والتوفيق بين المتضادين، وأنه لم يفقه حقيقة الدين الذي بعث الله به المرسلين.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/٦٣ - ٦٤).

المبحث الثالث

حكم الإسلام في «أهل الكتاب»

أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ رحمة للعالمين، وحجةً على الناس أجمعين؛ كتابيهم ومشركهم، عربهم وعجمهم، في وقت كانوا أشد ما يكونون حاجة إلى نبي من عند الله يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويذكرهم بأيام الله، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم. ذلك أنهم قد آل أمرهم إلى مأزقٍ لا يمكنهم الانفكاك من قبضته إلا ببينة من ربهم، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ [البينة].

فجاء هذا «القرآن» الذي هو كلام الله بياناً شافياً، وحكماً فصلاً، وقضاءً عدلاً، فيما كانوا فيه يختلفون، سيما أهل الكتاب الذين اتخذوا دينهم شيعاً، وتفرقت بهم المذاهب والأهواء، ولم يقيموا التوراة والإنجيل. فلذلك خُصُّوا بالذكر في آياته، واستُهدفوا في مقاصده وغاياته. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٦٨﴾ [النمل] فهو يرفع الخلاف، ويهدي ويرحم، ثم يقضي ويحكم.

وقال تعالى بعد ذكر الكتابين السابقين، التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر الأقوال في معنى «مهيماً»

عليه»: (وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله)^(١).

فمن سبقت له من الله الحسنى، من أهل الكتاب، وقبل البشرى أُوتي أجره مرتين ونال الحُسنيين، وصار من جملة المسلمين، كما حكى الله ذلك عن بعضهم: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١) الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٤﴾ [القصص]. وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَيَّ أَعْيَنَهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ [المائدة]. فليس عن هؤلاء «السعداء» نتكلم في هذا المبحث، فقد ارتفع عنهم وصف «أهل الكتاب»، وصاروا من «أهل الإسلام». وإنما الكلام على من أصر على دينه، وتشبث برسوم ملته، وأخذته العزة بالإثم، فلم يرفع بالإسلام رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي بعث به نبيه محمداً ﷺ.

وقد حكم الإسلام في أهل الكتاب حكمين:

أحدهما: حكم علمي: في بيان حقيقة ما هم عليه من الاعتقادات والأعمال، وتعيين مُسمَّاهم في باب أسماء الدين والإيمان، وبيان جزائهم في باب وعيد الله.

الثاني: حكم عملي: في وصف معاملتهم، وما يختصون به من أحكام دون سائر الناس.

(١) تفسير القرآن العظيم: (١٢٨/٣).

فالأول: ثابت لا يتغير بتغير الزمان والمكان والحال. **والثاني:** أصله ثابت كذلك، لكن قد تتغير بعض أحكامه بتغير الأحوال، وفق ما تقتضيه السياسة الشرعية على نحو ما سنبين لاحقاً - إن شاء الله -.

أولاً: حكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية الاعتقادية:

توافرت نصوص الكتاب والسنة على ذم عامة أهل الكتاب، وحكاية مقالاتهم الفاسدة في مختلف أبواب الإيمان، وأعمالهم البدعية والشركية، وأخلاقهم الذميمة، مما سبق ذكر طرف منه من صميم كتبهم التي يقدسونها، وتاريخهم الذي يسلّمون به، في المبحث السابق. ونذكر هاهنا حكم الإسلام الفصل في حقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقائد وأعمال حين أدركهم الإسلام، دون الاستطراد في ذكر معائبهم السابقة مع أنبيائهم على سبيل التفصيل مما قصه الله في سورة البقرة والنساء والأعراف وطه وغيرها، عن اليهود، وما قصه في سورة آل عمران والمائدة وغيرهما، عن النصارى.

١ - الحكم بنفي الإيمان عنهم:

* ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

* ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَكِّرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

* ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٤].

* ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١].

* ﴿قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة].

٢ - الحكم بكفرهم:

وردت النصوص بتكفير اليهود والنصارى صريحة واضحة لا تحتمل اللبس والتأويل مقرونةً بذكر سبب كفرهم. وقد تنوعت موارد كفرهم، فمن ذلك:

أ - القول بألوهية المسيح:

* ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢].

ب - القول بالتثليث:

* ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

ج - القول بالبنوة:

* ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضِلُّونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ أَنْفَ يُوَفَّكَونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

د - الكفر بآيات الله:

* ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ١١٢].

* ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٨].

* ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّيثَقَهُمْ وَكُفِّرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥].

هـ - عدم إقامة التوراة والإنجيل:

* ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة].

و - الكفر برسالة محمد ﷺ:

* ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (١٨٩) [البقرة].

ز - كفرهم بإطلاق:

* ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّثْقَاهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥) وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ [النساء].

* ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة].

* ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) [البينة].

٣ - الحكم بشركهم وعبادتهم غير الله:

* ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١) [التوبة].

* ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَن عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢) [النساء].

* ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ

كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧٧﴾ [المائدة].

* ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ ﴿٧٢﴾ [المائدة].

٤ - الحكم بضلالهم:

* ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾ [المائدة] - في النصارى - .
* ﴿أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٦٠﴾ [المائدة].

٥ - الحكم بفسقهم:

* ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ [المائدة].
* ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ [المائدة].
* ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُور لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ [الصف].
* ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ [الحديد].
* ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨١﴾ [المائدة].

* ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٧) [الحديد].

٦ - الحكم عليهم باللعن والغضب:

* ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (١٦) [المائدة].

* ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ (١٥٩) [البقرة].

* ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة ٦١، ٩٠، آل عمران: ١١٢].

* ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٥٢) [النساء].

* ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) [البقرة].

* ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِّثْقَلَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

* ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُوفَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤].

* وقال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». متفق عليه^(١).

٧ - الحكم عليهم بالنار والخلود فيها:

* ﴿تَكَرَّى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) [المائدة].

* ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُم عِندَ اللَّهِ

(١) صحيح البخاري: (١/١١٠)، صحيح مسلم: (١/٣٧٦).

عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ [البقرة].

* ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٨١﴾ [البينة].

* ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ [المائدة].

* ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ [البقرة].

* ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٧٥﴾ [البقرة].

* ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٨٦﴾ [آل عمران].

* ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ [البقرة].

* وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من

هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم^(١).

فهذا حكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية العلمية
الاعتقادية:

فهم في باب أسماء الدين والإيمان: كفارٌ، غير مؤمنين، مشركون، ضالّون، فساق، ضلالاً وفسقاً مخرجين عن حد الإيمان، مغضوبٌ عليهم، ملعونون.

وهم في باب وعيد الله: خالدون مخلدون في النار.

فجملة ما أكفر الله به اليهود والنصارى:

١ - عدم إيمانهم بالله الإيمان الصحيح، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته. فقد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، ونسبوا إليه الولد وألهوا المسيح، وجعلوا الله ثالث ثلاثة، ووصفوه بصفات العيب والنقص ومشابهة المخلوقين.

٢ - أذيتهم لأنبياء الله بالقتل والسبب والتكذيب.

٣ - إنكارهم لنبوّة محمد ﷺ بعد قيام الحجة عليهم.

٤ - كفرهم بآيات الله، بتكذيبها وكتمانها وإخفائها وتحريفها تحريفاً لفظياً ومعنوياً والاختلاف فيها، وعدم إقامتها، والإعراض والتولي عنها.

٥ - كفرهم باليوم الآخر.

(١) صحيح مسلم: (١/١٣٤).

الحكم بنسخ شرائعهم بشريعة الإسلام:

فلما آل حال القوم إلى الكفر بالله وتكذيب رسله وتحريف كتبه، واستزلال الشيطان لهم في عباداتهم إلى الشرك والبدعة، وفي معاملتهم إلى الظلم والعدوان، حتى انطمس انتمائهم إلى ملة إبراهيم، وتحللوا من عرى الدين، نسخ الله شرائعهم بشريعة الإسلام، وأبطل اليهودية والنصرانية، وأثبت الحنيفية المسلمة، فلا يقبل ديناً سوى الإسلام: وأدلة ذلك:

* ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

* ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وصدر سورة آل عمران قد نزل في محاجة نصارى نجران الذين وفدوا على النبي ﷺ.

* ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

* ﴿وَإِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وذلك بعد ذكر أمره السابق لليهود بالحكم بالتوراة، وأمره للنصارى بالحكم بالإنجيل.

* وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١).

(١) صحيح مسلم: (١/١٣٤).

* وقال أيضاً: «إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة، لا اليهودية ولا النصرانية»^(١).

وإلى جانب هذا الحكم العقدي الفاصل كشف الله تعالى في كتابه لعباده المؤمنين من صفات السوء، التي طبعوا عليها، وصارت سمةً لعامتهم، وما يكفيهم للحذر منهم، وعدم الوقوع فيما وقعوا فيه، وأكثرها في اليهود، ومن ذلك:

١ - الحسد:

* ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران].

٢ - النفاق والخيانة:

* ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ [المائدة: ٤١].

* ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

* ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضُكُمْ إِنْ أَلَّهَ عَلِيمٌ بِّذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران].

* ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٠٤/١٣)، (٢٦٤). ورواه أحمد بلفظ: (إن ذلك الدين القيم عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية): المسند: (١٣١/٥). وقال محققوه: إسناده حسن. انظر: تكملة تحقيق المسند طبعة مؤسسة قرطبة الجزء الثاني من المجلد الخامس: (٧٢ - ٧٣).

أَتَّخِذُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾
[البقرة].

٣ - المكر والخديعة:

* ﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾
[آل عمران: ٧٢، ٧٣].

٤ - المعصية والعدوان وموالاته الكفار:

* ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ﴾
[المائدة: ٦٢].

* ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦١]،
* ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ
مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة].

٥ - البخل والشح:

* ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].
* ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأَمَّنْهُ يَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ
قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦ - الجبن:

* ﴿وَإِنْ يُقْتَلُوا يُولُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].
* ﴿لَا يُقْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر].

٧ - قسوة القلوب:

* ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾
[البقرة: ٧٤].

* ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

* ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّثْقَهُمْ لَعَنَهُمُ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴿١٣﴾﴾
[المائدة: ٧٤].

٨ - العداوة والبغضاء:

* ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] - في اليهود -.

* ﴿فَاعْرَظْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [المائدة: ١٤] - في النصارى -.

٩ - الذلة والمسكنة:

* ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

* ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْقَهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

١٠ - السعي في الفساد:

* ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾
[المائدة: ٦٤].

١١ - نقض العهود:

* ﴿أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

* ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥].

* ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

١٣ - الدعاوى العريضة الكاذبة:

* ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]

* ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُل هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ثانياً: حكم الإسلام في معاملة أهل الكتاب:

بناءً على الحكم العقدي الواضح في كفر أهل الكتاب وفسقهم وضلالهم ورغبتهم عن ملة إبراهيم، واستنكافهم عن اتباع خاتم المرسلين ﷺ، جاءت أحكام الشريعة الإسلامية بمعاملتهم معاملة تجمع بين التزام الحق ولزوم العدل؛ بين تمييز أهل الإيمان وإظهار شرفهم وعلوهم، لشرف الحق الذي يحملونه، ليظهره الله على الدين كله، وبين منع الظلم والاستطالة بغير حق على من يعيش في كنف المسلمين، ويستظل بولايتهم ملتزماً شرائطهم العادلة المنصفة.

وقد كان يعيش في أطراف الجزيرة العربية، وبعض نواحيها قبائل من أهل الكتاب كنصارى تغلب، ونصارى نجران، ويهود خيبر وفدك بعد إجلاء اليهود من المدينة إبان العهد النبوي، ولما فتح الخلفاء الراشدون الأمصار كان عامة أهل العراق والشام ومصر من أهل الكتاب. فما ضاقت بهم شريعة الله، ولم يحتر المسلمون في معاملتهم، ولم يحتاجوا إلى ما عرف في التاريخ القديم والحديث بعمليات التطهير العرقي والديني. وفي ذات الوقت لم يتخل أهل الإسلام عن خصائص دينهم، أو يتأثروا بجمهورهم الكثيف في بداية حركة الفتح الإسلامي. بل لزموا موازنة دقيقة منصفة عادلة مستمدة من

كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، لَفَّحت عقول المجتهدين من أئمة الفقه وولادة المسلمين، حتى تكون ما عرف بـ«أحكام أهل الذمة».

ونثبت فيما يلي طائفتين من الأحكام المتعلقة بمعاملة أهل الكتاب:

الطائفة الأولى: في الأحكام المقصودة لحفظ الدين، وتميز المسلمين.

والطائفة الثانية: في الأحكام المقصودة لحفظ الحق وقيام العدل والإحسان.

ثم نتبعه ببيان الفارق الدقيق بين هذين المقصودين، وميزان العدل بين هاتين الكفتين الذي خفي على كثير من الناس فوق بعضهم في الإفراط وبعضهم في التفريط.

أ - الأحكام المتعلقة بحفظ الدين وتميز المسلمين:

١ - كون الدين كله لله بإسلامهم أو إعطائهم الجزية أو قتالهم:

* ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَسُوا فَلَا عُذُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣) [البقرة].

* ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَسُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩) [الأنفال].

* ﴿فَنِلُوا الدِّينَ لَا يَوْمُنُوكَ بِاللَّهِ وَلَا يَأْتِيَوْمُ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩) [التوبة].

* عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله.

اغزوا ولا تَغْلُوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنمة والفبيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...»^(١) الحديث.

* وعند معاذ بن جبل^(٢) رضي الله عنه قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فأمرني أن آخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعاً أو تبيعة، ومن كل أربعين مسنة، ومن كل حالم ديناراً أو عدله مَعَاْفِر^(٣).

وعلى ذلك درج الخلفاء الراشدون أثناء الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق ومصر. فصار قوادهم يبرمون العهود والاتفاقيات الملزمة لأهل الكتاب الباقيين على دينهم، بدفع الجزية للمسلمين مع إقرارهم على أموالهم وعقارهم ومعابدهم، واعتبارهم «أهل ذمة». قال ابن

(١) رواه مسلم: (١٣٥٧/٣).

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الرحمن، من أعيان الصحابة. شهد بدرًا وما بعدها. وكان إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن. مات بالشام سنة ثمان عشرة. تقريب التهذيب (٢/٢٥٥).

(٣) رواه الترمذي: (١١٥/٣)، والنسائي: (٢٦/٣)، وأبو داود: (٢/٢٣٤ - ٢٣٥) وقال عن المعافر: (ثياب تكون في اليمن). وقال ابن حجر: (وصححه ابن حبان والحاكم) بلوغ المرام من أدلة الأحكام: ابن حجر، أحمد بن علي، العسقلاني. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار الكتب العلمية. بيروت (٢٧٥).

القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فالجزية هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغاراً.. واختلف الناس في تفسير «الصَّغار» الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية. فقال عكرمة^(١): أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخذ جالساً. وقالت طائفة: أن يأتي بها بنفسه ماشياً لا راكباً، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف، ثم تجريده ويمتهن.

وهذا كله مما لا دليل عليه. ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك. والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية، فإن التزامهم ذلك هو الصغار^(٢).

هذا هو المقصود الأعظم، والهدف الأساسي من فرض الجزية كما نطقت بذلك النصوص. فهي مظهر جلي لكون الدين كله لله، واستسلام العباد لأمره، وكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وقد تقترب بهذا الهدف مقاصد أخرى من مقتضى عقد الذمة، وهي الحماية والمنعة المكفولة من قبل الدولة الإسلامية لأهل ذمتها، ومن أجل ذلك رد أبو عبيدة^(٣)، عامر بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أخذه من

(١) عكرمة: مولى ابن عباس، وثقه جماعة، واعتمده البخاري. أما مسلم فلم يخرج له إلا قليلاً مقروناً بغيره، قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. توفي سنة ١٠٥هـ. ميزان الاعتدال (١٣/٤).

(٢) «أحكام أهل الذمة» ابن القيم، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. تحقيق: د. صبحي الصالح. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٩٤م. (٢٢/١ - ٢٤). (٢٢/١ - ٢٤).

(٣) عامر بن عبد الله بن الجراح، القرشي، الفهري، أبو عبيدة أحد العشرة، أسلم قديماً، وشهد بدرًا. مات شهيداً بطاعون عمواس سنة ثمان عشرة، وله ثمان وخمسون سنة. تقريب التهذيب (٣٨٨/١).

الجزية على أهل الشام لما بلغه اجتماع جحافل الروم لحرب المسلمين، فخشي ألا يفي بما وعدهم من الحماية: (فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج)^(١): قال الماوردي^(٢) رَحِمَهُ اللهُ: (يجب على ولي الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب لِيُقَرُّوا بها في دار الإسلام، ويلتزم لهم ببذلها حقان: أحدهما: الكف عنهم، والثاني: الحماية لهم، ليكونوا بالكف آمينين، وبالحماية محروسين)^(٣).

ويجنح كثير من الكتاب المسلمين المعاصرين إلى «الاعتذار» عن الإسلام! لفرضه الجزية على أهل الكتاب، بألوان متكلفة من التوجيهات والاستنباطات، وربما صح بعضها تبعاً، لا استقلالاً، في حين يغضون الطرف عن الحكمة الأصيلة في هذا التشريع، وهي إذلال الكفار وإظهار صغارهم^(٤). ولا ريب أن هذا المنحى إنما هو نتيجة للهزيمة

(١) كتاب الخراج: أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم. المطبعة السلفية - القاهرة. الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ. (١٥٠).

(٢) الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠هـ) علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن، الماوردي. أفضى قضاة عصره. من العلماء الباحثين أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة. ولد في البصرة وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء في بلدان كثيرة. ثم جعل «أفضى القضاة» في أيام القائم بأمر الله العباسي. توفي في بغداد. من كتبه: أدب الدنيا والدين، والنكت والعيون، والأحكام السلطانية. وغيرها. انظر: الأعلام (٣٢٧/٤).

(٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي. تخريج وتعليق: خالد عبد اللطيف السبع العلمي. دار الكتاب. بيروت. (٢٥٤).

(٤) انظر على سبيل المثال: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي د. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة السادسة (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م). (٣٤ - ٣٦).

النفسية والحضارية التي يعيشها المسلمون في هذا الزمان. ويقابل هذا الانكسار المعاصر تساؤلٌ يَرِدُ في قلوب المسلمين الأولين: هل في إبقاء أهل الكتاب بين ظهرائي المسلمين بالجزية، ما ينافي كون كلمة الله هي العليا، وكون الدين لله؟ ويجيب ابن القيم رحمته الله قائلاً: (ليس في إبقائهم بالجزية ما يناقض هذا المعنى، كما أن إبقاء أهل الكتاب بالجزية بين ظهور المسلمين لا ينافي كون كلمة الله هي العليا، وكون الدين كله لله. فإن من كون الدين كله لله إذلال الكفر وأهله وصغارهم، وضرب الجزية على رؤوس أهلهم، والرق على رقابهم، فهذا من دين الله، ولا يناقض هذا إلا ترك الكفار على عزهم، وإقامة دينهم كما يحبون، بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة. والله أعلم^(١)).

ويلتحق بهذا الأصل العظيم؛ كون الدين كله لله، وكون كلمة الله هي العليا، خضوع أهل الذمة لأحكام الشرع العام في الدماء والأموال والأعراض، وعدم مضايقة المسلمين بالاستعلان بشعائهم الظاهرة. وما سوى ذلك من الأمور التعبدية والشخصية والاجتماعية فيما بينهم فهم أحرار، إلا أن يحتكموا إلينا.

وقد ألحق ابن القيم رحمته الله ذكر الشروط العمرية وأحكامها وموجباتها وشرحها في آخر كتاب «أحكام أهل الذمة» وأشاد بها، وقوى من شأنها فقال: (وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم، وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها)^(٢). وسياق هذه الشروط يعطي المتفقه حدود المعالم الرئيسية لمعاملة أهل الكتاب، ودينونتهم لحكم الإسلام. وقد رواها

(١) أحكام أهل الذمة: (١٨/١).

(٢) أحكام أهل الذمة: (٢/٦٦٣ - ٦٦٤).

عبد الله ابن الإمام أحمد^(١) بسنده أن أهل الجزيرة كتبوا إلى عبد الرحمن بن غنم^(٢): (إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا، على أننا شرطنا لك على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا كنيسة، ولا في ما حولها ديراً ولا قلاية^(٣) ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا، ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وأن لا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين، وألا نخرج باعوثاً - قال: والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر - ولا شعانين^(٤)، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نجاورهم بالخنازير ولا ببيع الخمر، ولا نظهر شركاً، ولا نرغب في ديننا، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، وألا نمنع أحداً من أقربائنا أرادوا

(١) عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، أبو عبد الرحمن، ولد سنة ٢١٣هـ، من حفاظ الحديث المتقنين، وهو راوي المسند عن أبيه، وله زوائد المسند، وله أيضاً زوائد الزهد على كتاب الزهد لأبيه وله مسائل عن أبيه. ومن كتبه أيضاً «السنة» توفي سنة ٢٩٠هـ. الأعلام (٤/٦٥)، تهذيب التهذيب (٥/١٤١)، الطبقات لأبي يعلى (١/١٨٠)، التيمورية (٢٣٦٢)، الرسالة المستطرفة (١٦).

(٢) عبد الرحمن بن غنم الأشعري. مختلف في صحبته وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين. مات سنة ثمان وسبعين. تقريب التهذيب (١/٤٩٤).

(٣) القلاية: مسكن الأسقف «يونانية» المنجد في اللغة (٦٥٢).

(٤) الشعانين: عيد الأحد الذي قبيل الفصح «عبرانية» مأخوذ من: «هوشيعه نا» أي خلصنا. المنجد في اللغة (٣٣٦).

الدخول في الإسلام، وأن نلزم زَيْنًا حيث كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكنائهم، وأن نجز مقدم رؤوسنا، ولا نفرق نواصينا، ونشد الزنانيير^(١) على أوساطنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدتهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحدٌ منا مسلماً في تجارة إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام، ونطعمه من أوسط ما نجد. ضمنا لك ذلك على أنفسنا وذرائينا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا، وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق.

فكتب بذلك عبد الرحمن بن غنم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: (أن امض لهم ما سألوا، وألحق فيهم حرفين، اشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: ألا يشتروا من سبايانا. ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده) فأنفذ عبد الرحمن بن غنم ذلك، وأقر من أقام من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط^(٢).

ورغم ما قيل في شأن هذه الشروط من ناحية الثبوت، أو من الناحية الموضوعية فقد ظلت المرجع الأساسي لفقهاء الأمة^(٣).

(١) الزنانيير: جمع زُنَّار وزُنَّارة: ما يشد على الوسط «يونانية». المنجد في اللغة (٣٠٨).

(٢) عن أحكام أهل الذمة: (٢/٦٥٧ - ٦٦١).

(٣) ذكر ابن حزم هذه الشروط في مراتب الإجماع: ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. دار الكتب العلمية. بيروت. (١١٥). ورواها بسنده عن =

يقول الماوردي: (ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان، مستحق ومستحب:

أما المستحق فستة شروط:

أحدها: ألا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.

والثاني: ألا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء.

والثالث: ألا يذكروا دين الإسلام بدم له ولا قدح فيه.

والرابع: ألا يصيبوا مسلمة بزنا لا باسم نكاح^(١).

والخامس: ألا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يتعرضوا لماله ولا دينه.

والسادس: ألا يعينوا أهل الحرب، ولا يودوا أغنياءهم^(٢).

فهذه الستة حقوق ملتزمة، فتلزمهم بغير شرط، وإنما تشترط إشعاراً لهم وتأكيداً لخليط العهد عليهم، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم.

وأما المستحب فستة أشياء:

أحدها: تغيير هيئاتهم بلبس الغيار، وشد الزنار.

= عبد الرحمن بن غنم، في المحلى: (٣٤٦/٧ - ٣٤٧). والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٢/٩). وذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم». وقال بعدها: «رواه حرب بإسناد جيد» ثم قال: (وهذه الشروط أشهر شيء في كتب الفقه والعلم. وهي مجمع عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين، وأصحابهم وسائر الأئمة) (٣٢٦/١ - ٣٢٧).

(١) في العبارة خفاء. ولعلها: (ولا باسم نكاح) أو (ولو باسم نكاح).

(٢) في العبارة خفاء. ولعلها: (ولا يؤووا عيونهم)، فقد جاء في ما يلزم الذمي عند أبي يعلى: (ولا يؤوي للمشركين عيناً، أعني جاسوساً). الأحكام السلطانية ١٥٨، فرما جرى تصحيف من النساخ.

والثاني: ألا يعلوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم.

والثالث: أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في عزيز والمسيح.

والرابع: ألا يجاهروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.

والخامس: أن يخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة.

والسادس: أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاناً، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير.

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزمة، ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم، لكن يؤخذون بها إجباراً ويؤدبون عليه زجراً، ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم^(١).

والناظر في هذه الشروط من خلال الأصول العامة للشريعة، والنصوص الواضحة بإلزام أهل الذمة الذلة والصغار، وأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه يدرك أنها ذات أصل عُمرِي راشدي مستضيء بنور الكتاب والسنة. أما ما غص به بعض الكتاب المحدثين واستثقلوه منها، أو اجتهدوا في توجيهها توجيهاً لا يتفق ومقاصد الشرع فإنما جاء نتيجة لضغط الواقع المرير والضعف البالغ الذي مني به المسلمون في هذه الأزمنة، والله المستعان.

(١) الأحكام السلطانية: (٢٥٨ - ٢٦٠)، وانظر أيضاً: الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء: (١٥٨).

٢ - عدم موالاتهم أو ائتمانهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا يَغِيظُكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة].

* ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المجادلة].

* فنهى المؤمنون عن موالاته الكفار عموماً، وأهل الكتاب خصوصاً، ومعنى الموالاته في اللغة القرب والنصر والحلف. قال الجوهري^(١) في مادة «ولي»: (الولي: القرب والدنو. يقال: تباعد بعد

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر، لغوي، من الأئمة، ومن أشهر مؤلفاته: الصَّحاح، وله كتاب في العروض، ومقدمة في النحو. مات سنة ٣٩٣هـ. =

ولي . . والوليُّ: ضد العدو. يقال منه: تولاه . . والموالاة ضد المعاداة والولاية والولاية: النصر. يقال هم عليّ ولاية: أي مجتمعون في النصر^(١). وقال ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة]، بعد أن ذكر أقوالاً في سبب نزولها: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان)^(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران] (يعني بذلك تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به نبيهم من عند ربهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، يقول: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دونكم، يقول: من دون أهل دينكم وملتكم، يعني من غير المؤمنين، وإنما جعل البطانة مثلاً لخليل الرجل فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه لحلوله منه في اطلاعه على أسرارهِ وما يطويه عن أباعه، وكثير من أقاربه، محل ما ولي جسده من ثيابه)^(٣)، ثم بين أن المعنيين بذلك هم أهل الكتاب من يهود بني

= الأعلام (١/٣١٣)، معجم الأدباء (٢/٢٦٩)، النجوم الزاهرة (٤/٢٠٧)، لسان الميزان، (١/٤٠٠)، إنباه الرواة (١/١٩٤)، يتيمة الدهر (٤/٢٨٩).

(١) الصحاح: (٦/٢٥٢٨).

(٢) جامع البيان: (٦/٢٧٦).

(٣) جامع البيان: (٤/٦٠).

إسرائيل وليس المنافقين أو المشركين^(١).

وهكذا فهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي شهد عهده فتوح الأمصار وانضواء أهل الكتاب تحت عقد الذمة، فكان شديد الحرص والحيطه على عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وزجر عماله ونوابه على استعمالهم على مصالح المسلمين الخاصة. ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن أبي حاتم^(٢) بسنده قال: (قيل لعمر بن الخطاب: إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة حافظاً كاتباً فلو اتخذته كاتباً. قال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين)^(٣)، وعقب ابن كثير رحمته الله قائلاً: (ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استتالة على المسلمين وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يغشوها إلى الأعداء من أهل الحرب)^(٤). وقد أفاض ابن القيم رحمته الله في سرد مواقف بعض الخلفاء من أهل الذمة، حين رأوا منهم نفوذاً واستتالةً على المسلمين في دولة بني أمية وبني العباس وانتهاءً بدولة بني أيوب^(٥). ونختار منها قطعةً نسخها رحمته الله من كتاب للخليفة العباسي المتوكل^(٦) إلى عماله،

(١) جامع البيان: (٦٣/٤ - ٦٤).

(٢) عبد الرحمن بن محمد، أبي حاتم، ابن إدريس بن المنذر التيمي الحنظلي، الرازي، أبو محمد ولد سنة ٢٤٠هـ، حافظ للحديث، من كبارهم. له تصانيف منها: الجرح والتعديل، والتفسير، والرد على الجهمية. وغيرها توفي سنة ٣٢٧هـ. الأعلام (٣/٣٢٤).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٥٠٠/٢) وصحح المحقق إسناده.

(٤) تفسير القرآن العظيم: (١/٣٩٨).

(٥) انظر: أحكام أهل الذمة: (٢٠٨ - ٢٤٤).

(٦) جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون (الرشيد)، أبو الفضل خليفة عباسي، ولد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة (٢٣٢هـ)، ولما استخلفه كتب إلى أهل بغداد كتاباً بترك الجدل في القرآن، وأن الذمة =

يقول فيه بعد مقدمة زاخرة بالآيات القرآنية في تحريم موالاة أهل الكتاب وائتمانهم: (...). وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناساً لا رأي لهم ولا روية يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين، ويسلطونهم على الرعية فيعسفونهم، ويسيطون أيديهم إلى ظلمهم وغشهم، والعدوان عليهم، فأعظم أمير المؤمنين ذلك وأنكره وأكبره، وتبرأ إلى الله منه، وأحب التقرب إلى الله تعالى بحسبه والنهي عنه، ورأى أن يكتب إلى عماله على الكور والأمصار، وولاية الثغور والأجناد في ترك استعمالهم للذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم، والإشراك لهم في أماناتهم وما قلدهم أمير المؤمنين واستحفظهم إياه، وجعل في المؤمنين الثقة في الدين والأمانة على إخوانهم المؤمنين، وحسن الرعاية لما استرعاهم، والكفاية لما استكفوا، والقيام بما حملوا، ما أغنى عن الاستعانة بالمشركون بالله، المكذبين برسله، الجاحدين لآياته الجاعلين معه إلهاً آخر، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ورجاء أمير المؤمنين بما ألهمه الله من ذلك، وقذف في قلبه، جزيل الثواب، وكريم المآب، والله يعين أمير المؤمنين على نيته في تعزيز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، فليعلم هذا من رأي أمير المؤمنين، ولا يستعان بأحد من المشركون، وإنزال أهل الذمة منازلهم التي أنزلهم الله تعالى بها. فاقراً كتاب أمير المؤمنين على أهل أعمالك وأشعه فيهم، ولا يعلمن أمير المؤمنين أنك استعنت ولا أحد من عمالك وأعوانك بأحد من أهل الذمة في عمل. والسلام^(١).

ثم خلاص ابن القيم رحمته الله إلى القول: (ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعاً من توليتهم، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم

= بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلقه. توفي سنة (٢٤٧هـ). الأعلام (٢/ ١٢٧)، تاريخ بغداد (٧/ ١٦٥)، تاريخ الطبري (١١/ ٢٦ - ٦٢).

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٢٣ - ٢٢٤).

فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبداً^(١).

٣ - تحريم محبتهم وموالتهم ومؤاخذتهم:

■ قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]، وأي محادّة لله تعالى أعظم من الشرك به ووصفه بالنقائص والعيوب، تعالى عما يقولون علواً عظيماً! وأي محادّة لرسوله ﷺ أعظم من تكذيبه وإنكار نبوته، ورد الحق الذي جاء به!.

■ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر^(٢): (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله)^(٣).

والنصوص في هذا المعنى كثيرة. ومن عجب أن تنزلق السنة

(١) أحكام أهل الذمة: (٢٤٢/١).

(٢) أبو ذر: جندب بن جنادة بن سفيان، من بني غفار، من كبار الصحابة، أسلم قديماً قبل الهجرة وله فضائل ومناقب جمّة، توفي بالريذة سنة ٣٢هـ. الأعلام (١٤٠/٢)، طبقات ابن سعد (١٦١/٤)، الإصابة (٦٠/٧)، صفة الصفوة (٢٣٨/١)، حلية الأولياء (١٥٦/١)، الذريعة (٣١٦/١)، الكنى والأسماء (٢٨/١).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (١٢٥/٣)، والبغوي في شرح السنة: (٣/٤٢٩). وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل) (٣٠٧/٤، ٧٣٥/٢).

بعض رفاق الدين المتعالمين فيطلقون وصف «الأخوة» على أهل الكتاب، فيرفع أحدهم عقيرته في المنتديات العامة، وفوق المنابر العالية قائلاً: إخواننا النصارى!! كيف وقد قال الله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

٤ - تحريم التشبه بهم:

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(١). وهذا التشبه المنهي عنه، المذموم شرعاً، يشمل مماثلة أهل الكتاب ومضاهاتهم، ومجاراتهم في عقائدهم وعباداتهم وسلوكهم وعاداتهم التي يختصون بها، لما يوجب ذلك التشبه - ولو كان ظاهرياً - من الميل الباطني. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: (... إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك. وأمور ظاهرة: من أقوال وأفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضاً عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن، والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك.

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم

(١) رواه أحمد في المسند: (٥٠/١)، وأبو داود (٣١٤/٤)، وجوّد سنده ابن تيمية، وحسنه ابن حجر. انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢٤٠)، والفتاوى (٣٣١/٢٥) وفتح الباري (٩٨/٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير من حديث البشير النذير: السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. مكتبة الحلبوني. دمشق. برقم (٦٠٢٥).

بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً.

وقد بعث الله محمداً ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشريعة والمنهاج الذي شرعه له فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم، والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدى الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة، لأمر:

منها: أن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال. وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضياً لذلك إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن أسباب الغضب، وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقيق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين، وأعدائه الخاسرين. وكلما كان القلب أتم حياءً وأعرف بالإسلام - الذي هو الإسلام - لست أعني مجرد التوسم ظاهراً أو باطناً بمجرد الاعتقادات من حيث الجملة، كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

ومنها: أن مشاركتهم في الهدى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكيمة.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر إلا مباحاً محضاً لو تجرد عن

مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم، كان شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له^(١).

وقد أسس شيخ الإسلام رحمته الله كتابه العظيم - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم - على هذا الأصل الكبير، وساق جملة كبيرة من النصوص الدالة على منع التشبه بالقوم ظاهراً وباطناً.

٤ - الحذر من كتبهم ومروياتهم:

تقدم ذكر الآيات الدالة على تحريفهم للكلم من بعد مواضعه، وكتابتهم الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله.

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله، محضاً لم يُشَبَّ، قد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً. أولاً ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم! فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم)^(٢).

* وعن جابر^(٣) بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ فغضب، فقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم بشيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: (١/ ٨٠ - ٨٢).

(٢) صحيح البخاري: (٨/ ٢٠٨).

(٣) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ له ما يقرب من ١٥٤٠ حديثاً. توفي سنة ٧٨هـ. الأعلام (٢/ ١٠٤)، الإصابة (١/ ٢١٣)، تهذيب التهذيب (١/ ١٤٢).

أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني^(١).

* وفي رواية: (فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا)^(٢).

* وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة فسكت. فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير. فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال: أعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسول الله ﷺ، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده! لو بدا لكم موسى، فاتبعتموه وتركتموني، لضللتكم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني)^(٣).

* وعن أبي نملة الأنصاري^(٤) رضي الله عنه أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد: هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: الله أعلم. قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله ﷺ: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله. فإن كان حقاً لم

(١) رواه أحمد. المسند: (٣/٣٨٧)، وقد استقصى الشيخ محمد ناصر الدين الألباني طريقه وشواهده وخلص إلى القول: (هو على أقل تقدير حديث حسن). ووصف في فتوى اللجنة الدائمة في المملكة العربية السعودية رقم (١٩٤٠٢) في ٢٥/١/١٤١٨ هـ بالشبوت.

(٢) رواه أحمد. المسند: (٣/٣٣٨).

(٣) رواه الدارمي في المقدمة: (١١٥).

(٤) أبو نملة الأنصاري، صحابي اختلف في اسمه ف قيل عمار، وقيل عمر، وقيل عمارة، وهو ابن معاذ بن زرارة من بني ظفر من الأوس شهد أحداً، وقيل شهد بدرًا. انظر: تقريب التهذيب (٢/٤٨٢).

تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم^(١).

فيجب الحذر من كتبهم ومروياتهم وآثارهم، وهي ما أطلق عليه المسلمون «الإسرائيليات»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: (هذه الأحاديث الإسرائيلية، تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا، مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته، لما تقدم^(٢)، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود لأمر ديني^(٣).

٥ - تحريم بداءتهم بالسلاام، وتقديمهم في المرور أو العبور ونحو ذلك:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تبدؤا اليهود ولا النصرارى بالسلاام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه^(٤).

* وعن أبي بصرة^(٥) رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (إنا غادون إلى يهود فلا تبدؤوهم بالسلاام، فإذا سلموا عليكم: فقولوا: وعليكم)^(٦).

(١) رواه أحمد. المسند: (١٣٦/٤). وأبو داود: (٥٩/٤).

(٢) يعني حديث: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) رواه البخاري: (٤/١٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٦٦/١٣ - ٣٦٧).

(٤) صحيح مسلم: (١٧٠٧/٤).

(٥) أبو بصرة، حُمَيْلٌ وَقِيلَ جُمَيْلٌ بن بصرة بن وقاص، أبو بصرة الغفاري، صحابي سكن مصر ومات بها. تقريب التهذيب (٢٠٥/١).

(٦) مسند الإمام أحمد (٣٩٨/٦). وقال محققوه: (حسن). انظر: الجزء الثالث من المجلد السادس: (٤٧٥).

قال ابن القيم رحمته الله: (والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكر له.. فحقيق بتحية هذا شأنها أن تصان عن بذلها لغير أهل الإسلام، وألا يحيى بها أعداء القدوس السلام. ولهذا كانت كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار: «سلام على من اتبع الهدى» ولم يكتب لكافر: «سلام عليكم» أصلاً. فلهذا قال في أهل الكتاب: «لا تبدؤوهم بالسلام»^(١).

(وأما الرد عليهم فأمر أن يقتصر به على «عليكم»... هذا كله إذا تحقق أنه قال السلام عليكم، أو شك فيما قال. فلو تحقق السامع أن الذمي قال له: «سلام عليكم» لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام؟ أو يقتصر على قوله: «وعليك»؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام. فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] فندب إلى الفضل وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئاً من أحاديث الباب بوجه ما^(٢).

٦ - تحريم تهنئتهم بشعائر الكفر وأعيادهم الدينية:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] ولا ريب أن أعيادهم الدينية حافلة بترداد عبارات الكفر والشرك، فلا يشاركهم فيها، ويقرهم عليها، ويهنئهم بها إلا منافق ما قدر الله حق قدره. قال ابن القيم رحمته الله: (وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به، فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك

(١) أحكام أهل الذمة: (١/١٩٧).

(٢) أحكام أهل الذمة: (١/١٩٧ - ١٩٩).

عليك، أو: تهنأ بهذا العيد، ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنته بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند الله، وأشد مقتاً من التهنئة بشرب الخمر، وقتل النفس، وارتكاب الفرج الحرام ونحوه. وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنا عبداً بمعصية أو بدعة فقد تعرض لمقت الله وسخطه^(١).

٧ - تحريم دخولهم الحرم وإقامتهم بجزيرة العرب:

* قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة] قال الماوردي رحمته الله: (أن ليس لجميع من خالف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل الحرم، لا مقيماً فيه ولا ماراً به، وهذا مذهب الشافعي^(٢) رحمته الله وأكثر الفقهاء. وجوز أبو حنيفة^(٣) دخولهم إليه إذا لم يستوطنوه^(٤)).

(١) أحكام أهل الذمة: (٢٠٥/١ - ٢٠٦).

(٢) الإمام محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي المطلبى القرشي، أبو عبد الله، ولد سنة ١٥٠هـ وجمع بين الفقه والحديث والتقى والورع، له «الرسالة» و«الأم» وغيرها، توفي سنة ٢٠٤هـ.

الأعلام (٢٦/٦)، تذكرة الحفاظ (٣٢٩/١)، تهذيب التهذيب (٢٥/٩)، الوفيات (٤٤٧/١)، غاية النهاية (٩٥/٢)، تاريخ بغداد (٥٦/٢ - ٧٣).

(٣) النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة، إمام الحنفية المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة، ولد سنة ٨٠هـ، وتنسب إليه رسالة «الفقه الأكبر»، توفي سنة ١٥٠هـ.

الأعلام (٣٦/٨)، تاريخ بغداد (٣٢٣/١٣)، وفيات الأعيان (١٦٣/٢)، النجوم الزاهرة (١٢/٢)، البداية والنهاية (١٠٧/١٠)، الجواهر المضية (٢٦/١).

(٤) الأحكام السلطانية: (٢٩٠).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبي ﷺ فناداهم: يا معشر يهود: أسلموا تسلموا. فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم. فقال: ذلك أريد. ثم قالها الثانية، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، ثم قال الثالثة، فقال: اعلّموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله^(١).

فهذا دليل خاص على منع استيطانهم المدينة. قال الماوردي: وأجلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل الذمة عن الحجاز، وضرب لمن قدم منهم - تاجراً أو صانعاً - مقام ثلاثة أيام، ويخرجون بعد انقضائها فجرى به العمل، واستقر عليه الحكم، فمنع أهل الذمة من استيطان الحجاز، ولا يمكنون من دخوله، ولا يقيم الواحد منهم في موضع منه أكثر من ثلاثة أيام، فإذا انقضت صرف عن موضعه، وجاز أن يقيم في غيره ثلاثة أيام ثم يصرف إلى غيره، فإن أقام بموضع منه أكثر من ثلاثة أيام عُزِّرَ إن لم يكن معذوراً^(٢).

* وعن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً)^(٣).

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان»^(٤).

(١) رواه البخاري: (٧٥/٨)، (٦٥/٤)، (١٥٦/٨)، ومسلم: (١٣٨٧/٣).

(٢) الأحكام السلطانية: (٢٩٢).

(٣) رواه مسلم: (١٣٨٨/٣).

(٤) مسند الإمام أحمد: (٢٧٥/٦). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٣٢٥/٥): (رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع).

* وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم (أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)^(١).

وإنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخراجهم مع كونه قد عقد معهم صلحاً، فلأنهم لم يفوا بشروطه، فأما أهل نجران فلاسلام بعضهم ثم رده. ولأنه صلى الله عليه وسلم صالحهم على ترك الربا فنقضوا عهده. وأما يهود خيبر فلأنه صلى الله عليه وسلم جعل عقد الصلح معهم جائزاً من جهته فقال: (نقرم بها على ذلك ما شئنا)^(٢)، وفي لفظ: (نقرم ما أقرم الله)^{(٣)(٤)}.

وهذه النصوص تدل على أهمية بقاء جزيرة العرب معقلاً للإسلام، وحوزةً يفيء إليها أهله، ويأرز إليها الدين، فلا غرو أن تكون بمنأى عن أعدائه لا يهتك سترها ولا يستبيحون حماها. وسبحان العليم الحكيم.

ب - الأحكام المتعلقة بحفظ الحقوق، وقيام العدل والإحسان:

- عدم الإكراه في الدين:

* قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

* ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ [يونس].

* ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) [يوسف].

(١) مسند الإمام أحمد: (١/١٩٥).

(٢) رواه مسلم: (٣/١١٨٨).

(٣) رواه البخاري: (٣/١٧٧).

(٤) انظر: أحكام أهل الذمة: (١٧٥ - ١٩١).

قال ابن كثير في تفسير قوله: لا إكراه في الدين: (أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جليّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً^(١)).

وهكذا كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده يكتفون بالعرض والترغيب، ولا يكرهون أحداً على التزام الإسلام، ويكلونه لبارئته.

* فعن وسق الرومي قال: (كنت مملوكاً لعمر، فكان يقول لي: أسلم، فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين، فإنه لا ينبغي أن أستعين على أمانتهم من ليس منهم، فأبيت، فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فلما حضرته الوفاة أعتقني فقال: اذهب حيث شئت^(٢)).

٢ - الإحسان إليهم والعدل في معاملتهم وتحريم أذيتهم وحفظ ذمتهم:

* قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة].

قال ابن جرير رحمه الله بعد سياق الأقوال في المعنيين بقوله: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣١٠/١).

(٢) أحكام القرآن للجصاص: (٤٤/٢)، وانظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم: (٢١١/١).

وتصلوهم وتقسطوا إليهم، إن الله عَزَّ وَجَلَّ عم بقوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَقْنِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِّن دِينِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض^(١).

* وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوءًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا يحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم، وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة)^(٢).

* وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»^(٣).

* وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء - بيت المقدس -:

(هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود)^(٤).

(١) جامع البيان: (٦٦/٢٨).

(٢) جامع البيان: (١٤١/٦).

(٣) رواه البخاري: (٦٥/٤)، (٤٧/٨).

(٤) تاريخ الطبري: (٤٤٩/٢).

* قال موفق الدين بن قدامة^(١) رَحِمَهُ اللهُ فِي بَابِ أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ: (وَعَلَى الْإِمَامِ حِفْظُهُمْ وَالْمَنْعُ مِنْ أَذَاهُمْ، وَاسْتِنْقَاذُ مَنْ أَسْرَ مِنْهُمْ) وَشَرْحُهَا شَمْسُ الدِّينِ بْنِ قَدَامَةَ^(٢) رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: (تَلْزِمُهُ حِمَايَتَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْحَرْبِ وَأَهْلِ الذِّمَّةِ، لِأَنَّهُ التَّزَمَ بِالْعَهْدِ حِفْظَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّمَا بَذَلُوا الْجِزْيَةَ لِتَكُونَ دِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَا، وَأَمْوَالُهُمْ كَأَمْوَالِنَا. وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي وَصِيَّتِهِ لِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ: «وَأَوْصِيهِ بِأَهْلِ ذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، أَنْ يُوْفِيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَيُحَاطُوا مِنْ وَرَائِهِمْ، وَيَجِبَ فِدَاءُ أَسْرَاهُمْ، سِوَاءَ كَانُوا فِي مَعُونَتِنَا أَوْ لَمْ يَكُونُوا»^(٣)).

* وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ^(٤) فِي مَرَاتِبِ الْإِجْمَاعِ: (وَاتَّفَقُوا أَنْ مَنْ أَسْرَهُ

(١) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، الجماعيلي المقدسي، ثم الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، موفق الدين. ولد عام (٥٤١هـ) إمام في الفقه عالم بالحديث من تصانيفه: «المغني» و«روضة الناظر» و«الكافي» و«المقنع» وغيرها. مات سنة (٦٢٠هـ). انظر: الأعلام (٦٧/٤)، البداية والنهاية (١٣/٩٩)، شذرات الذهب (٨٨/٥)، ذيل الطبقات (١٣٣/٢).

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، الجماعيلي الأصل، الصالحي، الحنبلي، شمس الدين أبو الفرج، ولد سنة (٥٩٧هـ)، فقيه أصولي، محدث خطيب، ولد بسفح قاسيون في دمشق، وتفقه على عمه موفق الدين، وولي القضاء مدة تزيد على اثنتي عشرة سنة على كره منه، ثم عزل نفسه في آخر عمره. وتوفي بدمشق سنة (٦٨٢هـ). من تصانيفه: «شرح المقنع لعمه» و«تسهيل المطلب في تحصيل المذهب».

(٣) المقنع والشرح الكبير ومعهما الإنصاف: موفق الدين ابن قدامة، وشمس الدين ابن قدامة، وعلاء الدين المرداوي. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. هجر. مصر. الطبعة الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م). (٤٨٩/١٠).

(٤) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، ولد سنة (٣٨٤هـ)، وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة، فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، وكان يقال: «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان» لسلطة لسانه، توفي سنة (٤٥٦هـ). من تصانيفه «الفصل في =

أهل الحرب من كبار أهل الذمة وصغارهم ونسائهم أن ذمتهم لا تنتقض بذلك ما لم يلحق مختاراً، وأنه إن ظفر المسلمون بالمأسورين المذكورين من أنهم لا يسترقون^(١).

* وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي رسالته إلى سرجوان ملك قبرص:

(.. وقد عرف النصارى كلهم أنني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان^(٢) وقطلو شاه^(٣)، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين. قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون. فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا؛ فإننا نفتكهم، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا، والجزاء على الله^(٤)).

* وجاء في وصية أبي يوسف^(٥) إلى هارون

= الملل والأهواء والنحل» و«المحلى» و«ملخص إبطال القياس» وغيرها. الأعلام (٢٥٤/٤)، نفح الطيب (٣٦٤/١)، آداب اللغة (٩٦/٣)، إرشاد الأريب (٨٦/٥ - ٩٧)، لسان الميزان (١٩٨/٤)، الباب (٢٩٧/١).

(١) مراتب الإجماع: (١٢٣).

(٢) غازان ويقال: «غازان» محمود بن أرغون بن بغا. أحد ملوك التتار. استولى على بلاد الشام واعتنق الإسلام سنة (٦٩٣هـ) وتوفي سنة (٧٠٣هـ). انظر: البداية والنهاية (٣٤٠/١٣، ٦/١٤، ٢٩).

(٣) الأمير سيف الدين قطلو بك التشكير الرومي. كان من أكابر الأمراء، وولي الحجوبية في وقت. وهو الذي عمر القناة بالقدس. توفي تسع وعشرين وسبعمائة. انظر: البداية والنهاية (١٤٥/١٤).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٦١٧/٢٨ - ٦١٨).

(٥) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ولد سنة ١١٣هـ، يعد أول من نشر مذهب أبي حنيفة، كان فقيهاً =

الرشيد^(١) رحمهما الله: (وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتقدم لهم حتى لا يظلموا، ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ من أموالهم إلا بحقٍ وجب عليهم)^(٢).

٣ - حسن جوارهم:

* قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء].

واختار ابن جرير رحمه الله في معنى «الجنب» (الغريب البعيد، مسلماً كان أو مشركاً، يهودياً كان أو نصرانياً)^(٣).

= علامة، ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، من كتبه «الخراج» و«الآثار» وهو مسند أبي حنيفة و«أدب القاضي» والجوامع وغيرها، توفي سنة ١٨٢ هـ.

الأعلام (١٩٣/٨)، مفتاح السعادة (١٠٠/٢ - ١٠٧)، النجوم الزاهرة (٢/١٠٧)، البداية والنهاية (١٨٠/١٠)، الجواهر المضية (٢/٢٢٠)، تاريخ بغداد (٢٤٢/١٤).

(١) هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣ هـ) هارون «الرشيد» ابن محمد «المهدي» بن المنصور العباسي، أبو جعفر: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم. ولد بالري. وولاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، فصالحته الملكة إيريني Irene وافدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار سنوياً. بوع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه. كان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه. فصيحاً، شجاعاً، كريماً، حازماً، متواضعاً، يحج سنة ويغزو سنة. رحمه الله. انظر: الأعلام (٦٢/٨).

(٢) الخراج: (١٣٤ - ١٣٥).

(٣) جامع البيان: (٨٠/٥).

* وعن مجاهد رحمته الله أن عبد الله بن عمرو ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)^(١).

٤ - عيادة مريضهم:

* عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعودته فقعده عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار)^(٢)، وقيده بعض أهل العلم بقصد دعوته إلى الإسلام^(٣). ولعل في مجرد الزيارة والعيادة من تأليف قلبه، وإظهار محاسن الإسلام، ما يستقل بذلك.

٥ - القيام لجنازتهم:

* عن عبد الرحمن بن أبي ليلى^(٤) قال: كان سهل بن حنيف^(٥)، وقيس بن سعد^(٦) قاعدين بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقبل لهما: إنها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) رواه الترمذي: (١٢٤/٨ - ١٢٥). وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) صحيح البخاري: (٩٧/٢).

(٣) انظر: أحكام أهل الذمة: (٢٠٠/١ - ٢٠٢).

(٤) عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، المدني، ثم الكوفي. ثقة. مات بوقعة الجماجم سنة ست وثمانين. تقريب التهذيب (٤٩٦/١).

(٥) سهل بن حنيف بن واهب الأنصاري، الأوسي صحابي، من أهل بدر، استخلفه علي على البصرة. ومات في خلافته. تقريب التهذيب (٣٣٦/١).

(٦) قيس بن سعد بن عبادة، الخزرجي، الأنصاري صحابي جليل. مات سنة ستين تقريباً. تقريب التهذيب (١٢٨/٢).

مرت به جنازة فقام، ف قيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفساً؟»^(١).

* وعن جابر رضي الله عنه قال: (قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)^(٢). وفي شهود جنازتهم وتعزيتهم تفصيل عند الفقهاء^(٣).

٦ - دخول مساجد المسلمين - سوى المجسد الحرام - للحاجة:

* قال ابن إسحاق^(٤): (وفد على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران بالمدينة. فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير^(٥)، قال: لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: (دعوهم). فاستقبلوا المشرق. فصلوا صلاتهم)^(٦).

(١) صحيح البخاري: (٨٧/٢)، صحيح مسلم: (٦٦١/٢).

(٢) صحيح مسلم: (٦٦١/٢).

(٣) انظر؛ أحكام أهل الذمة: (٢٠٢/١ - ٢٠٥).

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني، من أقدم مؤرخي العرب، له «السيرة النبوية» التي هذبها ابن هشام و«كتاب الخلفاء» و«المبدأ» توفي سنة (١٥١هـ). الأعلام (٢٨/٦)، تهذيب التهذيب (٣٨/٩)، إرشاد الأريب (٦/٣٩٩)، وتذكرة الحفاظ (١٦٣/١)، عيون الأثر (١٠/١)، ذيل المذيل (١٠٣). (٥) محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام، روى عن عميه عبد الله وعروة، وعنه ابن إسحاق وابن جريج وغيرهم، ثقة من الطبقة السادسة مات سنة بضع عشرة مائة، وأخرج له الجماعة. تقريب التهذيب (٩٣/٩)، تقريب التهذيب (٤٧١) رقم (٥٧٨٢).

(٦) نقلاً عن زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة - بيروت، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت. الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م). (٦٢٩/٣)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٣٦٨/١ - ٣٧١). وصحح ابن القيم القصة والصلاة في أحكام أهل الذمة: (١٨٧/١).

قال ابن القيم: (في فقه هذه القصة: ففيها: جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين. وفيها: تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضاً إذا كان ذلك عارضاً، ولا يمكنون من اعتياد ذلك)^(١).

٧ - الصدقة والوقف على فقرائهم والوصية لهم:

* قال ابن القيم رحمته الله: (لا ريب أن الصدقة جائزة على مساكين أهل الزمة. والوقف صدقة. فهاهنا وصفان: وصف يعتبر وهو المسكنة، ووصف ملغى في الصدقة والوقف وهو الكفر، فيجوز الدفع إليهم من الوقف بوصف المسكنة، لا بوصف الكفر)^(٢).

* وروى أبو عبيد القاسم بن سلام^(٣) رحمته الله بسنده عن سعيد بن المسيب^(٤): (أن رسول الله ﷺ تصدق صدقة على أهل بيت من اليهود فهي تجري عليهم)^(٥).

* وروى أبو يوسف بسنده: قال: مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضريب البصر. فضرب عضده من خلفه

(١) زاد المعاد: (٣/٦٣٨).

(٢) أحكام أهل الزمة: (١/٣٠٠).

(٣) القاسم بن سلام الهروي الأزدي، أبو عبيد، مولده سنة ١٥٧هـ من كبار العلماء بالحديث والفقه، له «الأموال» و«الأمثال» و«غريب الحديث» وغيرها. توفي سنة ٢٢٤هـ. الأعلام (٢/١٧٦)، تذكرة الحفاظ (٢/٥)، تهذيب التهذيب (٧/٣١٥)، وفيات الأعيان (١/٤١٨).

(٤) سعيد بن المسيب بن حزن، أبو محمد، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. ولد سنة ١٣هـ وجمع بين الفقه والحديث والزهد والورع. وكان أحفظ الناس لأقضية عمر حتى سمي راوية عمر، توفي سنة ٩٤هـ. الأعلام (٣/١٠٢)، طبقات ابن سعد (٥/٨٨)، وفيات الأعيان (١/٢٠٦)، صفة الصفوة (٢/٤٤)، حلية الأولياء (٢/١٦١).

(٥) الأموال: (٦٠٥).

وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما الجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذه عند الهرم. (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)، والفقراء هم المسلمون، والمساكين من أهل الكتاب. فوضع عنه الجزية وعن ضربائه^(١).

وقال الإمام البخاري في صحيحه: (باب الوصية بالثلث. وقال الحسن: لا يجوز للذمي وصية إلا الثلث. وقال تعالى: ﴿وَأَن أُحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]^(٢).

٨ - الحقوق المعيشية في السكنى والتنقل والتكسب:

* قال ابن حزم في «مراتب الإجماع»: (واتفقوا أن لأهل الذمة المشي في أرض الإسلام، والدخول حيث أحبوا من البلاد حاشا الحرم بمكة، فإنهم اختلفوا أيدخلونه أم لا. واتفقوا على أن لهم سكنى أي بلد شاءوا من بلاد الإسلام على الشروط التي قدمنا حاشا جزيرة العرب)^(٣).

* وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من حديد)^(٤).

* وعن عائشة أيضاً قالت: كان على رسول الله ﷺ ثوبان قطريان غليظان فكان إذا قعد فعرق ثقباً عليه، فقدم برز من الشام لفلان

(١) الخراج: (١٣٦).

(٢) صحيح البخاري: (٣/١٨٦ - ١٨٧).

(٣) مراتب الإجماع: (١٢٢).

(٤) صحيح البخاري: (٨/٣).

اليهودي، فقلت: لو بعثت إليه فاشترت منه ثوبين إلى الميسرة، فأرسل إليه، فقال: قد علمت ما يريد. إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي. فقال رسول الله ﷺ: كذب. قد علم أنني من أتقاهم الله وأداهم للأمانة^(١).

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمرٍ أو زرع)^(٢).

٩ - حل طعامهم ونسائهم:

* قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حُلًّا لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حُلًّا لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

فأما الطعام المذكور في الآية ف(لم يختلف السلف أن المراد بذلك الذبائح)^(٣).

وأما المحصنات هنا ف(هن العفاف)^(٤) وتفاصيل هذين الحكمين في مظانها في كتب الفقه.

وفي تمييز أهل الكتاب عن سائر أصناف المشركين بهذين الأمرين من البر والإحسان وحسن المعاملة ما لا يخفى، وله آثارٌ حميدة في استمالة قلوبهم، وتقريبهم إلى دين الإسلام.

(١) رواه الترمذي: (٢١٧/٥). وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) صحيح البخاري: (٦٩/٣)، صحيح مسلم: (١١٨٦/٣).

(٣) أحكام أهل الذمة: (٢٤٥/١).

(٤) أحكام أهل الذمة: (٤١٩/٢).

١٠ - تسميت عاطسهم:

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كانت اليهود تعاطس عند النبي صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول لها: يرحمكم الله فكان يقول: يهديكم الله، ويصلح بالكم^(١).

هذه الموازنة الدقيقة التي جاء بها الإسلام بين النهي عن موالاة الكافرين وموادتهم، والحث على برهم والإحسان إليهم وإيجاب العدل معهم، تشكل على كثير من الناس فيفضي به الأمر إما إلى إعمال الطائفة الأولى من النصوص والغض عن الطائفة المقابلة، فيقع في ظلم أهل الكتاب - سوى الحربيين - والعنف معهم وجفوتهم وأذيتهم، وإما إلى إعمال الطائفة الثانية من النصوص والإغراق في مداينة أهل الكتاب وموادتهم حتى تتعطل دلالة النصوص الأولى، ويختلط عليهم أمر الولاء والبراء، ينقض أوثق عرى الإيمان.

وقد تنبه الفقيه المالكي أبو العباس القرافي^(٢) رحمته الله لهذا الاشتباه الخطير فعقد فصلاً في كتابه القيم «الفروق» نقله بطوله لأهميته وبيانه، فقال: (الفرق التاسع عشر والمائة بين قاعدة بر أهل الذمة، وبين قاعدة التودد لهم).

اعلم أن الله تعالى منع من التودد لأهل الذمة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ

(١) رواه أبو داود: (٢٩٢/٥)، والترمذي: (١٩٨/١٠ - ١٩٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) القرافي: (٥٠٠ - ٦٨٤هـ) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي. من علماء المالكية. وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. له مصنفات جلية في الفقه والأصول. منها: أنوار البروق في أنواء الفروق، والذخيرة في فقه المالكية، والأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة، وغيرها. انظر: الأعلام (١/٩٥).

جَهْدًا فِي سَبِيلِي وَأَبْنَعَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ [الممتحنة] فمِنَعَ المَوَالَاةَ والتودد. وقال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الممتحنة] وقال في حق الفريق الآخر: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٣﴾ [الممتحنة] وقال ﷺ: «استوصوا بأهل الذمة خيراً»^(١)، وقال في حديث آخر: «استوصوا بالقبط خيراً»^(٢). فلا بد من الجمع بين هذه النصوص، وأن الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودد والموالاة منهي عنهما، والبابان ملبسان فيحتاجان إلى الفرق.

وسر الفرق أن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام. وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له: أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة. وحكى في ذلك إجماع الأمة^(٣). فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صوناً لمقتضاه عن الضياع، إنه لعظيم. وإذا كان عقد الذمة بهذه المثابة تعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب، ولا تعظيم شعائر الكفر،

(١) لم أجده.

(٢) لم أجده.

(٣) لم أجد هذا النقل في «مراتب الإجماع» ولعل ذلك بسبب اختلاف النسخ.

فمتى أدى إلى هذين، امتنع وصار من قبل ما نهى عنه في الآية وغيرها. ويتضح ذلك بالمثل: فإخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا، والقيام لهم حينئذٍ، ونداؤهم بالأسماء العظيمة الموجبة لرفع شأن المنادى بها، هذا كله حرام. وكذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق، وأخلىنا لهم واسعها ورحبها والسهل منها، وتركنا أنفسنا في خسيستها وحزنها وضيقها، كما جرت العادة أن يفعل ذلك المرء مع الرئيس، والولد مع الوالد، والحقير مع الشريف، فإن هذا ممنوع لما فيه من تعظيم شعائر الكفر، وتحقير شعائر الله تعالى وشعائر دينه واحتقار أهله. ومن ذلك تمكينهم من الولايات والتصرف في الأمور الموجبة لقهر من هي عليه، أو ظهور العلو وسلطان المطالبة، فذلك كله ممنوع وإن كان في غاية الرفق والأناة أيضاً، لأن الرفق والأناة في هذا الباب نوع من الرئاسة والسيادة وعلو المنزلة في المكارم، فهي درجة رفيعة أوصلناهم إليها، وعظمتناهم بسببها، ورفعنا قدرهم بإيثارها، وذلك كله منهي عنه، وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادماً ولا أجيراً يؤمر عليه وينهى، ولا يكون أحد منهم وكيلاً في المحاكمات على المسلمين عند ولاية الأمور، فإن ذلك أيضاً إثبات لسلطانهم على ذلك المسلم. وأما ما أمر به من برهم من غير مودة باطنية؛ فالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم، لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمور دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانون على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع

عدوه، فإن ذلك من مكارم الأخلاق. فجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل لا على وجه العزة والجلالة منا^(١)، ولا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا ﷺ، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا، واستولوا على دماءنا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا عز وجل. ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امتثالاً لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا ﷺ، لا محبة فيهم، ولا تعظيماً لهم، ولا نظهر آثار تلك الأمور التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة. لأن عقد العهد يمنعنا من ذلك، فنستحضرها حتى يمنعنا من الود الباطن لهم المحرم علينا خاصة^(٢).

هذا هو الفقه بعينه، الذي يجري جميع النصوص مجراها، ولا يضرب بعضها ببعض، أو يُعمل بعضها ويلغي الآخر. إنه فهم دقيق، وتمييز واع بين الاعتقاد الباطن وما يستلزمه، والعدل الظاهر وما يقتضيه. فله دره.

ومن المؤسف أن كثيراً من الكتاب المعاصرين يجتزئ ما يعجبه ويوافق هواه من كلام هذا الإمام، ويهمل ذكر باقيه مما لا يتم المعنى إلا به، فيبرز الجمل العظيمة المتضمنة بر أهل الذمة والإحسان إليهم، ويسوقها باسم تسامح الإسلام، ويضرب صفحاً عن عباراته القوية الإيمانية في التبرؤ القلبي من موادتهم وموالاتهم.

وفي هذا عدوان على النصوص، وتجنُّ على هذا الإمام، وغش للأمة حيث حجب عنها كامل الحقيقة، وحرّمها هذا الفرقان المبين، والله المستعان.

(١) هكذا في الأصل. ولعل صوابها: (من هذا القبيل على وجه العزة والجلالة منا، لا على وجه التعظيم....).

(٢) الفروق: القرافي، شهاب الدين، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي. دار المعرفة. بيروت. (١٤ - ١٦).

المبحث الرابع

«موقف أهل الكتاب من الإسلام»

لقد كان أولى الناس باتباع محمد ﷺ، أهل الكتاب. وذلك لأسباب:

أحدها: أنه البشارة المرتقبة التي زفّها الأنبياء قبله إلى أقوامهم، فتعلقت أفئدتهم بذلك النبي المنتظر، الذي خلعت عليه وعلى أتباعه أجل الأوصاف، وأكرم المعاني، على نحو ما سنذكر بعد قليل.

والثاني: أنه البيئة التي بها افتكاكهم من دوامة الخلاف المرير الذي مزقهم كل ممزق، حتى كفر بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً.

والثالث: أنه فتح لأهل الإيمان على أهل الشرك والأوثان.

ولكن هذا التوقع لم يقع إلا بصورة جزئية فردية، فقد تحدت مواقف أهل الكتاب من يهود ونصارى إبان العهد النبوي، وحين تنزل القرآن، وبدلاً من أن تنضوي زعامتا الديانتين اليهودية والنصرانية، في الديانة الإسلامية التي تمثل الامتداد الطبيعي لملة إبراهيم عليه السلام، ناصبتها العداء، وتفننتا في ردها، ومحاولة وأدها في مهدها، واستئصالها بعد بدوها. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ [الصف].

* روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

قَالُوا ءَامَنَّا ۖ أَيُّ بَصَاحِبِكُمْ رَسُولُ اللَّهِ، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، أي تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه. وهو يخبرهم أنه النبي ﷺ الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا لهم به^(١).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]. قال ابن جرير رحمه الله: (أخبر الله جل ثناؤه أن اليهود لما جاءهم رسول الله ﷺ من الله بتصديق ما في أيديهم من التوراة أن محمداً ﷺ نبي الله، نبذ فريق، يعني بذلك أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا مقرين، حسداً منهم له، وبغياً عليه)^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعْ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦].

فهذه الآيات القرآنية قاطعة بحصول البشارة بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل وكونه موصوفاً فيهما بأكرم الصفات المقتضية لتعلق أهل هذين الكتابين بالإيمان بنبوته والتشوق لمبعثه، ولما كان عيسى ابن مريم ﷺ أولى الناس به، حيث لم يكن بينهما نبي انتقلت البشارة من الوصف إلى التسمية الصريحة القاطعة لأدنى التباس.

(١) جامع البيان: (١/٣٧٠).

(٢) جامع البيان: (١/٤٤٣).

في كتبهم الدينية:

تضمنت كتب بني إسرائيل عبارات متعددة دالة على مبعث نبي عظيم، مؤيد من عند الله، يخضع الله له الأمم والشعوب، ويظهره على من خالفه، وهذا موافق لما أخبر الله به في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

وقد روى ابن جرير رحمته الله بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (لم يبعث الله عز وجل نبياً، آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد: لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه)^(١). ولكن أهل الكتاب لا يثبتون هذه البشارة في حق نبينا محمد ﷺ، بل يحملها اليهود على موعودٍ منتظر في آخر الزمان يتبعونه، ويحملها النصارى على المسيح عيسى ابن مريم، ورجعته في آخر الزمان. ولا ريب أن هذه العبارات تعرضت لعوامل التحريف اللفظي والمعنوي من قبل الأخبار والرهبان لصرف نظر أتباعهم عن رسالة نبينا محمد ﷺ. قال الفخر الرازي^(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَانْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]: (اعلم

(١) جامع البيان: (٣/٣٣٢).

(٢) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، فخر الدين الرازي، إمام في الفلسفة وعلم الكلام، ويقال له «ابن خطيب الري» وهو قرشي النسب أصله من طبرستان ومولده في الري وإليها نسبته. وتوفي في هراة سنة ٦٠٦ هـ، ومن مؤلفاته: «مفاتيح الغيب» وهو التفسير المشهور و«لوامع البينات في شرح أسماء الله والصفات» و«معالم أصول الدين» و«المحصول في علم الأصول» وغيرها.

الأعلام (٦/٣١٣)، الوفيات (١/٤٧٤)، مفتاح السعادة (١/٤٤٥)، آداب اللغة (٣/٩٤)، لسان الميزان (٤/٤٢٦).

أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقتين، وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه، ومنعه من الوصول إليها. فقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل عليه. وقوله: ﴿وَتَكْنُبُوا الْحَقَّ﴾ إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل^(١).

وسنذكر أدناه نماذج من هذه الجمل المتضمنة البشارة بنبينا محمد ﷺ.

* جاء في سفر التثنية: (فقال لي الرب: ... سأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك. وأجعل كلامي في فمه فيخاطبهم بكل ما أمره به) ١٨/١٧ - ١٨^(٢). وقد بين الشيخ رحمت الله الهندي^(٣) ﷺ دلالة هذا النص على البشارة بنبينا محمد ﷺ من عشرة أوجه^(٤) مدارها على امتناع إرادة يوشع بن نون أو عيسى ابن مريم ﷺ بذلك، وإثبات لفظ «إخوتهم» يستعمل في التوراة في حق بني إسماعيل. وقال البروفسور المهتدي عبد الأحد داود^(٥) ﷺ معلقاً على النص السابق: (إذا كانت

(١) التفسير الكبير: الفخر الرازي، محمد بن عمر. دار الفكر. الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م). (٥٤/٢).

(٢) العهد القديم: (٢٨٦).

(٣) سيرد التعريف به في آخر الباب الثالث.

(٤) إظهار الحق: (١١١٦ - ١١٢٨).

(٥) عبد الأحد داود: كان اسمه دافيد بنجامين، كلداني. ولد سنة ١٨٦٧م في «أرميا» من بلاد فارس. وعمل موظفاً في إرسالية الكنيسة الإنجليكانية إلى النسطريين في بلدته بين عامي ١٨٨٦، ١٨٨٩م، ثم ابتعث إلى روما لدراسة اللاهوت. ورسم كاهناً عام ١٨٩٥م. وكان قسيساً لطائفة الروم الكلدانيين. وفي عام ١٩٠٤م زار إستانبول عائداً من بريطانيا، والتقى بعدد من العلماء المسلمين، فاعتنق الإسلام. انظر: مقدمة كتابه (محمد في الكتاب المقدس)، =

هذه الكلمات لا تنطبق على «محمد» فإنها تبقى غير متحققة ولا نافذة. فالمسيح نفسه لم يدَّع أبداً أنه النبي المشار إليه. حتى إن حواريه كانوا على نفس الرأي، وأنهم يتطلعون إلى دعوة المسيح مرة ثانية لكي تتحقق النبوة، وحتى الآن فإنه من الثابت غير المنقوض بأن «الظهور الأول للمسيح» لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة «أقيم لهم نبياً مثلك» وكذلك فإن عودة المسيح مرة ثانية لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات. وأن المسيح كما تؤمن به كنيسته سوف يظهر كقاضٍ، وليس كمقدم للتشريع؛ بينما الموعود هو الذي يجيء حاملاً «الشريعة النارية المشعة بيده اليمنى»^(١).

* جاء في سفر التثنية أيضاً: (أقبل الرب من سيناء. وأشرق لهم من ساعير. وسطع من جبل فاران) ٢/٣٣^(٢).

قال الشيخ رحمت الله الهندي مبيناً هذه الجمل: (فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى ﷺ، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى ﷺ، واستعلانه من جبل فاران إنزاله القرآن؛ لأن فاران جبل من جبال مكة. وفي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في وصف حال إسماعيل عليه السلام هكذا: «٢٠ - وكان الله معه، ونما وسكن في البرية وصار شاباً يرمي بالسهم، وسكن بركة فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر»^(٣)).

= وانظر: «مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية» د. محمد السحيم (٢٣٧ - ٢٦٠).

(١) محمد في الكتاب المقدس: عبد الأحد داود. ترجمة: فهمي شما. مراجعة وتعليق: أحمد محمد الصديق. دار الضياء للنشر والتوزيع. عمان. الطبعة الثانية (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).

(٢) العهد القديم: (٤١١).

(٣) إظهار الحق: (١٣٥/٤). والمعروف أن إسماعيل عليه السلام تزوج مرتين من قبيلة جرهم، التي جاورت البيت.

* وجاء في سفر التكوين: (وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه . وهاءنذا أباركه وأنميّه وأكثره جداً جداً، ويلد اثني عشر رئيساً . وأجعله أمة عظيمة) ١٧/ ٢٠^(١) .

وهذا النص يناسب دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، في القرآن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة] . ولا ريب أن هذه الدعوة إنما تحققت ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وأن «الأمة» المسلمة المنشودة إنما هي أمته . أما ذكر الاثني عشر رئيساً فلعله يوافق قوله صلى الله عليه وآله في الحديث الصحيح الذي رواه جابر بن سمرة^(٢) قال: دخلت مع أبي علي النبي صلى الله عليه وآله فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» . قال: ثم تكلم بكلام خفي عليّ . قال: فقلت لأبي: ما قال: قال: «كلهم من قريش»^(٣)، وفي لفظ: (لا يزال الإسلام عزيزاً...)^(٤)، وفي لفظ: (لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة . أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش)^(٥) . وقريش هم صفوة ذرية إسماعيل عليه السلام،

(١) العهد القديم: (٩٢) .

(٢) جابر بن سمرة بن جُنادة، السوائي، صحابي، ابن صحابي . نزل الكوفة ومات بها سنة سبعين . تقريب التهذيب (١/ ١٢٢) .

(٣) رواه مسلم: (١٤٥٢/٣) .

(٤) رواه مسلم: (١٤٥٣/٣) .

(٥) رواه مسلم: (١٤٥٤/٣) وتامم هؤلاء الخلفاء القرشيين الاثني عشر عمر بن عبد العزيز رحمته الله الذي ولي على رأس القرن الأول، خير القرون، قرن رسول الله صلى الله عليه وآله وفيه جرت معظم الفتوح الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

ورسول الله ﷺ هو صفوة الصفوة كما في الحديث الذي رواه واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١). يقول البرفسور المهتدي عبد الأحد داود: (فإذا كان «محمد» وكما هو معروف للجميع قد جاء من نسل إسماعيل، وابنه قيدر «عدنان»، ثم ظهر بعد ذلك نبياً في قفار فاران، ثم دخل مكة مع عشرة آلاف قديس «مؤمن»، وجاء بالشرعية النارية إلى شعبه، أو ليست هذه النبوة السالفة الذكر هي التي تحققت بالحرف الواحد؟)^(٢).

* جاء في إنجيل «يوحنا» ما نصه: (إذا كنتم تحبوني حفظتم وصاياي، وأنا سأسأل الآب فيهب لكم مؤيداً آخر يكون معكم للأبد) ١٤/١٥ - ١٦، ثم قال في فقرة لاحقة من نفس الإصحاح: (ولكن المؤيد الروح القدس الذي يرسله الآب باسمي، هو يعلمكم جميع الأشياء ويذكركم جميع ما قلته لكم) ١٤/٢٦^(٣). وقد نقل الشيخ رحمت الله الهندي هذا النص عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١م وسنة ١٨٣١م وسنة ١٨٤٤م في لندن على النحو التالي: (١٥ - إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي (١٦) وأنا أطلب من الآب فيعطىكم «فارقليط» آخر ليثبت معكم إلى الأبد (١٧) روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم، وهو ثابت فيكم (٢٦) والفارقليط روح القدس الذي يرسله الآب باسمي، وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كلما قلته لكم (٣٠) والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنوا)^(٤).

(١) رواه مسلم: (١٧٨٢/٤).

(٢) محمد في الكتاب المقدس: (٣٢).

(٣) العهد الجديد: (٣٣٧).

(٤) إظهار الحق: (١١٨٥/٤).

هذا النص المنسوب إلى المسيح ﷺ يتفق في مضمونه مع البشارة القرآنية الواردة على لسانه ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وقد كان عيسى ﷺ يتكلم بالعبرانية، فلما كتبت الأناجيل باليونانية عبر عن المَبَشِّر به بلفظ «بيريكليتوس»، فلما عربت الأناجيل كتبها البعض بلفظ «الفارقليط»، وترجمها البعض بمعنى «المعزي». يقول الداعية أحمد ديدات^(١): «(أحمد) أو «محمد» المثنى عليه أو الممدوح أو المحمود (The Praised One) هو تقريباً ترجمة للكلمة اليونانية «بيريكليتوس» (Periclytos)؛ في إنجيل يوحنا الموجود حالياً (يوحنا ١٤: ١٦؛ ١٥: ٢٦، ١٦: ٧) تأتي كلمة «كومفرتر» (Comforter) في النسخة الإنجليزية (والتي تترجم في التراجم العربية بـ«المعزي») عوضاً عن الكلمة اليونانية «باراكليتوس» (paracletos) التي تعني «المحامي» أو «المؤيد» أو «الشفيع» (Advocate) «الذي يدعى لمساعدة أو معاونة (إنسان) آخر، الصديق، أو الولي، الودود الحنون».

(١) أحمد ديدات: أحمد حسين ديدات. ولد سنة ١٩١٨م. هندي الأصل، ويعيش في «جنوب أفريقيا». تخرج من كلية «مولاي سلطان التقنية» واجتاز برنامجاً في الرسم الهندسي التقني، وفي رياضيات تشغيل اللاسلكي وصيانتها. اشتغل بالدعوة إلى الله منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، وشارك في العديد من المؤتمرات الإسلامية والإقليمية والدولية. واعتنى بالرد على النصارى خاصة. ومناظرتهم في المحافل العامة، ففتح له في ذلك وأفحم خصومه بسعة اطلاعه على كتبهم الدينية، وبيان تناقضها وتحريفها، وقوة حجته، وطول نفسه، وسجل أكثر من اثنتي عشرة محاضرة ومناظرة تداولها الناس. وقد أنشأ لهذا الغرض معهداً إسلامياً اسمه «السلام»، وألف بضعة كتب عن النصرانية، منها: ماذا يقول الإنجيل عن محمد؟، هل الإنجيل كلمة الله؟، الصلب أو خرافة الصلب. وغيرها. منح براءة جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤٠٦هـ. انظر: التعريف به في النشرة الصادرة عن هيئة الجائزة.

وهذه الترجمة مفضلة عن ترجمتها بـ«المعزي». ويؤكد علماؤنا... أن كلمة «باراكليتوس» (paracletos) تفسير خاص محرف، أو قراءة محرفة لكلمة «بيريكليتوس» (periclytos) ومعناها: المستوجب للحمد. وأنه كان في القول الأصلي لعيسى نبؤة خاصة بنينا الكريم «أحمد» بالاسم^(١). وحتى لو قرأناها «باراكليت» (بارقليط أو فارقليط) (paracle) فإنها تشير إلى النبي الكريم «المبعوث» ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء] وهو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة]... إنه من الواضح لكل الباحثين عن الحق بإخلاص أن محمداً ﷺ هو «الباراكليت» الموعود (The promised paraclete)، أو المعزي (Comforter) المسمى أيضاً على سبيل التخيير بالمساعد أو المعين (helper) والمحامي والمؤيد والشفيع (Advocate) والناصح الأمين أو المشير (Counsellor)... إلخ المذكور في نبؤات عيسى ﷺ في إنجيل يوحنا^(٢).

* ويزيد الأمر وضوحاً حول شخصية «الفارقليط» أو «المعزي» ومهمته ودوره، ما جاء في إنجيل يوحنا على لسان المسيح ﷺ: (أما الآن فأني ذاهب إلى الذي أرسلني. وما من أحدٍ منكم يسألني: إلى أين تذهب؟ بل ملاً الحزن قلوبكم لأنني قلت لكم هذه الأشياء. غير أنني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أذهب. فإن لم أذهب لا يأتكم المؤيد. أما إذا ذهبت فأرسله إليكم وهو متى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والدينونة. أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على البر فلأنني ذاهب إلى الآب فلن تروني، وأما على الدينونة فلأن سيد هذا العالم قد دين. لا يزال عندي أشياء كثيرة أقولها لكم، ولكن

(١) انظر: ما كتبه البرفسور عبد الأحد داود حول هذا التحريف في كتابه محمد في الكتاب المقدس: (٢١٩ - ٢٢٩)، وراجع ما تقدم من إثبات البشارة به في إنجيل برنابا في المبحث السابق في التمهيد.

(٢) مفهوم العلاقة بين الله والبشر في الأديان السماوية: (٣٠ - ٣٣).

لا تطيقون الآن حملها، فمتى جاء هو، أي روح الحق، أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لن يتكلم من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث، سيمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم به) ١٦/٥ - ١٤^(١).

وهذه البشارة بـ«المؤيد» أو «المعزي» كما في بعض الترجمات صدرت في الأيام الأخيرة من حياة المسيح ﷺ قبل رفعه كما واضح في إنجيل يوحنا. ولعل فيها بياناً لسبب تلقيب المبشر به بـ«المعزي» أو على الأقل لترجمته بذلك. وهو أن رجاء قدومه وبعثته يزيل الكآبة التي ملأت قلوب الحواريين لفراق المسيح، فيكون في ذلك عزاء لهم. كما أن فيه دلائل قوية متعينة على إرادة النبي ﷺ بهذه البشارة منها:

١ - أنه يقيم الحجة البالغة على العالم.

٢ - أنه يبين مقتضى الإيمان الصحيح بالمسيح ﷺ بين الغالي فيه والجافي عنه؛ بين النصارى الذين رفعوه فوق منزلته وألهوه وادعوا بنوته لله تعالى، واليهود الذين كفروا به وزعموا أنه ابن سفاح وآذوه أشد الإيذاء وهموا بقتله. وأما هو ﷺ فقد مجّده، لأنه يتلقى الوحي من الله الذي أرسل كلاهما ﷺ وأداه كما سمعه. قال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء]، وقال بعد سرد قصة ولادته: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَارُونَ﴾ [٣٤] مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٣٥] [مريم].

(١) العهد الجديد: (٣٤٣ - ٣٤٤).

٣ - أنه يجيء بالحق الكامل، والهداية التامة الشاملة الموحى بها من عند الله تعالى: (فمتى جاء هو أي روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لن يتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث...)، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والمقصود من سياق هذه النصوص من التوراة والإنجيل التي بأيدي القوم، بيان موقفهم من الإسلام ونبيه ﷺ قبل البعثة، وأنهم يهوداً ونصارى كانوا يتطلعون إلى بعثته بفارغ الصبر، ويستفتحون بذلك على أعدائهم من الوثنيين، ويرون أنهم أولى الناس به، وأنه وارث دين إبراهيم عليه السلام.

وكانوا قبيل البعثة يخبرون عن نبي أظلمهم زمانه، كما جاء في قصة إسلام سلمان الفارسي^(١) الطويلة في رحلته للبحث عن الحق، وتنقله بين الأساقفة؛ كل واحد يوصي به إذا حضرته الوفاة إلى مثله، فكان آخرهم صاحب عمورية، فقال له سلمان لما حضر: (يا فلان: إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى؛ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل...) (٢) الحديث.

(١) سلمان الفارسي أبو عبد الله، ويقال له سلمان الخير. أصله من أصبهان، وقيل من رامة هرمز، من أول مشاهدته الخندق، مات سنة (٣٤هـ). تقريب التهذيب (٣١٥/١).

(٢) رواه أحمد بطوله: (٤٤٢/٥ - ٤٤٣). وأصله مجملاً في صحيح البخاري: (٢٧٠/٤) عن سلمان عليه السلام أنه تداوله بضعة عشر سيلاً.

ثانياً: موقف أهل الكتاب من الإسلام بعد البعثة النبوية:

لقد كان حرياً بأهل الكتاب أن يقبلوا البشارة، ويؤمنوا جميعاً بالنبى الأُمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل، موصوفاً بالأوصاف المنضبطة، مضروباً له الأمثال المنطبقة، حتى يؤتيهم الله كفلين من رحمته، ويجعل لهم نوراً يمشون به، ويغفر لهم، كما وعدهم. قال ﷺ: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبى ﷺ فأمن به واتبعه وصدقه، فله أجران...) (١) الحديث. ولكن مواقفهم تباينت؛ فمن سبقت له من الله الحسنى قبل البشرى وقرَّ بها عيناً. ومن حق عليه القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى بعث به نبيه الخاتم.

ويمكن القول إن موقف زعماء أهل الكتاب تحدد إبان العهد النبوي حيث كان اليهود يقطنون المدينة وما حولها، كما أنه ﷺ قد كاتب ملوك النصارى فى مصر والحبشة وبلاد الشام، ووفد عليه نصارى نجران (٢). ويتلخص فى رفض دعوة الإسلام، وتكذيب رسوله، والإصرار على دين الآباء المحرف، حتى مع وهج السيف أو ذل الجزية.

أما الموقف «الشعبى» المتمثل فى جمهور أهل الديانتين - سوى الزعماء الدينيين والمدنيين - فقد تفاوتت تفاوتاً بيناً. فقد كان النصارى أكثر قبولاً للإسلام ومودة للمؤمنين واتباعاً للحق، بينما كان اليهود - كعادتهم - أغلظ قلوباً وطباعاً، وأشدَّ عداوة للذين آمنوا، وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ

(١) رواه البخاري (٣٣/١) ومسلم (١٣٤/١ - ١٣٥).

(٢) انظر: الباب الثالث. الفصل الثانى.

ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّاتٍ وَزُهَّانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثْبِتْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ [المائدة].

وتأتي شهادة التاريخ موافقةً لما قرره القرآن الكريم حيث شهدت العقود الأولى التالية للفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق ومصر انخراط أعداد كبيرة من سكان البلاد الأصليين من النصارى في الدين الجديد، وقد تمت عملية «إسلام» لا «أسلمة»، بشهادة المؤرخين المنصفين من الأعداء قبل الأصدقاء، ودهشتهم في نفس الوقت، وفي الدراسة المتميزة التي أعدها فيليب فارغ^(١)، ويوسف كرجاج^(٢) بعنوان: «المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي» يطرح الباحثان سؤالاً ملفتاً: (كيف تسنى لحفنة من الفاتحين، الذين يتميز إيمانهم بهذه الدرجة من الحمية، الفوز بولاء جماهير على هذه الدرجة من الضخامة، وعلى هذه الدرجة من البعد؟ كيف أمكن العثور في مصر وفي الهلال الخصيب على نقطة توازن بين الضغوط المتعارضة التي مثلها التوسع الإسلامي، والمقاومة المسيحية)^(٣)؟ ويقدم الباحثان

(١) مدير مركز البحوث والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (القاهرة)، وباحث في المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (فرنسا)، مؤلف دراسات ديموغرافية عديدة عن الشرق العربي.

(٢) باحث بالمعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (فرنسا)، مؤلف دراسات ديموغرافية عديدة عن المغرب الأقصى. من مقدمة كتابيهما.

(٣) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي: فيليب فارغ، =

إجابات متعددة، وتفسيرات متنوعة لهذا التساؤل نختلف معهما في أولويتها وأهميتها لكنهما - وهذا هو المهم - يعترفان (أن الإكراه عليه - أي اعتناق الإسلام - كان غائباً في أغلب الأحيان، وهو لم يحدث في تاريخ الإسلام العربي إلا بصفة استثنائية...).

ومن ثم فإن جزءاً من السكان يتبنى الإسلام بسرعة، ويفوز بحكم تحوله إلى اعتناق الإسلام بالمواطنة التامة، وربما دون مكابدة قطيعة حقيقية، لأن الدين الجديد يقدم نفسه بوصفه امتداداً للمسيحية واليهودية^(١).

وأياً كانت الأسباب المفترضة، فإننا نعتقد أن السبب الحقيقي والأساس يرجع إلى أمرين:

أولهما: صحة دين الإسلام ونقائه ووضوحه وشموله، وموافقته للعقل والفطرة وتصديقه لما بين يديه من الكتاب.

ثانيهما: الأوصاف الحميدة التي ذكرها الله في كتابه عن مؤمني النصارى وهي:

١ - العلم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ﴾.

٢ - العبادة: ﴿وَرَهَبَانًا﴾.

٣ - التواضع: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٤ - قبول الحق ورقة الطباع: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى

= ويوسف كرباج. ترجمة: بشير السباعي. سينا للنشر بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون. القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٤م. (٣٧).

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٨). والإسلام يمثل الحلقة الأخيرة من دين الله الحق لا اليهودية ولا النصرانية المحرفتين، بل امتداد لملة إبراهيم الذي ما كان يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً.

أَعْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ .

٥ - العقل والشجاعة: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ .

تلك هي المؤهلات الحقيقية التي تقود صاحبها للإيمان بالله ورسله في كل زمان ومكان، ومن كل جيل وقبيل بصرف النظر عن الانتماءات العرقية والدينية السابقة، لكن المؤثرات التاريخية والاجتماعية وحظوظ النفس وأهواءها، وحب الدنيا والشيطان صوارف عن سبيل الله، وقد تكثر في قوم وتقل نسيباً عند آخرين.

ومنذ العهد النبوي، إلى يومنا هذا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يصر اليهود على يهوديتهم، والنصارى على نصرانيتهم، ويردون دين الإسلام الذي نسخ الله به جميع الشرائع السابقة، ويزعمون أنهم هم الذين على الحق، المستحقون لدخول الجنة، ومن سواهم كافر محروم منها. وفي بيان هذا الموقف العام المشترك يقول الله تعالى عنهم:

■ ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ [البقرة].

■ ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١٢٠﴾ [البقرة].

■ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِلسَفَتَهُمْ وَمَا تَتَّبِعُوا مِنْ بَعْضِهِمْ بِتَابِعٍ قَبْلَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٤٦﴾ [البقرة].

■ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة].

■ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُل بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة].

■ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

هذا هو الموقف العام، ولكل من الفريقين خصوصية زائدة توضحها نصوص خاصة، ووقائع كاشفة من السيرة النبوية.

أ - موقف اليهود من الإسلام:

١ - الجحود والاستكبار بعد العلم والبيئة:

■ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

قال ابن جرير رحمته الله: (كان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم من الكتب، التي أنزلها الله قبل الفرقان، كفروا به، يستفتحون بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومعنى الاستفتاح: الاستنصار، يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه: أي من قبل أن يبعث - ثم روى بسنده عن عمر بن قتادة الأنصاري^(١) عن أشياخ منهم - قالوا: فينا والله وفيهم، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة... قالوا: كنا قد علوناهم دهرًا في

(١) عمر بن قتادة بن النعمان الطَّفَرِي، الأنصاري، المدني، مقبول. تقريب التهذيب (٢/٦٢).

الجاهلية، ونحن أهل الشرك، وهم أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً مبعثه الآن قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عاد وإرم، فلما بعث الله تعالى ذكره رسوله من قريش واتبعناه كفروا به..

وروى بسنده عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور^(١) أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبرونا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله جل ثناؤه في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٩].

■ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وِرْيٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٣].

■ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤].

(١) بشر بن البراء بن معرور، رضي الله عنه، هو وأبوه صحابيَان. مات من أكلة خبير، من الشاة المسمومة التي أهدتها اليهودية للنبي ﷺ. انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٩).

(٢) جامع البيان: (١/ ٤١٠ - ٤١١).

(٣) تقدم بيان معناها في أول هذا الفصل.

(٤) تقدم بيان معناها في أول هذا الفصل.

■ عن ابن مسعود^(١) رضي الله عنه قال: (إن الله ابتعث نبيه ﷺ لإدخال رجل الجنة، فدخل الكنيسة، فإذا هو يهودي، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة، فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا، وفي ناحيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ: ما لكم أمسكن؟ قال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا. ثم جاء المريض يحبو، حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبي ﷺ وأتمه. فقال: هذه صفتك وصفة أمتك. أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله ثم مات. فقال النبي ﷺ: لُوا أخاكم^(٢).

■ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو آمن بي عشرة من اليهود، لآمن بي اليهود»^(٣). وفي رواية عنه: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»^(٤).

■ وعن أنس بن مالك^(٥) رضي الله عنه، أن عبد الله بن سلام^(٦) بلغه

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن، من السابقين إلى الإسلام المقربين إلى رسول الله ﷺ، وكان خادمه وصاحب سره ورفيقه في حله وترحاله. توفي سنة (٣٢هـ).

الأعلام (١٣٧/٤)، الإصابة (٤٩٥٥)، غاية النهاية (٤٥٨/١)، صفة الصفوة (١٥٤/١)، حلية الأولياء (١٢٤/١).

(٢) رواه أحمد. المسند: (٤١٦/١).

(٣) رواه البخاري: (٢٦٩/٤)، مسلم (٢١٥١/٤).

(٤) رواه أحمد (٣٤٦/٢، ٣٦٢، ٤١٦).

(٥) أنس بن مالك بن النضر النجاري الخزرجي الأنصاري، أبو حمزة، خادم رسول الله ﷺ. أسلم صغيراً، وتوفي سنة ٩٣هـ. الأعلام (٢٤/٢)، صفة الصفوة (٢٩٨/١).

(٦) عبد الله بن سلام الإسرائيلي، أبو يوسف، حليف بني الخزرج، قيل كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله. مشهور، له أحاديث وفضل مات بالمدينة سنة ثلاثون وأربعين. تقريب التهذيب (٤٢٢/١).

مقدم النبي ﷺ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فذكرهن، وأخبره بخبرهن... فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهتٌ فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي. فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا. فقال النبي ﷺ: رأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاده الله من ذلك. فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله^(١).

■ وعن عوف بن مالك^(٢) رضي الله عنه قال: انطلق النبي ﷺ يوماً وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أنه لا إله إلا الله وأني محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه، قال: فأسكتوا، ما أجابه منهم أحد. ثم رد عليهم فلم يجبه أحد، ثم ثلث فلم يجبه أحد. فقال: أبيتم فوالله إني لأنا الحاشر وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى آمنتم أو كذبتم. ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد. قال فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من

(١) رواه البخاري: (٢٦٨/٤). وانظر سيرة النبي ﷺ: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. نشر إدارة البحوث العلمية والإفتاء. الرياض. (١٣٨/٢ - ١٣٩).

(٢) عوف بن مالك الأشجعي، أبو حماد، صحابي مشهور، من مسلمة الفتح، وسكن دمشق ومات سنة ثلاث وسبعين. تقريب التهذيب (٩٠/٢).

أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شراً. قال رسول الله ﷺ: كذبتكم، لن يقبل قولكم، أما أنفأ فتشنون عليه من الخير ما أثنتم، ولما آمن كذبتموه، وقتلتم فيه ما قتلتم، فلن يقبل قولكم، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وعبد الله بن سلام. وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرُكُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١) [الأحقاف].

■ وعن صفية بنت حيي (٢) رضي الله عنها قالت: (كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغَلَّسَيْنِ، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كألين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحدٍ منهما مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت) (٣).

(١) رواه أحمد. المسند (٢٥/٦)، والطبراني في الكبير (٤٦/١٨، ٤٧)، والحاكم في المستدرک (٤١٥/٣ - ٤١٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٥/٧ - ١٠٦): رجاله رجال الصحيح.

(٢) صفية بنت حُيَي بن أخطب، الإسرائيلية، أم المؤمنين تزوجها النبي ﷺ بعد خيبر. وماتت سنة ست وثلاثين. وقيل في ولاية معاوية، وهو الصحيح. تقريب التهذيب (٦٠٣/٢).

(٣) سيرة النبي ﷺ (١٤٠/١٠). وانظر: البداية والنهاية (٢١٢/٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام. فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: سلوني عما شئتم، فقالوا: أخبرنا عن أربع خلالٍ نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى، وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم، ومن وليه من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، فقالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: أشهد الله عليكم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة، أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة، كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد، قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه، ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد. قالوا: أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نتابعك أو نفارقك. قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه. قالوا فعندها نفارقك. لو كان وليك سواه من الملائكة تابعتك وصدقناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله ﻓَإِنْ كَانَ وَلِيُّكَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ فَاتَّبِعْهُ وَاصْطَبِقْ: ﴿مَنْ كَانَ

عَدُوًّا لِّجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿البقرة: ٩٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب^(١).

هذه نماذج من مواقف النبي ﷺ مع يهود، استفرح النبي ﷺ جهده في دعوتهم، وإقامة الحجة عليهم، فلم يكن منهم إلا الإعراض والصدود والجحد والتكذيب، بعد العلم والبينة، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

٢ - الصد عن سبيل الله وإثارة الشبهات:

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

وقد روى ابن جرير رحمه الله بسنده أن جماعة من أحبار اليهود قدموا على قريش فقالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فاسألوهم أدينكم خير، أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه، وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٢).

* وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة]، روى ابن جرير رحمه الله عن مجاهد، والبراء، وابن عباس أن السفهاء هم اليهود^(٣).

(١) جامع البيان: (٤٣١/١ - ٤٣٢) ورواه أحمد في مسنده (٢٧٣/١، ٢٧٨).

(٢) جامع البيان: (١٣٥/٥).

(٣) جامع البيان: (١/٢ - ٢).

وإنما أرادوا التشكيك والإثارة والطعن في هذا الدين للصد عنه والتنفير منه.

قال ابن كثير رحمته الله: (لما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب، والكفرة من اليهود ارتياح وزيف عن الهدى وتخييط وشك، وقالوا: «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها»؟ أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا. فأنزل الله جوابهم: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله^(١).

* قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران]. قال ابن كثير رحمته الله: (يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهو لا يشعرون)^(٢).

* وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُ لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٧٢] وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ [آل عمران]. قال ابن كثير رحمته الله: (هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم؛ وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا

(١) تفسير القرآن العظيم: (١/١٩٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (١/٣٧٣).

إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين^(١).

٣ - محاولة قتل النبي ﷺ وأذيته:

* نقل الحافظ ابن حجر^(٢) في فتح الباري، وصحح إسناده، ما رواه ابن مردويه^(٣) بسنده عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ في قصة إجلاء يهود بني النضير، وفيه: (فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ، أخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر. فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار، مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصباحهم بالكتائب... إلخ ثم قال الحافظ: وكذا أخرجه عبد بن حميد^(٤) في تفسيره عن عبد الرزاق^(٥)، وفي ذلك رد

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣٧٣)، وانظر الآثار المروية في ذلك في جامع البيان (٣/٣١١ - ٣١٣).

(٢) ابن حجر (٧٧٣ - ٨٥٢هـ) أحمد بن علي بن محمد الكناني، العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر. من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده ووفاته بالقاهرة. أقبل على علم الحديث، ورحل إلى الحجاز واليمن وغيرهما لسماع الشيوخ، حتى أصبح حافظ الإسلام في عصره. ولي قضاء مصر مرات. تصانيفه كثيرة جليلة منها: (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، (لسان الميزان)، (الدرر الكامنة). انظر الأعلام (١/١٧٨).

(٣) ابن مردويه (٣٢٣ - ٤١٠هـ) أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني، أبو بكر، ويقال له: ابن مردويه الكبير: حافظ مؤرخ مفسر، من أهل أصبهان. له كتاب «التاريخ» وكتاب في «تفسير القرآن» و«مسند» و«مستخرج» في الحديث. الأعلام (١/٢٦١).

(٤) عبد بن حميد بن نصر، الكسبي، أبو محمد ثقة حافظ، مات سنة مائة وتسع وأربعين. تقريب التهذيب (١/٥٢٩).

(٥) عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني، أبو بكر، من أئمة الحديث وحفاظهم =

على ابن التين في زعمه أنه ليس في هذه القصة حديث بإسناد. قلت: فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق..^(١).

* قال ابن إسحاق: (.. وخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري^(٢))، فلما خلا بعضهم ببعض قالوا: لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن، فمن رجل يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرةً فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فأتى رسول الله ﷺ الخبر فانصرف عنهم...^(٣).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها، ف قيل: ألا نقلتها، قال: لا. فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ^(٤).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه. ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟

= الأثبات، ولد سنة ١٢٦هـ، وله «المصنف» و«التفسير» و«الجامع الكبير» وغيرها توفي سنة ٢١١هـ. الأعلام (٣/٣٥٣)، تهذيب التهذيب (٦/٣١٠)، وفيات الأعيان (١/٣٠٣)، ميزان الاعتدال (٢/١٢٦)، الرسالة المستطرفة (٣١).

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري: ابن حجر، شهاب الدين، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني. دار المعرفة - بيروت. الطبعة الثانية. (٧/٢٥٥). وانظر: المصنف لعبد الرزاق (٥/٣٥٩ - ٣٦٠)، وسنن أبي داود (٣/٤٠٤ - ٤٠١).

(٢) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله، أبو أمية الضمري، صحابي مشهور، أول مشاهده بئر معونة. مات في خلافة معاوية. تقريب التهذيب (٢/٦٥).

(٣) عن سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢/١٩٢)، وانظر: فتح الباري (٧/٢٥٤).

(٤) صحيح البخاري (٣/١٤١)، صحيح مسلم (٤/١٧١٢).

قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، ثم قال: أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق. قال: فيما ذا؟ قال: في مُشِطٍ ومُشاطة وجُفٍّ طلعةٍ ذكر^(١). قال: فأين هو؟ قال في بئر ذي أروان. قال: فذهب النبي ﷺ في أناسٍ من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لَكأن ماءها نُقاعة الحِنَاء، وَلَكأن نخلها رؤوس الشياطين. قلت: يا رسول الله: أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا، فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شراً، وأمر بها فدفنت^(٢).

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان على رسول الله ﷺ ثوبان قَطْرِيَّانِ غليظان، فكان إذا قعد فعرق ثقباً عليه، فقدم بَرٌّ من الشام لفلانٍ اليهودي، فقلت: لو بعثت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة. فأرسل إليه فقال: قد علمت ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي، أو بدراهمي فقال رسول الله ﷺ: كذب، قد علم أنني من أتقاهم لله، وأداهم للأمانة^(٣).

* وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله... الحديث»^(٤)، وكان يهودياً شاعراً، وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه^(٥).

(١) المُشِط: الآلة التي يسرح بها الشعر، والمشاطة: ما يخرج من الشعر عند التسريح. وجف الطلع: الغشاء الذي يكون عليه.

(٢) صحيح البخاري: (٢٩/٧ - ٣٠).

(٣) رواه الترمذي: (٢١٧/٥). وقال: حديث عائشة حديث حسن غريب صحيح.

(٤) صحيح البخاري: (٢٥/٥).

(٥) انظر: فتح الباري: (٢٥٩/٧).

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: السَّامُ عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتدرون ما يقول؟ قال: السَّامُ عليك. قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم^(١).

* وعن علي رضي الله عنه أن يهودية كانت تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وتقع فيه، فخنقها رجلٌ حتى ماتت، فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه^(٢).

٤ - موالة الكافرين والمنافقين، ومعاداة المؤمنين:

* قال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

* وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَفُؤُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَٰطِئِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (شياطينهم من يهود، الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول)^(٣).

* وجاء في خبر بني النضير، فيما رواه أبو داود وغيره عن رجلٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه: (.. فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدَم نساءكم شيء - وهي الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي صلى الله عليه وسلم أجمعت بنو النضير بالغدر...

(١) صحيح البخاري: (٥١/٨).

(٢) سنن أبي داود: (٥٢٩/٤ - ٥٣٠).

(٣) جامع البيان: (١٣٠/١).

(الحديث^(١)). ونقل الحافظ ابن حجر رحمته الله عن موسى بن عقبة^(٢) رحمته الله في المغازي قال: (كانت النضير قد دسوا إلى قريش، وحضوهم على قتال رسول الله ﷺ، ودلوهم على العورة^(٣)). فكانت هذه خيانة منهم لعهد رسول الله ﷺ، وسبباً، بالإضافة إلى ما تقدم من محاولة قتلهم إياه، في إجلائهم عن المدينة، وبذلك يكونون هم البادؤون في حرب رسول الله ﷺ ونقض عهده، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: (أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ...) ^(٤).

* نقل الحافظ ابن حجر رحمته الله عن موسى بن عقبة رحمته الله في مغازيه قال: (خرج حيي بن أخطب بعد قتل بني النضير إلى مكة يحرض قريشاً على حرب رسول الله ﷺ، وخرج كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق يسعى في غطفان ويحرضهم على قتال رسول الله ﷺ على أن لهم نصف ثمر خيبر...) ^(٥).

فلما تحزب الأحزاب، وحاصروا المدينة نقض بنو قريظة العهد، وانضموا إلى الأحزاب، ولحق المسلمين شدة عظيمة، وجهد وجوع كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب]. قال موسى بن عقبة رحمته الله: (وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيي بن أخطب

(١) سنن أبي داود (٣/ ٤٠٥ - ٤٠٦).

(٢) موسى بن عقبة بن أبي عياش، الأسدي، مولى آل الزبير، ثقة فقيه إمام في المغازي. مات سنة مائة وإحدى وأربعين، وقيل بعد ذلك. تقريب التهذيب (٢/ ٣٨٦).

(٣) فتح الباري: (٧/ ٢٥٥).

(٤) صحيح البخاري: (٥/ ٢٢)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٧)، سنن أبي داود (٣/ ٤٠٧).

(٥) فتح الباري: (٧/ ٣٠١)، وانظر: سيرة النبي ﷺ (٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠).

أن يأخذ لهم من قریش وغطفان رهائن لثلا ينالهم ضيم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمداً. قالوا: وتكون الرهائن تسعين رجلاً من أشرفهم، فنازلهم حيي على ذلك فعند ذلك نقضوا العهد، ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد...^(١).

وستظل هذه العداوة بين المسلمين ويهود إلى قيام الساعة، كما تدل عليه الأحاديث النبوية الصحيحة:

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله، هذا يهودي ورأي فاقته^(٢).

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقته، إلا الغرق، فإنه من شجر اليهود»^(٣).

وواقع الحال من تسلط اليهود على أرض فلسطين دليل متجدد على عداوتهم الأزلية للأبدية للمسلمين، وعلم من أعلام النبوة، وبشارات الفرج.

ب - موقف النصارى من الإسلام:

لا يختلف الموقف العام للنصارى من الإسلام عن موقف اليهود. فكلا الطائفتين أصرت على عقائدها السابقة، وردت الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وحافظت على تنظيماتها الدينية، وقياداتها

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٠٣/٤)، وسيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢٣٥) - (٢٣٨).

(٢) صحيح البخاري: (٢٣٢/٣).

(٣) صحيح البخاري: (٢٣٢/٣) واللفظ لمسلم (٢٢٣٩/٤).

المرجعية المرسومة قبل مجيء الإسلام. ولا يعهد أن فرقة من فرق النصارى المعروفة - على كثرتها - أعلنت اعتناقها للدين الجديد، وانخلاعها من الأوضاع السابقة. وإنما يتميز النصارى على اليهود على المستوى الفردي، حيث تحفظ وقائع السيرة النبوية مواقف مشرفة صادقة لعدد من الأفراد الذين كانوا على النصرانية، فاعتنقوا الإسلام، أو على الأقل أبدوا مظاهر التبجيل والتعظيم لنبيه ﷺ وتأدبوا معه. ويقع هذا الموقف الفردي المتعاطف من أعلى القيادات السياسية والدينية للنصارى كما يقع من سائر الأفراد. بينما نفتقد هذا الملحظ بالنسبة لليهود، حتى قال ﷺ: «لو آمن بي عشرة من اليهود - وفي رواية من أحبار اليهود - لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»^(١).

وسنسوق أدناه بعض الشواهد لاستجلاء هذا الموقف، وبيان أوجه الموافقة والمفارقة مع ما سبق.

* إن أول اتصال جرى بين الإسلام والنصارى كان في الساعات الأولى من البعثة^(٢). فقد جاء في قصة بدء الوحي، بعد أن عاد ﷺ من غار حراء - حيث جاءه الملك - إلى زوجته خديجة رضى الله عنها يرفف فؤاده فطمأنته ثم: (انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءاً قد تنصّر في الجاهلية، وكان

(١) متفق عليه. صحيح البخاري (٢٦٩/٤)، صحيح مسلم (١٥١/٤). وقد تقدم.

(٢) يذكر بعض المؤرخين للسيرة النبوية قصة «بحيرا»، ويحاول بعض المغرضين من المستشرقين ومتعصبي النصارى الاحتجاج بها على حصول صلة وتلمذ بين نبي الإسلام ﷺ ورهبان النصارى، وقد درس د. أكرم ضياء العمري هذه الحادثة وتتبع أسانيد الضعيفة ونقدها. انظر: السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري. مكتبة العبيكان. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ. (١/ ١٠٦ - ١١١).

يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: يا ابن عم: اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي^(١).

* وعن أم سلمة^(٢) رضي الله عنها قالت: (لما ضاقت مكة، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره، ومما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة مخرجاً مما أنتم فيه» فخرجنا إليه أرسالاً، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيه ظملاً).

* وفي رواية عنها قالت: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمناً على ديننا، وعبدنا الله، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه)^(٣).

(١) صحيح البخاري: (٣/١ - ٤).

(٢) أم سلمة: أم المؤمنين هند بنت سهيل المعروف بأبي أمية، القرشية المخزومية رضي الله عنها. تزوجها النبي ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة، وكانت من أكمل النساء عقلاً وخلقاً، توفيت بالمدينة سنة ٦٢ هـ. الأعلام (٩٧/٨)، صفوة الصفوة (٧٠/٢)، الإصابة في تمييز الصحابة (كتاب النساء).

(٣) مسند أحمد (٢٠٢/١ - ٢٠٣)، (٢٩٠/٥)، دلائل النبوة للبيهقي (٣٠٢)، =

* وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قصة الهجرة: (وبعثت قريش عمرو بن العاص^(١)، وعمارة بن الوليد بهدية. فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالوا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالوا: في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم. قال جعفر^(٢): أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه. فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله وَعَلَيْكُمْ. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولاً، ثم أمرنا ألا نسجد لأحدٍ إلا لله وَعَلَيْكُمْ. وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه. قال: نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسهما بشر، ولم يفرضها ولد. قال: فرفع عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا، مرحباً بكم، وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم. والله لولا ما أنا فيه من الملك لآتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما...)^(٣).

= دلائل النبوة لأبي نعيم (٢٤٨/١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧/٦):

(رواه أحمد وأحمد ورجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع).

(١) عمرو بن العاص بن وائل السهمي، الصحابي المشهور، أسلم عام الحديبية.

مات سنة نيف وأربعين. وقيل بعد الخمسين. تقريب التهذيب (٧٢/٢).

(٢) جعفر بن أبي طالب، الهاشمي، ذو الجناحين، الصحابي الجليل، ابن عم

رسول الله ﷺ استشهد في غزوة مؤتة، سنة ثمان من الهجرة. تقريب التهذيب

(١٣١/١).

(٣) مسند أحمد (٤٦١/١)، والبيهقي في دلائل النبوة ص (٢٩٨). وقال ابن كثير

في البداية والنهاية: (وهذا إسناد جيد قوي وسياق حسن) (٦٩/٣).

* وفي رواية أم سلمة، لما قرأ جعفر على النجاشي صدر سورة ﴿كهيعص﴾ قالت: (فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد... ولما أراد عمرو بن العاص أن يكيدهم في اليوم التالي بسؤالهم عن عيسى ابن مريم، فأجابوا الملك بالحق الذي جاء به القرآن - قالت: فضرب النجاشي يده على الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله. اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي. والسيوم: الآمنون. من سبكم غُرم، من سبكم غُرم، من سبكم غُرم. فما أحب أن لي دير ذهب وأني أذيت رجلاً منكم، والدير بلسان الحبشة الجبل...)^(١).

* وفي رواية موسى بن عقبة أنه لما وافقهم على قولهم في عيسى ابن مريم: (فقال عظماء الحبشة: والله لئن سمعت الحبشة لتخلعنك. فقال: والله لا أقول في عيسى غير هذا أبداً...)^(٢).

* وعن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في قصة الهجرة إلى الحبشة قال: (فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وظهر بها قلنا له: إن رسول الله ﷺ قد ظهر وهاجر إلى المدينة، وقتل الذين كنا حدثناك عنهم، وقد أردنا الرحيل إليه فردنا. قال: نعم. فحملنا وزودنا، ثم قال: أخبر صاحبك بما صنعت إليكم، وهذا صاحبي معكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، وقل له: يستغفر لي. قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة، فتلقاني رسول الله ﷺ واعتنقني، ثم قال:

(١) تقدم تخريجه قريباً. ومعنى «ناخرت» وفي لفظ «تناخرت» أي تكلموا بكلامٍ يشوبه الغضب والنفور. والبطارقة: جمع بطريق وهم رجال الكنيسة.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/١٩ - ٢٠).

ما أدري أنا بفتح خبير أفرح أم بقدوم جعفر. ووافق ذلك فتح خبير. ثم جلس، فقال رسول النجاشي: هذا جعفر فسله ما صنع به صاحبنا. فقال: نعم، فعل بنا كذا وكذا، وحملنا، وزوّدنا، وشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وقال لي: قل له يستغفر لي. فقام رسول الله ﷺ فتوضأ ثم دعا ثلاث مرات: اللهم اغفر للنجاشي، فقال المسلمون: آمين. ثم قال جعفر: فقلت للرسول: انطلق فأخبر صاحبك بما رأيت من رسول الله ﷺ^(١).

* وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: (مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة)^(٢).

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّاً فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل، فإن كذبتني فكذبوه. قال: فوالله لولا الحياء من أن يأتروا علي كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد

(١) رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة جعفر بن أبي طالب، وقال في إثرها: حسن غريب نقلاً عن السيرة النبوية لابن كثير (١٥/٢ - ١٧).

(٢) صحيح البخاري: (٢٤٦/٤)، (٨٨/٢).

أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطاً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم. فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به

دحية^(١) إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل، عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجنا. فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.. وقال في آخره: فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم: هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي. وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه. فكان ذلك آخر شأن هرقل^(٢)).

* وقد روى الإمام أحمد وغيره ما يدل على تكرار هذا الموقف من هرقل مع قومه في السنة التاسعة للهجرة حين غزا النبي ﷺ غزوة تبوك، لما بلغه أن الروم قد حشدوا للمسلمين، فلم يجد لهم أثراً، ولم يلق حرباً، وبعث كتاباً إلى هرقل: (.. فلما أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها ثم أغلق عليه وعليهم باباً

(١) هو دحية بن خليفة بن فرزة بن فضالة الكلبي، صحابي جليل، مات في خلافة معاوية. تقريب التهذيب (١/٢٣٥).

(٢) صحيح البخاري: (١/٥ - ٧)، صحيح مسلم (٣/١٣٩٣ - ١٣٩٧).

فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إلي يدعوني إلى ثلاث خصال؛ يدعوني إلى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا، والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب. والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب، ليأخذن ما تحت قدمي، فهل من نتبعه على دينه أو نعطيه ما لنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز؟! فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم^(١)، ولم يكد، وقال: إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم...

- ثم ذكر تمام القصة، وبعث هرقل للتنوشي ليتثبت له من ثلاث خصال، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه، وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي^(٢) بصحيفة فخرقها، والله مُخْرِقُهُ ومُخْرَقُ ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأساً، ما دام في العيش خير^(٣).

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: (جاء العاقب والسيد صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح ولا عقبنا من بعدنا. قال: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب

(١) رفأهم: أي ترفق بهم حتى أسكتهم.

(٢) في صحيح مسلم عن أنس: (وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ)

(٣/١٣٩٧).

(٣) مسند أحمد (٣/٤٤١ - ٤٤٢)، (٤/٧٤)، ومدار الرواية على سعيد بن أبي راشد وهو مقبول.

رسول الله ﷺ. فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام، قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة^(١).

هكذا روى البخاري قصة وفد نصارى نجران مختصراً، وقد أفاض أهل التواريخ في تفصيل وقائع القصة بما لا يرتقي إلى درجة الصحة، ويطول سرده^(٢)، ونكتفي بقطعة رواها ابن إسحاق صاحب السير، قال:

قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون ركباً، منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدر عن إلا عن رأي وأمره، واسمه عبد المسيح. والسيد: ثمالهم وصاحب حلهم ومجتمعهم، واسمه، الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني كعب بن وائل أسقفهم، وحبرهم، وإمامهم، وصاحب مدراسهم. وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه، وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

فلما وجَّهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجهاً إلى رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبي حارثة، فقال له كرز: تعس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست. فقال: ولم يا أخي؟ فقال: والله إنه النبي الأمي الذي كنا ننتظره. فقال له كرز:

(١) صحيح البخاري: (١٢٠/٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٥٢/٥ - ٥٦) وتفسير ابن كثير (٣٦٨/١ - ٣٧٠)، زاد المعاد (٦٢٩/٣ - ٦٣٨). فتح الباري (٧٣/٨ - ٧٤).

فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم: شرفونا، ومولونا، وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك^(١).

هذه أربعة أمثلة تظهر أربعة مواقف فردية للنصارى، من الإسلام:

- ١ - ورقة بن نوفل: الحبر المؤمن الذي عرف الحق فاتبعه.
- ٢ - والنجاشي: الملك المؤمن، الذي عرف الحق فاتبعه، ولم يعبأ بتهديد بطارقه.
- ٣ - وهرقل: الملك العالم، الذي عرف الحق، لكنه ضن بملكه، وانخذل أمام قومه.
- ٤ - وأبو حارثة ابن علقمة: أسقف نجران، الذي عرف الحق، لكنه آثر الحياة الدنيا وزينتها.

وخلف هذه الرموز يقف مئات بل ألوف من النصارى يتخذون مواقف مشابهة، لا يتسع ديوان التاريخ لتقييدها جميعاً، لكن المحصلة العامة لحركة التاريخ، تثبت ما أسلفنا من تهيو النصارى لقبول الحق أكثر من اليهود، كما تثبت الشواهد السابقة حرص المؤسسة الكنسية بتنظيماتها المختلفة على التمسك بنصرانيتها حفاظاً على السيادة والقيادة والمصالح الشخصية. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة]. ويحلوا لبعض الكتاب المحدثين والصحفيين المدهنين، أن يتوددوا إلى النصارى باستدعاء

(١) نقلاً عن زاد المعاد (٣/ ٦٢٩ - ٦٣٠).

الشواهد التاريخية على تعاطف النصارى مع المسلمين، وتمييع قضية العداوة الأزلية بين الفريقين التي نطقت بها نصوص الوحيين، والتلبس على الناس بالخلط بين المواقف الفردية لآحاد النصارى الصادقين في طلب الحق، والموقف العدائي الدائم للكنيسة على اختلاف اتجاهاتها، وتعدد فرقها. إن مقتضى الأمانة التاريخية - فضلاً عن الثوابت العقدية - تقضي بإبراز المواقف العدائية العنيفة للنصارى ضد المسلمين منذ العهد النبوي وحتى يومنا هذا، ومحاولة فتنتهم عن دينهم، شواهد ذلك في العهد النبوي:

□ حشدتهم مائتي ألف مقاتل من الروم ونصارى العرب في معركة «مؤتة» مقابل ثلاثة آلاف مجاهد من المسلمين^(١).

□ قتلهم فروة بن عمرو الجذامي - عامل الروم على من يليهم من العرب - لما أسلم، وصلبهم إياه^(٢).

□ قتلهم «صفاطر» الأسقف، لما شهد شهادة الحق، وقد كان مقدماً معظماً عند الروم^(٣). بالإضافة إلى ما تقدم سرده من مواقف بطارقة هرقل والنجاشي ونصارى نجران، والله المستعان.

وأما التاريخ الإسلامي فحافلٌ بالعلاقات العدائية الدموية - كما سنلمح إليه في الفصل التالي - بين المسلمين والنصارى. وشواهد العصر الحديث حاضرة ماثلة في مواقع متعددة من العالم كالفلبين، وأندونيسيا، وأرتريا، والبلقان.

يبقى أن نقرر جازمين أن هذه العلاقة العدائية ستظل إلى يوم

(١) انظر: ما أفرد في وصف المعركة مثل: غزوة مؤتة: لمحمد أحمد باشميل. وغزوة مؤتة لشوقي أبو خليل وغيرهما.

(٢) انظر: سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢٦١/٤).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٢٦٧/٤).

القيامة عداوةً أبدية، لإخبار الله ورسوله ﷺ بذلك ثم بحكم اختلاف الاعتقاد من جهة، ولما يتميز به هؤلاء النصارى ممثلين بالروم من صفاتٍ وخصائص نوعية، من جهة أخرى، تبقي لهم أسباب القوة المادية، والشوكة الحربية، فلا يزال الناس يجدون منهم بأساً، كما قال ﷺ^(١). وقد روى مسلم^(٢) رحمه الله أن المستورد القرشي^(٣) قال عند عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس) فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ویتيم وضعيف. وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك^(٤). وفي لفظ عند مسلم أيضاً: (وأجبر الناس عند مصيبة، وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم)^(٥).

وعنه رضي الله عنه قال: بينا أنا عند عمرو بن العاص فقلت له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أشد الناس عليكم الروم، وإنما هلكتهم مع الساعة) فقال له عمرو: ألم أزجرك عن مثل هذا^(٦).

(١) تقدم في قصة التنوخي (٢٢٩).

(٢) مسلم بن الحجاج بن مسلم، القشيري النيسابوري، ثقة، حافظ، إمام، مصنف، عالم بالفقه، مات سنة إحدى وستين ومائتين. وله سبع وخمسون سنة. تقريب التهذيب (٢/٢٤٥).

(٣) المستورد بن شداد بن عمرو القرشي، الفهري، حجازي، نزل الكوفة، له ولأبيه صحبة. مات سنة خمس وأربعين. تقريب التهذيب (٢/٢٤٢).

(٤) صحيح مسلم: (٤/٢٢٢٢).

(٥) المرجع السابق.

(٦) مسند أحمد (٤/٢٣٠). ولعله زجره عن ذلك حتى لا يفت في أعضاد الناس في قتالهم. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٢١٥): رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن وبقيته رجاله رجال الصحيح.

وقد أخبر النبي ﷺ عن الفتن والملاحم التي تكون في آخر الزمان بين أهل الإسلام وعبد الصليب بما لا يدع مجالاً للشك في أبدية هذه العداوة، وأن ما يجري هذه الأيام منهم من مجاملات ومودات إنما هو قشرة رقيقة ظاهرة تخفي تحتها عداوة متأصلة، وكيداً خفياً، وإحناً وأحقاداً لا يطفئ لهيبتها إلا أن نتبع ملتهم - عياداً بالله - ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨]، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

ومن أمثلة هذه الأحاديث الصحيحة:

■ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق»^(١)، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً. فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأممهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى

(١) موضعان بالشام قرب حلب.

يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته^(١).

■ وعن يسير بن جابر^(٢) قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجلٌ ليس له هَجِيرٌ^(٣) إلا: يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة. قال: فقعد وكان متكئاً فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا، ونحّاهما نحو الشام فقال: عدوّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال رَدَّةً شديدة، فيشترط المسلمون شُرطة^(٤) للموت لا ترجع إلا غالبية، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل. فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنّى الشُرطة، ثم يشترط المسلمون شُرطة للموت لا ترجع إلا غالبية، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنّى الشُرطة، ثم يشترط المسلمون شُرطة للموت لا ترجع إلا غالبية، فيقتتلون حتى يمسا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنّى الشُرطة. فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام فيجعل الله الدَّبرَةَ^(٥) عليهم فيقتلون مقتلةً، إما قال: لا يرى مثلها، وإما قال: لم يرَ مثلها. حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم، فما يخلّفهم حتى يخرب ميتاً، فيتعادُّ بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد. فبأي غنيمة يفرح، أو أي ميراث يُقاسم. فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك؛

(١) رواه مسلم (٢٢٢١/٤) وفي الحديث دلالة على أن الروم سينتزعون القسطنطينية من أيدي المسلمين، ثم يفتحها المسلمون ثانية.

(٢) يسير بن جابر، الكوفي، مختلف في نسبته، قيل: كندي وقيل غير ذلك. وله رؤية. مات سنة خمس وثمانين. تقريب التهذيب (٣٧٤/٢).

(٣) أي شأنه ودأبه ترديد تلك الجملة.

(٤) طائفة من الجيش تتقدم إما للشهادة أو النصر.

(٥) الدَّبرَةُ: الهزيمة.

فجاءهم الصريخ أن الدجال قد خلفهم في ذرايعهم، فيرفضون^(١) ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ^(٢).

■ وعن ذي مخبر^(٣) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجلٌ من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليبُ، فيغضب رجلٌ من المسلمين، فيدقُّه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع للملحمة^(٤) وفي رواية: (وتكون الملاحم، فيجتمعون إليكم فيأتونكم في ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف)^(٥).

■ وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم فقال: (اعدد ستاً بين يدي الساعة، وذكر السادسة: ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت

(١) يتركون.

(٢) صحيح مسلم: (٢٢٣٤/٤ - ٢٢٢٤).

(٣) ذي مخبر، الحبشي، صحابي، نزل الشام، وهو ابن أخي النجاشي. تقريب التهذيب (٣٩/١).

(٤) رواه أبو داود (٢١٠/٣)، وسنن ابن ماجه: ابن ماجه، أبو عبد الله، محمد بن يزيد القزويني. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. المكتبة العلمية، بيروت. (١٣٦٩/٢) والحاكم (٤٢١/٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال في الزوائد: إسناده صحيح وأحمد (٣٧١/٥ - ٣٧٢)، (٤٠٩/٥).

(٥) رواه أحمد (٩١/٤)، والحاكم (٤٢١/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً^(١). وفي رواية عنه عند أحمد: (قلت: وما الغاية؟ قال: الراية، تحت كل راية اثنا عشر ألفاً. فسطاط المسلمين يومئذ في أرضٍ يقال لها الغوطة في مدينة يقال لها: دمشق)^(٢).

■ وفي رواية عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: (وهذنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، ليجمعون لكم تسعة أشهر، كقدر حمل المرأة، ثم يكونون أولى بالغدر منكم...)^(٣).

■ تلك طبيعة العلاقة مع عباد الصليب في الماضي والحاضر والمستقبل، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَتِّلُونَكَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة].



(١) رواه البخاري: (٦٨/٤).

(٢) المسند: (٢٥/٦).

(٣) المسند: (١٧٤/٢).

المبحث الخامس

لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب

تبين من المبحثين السابقين أن العهد النبوي شهد اكتمال الأحكام العقدية والشرعية الإسلامية تجاه أهل الكتاب، بما لا يدع مجالاً لتحريف أو ابتداع. كما شهد أيضاً تطبيق تلك الأحكام واقعاً مُعاشاً من خلال مساكنة اليهود المسلمين في المدينة، وفرض الجزية على نصارى نجران، وغيرهم. فلا ريب أن ذلك العهد الزاهر لا يمثل مرحلة تاريخية فحسب، بل مرجعية عقدية شرعية لكل المراحل التالية.

كما أن مواقف زعامات أهل الكتاب الدينية والسياسية إبان ذلك العهد رسمت الطريق لخلفهم في الاستنكاف عن قبول الحق، ومعاداة أهله.

ونقصد في هذا المبحث الإمام بمجمل العلاقات التاريخية بين المسلمين بعد العهد النبوي المتميز، وأهل الكتاب، سواء كانوا ذميين أو مستأمنين أو كانوا حربيين، ولا شك أن الإحاطة بتفاصيل ومفردات العلاقات التاريخية بين المسلمين وأهل الكتاب عمل موسوعي ضخم يتطلب توافر عشرات الباحثين عليه، لسعة رقعة الزمانية والمكانية وتنوع مادته. والمقصود هنا وضع خطوط عامة بارزة لتكوين خلفية تاريخية يستصحبها القارئ وهو يدلف إلى دراسة قضية معاصرة، ونازلة جديدة هي «دعوة التقريب بين الأديان».

يمكن أن نقسم تاريخ العلاقات الإسلامية - الكتابية إلى خمس

مراحل متميزة^(١)، آخذين بالاعتبار حين التقسيم العلاقات الإسلامية - النصرانية أساساً، لكونها الجبهة الساخنة، ذات الشوكة والمواجهة، والكر والفر، والمد والجزر، على مدار التاريخ، بينما تختفي اليهودية في معظم فترات التاريخ عن الصدارة بسبب القلة العددية، والشتات القومي لليهود، والذلة والمسكنة التي ضربها الله عليهم دون التقليل من خطرهم وكيدهم الخفي.

المرحلة الأولى: من عام ١١هـ إلى عام ١١٤هـ:

تضم هذه المرحلة عصر الخلفاء الراشدين وصدر الإسلام، وعلى وجه التحديد من وفاة الرسول ﷺ إلى معركة «بلاط الشهداء»، في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك^(٢)، حيث بلغت الدولة الإسلامية الفتية أقصى اتساعها في غرب أوروبا، وشارفت جيوش عبد الرحمن الغافقي^(٣) على اجتياح فرنسا، وتمثل هذه المرحلة «المرحلة

(١) سيكون تاريخ الحافظ ابن كثير رحمه الله (البداية والنهاية) مرجعاً أساسياً في هذا العرض التاريخي، لاستيعابه فترة طويلة من تاريخ العلاقات، ولمزاياه الفنية المنهجية، ودفعاً للتوسع والإطالة في مبحث لا يهدف أصلاً الدراسة التاريخية المتخصصة، وإنما التقاط الشواهد التاريخية التي تتأتى من مصدر واحد وثيق كالبداية والنهاية.

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١ - ١٢٥هـ) من خلفاء الدولة الأموية. بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ. نشط في عهده الجهاد في سبيل الله فقاتل المسلمون الترك، وقتلوا خاقانهم، واستولوا على بلاد ما وراء النهرين، وكثر المال. كان حسن السياسة، يقظاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. انظر: الأعلام (٨/٨٦)، البداية والنهاية (٩/٣٥١ - ٣٥٤).

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي: أبو سعيد، أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق، من قبيلة عك في اليمن. رحل إلى أفريقية ثم إلى الأندلس، وولي قيادة الشاطئ الشرقي، وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك سنة ١٠٢هـ، وولاه هشام بن =

الذهبية» للإسلام مع النصرانية، حيث تم طي بساط النصرانية عن الأقاليم المعمورة؛ في الشام والعراق ومصر والمغرب بل وأسبانيا وجنوب فرنسا، ونشر أعلام الإسلام عبر سلسلة متتابعة من الفتوحات السريعة المذهلة، كان قوادها، ولحمة سداها أصحاب محمد ﷺ وخيار التابعين. فقد استهل الخليفة الراشد الأول: أبو بكر الصديق مدة خلافته القصيرة، سنتين وثلاثة أشهر، بإنفاذ جيش أسامة بن زيد^(١) الذي عقد لواءه رسول الله ﷺ قبل وفاته، والسير إلى تخوم البلقاء من الشام وقتال الروم^(٢)، رغم ارتداد كثير من قبائل العرب عن الإسلام، ولما تم القضاء على المرتدين، شرع الصديق ﷺ في جمع المسلمين لغزو الشام، وتولية الأمراء، وعقد الأولوية والرايات، وذلك في أول سنة ثلاثة عشر للهجرة^(٣).

وبعد وفاة الصديق ﷺ في جمادى الآخرة، تولى الخلافة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ فكان كما وصف النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمر ﷺ: (أريت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على

= عبد الملك إمارة الأندلس سنة ١١٢هـ، وهو الذي بنى قنطرة قرطبة المشهورة. واجتاز بالمسلمين جبال البرانس لغزو بلاد الغال «فرنسا» فاستولى على أجزاء منها، ودحر جيوش شارل مارتل، فجمع له جيشاً كبيراً، من الغاليين والجرمانيين، فدارت معركة هائلة في «بواتيه» عرفت باسم بلاط الشهداء، استشهد فيها ﷺ. انظر: الأعلام (٣/٣١٢).

(١) أسامة بن زيد بن حارثة: الأمير، أبو محمد، وأبو زيد. صحابي مشهور. حب رسول الله ﷺ وابن حبه. ولد بمكة، ونشأ على الإسلام. سكن وادي القرى بعد وفاة النبي ﷺ ثم انتقل إلى الشام في أيام معاوية ﷺ. مات سنة أربع وخمسين من الهجرة، عن خمس وسبعين سنة. انظر: تقريب التهذيب (٥٣/١)، الأعلام (٢٩١/١).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٣٠٤/٦).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٢/٧ - ٤).

قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً^(١) أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له. ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً^(٢)، فلم أر عبقرياً^(٣) يفري فريته^(٤) حتى روي الناس، وضربوا بعطن^(٥). ففي زمن خلافته ﷺ استكملت فتوح العراق والشام ومصر عبر سلسلة متلاحقة من المعارك الفاصلة والفتوحات العظام مثل: معركة اليرموك ١٣هـ، فتح دمشق ١٣هـ، وقعة فحل ١٣هـ، معركة القادسية ١٤هـ، فتح حمص الأول، وقنسرين وقيسارية وأجنادين وبيت المقدس وحمص الثانية جميعها في ١٥هـ. ثم فتح المدائن ومعركة جلولاء وفتح تكريت والموصل من أرض العراق في ١٦هـ والجزيرة في ١٧هـ وفي سنة ٢٠هـ كان فتح مصر، والإسكندرية عام ٢٥هـ.

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ جرى فتح أفريقية عام ٢٧هـ، وابتداء فتح الأندلس ٢٧هـ، وفتح قبرص ٢٨هـ ومعركة ذات الصواري البحرية ٣١هـ، وغزوة ملاطية ٣٣هـ. ثم انكفأ المسلمون على أنفسهم بسبب ما جرى من الفتنة، وقتل عثمان ﷺ، فتوقفت الفتوح.

ولما استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ عاود غزو بلاد الروم منذ سنة اثنتين وأربعين للهجرة، وبلغ المسلمون مدينة قسطنطينية

(١) الذنوب: الدلو الكبيرة إذا كان فيها الماء. فتح الباري (٣٢/٧).

(٢) الغرب: الدلو العظيمة.

(٣) المراد به كل شيء بلغ النهاية.

(٤) أي يعمل عمله البالغ. فتح الباري (٣٣/٧).

(٥) صحيح البخاري (١٩٨/٤) والعطن: مناخ الإبل إذا شربت ثم صدرت. فتح الباري (٣٣/٧). وقال ابن حجر: (..) لم يتعرض في ذكر عمر إلى عدد ما نزع من الدلاء، وإنما وصف نزع العظماء إشارة إلى كثرة ما وقع في خلافته من الفتوحات والله أعلم) الفتوح (٣٢/٧).

عام ٤٣هـ وعام ٤٩هـ، في غزواتٍ متتابعة لبلاد الروم، وفتحت جزيرة «رودس» عام ٥٣هـ، و«كرت» عام ٥٥هـ. وفي عام ٦٢هـ سارت جيوش المسلمين غرباً في الشمال الإفريقي لقتال الروم والبربر، وفي عام ٧٨هـ بلغوا «طنجة» في أقصى المغرب، واكتمل فتح المغرب في عام ٩١هـ. وفي عام ٩٢هـ غزا المسلمون بلاد الأندلس وفتحوا أقاليمها في أقل من ثلاث سنين. وفي عام ٩٤ تم فتح «أنطاكية» و«سندرة» من أرض الروم. قال ابن كثير رحمته الله: (وفيها فتح الله على الإسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك^(١)، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه، حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه)^(٢).

وقد حاول المسلمون مراراً فتح القسطنطينية، وكان من أواخر هذه المحاولات الجادة في هذه المرحلة تجهيز سليمان بن عبد الملك^(٣) عام ٩٨هـ لأخيه مسلمة بجيش عظيم، ولكن لم يقع ذلك الفتح

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس (٤٨ - ٩٦هـ)، من خلفاء الدولة الأموية. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ، فوجه القواد لفتح البلاد، فامتدت الفتوح في عهده إلى بلاد الهند والتركستان وأطراف الصين شرقاً، وأقاصي المغرب وبلاد الأندلس غرباً. وكان ولوعاً بالبناء والعمران وإصلاح الطرق. وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام، وأجرى الأرزاق على الناس، وجعل لكل أعمى قائداً، ولكل مقعد خادماً، وجعل بيوتاً للغرباء. وأعاد بناء المسجد النبوي، والمسجد الأقصى والجامع الأموي بدمشق، رحمه الله. انظر: الأعلام (١٢١/٨)، البداية والنهاية (١٦١/٩ - ١٦٦).

(٢) البداية والنهاية: (٩٥/٩).

(٣) سليمان بن عبد الملك بن مروان (٥٤ - ٩٩هـ) أبو أيوب، الخليفة الأموي، ولد في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ. وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح، وجهاز جيشاً كبيراً، وسيره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية. وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانت في أيدي الترك. رحمته الله. الأعلام (١٣٠/٣)، والبداية والنهاية (١٧٧/٩).

المرتقب، ولم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية شديد البناء محكماً، رحب الفناء شاهقاً في السماء^(١).

وفي عهد الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز^(٢) رَحِمَهُ اللهُ اخترق المسلمون جبال البرانس الفاصلة بين شبه الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال حالياً، الأندلس سابقاً) ودخلوا جنوب فرنسا (بلاد الغال) وفتحوا «سبتمانيا» ومدن حوض نهر «الرون» حتى بلغوا مدينة «سانس» الواقعة على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب باريس. وظلوا يتوسعون في تلك المناطق ويناوشون الفرنجة، حتى تصاف جيشان ضخمان وجهاً لوجه في معركة فاصلة من معارك التاريخ، عرفها المسلمون باسم «بلاط الشهداء»، وسماها خصومهم الفرنجة: «تور - بواتيه» وذلك في أواخر شعبان سنة ١١٤هـ أسفرت - بعد ملاحم طاحنة - عن انهزام المسلمين إلى مواقع خلفية في جنوب فرنسا.

لقد كان هذا الحدث التاريخي مؤشراً هاماً في حركة المد الإسلامي يمثل الذروة العليا، والحد الأقصى الذي بلغته حركة الفتوح الإسلامية الظافرة، ومن بعده أخذ المؤشر يتجه ناحية الانحدار، وتلك سنة الله في خلقه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(١) البداية والنهاية: (١٧٤/٩).

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، أبو حفص، الخليفة الصالح والملك العادل، وربما قيل خامس الخلفاء الراشدين، ولي الخلافة من سنة ٩٩هـ حتى وفاته سنة ١٠١هـ، فمدة خلافته سنتان ونصف وأخباره في عدله وحسن سياسته شهيرة، وقد ألف في مناقبه كتب جمّة. الأعلام (٥٠/٥)، فوات الوفيات (١٠٥/٢)، تهذيب التهذيب (٤٧٥/٧)، حلية الأولياء (٢٣٥/٥)، صفوة الصفوة (٦٣/٢)، والنجوم الزاهرة (١/٢٤٦).

يقول «جيبون»: (لو انتصر العرب في تور - بواتيه، لتلي القرآن وفسر في أكسفورد وكمبردج)^(١).

لقد تميزت هذه المرحلة «الذهبية» المدهشة بجملة من الخصائص الفريدة:

أولاً: الدافع العقدي النقي، والحماس الإيماني الجهادي لدى الفاتحين المسلمين الذين خرجوا من بوتقة جزيرتهم العربية الضيقة ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور غير مباليين بقله عددهم، وضعف عتادهم، وقوة عدوهم وكثرة جموعه، مستعجلين بالإيمان، مستخفيين بالطغيان، موقنين بموعد ربهم الآجل والعاجل، مصدقين ببشارة نبيهم ﷺ، فضربوا أروع الأمثلة في التضحية والبسالة والحرص على الشهادة، والزهادة بما في أيدي الناس في مواقف وملاحم ومقامات مشهورة أذهلت أبناء البلاد المفتوحة، فوطأ الله لهم أكناف الأرض وفتح لهم القلوب قبل الحصون. وتسمو درجة النقاء والطهر والنزاهة في الأفواج الأولى من الفاتحين الذين هم أصحاب محمد ﷺ وكبار التابعين، وفي عصرهم فتحت الأقاليم الكبار، وصارت دار إسلام إلى آخر الزمان، وكلما مضى الدهر قدماً نقص هذا المستوى الرفيع، وشابته الشوائب حتى بلغ الأمر منتهاه في هذه المرحلة التي تمثل قرناً من الزمان بعد وفاة الرسول ﷺ تقريباً، وعامة أهلها خير القرون.

لقد كان يحدو أولئك الفاتحين في هذه المرحلة حاديان؛ عامٌ وخاص.

فأما العام: فقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

(١) نقلاً عن: بلاط الشهداء: شوقي أبو خليل. دار الفكر. دمشق. الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م). ل: شوقي أبو خليل (٣٦). وأكسفورد وكمبردج جامعتان عريقتان في إنجلترا.

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأما الخاص: فقولہ ﷺ: (لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)^(١). ورواه الإمام أحمد من حديث بشر الخثعمي رضي الله عنه، قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك^(٢) فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية.

وعن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة، يريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه، لا إله إلا الله، يلقي بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب^(٣): إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام، قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أي نقيم في أموالنا، ونصلحها وندع الجهاد. قال أبو عمران: فلم يزل

(١) المسند (٣٣٥/٤). وسنده حسن وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢١/٦): رواه أحمد والبخاري والطبراني ورجاله ثقات.

(٢) مسلمة بن عبد الملك بن مروان (٥٠ - ١٢٠هـ) أمير قائد، من أبطال عصره من بني أمية في دمشق له فتوحات مشهورة. سار في مئة وعشرين ألفاً لغزو القسطنطينية في دولة أخيه سليمان، وبنى مسجد مسلمة بالقسطنطينية سنة ٩٦هـ، وولاه أخوه يزيد إمرة العراقيين ثم أرمينية. وغزا الترك والسند سنة ١٠٩هـ ومات بالشام. قال الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته. انظر: الأعلام (٢٢٤/٧)، البداية والنهاية (٣٢٨/٩).

(٣) خالد بن زيد بن كليب الأنصاري، أبو أيوب من كبار الصحابة، شهد بدرًا، ونزل النبي ﷺ حين قدم المدينة عليه، مات غازيًا بالروم سنة خمسين وقيل بعدها. تقريب التهذيب (٢١٣/١).

أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية^(١).

ظل المسلمون يبعثون بالصوائف والشواتي في أرض الروم طوال القرن الأول طلباً لهذا الشرف العظيم، فتح القسطنطينية، والفوز بالمنقبة الرفيعة التي وصف بها النبي ﷺ جيش الفاتحين وأميرهم.

وكذلك الحال على الجانب الغربي، فقد كان هذا الهاجس يحدو جيوش المسلمين المجاهدة في الشمال الإفريقي وهم يهمون بفتح الأندلس، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (لما افتتحت أفريقية: بعث عثمان إلى عبد الله بن نافع بن عبد قيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين من فورهما إلى الأندلس فأتياها من قبل البحر، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها يقول: إن القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح قسطنطينية في الأجر آخر الزمان، والسلام)^(٢). وكان ذلك في سنة ٢٧هـ في خلافة عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لقد كان المسلمون يطمحون أن يحيلوا بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط حالياً - إلى بحر الإسلام، وأن يحيطوا بالقسطنطينية من جانبيها الآسيوي والأوربي، وكان موسى بن نصير^(٣) رَحِمَهُ اللهُ يقول: (لو

(١) سنن أبي داود (٢٧/٣) والترمذي برقم (٢٩٧٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) البداية والنهاية (١٥٢/٧). وانظر: الكامل (٤٧/٣) وتاريخ الطبري (٤/٢٥٣).

(٣) موسى بن نصير بن عبد الرحمن اللخمي، بالولاء (١٩ - ٩٧هـ) أبو عبد الرحمن، فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز نشأ في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية. فغزا قبرس، وبنى بها حصوناً، وغزا أفريقية، ووليها، وأقام بالقيروان، ووجه مولاه طارق بن زياد لفتح الأندلس عام ٩٢هـ، ففتحها ثم التحق به في العام التالي، وأكملها معاً فتح الجزيرة حتى جبال البرانس، وكان يطمع باختراق أوربا ليصل إلى القسطنطينية من الجانب الآخر، ولكن الوليد بن عبد الملك خاف عاقبة الإيغال فأمره بالتوقف =

انقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية - وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج - ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى^(١). وبهذه الروح الوثابة، وهذا التألق الإيماني رسم الفاتحون خريطة العالم من جديد، وأزاحوا النصرانية عن أشرف مقدساتها، وأعلى مراتبها، وأرسوا دعائم الدين الحق، ووطدوا أركانه.

ولعل استعصاء هذه المدينة «القسطنطينية» ومنعتها أمام جيوش المسلمين ومحاولاتهم المتكررة لفتحها، حتى اكتفوا ببناء جامع فيها على رأس القرن الأول، ثم ما تلا ذلك من صد التوسع الإسلامي في فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء الفاصلة عام ١١٤هـ، كان إيذاناً بانتهاء مرحلة متميزة، فريدة، أثمرت ثماراً يانعة باقية في تاريخ بني الإنسان.

ثانياً: الإقبال العظيم على اعتناق الإسلام، والدخول في دين الله من أبناء البلاد المفتوحة رضاً وطواعية. ولقد شهدت العقود الأولى من الفتح الإسلامي انخراطاً في الدين الجديد من معتنقي الأديان الأخرى - خصوصاً النصارى - وتحولاً ملفتاً في المجتمعات المنضوية تحت راية الإسلام دون عنفٍ ولا إكراه في ظاهرة تاريخية لم يسبق لها مثيل، شهد بها الخصوم قبل الأولياء.

يقول برنارد لويس^(٢): (لقد وصل محمد إلى السلطة والحكم أثناء

= والعودة إلى دمشق، فوصلها عام ٩٦هـ في مرض الوليد، ثم حج مع سليمان، وتوفي في وادي القرى. وكان شجاعاً عاقلاً كريماً، لم يهزم له جيش قط ﷺ. انظر: الأعلام (٧/ ٣٣٠).

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٢) برنارد لويس: ولد في لندن عام ١٩١٦م. حصل على اللسانس مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة لندن عام ١٩٣٦م، ودبلوم الدراسات السامية من جامعة باريس عام ١٩٣٧م، والدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٣٩م. وهو أستاذ الدراسات الخاصة بالشرق الأدنى في جامعة «برنستون»، وعضو دائم =

حياته، وقد أسس بنفسه أول دولة إسلامية، وحكمها مع أصحابه، لقد انتهت مهمة الرسالة الروحية لمحمد بوفاته، ولكن رسالته الدينية والسياسية استمرت على يد خلفائه. وتحت حكم الخلفاء، تقدم المسلمون من انتصار إلى انتصار، وبالتالي نشأ خلال قرن واحد كيان شاسع الأصقاع يمتد من حدود الهند والصين إلى جبال البيرينيه وسواحل المحيط الأطلسي، وهو كيان يحكم ملايين الأتباع، وبأعداد هائلة، ممن اعتنقوا الدين الجديد... إن تاريخ الدولة الإسلامية المبكر - الذي يحظى بالقداسة - يشكل جوهر ولب ذاكرة ووعي المسلمين في كل مكان، وهو يحكي قصة الفتوحات السريعة المتواصلة، والتي تساقط أمامها زعماء العقائد الفاسدة التي تضطهد شعوبها.

لقد وصل الإسلام إلى الانتصار النهائي سواء من حيث العقيدة أو السلاح، وأوصل كلمة الله إلى البشرية كلها، وفرض الشريعة الإلهية على العالم كله^(١). (..) وهكذا فعندما وصل المسلمون في العصور الوسطى إلى صقلية وأسبانيا والبرتغال، شاهدنا بعد فترة قصيرة عمليات تحول ودخول جماعات كثيرة من النصارى إلى الدين الجديد^(٢).

إن التفسير الحقيقي لظاهرة الاعتناق الجماعي للإسلام من سكان البلاد المفتوحة؛ كتابيين أو وثنيين، ترجع إلى أمرين أساسيين:

= في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون - نيوجرسي - ١٩٧٤م. يشغل العديد من المناصب العلمية، وعضو فخري في عشرات الجمعيات. مؤلفاته تربو على العشرين، وله عشرات الأبحاث المنشورة في التاريخ والفرق. انظر التعريف به في مقدمة كتابه (الإسلام الأصولي). دار الجيل. بيروت. ط ١٤١١هـ - ١٩٩٤م.

(١) الإسلام والغرب: برنارد لويس. دار الرشيد - دمشق - بيروت، مؤسسة الإيمان - بيروت. الطبعة الأولى (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م). (٥).

(٢) الإسلام والغرب (٨).

أولهما: صحة العقيدة الإسلامية ووضوحها ومتانتها، وموافقتها التامة للعقل والفطرة وأصول الشرائع السابقة، وبعدها عن التعقيد والغموض والتكلف والبدعة الذي آلت إليه الأديان المحرفة. فوجد فيها القوم بغيتهم، وسكينة قلوبهم، وحل إشكالاتهم العقدية والتشريعية، على حد قول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ [البينة: ١ - ٣].

وثانيهما: الالتزام الشرعي، والتطبيق الدقيق لحملة هذا الدين من الفاتحين المؤمنين الأولين، حتى ضربوا أروع الأمثلة في الصدق والوفاء بالعهود، وحفظ الذمة والعدل والنزاهة، مع صدق الإيمان وقوة الصلة بالله تعالى، والشهادة في سبيله على حد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿٤﴾ [الحج].

لقد رأى أبناء البلاد المفتوحة في أصحاب رسول الله ﷺ ملائكة يمشون على الأرض مطمئنين، فبهروا بصدقهم وإخلاصهم وعدلهم وخشيتهم لربهم وزهادتهم في الدنيا، فعلموا أنهم تضلعوا من معين النبوة، وأشرقت قلوبهم بنور الإيمان فاخترتوا الإسلام راغبين منقادين رجاء أن يؤتوا أجورهم مرتين^(١).

(١) يقول الباحثان فيليب فارح، ويوسف كرباج: (إن العراق الذي كان يركز الكتلة الديموغرافية للمنطقة، قد ترك لنا المؤشرات الأكثر ترتيباً، ... ففي الشمال في ظل الخلفاء الأوائل تظل النسطورية حيوية... وفي الجنوب، في المقابل، يمتد الإسلام بسرعة بالغة، والبرهان على ذلك هو انهيار إيرادات ضريبة الرأس: ففي عهد الخليفة عمر الأول، تصل إلى ما بين ١٠٠ مليون و١٢٠ مليوناً من الدراهم؛ بينما لا يجمع الأمويون منها غير ٤٠ مليوناً من الدراهم في عهد عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥م). وهذه الأرقام توضح اتساع=

ولا نفي أن تكون التشريعات الإسلامية في حق أهل الذمة من فرض الجزية وغيرها قد تدفع ببعضهم إلى اعتناق الإسلام، أو على الأقل تحملهم على التفكير بذلك. ولكننا نجزم أن «الجزية» في حد ذاتها، أو مجرد «الغلبة» و«السيطرة السياسية» غير كافية أبداً في التخلي عن المعتقد، بدليل أن هؤلاء القوم قد خضعوا لبعض مخالفاتهم في المعتقد، الذين ساموهم سوء العذاب، ونكلوا بهم، فما زادهم ذلك إلا إصراراً على دينهم. كما أن ذلك الذمي يرى مواطنه المسلم يدفع لبيت مال المسلمين زكاة ماله كما يدفع هو الجزية. إضافة إلى ذلك فقد ظل أعداد من هذه الطوائف قروناً متطاولة مصرين على دينهم الأول، يدفعون الجزية. فالباعث الحقيقي والسبب الرئيس في إقبالهم على الإسلام هو ما أشرنا إليه، ولو كره الحاسدون.

وقد تفيأ أهل الذمة ظلال العدل الإسلامي الوارفة، وعاشوا آمنين مطمئنين على أرواحهم، وأموالهم، وأعراضهم، بل ومقدساتهم طوال هذه المرحلة متمتعين بضمانات كفلهما لهم التشريع الإسلامي ذاته^(١).

فلم يلحظ التاريخ خلال هذه الفترة حوادث شغب أو ثورات أو

= عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام: إن ثلثي إجمالي السكان يقران الانتماء إلى الإسلام منذ النصف الأول للقرن. وإذا ما سلمنا بأن العراق (بمفهوم جغرافي واسع) كان يضم نحو عام ٧٠٠ زهاء ٩ ملايين من السكان، فبالإمكان توزيع هؤلاء إلى ٦ ملايين من المسلمين حديثي الاعتناق للإسلام و٣ ملايين من المسيحيين). المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلام العربي والتركي (٢٤ - ٢٥).

وأما في مصر فيقول الباحثان: (إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة؛ ٢٦٪ بين عامي ٦٤٤، ٦٦١ ثم ٣٣٪ في عهد معاوية وحده بين عامي ٦٦١، ٦٨٠). المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٢).

(١) راجع مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.

انتفاضات، على ضد ما يجري إثر عمليات الاحتلال من الشعب المغلوب على الجيش المنتصر. بل إن التاريخ يحفظ وقائع يطول سردها تكشف عن الجانب الخلقي في التعامل، والوفاء بالعهود، وحفظ الحقوق، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

ونختار لذلك مثلين: أحدهما في قصة بناء الجامع الأموي في دمشق، الذي كان كنيسة للنصارى، فلما فتح المسلمون دمشق (أخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة «مريُّحنا»^(١))، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقي بالسيف، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة، وكان على باب الجابية، الصلح، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة، فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقي، فجعله أبو عبيدة مسجداً يصلي فيه المسلمون... وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد... فينصرف النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم، ويأخذ المسلمون يمنة إلى مسجدهم، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ولا يضربوا بناقوسهم، إجلالاً للصحابة، ومهابة وخوفاً... ثم لم يزل الأمر على ما ذكرنا من أمر هذه الكنيسة شطرين بين المسلمين والنصارى من سنة أربع عشرة إلى سنة ست وثمانين في ذي القعدة منها^(٢).

ولما كثر المسلمون، وضاق بهم المسجد، وتأذوا من مجاورة النصارى لرفع أصواتهم بقراءة الأناجيل، فاوضحهم الوليد بن عبد الملك على الخروج وصالحهم وأرضاهم.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَمَّ أن يرد عليهم ما أخذ منهم الوليد، حتى حقق القضية وخيرهم بين الرد وبين استرجاع كنائس خارج

(١) لعلها نطق عربي لـ «مار يوحنا».

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ١٤٤ - ١٤٥).

البلد لم تدخل في الصلح، فاختاروا استبقاء تلك الكنائس، ويطيّبوا نفساً للمسلمين بتلك البقعة من الجامع^(١).

إن هذه الحادثة التي دامت فصولها قرابة تسعين سنة، لتدل على مدى التحرج الشرعي الذي يشعر به المسلمون تجاه حقوق أهل الذمة، تديناً لله، وحفظاً لعهد ودية رسوله ﷺ، لا خوفاً من هؤلاء النصارى ولا طمعاً فيهم، ولا يحفظ تاريخ الغزاة والفتاحين تسامحاً وعدلاً وإنصافاً ووفاءً كما حفظ لأهل الإسلام، خصوصاً في هذا القرن الأول.

وأما المثال الثاني فعلى المستوى الفردي، فقد روى أبو بكر الآجري^(٢) رحمه الله في أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز رحمه الله بسنده أنه (أمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها. فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص، أبيض الرأس واللحية، فقال: يا أمير المؤمنين: أسألك كتاب الله ﷻ. قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي - والعباس جالس - فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فاردد عليه يا عباس ضيعته، فرد عليه^(٣).

(١) انظر: تفاصيل الموضوع في البداية والنهاية (٩/١٤٢ - ١٥٢).

(٢) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري الشافعي، فقيه محدث نسبته إلى آجر (من قرى بغداد) ولد فيها، وحدث ببغداد، ثم انتقل إلى مكة وتوفي فيها، وله من التصانيف: «الشرعة»، و«أخلاق العلماء» و«النصيحة» وغيرها. مات سنة (٣٦٠هـ). انظر: الأعلام (٦/٩٧)، وفيات الأعيان (١/٤٨٨)، صفوة الصفوة (٢/٢٦٥).

(٣) أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز رحمه الله وسيرته: الآجري، أبو بكر =

هذه الضمانة الوثيقة التي يجد فيها أهل الذمة مأمنهم: «كتاب الله»، حتى ولو كان خصمه ابن خليفة معه سجل من الخليفة. فكتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد. فأين يجد الباحث إنصافاً ونصرة للمظلوم من أبناء الأمم المغلوبة من ظالمه من السادة المتغلبين في تاريخ البشرية؟

تلك لمحة مختصرة عن العلاقة التاريخية على الصعيدين الداخلي والخارجي بين المسلمين وأهل الكتاب في هذه المرحلة المتميزة تنبئ عما وراءها من مواقف وأحداث لا يتسع المقام لحصرها.

المرحلة الثانية: من عام ١١٥هـ إلى عام ٤٩٠هـ.

تشغل هذه المرحلة حيزاً زمنياً يمتد من منتصف العقد الثاني من القرن الثاني الهجري حيث بلغت الفتوحات الإسلامية أقصى امتداد لها، وأذنت بالانحسار التدريجي البطيء، وينتهي بالإرهاصات السابقة لأولى الحملات الصليبية على بلاد الشام في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري، أي ما يقارب أربعمئة سنة تقريباً.

والسمة المميزة لهذه المرحلة من ناحية العلاقات الإسلامية الكتابية على جانبيها الشرقي والغربي، أي في خط المواجهة مع الإمبراطورية البيزنطية شرقاً، والفرنجة غرباً، كونها مرحلة كُر وفر، ومناوشات متبادلة، وحماية ثغور، وعمليات صلح وتبادل أسرى، دون أن تشهد إضافة أقاليم كبار لدار الإسلام كما كان الحال في المرحلة الأولى. وربما كانت الكفة راجحة للجانب الإسلامي في العقود الأولى من هذه المرحلة، لا سيما في خط التماس مع الإمبراطورية البيزنطية، ثم مالت الكفة لصالح الجانب النصراني في أواخر هذه المرحلة، لا سيما في بلاد الأندلس.

= محمد بن الحسين. تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيان. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م). (٥٧ - ٨٥).

ويمكن أن نبين هذا الإجمال بشيء من التفصيل الموجز الذي تفرضه طبيعة البحث.

• إثر معركة «بلاط الشهداء» ١١٤هـ = ٧٣٢م زحف النصاري بقيادة «شارل مارتل» تجاه جنوب فرنسا واسترد بعض المدن المفتوحة، وبعد ست وثلاثين سنة من الحروب والمناوشات ودع المسلمون فرنسا بعد إقامة دامت سبعين سنة تقريباً (٧٢٠ - ٧٦٨م)، مخلفين ورائهم جبال البرانس حداً طبيعياً فاصلاً بين مملكة الفرنجة في فرنسا ومملكة المسلمين في الأندلس^(١).

• وفي الجانب الآخر دخلت الدولة الأموية في معمرة من الفتن الداخلية، واضطراب الأمور، وفساد أمر الخلافة بعد وفاة هشام بن عبد الملك ﷺ عام ١٢٥. قال ابن كثير: (لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية، وتولى وأدبر الجهاد في سبيل الله)^(٢). وانشغل المسلمون بأنفسهم، وسقطت الخلافة الأموية، وقامت خلافة بني العباس على أشلاء المسلمين ودمائهم عام ١٣٢هـ، وظل أمر الجهاد راكداً مما أغرى الروم بالهجوم على «ملطية» عام ١٣٨هـ، فقابله المسلمون بالتوغل في بلاد الروم عام ١٣٩هـ، ومفاداة الأسرى^(٣)، ثم توقفت الصوائف حتى عام ١٤٦هـ^(٤).

• وحين استتبب الأمور لبني العباس في عهد المهدي^(٥) (١٥٨-١٦٩هـ)،

(١) تفاصيل ذلك في: نفح الطيب ج(١)، فجر الأندلس، جذوة المقتبس.

(٢) البداية والنهاية: (٣٥٤/٨).

(٣) البداية والنهاية: (٧٣/٩).

(٤) المرجع السابق.

(٥) المهدي العباسي (١٢٧ - ١٦٩هـ) محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي العباسي، أبو عبد الله، المهدي بالله. من خلفاء الدولة العباسية في العراق. ولي بعد وفاة أبيه سنة ١٥٨هـ، وأقام في الخلافة عشر سنين وشهراً. =

والرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ)، والمأمون^(١) (١٩٨ - ٢١٨هـ)، والمعتصم^(٢) (٢١٨ - ٢٢٧هـ) - باستثناء فترات طارئة من الفتن الداخلية - نشطت حركة الجهاد نسبياً، وتتابع الغزو وحماية الثغور، وفتح بعض المدن والحصون، وأخذ الجزية من ملوك القسطنطينية أحياناً. ومن أبرز تلك الأحداث: غزو عام ١٥٩هـ، ١٦٢هـ، ١٦٤هـ، وغزو القسطنطينية عام ١٦٥هـ وأخذ الجزية من أهلها في خلافة المهدي^(٣)، ثم فتح «أنقرة» و«مطمورة» عام ١٨١هـ، وإذلال ملك الروم «نقفور» عام (١٨٧ - ١٩٠هـ) في خلافة الرشيد^(٤). وغزو بلاد الروم عام ٢١٥هـ، والرد على هجومهم على «طرسوس» عام ٢١٦هـ، وما تبع ذلك من مناوشات عام

= كان محمود العهد والسيرة، محبباً إلى الرعية، شديداً على المبتدعة والزنادقة. انظر: الأعلام (٢٢١/٦).

(١) عبد الله بن هارون الرشيد بن المهدي، أبو العباس، سابع خلفاء بني العباس، وأحد أعظم الملوك، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين، فعمل على ترجمة كتب الفلسفة والمنطق، وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة، وحض الناس على قراءتها، وقرب العلماء والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والشعراء وامتنح الناس بالقول بخلق القرآن في آخر حياته، توفي سنة ٢١٨هـ.

الأعلام (١٤٢/٤)، تاريخ بغداد (١٨٣/١٠)، الكامل في التاريخ (١٤٤/٦) - (١٤٨)، تاريخ الطبري (٢٩٣/١٠)، فوات الوفيات (٢٣٩/١).

(٢) محمد بن هارون الرشيد بن المهدي، خليفة من أعظم خلفاء بني العباس، بويع سنة ٢١٨هـ بعد وفاة أخيه المأمون، وهو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقية في خبر مشهور، اتسع ملكه جداً، وقرب إليه الأتراك، وكثروا في جنده فبنى لهم سامرا لما ضاقت بهم بغداد، توفي سنة ٢٢٧هـ. الأعلام (١٢٧/٧)، الكامل (١٤٨/٦ - ١٧٩)، مروج الذهب (٢٦٩/٢ - ٢٧٨).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٢٩/١٠، ١٣٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٦٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٠، ١٧٧، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٣).

٢١٧ - في خلافة «المأمون»^(١)، ثم الرد على هجوم الروم على «ملطية»، وفتح عمورية عام ٢٢٣هـ في خلافة المعتصم^(٢).
وبالجمله فقد كان جانب الدولة الإسلامية مرهوباً في الصدر الأول من خلافة بني العباس.

ولما آل الأمر إلى المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ)، وازداد نفوذ الأمراء الأتراك، ضعف أمر الجهاد، واستطال الروم على المسلمين، بل وقعت سابقة خطيرة، فقد هجمت الفرنجة على مدينة «دمياط» المصرية، وقتلوا وحرقوا وسبوا، ورجعوا في مراكبهم لم يعرض لهم أحد، وذلك عام ٢٣٨هـ^(٣). كما أغار الروم على بلاد الجزيرة عام ٢٤٢هـ^(٤) وقصد ملك الروم بلاد الشام في عام ٢٤٨هـ في خلافة «المنتصر»^(٥) (٢٤٧ - ٢٤٨هـ)^(٦). وهزم المسلمون في «ملطية» عام ٢٤٩هـ في خلافة «المستعين»^(٧) (٢٤٨ - ٢٥٢هـ)^(٨). وكل ذلك لضعف جانب الخلافة،

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٠/٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٠/٢٨٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٠/٣١٧).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٠/٣٤٣).

(٥) المنتصر العباسي (٢٢٣ - ٢٤٨هـ) محمد «المنتصر بالله» بن جعفر «المتوكل على الله» بن المعتصم أبو جعفر: من خلفاء الدولة العباسية. بويح بالخلافة بعد أن قتل أباه، سنة ٢٤٧هـ. وهو أول من عدا على أبيه من بني العباس. ولم تطل مدته، مدة خلافته ستة أشهر وأيام. قيل مات مسموماً. انظر: الأعلام (٦/٧٠)، البداية والنهاية (١٠/٣٩٤ - ٣٥٤).

(٦) انظر: البداية والنهاية (١٠/٣٥٣).

(٧) المستعين بالله العباسي (٢١٩ - ٢٥٢هـ) أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس. أمير المؤمنين، من خلفاء الدولة العباسية. بويح له بعد وفاة المنتصر سنة ٢٤٨هـ. وجرت في مدته فتن داخلية. انظر: الأعلام (١/٢٠٤)، البداية والنهاية (١١/٢ - ١١).

(٨) انظر: البداية والنهاية: (١١/٣).

وتفويض الأمر إلى أمراء الأجناد الأتراك، واشتغال الخلفاء بالملاهي والقيان والخمور، وعدم النهوض بأعباء الجهاد وحماية الثغور، وقد أدت أحداث عام ٢٤٩هـ في ملطية إلى هياج العامة، وتبني أهل اليسار من البغادة تمويل المتطوعين للجهاد في الثغور^(١).

واستمر الحال في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أثناء خلافة «المعتمد»^(٢) (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) في مناقشات مستمرة، كانت المبادرة غالباً بأيدي الروم، بينما يستमित أهل الثغور من المسلمين في الدفاع، كما جرى في ملطية عام ٢٥٩هـ^(٣)، وصقلية عام ٢٦٦هـ^(٤)، وطرسوس عام ٢٧٠هـ^(٥)، والرقّة عام ٢٨٩هـ^(٦).

• وما أن حل القرن الرابع الهجري حتى كانت دويلات الرافضة تجثم على معظم الأقاليم الإسلامية، وتنشر الرعب والخراب والكفر والبدعة فيها. فالقرامطة (٢٧٨ - ٤٦٦) في الأحساء والبحرين يقطعون الطريق على الحجيج، ويقتلونهم في المسجد الحرام^(٧)، ويغيرون على البصرة وجنوب العراق، والصليحيون في اليمن (٤٢٩ - ٥٦٩هـ)،

(١) انظر: البداية والنهاية: (٣/١١).

(٢) المعتمد على الله (٢٢٩ - ٢٧٩هـ) أحمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم، أبو العباس، المعتمد على الله. خليفة عباسي. ولد بسامراء، وولي الخلافة سنة ٢٥٦هـ بعد مقتل المهدي. وطالت أيام ملكه، وكانت مضطربة، بسبب نفوذ الموالي، حتى قام ولي عهده أخوه الموفق بالله طلحة فضبط الأمور. كان سمحاً جيد الفهم شاعراً. مات ببغداد. انظر: الأعلام (١٠٧/١).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٣١/١١).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (٣٩/١١).

(٥) انظر: البداية والنهاية: (٤٥/١١).

(٦) انظر: البداية والنهاية: (٨٤/١١).

(٧) انظر: البداية والنهاية: (٨١/١١، ١٢٢، ٢٧٢، ١٦٠).

والعبيديون (٢٩٧ - ٥٦٧هـ) في المغرب ومصر، ثم فلسطين والشام، والحمدانيون في الموصل وحلب وأعمالها (٣١٧ - ٣٩٤هـ). وبقيت الخلافة العباسية في العراق رسماً بالياً، والخليفة جسداً ملقى، يسيره الأمراء الأعاجم من البويهيين الرافضة (٣٢٠ - ٤٤٠هـ) أو حريم القصر.

وبالجملة فقد عم الرفض الأرض^(١). فلا غرو أن يشهد القرن الرابع أحداثاً جساماً، وجرأة بالغة من أهل الصليب، منتهزين ضعف أهل السنة وغلبة أهل التشيع والرفض.

ومن أبرز أحداث ذلك القرن العصيب:

* هجوم «الدمستق» ملك الروم على «ملطية»، ومطالبته أهل السواحل الإسلامية بالخراج عام ٣١٤هـ^(٢).

* هجومه على «رأس العين» وإعماله القتل والسبي في أهلها عام ٣٣٢هـ^(٣).

* هزيمة الروم لسيف الدولة الحمداني^(٤)، وإيقاعهم بأهل

(١) قال ابن كثير: (..) وقد امتلأت البلاد رفضاً، وسباً للصحابه من بني بويه وبني حمدان والفاطمييين. وكل ملوك البلاد مصرّاً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد، كانوا رفضاً، وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب فكثرت السب والتكفير منهم للصحابه). البداية والنهاية: (٢٣٣/١١).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٥٣/١١).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٢٠٨/١١).

(٤) سيف الدولة الحمداني (٣٠٣ - ٣٥٦هـ) علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي، أبو الحسن، سيف الدولة، الأمير، يقال: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم، ونجوم الدهر. ولد في «ميفارقين» بديار بكر، ونشأ شجاعاً مهذباً، عالي الهمة، وملك واسطاً وما جاورها. ومال إلى الشام فامتلك دمشق، وعاد إلى حلب فملكها =

طرسوس عام ٣٣٧هـ^(١).

* احتلال الروم «سروج» وقتل أهلها، وإحراق مساجدها عام ٣٤١هـ^(٢).

* دخول الروم «آمد» و«ميفارقين»، وأخذ مدينة «سمساط» عام ٣٤٧هـ^(٣).

* بل دخولهم «حلب» وإعمال السيف في أهلها الذين استبسلوا في الدفاع عنها، وتخريبها، وأخذ الأسارى والسبايا عام ٣٥١هـ^(٤).

* إغارة الروم على «الرها» عام ٣٥٢هـ^(٥)، ومناوشة المسلمين في جزيرتي إقريطش «كرت» عام ٣٥١هـ^(٦)، و«صقلية» عام ٣٥٣هـ^(٧).

* ثم هجومهم على «المصيصة» و«طرسوس» عام ٣٥٤هـ^(٨).

* تحريق «حمص» وسبي أهلها عام ٣٥٨هـ^(٩)، ثم دخول «أنطاكية» وقتل الشيوخ والعجائز وسبي الأطفال والنساء عام ٣٥٩هـ، ثم «طرابلس».

قال ابن كثير: (ثم مالوا على السواحل فملكوا ثمانية عشر بلداً،

= سنة ٣٣٣هـ، وتوفي فيها، ودفن في ميفارقين. أخباره ووقائعهم مع الروم كثيرة. انظر: الأعلام (٣٠٣/٤)، البداية والنهاية (٢٦٣/١١).

(١) انظر: البداية والنهاية: (٢٢٠/١١).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٢٢٥/١١).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٢٣٣/١١).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (٢٣٩/١١).

(٥) انظر: البداية والنهاية: (٢٤٣/١١).

(٦) انظر: البداية والنهاية: (٢٣٩/١١).

(٧) انظر: البداية والنهاية: (٢٥٣/١١).

(٨) انظر: البداية والنهاية: (٢٥٥/١١).

(٩) انظر: البداية والنهاية: (٢٦٦/١١).

سوى القرى، وتنصر خلقٌ كثير على أيديهم، فإننا لله وإننا إليه راجعون. وجاءوا إلى «حمص» فأحرقوا ونهبوا وسلبوا، ومكث ملك الروم شهرين يأخذ ما أراد من البلاد، ويأسر من قدر عليه. وصارت له مهابة في قلوب الناس، ثم عاد إلى بلده ومعه السبي نحو من مائة ألف ما بين صبي وصبية^(١).

كل هذه المآسي والنكسات، وقد طبق الرفض جميع ممالك الإسلام تقريباً، وكان أخطرها استيلاء بني بويه على مقاليد الأمور في دار الخلافة في بغداد عام ٣٣٤هـ.

قال ابن كثير: (وكل هذا في ذمة ملوك الأرض، أهل الرفض الذين قد استحوزوا على البلاد، وأظهروا فيها الفساد. قبحهم الله)^(٢). وقال في ترجمة النقفور ملك الأرمن، الملقب بالدمستق، الهالك سنة ٣٥٦هـ ما نصه:

(كان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلباً، وأشدّهم كفراً، وأقواهم بأساً، وأحدّهم شوكة، وأكثرهم قتلاً وقتالاً للمسلمين في زمانه، استحوز في أيامه لعنه الله على كثير من السواحل، وأكثرها انتزعها من أيدي المسلمين قسراً، واستمرت في يده قهراً، وأضيفت إلى مملكة الروم قدراً. وذلك لتقصير أهل ذلك الزمان، وظهور البدع الشنيعة فيهم وكثرة العصيان من الخاص والعام منهم، وفشو البدع فيهم، وكثرة الرفض والتشيع منهم، وقهر أهل السنة بينهم، فلهذا أدب عليهم أعداء الإسلام، فانتزعوا ما بأيديهم من البلاد مع الخوف الشديد، ونكد العيش، والفرار من بلاد إلى بلاد، فلا يبيتون ليلة إلا

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/٢٦٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١١/٢٦٧).

في خوف من قوارع الأعداء، وطوارق الشرور المترادفة، فالله المستعان^(١).

وفي هذا التقرير البليغ من هذا المؤرخ الموسوعي، والعالم الرباني، دروس من دروس الزمان، ودلائل الإيمان، يتعين على أهل الإسلام أن يعوها، ويقدروها حق قدرها، ويعرفوا عدوهم الداخلي والخارجي، فهل من مستعتب؟

لم يكن لملوك الرض هَمُّ بإقامة الجهاد، ورد عبّاد الصليب، بل كانت عهودهم عهود شر وفتن، واضطراب وفساد، وإرهاق للمسلمين بالحروب الداخلية.

ثم بدت أعلام السنة تلوح من قبل المشرق بظهور الدولة الغزنوية عام ٣٦٦هـ، وعلو نجم ملكها المظفر فاتح بلاد الهند محمود بن سبكتكين^(٢) رَحِمَهُ اللهُ، بعد ملك دام ثلاثاً وثلاثين سنة نصر فيه السنة، وقمع البدعة، ونشر الإسلام^(٣).

• ثم جاء من بعده ملوك السلاجقة السنيون عام ٤٢٩هـ، وتم على أيديهم القضاء على بني بويه الذين جثموا على دار الخلافة

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/٢٤٣).

(٢) محمود بن سبكتكين الغزنوي (٣٦١ - ٤٢١هـ) السلطان، يمين الدولة، أبو القاسم، فاتح الهند، وأحد كبار القادة. امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور. وكانت عاصمته «غزنة» بين خراسان والهند، وفيها ولادته ووفاته. أرسل إليه القادر بالله العباسي خلعة السلطنة عام ٣٨٩هـ، غزا خراسان وقضى على الدولة السامانية. وصمد لقتال ملك الترك وراء النهر. كان حازماً صائب الرأي، يجالس العلماء وينظرهم، وكان من أعيان الفقهاء، فصيحاً بليغاً. أصيب بمرض مدة سنتين حتى مات رَحِمَهُ اللهُ. انظر: الأعلام (٧/١٧١)، البداية والنهاية (٢٩/١٢ - ٣١).

(٣) انظر: ترجمته في البداية والنهاية: (٢٩/١٢ - ٣١).

العباسية في بغداد أكثر من مائة عام، (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ). وفي ظل هذه الدولة السنية الفتية انتعش أمر الجهاد فجدد السلاجقة ما اندرس من غزو الروم عام ٤٤٠هـ حتى (لم يبقَ بينهم وبين القسطنطينية إلا خمسة عشر يوماً)^(١).

* ثم في عام ٤٤٦هـ^(٢)، وفي النصف الثاني من القرن الخامس وقعت ثلاثة أحداث كبار في تاريخ العلاقات الإسلامية النصرانية:

أولها: معركة «ملاذ كرت» أو «مانزكرت» عام ٤٦٣هـ - ١٠٧٠م، بين جحافل الإمبراطورية البيزنطية بقيادة ملك الروم «أرمانوس» والسلاجقة السنيين بقيادة السلطان ألب أرسلان في معركة من معارك التاريخ الفاصلة. كان الظفر فيها حليف المسلمين^(٣).

الثاني: سقوط مدينة «طليطلة» بيد «ألفونسو»، ملك قشتالة النصراني عام ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م بعد حكم دام ٣٧٢ سنة^(٤).

الثالث: استيلاء الفرنج النورمانديين على جزيرة «صقلية» عام ٤٨٤هـ - ١٠٩٠م^(٥).

إن لهذه الأحداث الكبار دلالات كبرى أيضاً:

١ - لقد كانت معركة «ملاذ كرت» إيذاناً بانتهاء الخطر البيزنطي، وفشل محاولات النصارى من قبل المشرق، ومن ثم التفكير الجاد بالبحث عن سبل أخرى.

(ولم تقم للروم مذ ذاك قائمة، وبعدها لم ينفك أباطرة بيزنطة

(١) انظر: البداية والنهاية: (٥٨/١٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٦٥/١٢).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٠١/١٢)، والكامل في التاريخ (٢٢٣/٨).

(٤) انظر: الكامل في التاريخ (٢٩٨/٨).

(٥) انظر: الكامل في التاريخ (٣٤٥/٨).

يوفدون البعثات إلى الغرب، يروجون الدعوة للحروب المقدسة^(١).

٢ - كان سقوط «طليطلة» - عاصمة القوط قديماً - بيد النصارى إيذاناً بأفول شمس المسلمين في الأندلس. فقد كانت هذه المدينة واسطة عقد المدن الأندلسية، وسرة الجزيرة، وقد عبر بعض الشعراء عن هذا المعنى بقوله:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدوٍ لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفت^(٢)

٣ - كان سقوط جزيرة «صقلية» بأيدي الفرنج إيذاناً بانتهاء سيادة المسلمين البحرية على بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط - بوصفها درة ذلك البحر، وكبرى جزره، والمسيطرة على طرق التجارة والأساطيل فيه، واطمأن النصارى على سلامة عاصمتهم الكبرى «روما» التي هدها الفاتحون المسلمون وحاصروها عام ٢٣١هـ = ٨٥٠م في عهد البابا «سرجيوس الثاني»^(٣).

أما على الصعيد المدني، أي حال أهل الذمة في دار الإسلام، فقد كان من حيث الجملة استمراراً لحالهم في المرحلة الأولى من ناحية الحقوق والواجبات. ومن الطبيعي أن يصاحب ضعف التمسك بالدين، أو تولي المبتدعة والباطنية مقاليد الحكم في بعض الولايات

(١) الحروب الصليبية والمجابهة. شمس الدين الكيلاني. «مجلة الاجتهاد» (ملف العلاقات الإسلامية المسيحية) الأعداد (٢٨ - ٣٢) رئيس التحرير: الفضل شلق، رضوان السيد. دار الاجتهاد - بيروت (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م) (٥٣/٢٨).
(٢) عن كتاب الزلافة: شوقي أبو خليل. دار الفكر. دمشق. الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م). (١٩).

(٣) انظر: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (١٠١). عن فتح صقلية: شوقي أبو خليل دار الفكر - دمشق. الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م). (٨٧).

نوع ظلم واعتداء على حقوق أهل الذمة، وربما كان مبعثها أحياناً تصرفات استفزازية تصدر من أهل الذمة تهيج العامة أو بعض المتسلطين فيوقعون بهم. ومع ذلك تظل هذه الحوادث والوقائع محدودة تحفظ ولا يقاس عليها، بل إننا نجد شواهد من التسامح، وإن شئت قل من التساهل والتفريط في إسناد بعض الأمور الهامة لأهل الذمة، وتقريبهم من الخلفاء.

ونقتطف نبذاً من الأمثلة مما جمعه الشيخ محمد عبده^(١) في رده على صاحب مجلة «الجامعة»: (. . . ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء: جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور. . . وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجم، وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان، وله كتب في التاريخ جليلة، ونقل كتاب «أميردس» إلى السريانية بأفصح عبارة. وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب، وجبريل ولده، ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني، ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة، طبية وغيرها، وخدم الرشيد ومَن بعده، إلى المتوكل. . . وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون، أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة^(٢) وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور، وسابور ابنه، وكانا نصرانيين، وولي سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور.

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم. . . وفي أيام

(١) تأتي ترجمته والكلام عنه في الباب الأول.

(٢) ليته ما فعل. فإن ترجمة كتب الفلاسفة من اليونان وغيرهم قد فتحت على المسلمين باب علم الكلام المذموم، فانصرف المفتونون به عن الطريقة القرآنية النبوية في تقرير العقائد، وأرادوا الوصول إلى ذلك بالقوانين الأرسطية التي تبلبل العقل وتورث الشك.

المتوكل اشتهر حنين بن إسحاق النصراني العبادي، وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو^(١) وغيره... وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة، والعامّة في زمنه أيام خلافة الرازي^(٢) متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري، كان متفنناً في جميع العلوم العقلية... ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الإسلام، وهو نصراني، طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة، ثم يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي، انتهت إليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته... ومنهم أبو الفرج بن الطيب، فيلسوف عالم^(٣).

ويمكن القول أن هذا اللون من المعاملة والتمكين يمثل أحد طرفي قصد الأمور، فلم يكن المسلمون في القرن الأول يمكنون أهل الذمة من المهام الكبار، أو يتخذونهم بطانة، وإنما ظهر ذلك في هذه المرحلة كما أن الطرف الآخر، بمعنى الإساءة والتجاوز ظهر أيضاً في هذه المرحلة بصفة محدودة، ولأسباب محلية، ومن شواهد ذلك:

(١) أرسطو طاليس بن نيقوماخوس، من أهل أسطوخرا، ويعد من متأخري فلاسفة اليونان، وهو المقدم المشهور والمعلم الأول عندهم، ولد سنة ٣٨٤ ق.م وسمي المعلم الأول لأنه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة إلى الفعل، وكان قد تتلمذ على أفلاطون نيفاً وعشرين سنة. وكان أرسطو يلقي دروسه على تلاميذه وهم يمشون فلذا لقب أتباعه بـ «المشائين». الملل والنحل: الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. تحقيق: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة - بيروت. الطبعة (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م). (١١٩/٢).

(٢) الرازي بالله (٢٩٧ - ٣٢٩هـ) محمد ابن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمد، أبو العباس، الرازي بالله. ورث عن سلفيه، القاهر والمقتدر، خلافة ضعيفة، فحاول إصلاح الأمر حين ولي سنة ٣٢٢، فعجز. واستقل الولاة بما يلون من الأقاليم، وأكثرهم رافضة. ولم يبق اسم للخليفة في غير بغداد وأعمالها. انظر: الأعلام (١٧/٦).

(٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (١٦ - ١٩).

□ مشاركة نصارى حمص في التمرد على واليها في عهد المتوكل العباسي عام ٢٤١هـ، فكان من آثار ذلك أن أمر الخليفة (أن يخرج كل نصراني بها، ويهدم كنيسها العظمى التي إلى جانب المسجد الجامع، وأن يضيفها إليه)^(١).

وربما حصل مزيدٌ من التشديد في مسألة تمييز أهل الذمة عن المسلمين فوق ما كان معمولاً به في القرن الأول، ففي سنة ٢٣٥هـ (أمر المتوكل أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم، وثيابهم، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالقلبي، وأن يكون على عمائمهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم، وأن يلزموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة، وأن لا يركبوا خيلاً، ولتكن ركبهم من خشب، إلى غير ذلك من الأمور المذلة لهم، المهينة لنفوسهم، وأن لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثه، وبتضييق منازلهم المتسعة، فيؤخذ منها العشر، وأن يعمل مما كان متسعاً من منازلهم مسجد، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق، وإلى كل بلد ورستاق)^(٢).

وأياً كانت طبيعة معاملة أهل الذمة وتفاوتها في المجتمع الإسلامي، نظراً لاختلاف السياسة الشرعية في ظرفٍ معين، فإنها لا تنحدر إلى حد الإكراه في الدين، والتهديد بالقتل كما يقع من النصارى أنفسهم لرعاياهم وأسراهم من المسلمين في تلك العهود.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (.. وقد كانت أم الملك «تدورة» - لعنها الله -

(١) البداية والنهاية: (١٠/٣٢٣).

(٢) البداية والنهاية: (١٠/٣١٣ - ٣١٤).

عرضت النصرانية على من كان في يدها من الأسارى، وكانوا نحواً من عشرين ألفاً، فمن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته، فقتلت اثني عشر ألفاً، وتنصر بعضهم...^(١).

□ وربما تعرض أهل الذمة للمضايقة والأذى بسبب فساد الدولة وانحراف الحاكم، كما جرى أثناء تسلط الحاكم بأمره العبيدي من تخريب كنيسة بيت المقدس، وإباحتها للعامة، وهدم كنائس أخرى في مصر عام ٣٩٨هـ. ثم نودي في النصارى: (من أحب الدخول في دين الإسلام دخل، ومن لا يدخل فليرجع إلى بلاد الروم آمناً، ومن أقام منهم على دينه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زادها الحاكم على العهدة العمرية، من تعليق الصليبان على صدورهم، وأن يكون الصليب من خشب زنته أربعة أرتال، وعلى اليهود تعليق رأس العجل زنته ستة أرتال. وفي الحمام يكون في عنق الواحد منهم قرية زنة خمسة أرتال، بأجراس، وأن لا يركبوا خيلاً، ثم بعد هذا كله أمر بإعادة بناء الكنائس التي هدمها، وأذن لمن أسلم منهم في الارتداد إلى دينه. وقال: (ننزه مساجدنا أن يدخلها من لا نية له، ولا يعرف باطنه، قبحه الله)^(٢).

□ وربما وقع شيء من الفتن بين المسلمين وأهل الذمة بسبب استفزاز هؤلاء الأخيرين للمسلمين كما جرى في بغداد سنة ٤٠٣هـ حين توفيت زوجة بعض رؤساء النصارى، فخرجت النوائح والصليبان معها جهاراً، فأنكر ذلك بعض الهاشميين فضربه بعض غلمان ذلك الرئيس النصراني بدبوس في رأسه فشجّه، فثار المسلمون بهم فانهزموا حتى لجأوا إلى كنيسة لهم هناك، فدخلت العامة إليها فنهبوا ما فيها، وما

(١) البداية والنهاية: (١٠/٣٢٤).

(٢) البداية والنهاية: (١١/٣٣٩).

قرب منها من دور النصارى، وتتبعوا النصارى في البلد...^(١).

ونخلص إلى القول أن هذه المرحلة لم تشهد عمليات فتح كبرى، على الجانب النصراني على الأقل، أخذاً بالاعتبار بعض الفتوحات الإسلامية في المشرق، بل اتخذ الجهاد صفة حماية الثغور، وأخذ الجزية في بادئ الأمر، ثم جرت عملية انحسار تدريجي بطيء استغرق قروناً، في أطراف الدولة الإسلامية بسبب ضعف الخلافة، وهيمنة الجنس الأعجمي من الأتراك على خلفاء بني العباس، وإنهاك الدولة بالحروب والفتن الداخلية التي أثارها الدول الرافضية في أواخر القرن الثالث، والقرن الرابع.

وأما على الصعيد الداخلي، فرغم حوادث متفرقة تعرض لها أهل الذمة فقد سارت عملية فهم الإسلام واعتناقه من قبل السكان المحليين سيراً حثيثاً^(٢)، بسبب كثرة العلماء والصالحين والوعاظ، وظهور آثار الإسلام الاجتماعية والنفسية على معتنقيه.

لقد سلك التاريخ العلمي والدعوي لأهل الإسلام مسلكاً مغايراً للتاريخ السياسي للحكومات الإسلامية المتعاقبة، وافترقا منذ انتهاء المرحلة الأولى بعد القرن الأول تقريباً.

ويتضح هذا الافتراق، بالمقارنة بين هذين التاريخين، وتراجم أعلام كل منهما، حتى كأنهما، لا يشتركان في رقعة مكانية وزمانية واحدة.

(١) البداية والنهاية: (١١/٣٤٨).

(٢) انظر الجداول الإحصائية والرسوم البيانية لنسب السكان من مختلف الطوائف. المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركى (٤٤ - ٤٧).

المرحلة الثالثة من عام (٤٩٠ - ٦٩٠هـ):

تمثل هذه المرحلة فترة الحملات الصليبية المنطلقة من غرب ووسط أوروبا النصرانية إلى بلاد المشرق الإسلامي (سواحل الشام ومصر وآسيا الصغرى) في سبع حملات متعاقبة استغرقت قرابة قرنين من الزمان (٤٩٠ - ٦٩٠هـ). بالإضافة إلى استمرار الزحف النصراني جنوباً على بقية الأندلس المسلمة، وبقية جزر البحر الأبيض المتوسط.

والسمة المميزة لهذه المرحلة هي انتقال المجابهة النصرانية من الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية إلى دول وسط وغرب أوروبا الكاثوليكية بقيادة بابوات روما، وبالتالي انتقال أرض المعركة من الحدود والثغور المتاخمة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا الوسطى إلى العمق الإسلامي في السواحل الشامية وبيت المقدس، بسبب عمليات الإنزال البحري التي تقذف بها هذه الحملات، أو الجموع الهوجاء التي تنطلق من الممالك الأوربية لتلتقي عند أسوار القسطنطينية، وتُفوّج من هناك.

ويمكن أن يؤرخ لبدء الحملات الصليبية بالاجتماع الحاشد الذي دعا إليه البابا «أربان الثاني» في مدينة «كليرمون» في جنوب فرنسا، في نوفمبر من عام ١٠٩٦م، وحضره كبار الأساقفة والأمراء والإقطاعيين. وقد ألهم البابا حماس المجتمعين بخطبة بليغة مؤثرة، أثار فيها العصبية الدينية، بل والأطماع الدنيوية، تمحورت حول أربع ركائز:

الأولى: الدعوة إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين، استناداً على نصوص من الإنجيل.

الثانية: أنه يدعو إلى هذه الحملة باسم الرب بوصفه نائباً عنه في الأرض.

الثالثة: الحث على نبذ الخلافات بين المؤمنين بالمسيح وتوحيد الجهود.

الرابعة: منح غفران جزئي لكل من يشارك في هذه الحملة، سواء مات في الطريق أو قتل^(١).

واستجاب الحاضرون لنداءات البابا التحريضية، وصاحوا جميعاً في ذلك الحقل الفسيح صيحة مدوية صارت شعاراً في حروبهم المقبلة مع المسلمين قائلين: (الرب يريدنا) أو (تلك إرادة الله). ثم شرع الباب أوربان الثاني يجوب أنحاء فرنسا للدعوة إلى حربه المقدسة. كما برز قادة كنسيون شعبيون من أمثال «بطرس الناسك» هجروا أديرتهم وتفرغوا لتهيج الفلاحين والفقراء لإنقاذ مهد المسيح - بزعمهم -، ودغدغة مشاعرهم بامتلاك الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً^(٢).

وعلى مدى قرنين من الزمان تمخضت أوروبا الصليبية عن سبع حملات شهيرة موجهة نحو بلاد المشرق الإسلامي، نوجزها بما يلي:

أولاً: الحملة الصليبية الأولى:

تكونت من خمسة جيوش جرارة، قدمت من فرنسا وألمانيا وإيطاليا والتقت في عاصمة الإمبراطورية البيزنطية «القسطنطينية» في أواخر عام ١٠٩٦م، ثم عبرت مضيق البسفور متجهة نحو دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فسقطت عاصمتهم «نيقية» عام ١٠٩٧م. وفي الطريق إلى «أنطاكية» جنح قسم من الصليبيين نحو الرها، وكونوا أول إمارة صليبية في قلب العالم الإسلامي. وفي أواخر عام ١٠٩٧م فرض الصليبيون حصاراً على أنطاكية التي صمدت صموداً باهراً أمام الحصار، لولا خيانة بعض الأرمن المستأمنين على أحد أبراجها، فسقطت في منتصف عام ١٠٩٨م - ٤٩١هـ. وقد حاول بعض الأمراء

(١) باختصار من: ماهية الحروب الصليبية. د. قاسم عبده قاسم. (١٠٣ - ١٠٦).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية: د. قاسم عبده قاسم. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة. طبعة ١٩٩٣م. (١٠٨ - ١١١).

المسلمين إيقاف الزحف الصليبي بعد سقوط أنطاكية ولكنه مُني بالهزيمة، وهكذا تكونت الإمارة الصليبية الثانية عام ١٠٩٩م في أنطاكية. ثم واصل الصليبيون مسيرهم جنوباً فاستولوا على «معرة النعمان». وكان الهدف الأخير، والحلم المنشود لهذه الجموع الهادرة مدينة «القدس» التي كانت حديثة عهد بصراع بين السلاجقة والبيديين، فاستفاد البيديون من انشغال السلاجقة بحروبهم مع الصليبيين فاستولوا على القدس عام (٤٩٣هـ = ١٠٩٩م). ولكن متعتهم لم تطل فقد حاصرها الصليبيون على مدى خمسة أسابيع في ذلك العام. قال ابن كثير رحمه الله: (لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس، شرفه الله، وكانوا في نحو ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تتييراً)^(١).

وهكذا تكونت مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١١٠٠م^(٢).

لقد كانت هذه الأحداث صدمة هائلة لجمهور المسلمين الذين لم يملكوا إلا البكاء وإزجاء القصائد العاطفية، فقد كان ضعف التمسك بالدين، وفسحوا المعاصي والبدع، يقف خلف التشرذم السياسي والتنافس بين أمراء المدن الكبار: دمشق، وحلب، والموصل، وضعف الخلافة العباسية في بغداد يكبل هذه المشاعر، ويحول دون تحولها لتكوين جبهة موحدة أمام هذا العدو الغاشم، والعنصر الغريب الذي زرع قسراً في الأرض الإسلامية. أما «البيديون» في مصر فكانوا أبعد ما يكون من تقديم المساعدة لأهل الإسلام في بلاد الشام. بل كانوا يرسلون السفارات إلى ملوك الصليبيين للتفاوض على اقتسام الأرض.

(١) البداية والنهاية: (١٢/١٥٦).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٢٠ - ١٣٠).

ومع كون الصليبيين قد وسعوا نفوذهم على السواحل الشامية^(١)، حتى دان لهم شرق البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى جيب «الرها» وريف القدس، إلا إنهم لم يهنأوا بهذا الملك المغتصب، فقد كانوا يتعرضون لبعض الهزائم المنكرة على أيدي المسلمين. فمن ذلك:

* ما ذكره ابن كثير في حوادث سنة أربع وتسعين وأربعمائة: (.. وفيها أقبل ملك الفرنج في ثلاثمائة ألف مقاتل، فالتقى معه ستكين بن أنشمند طايلو، أتابك دمشق الذي يقال له أمين الدولة.. فهزم الإفرنج وقتل منهم خلقاً كثيراً، بحيث لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف، وأكثرهم جرحى - يعني الثلاثة آلاف - وذلك في ذي القعدة منها، ولحقهم إلى ملطية فملكها وأسر ملكها والله الحمد)^(٢).

* وفي حوادث سنة سبع وتسعين وأربعمائة: (.. قصد الفرنج لعنهم الله الشام، فقاتلهم المسلمون فقتلوا من الفرنج اثني عشر ألفاً، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً. وقد أسر في هذه الواقعة «بردويل» صاحب الرها)^(٣).

* وفي حوادث سنة سبع وخمسمائة (١١١٣م): (.. كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والفرنج في أرض «طبرية»، كان فيها ملك دمشق الأتابك «طغتكين» ومعه صاحب سنجار، وصاحب ماردين، وصاحب الموصل، فهزموا الفرنج هزيمة واضحة، وغنموا منهم أموالاً جزيلة، وملكوا تلك النواحي كلها. والله الحمد والمنة)^(٤).

(١) في عام ٤٩٤هـ سقطت قيسارية وسروج وعكا. ٥٠٣هـ طرابلس، ٥٠٤ صيدا، ٥٠٥ صور.

(٢) البداية والنهاية: (١٥٨/١٢)

(٣) البداية والنهاية: (١٦٣/١٢). و«بردويل» هو: «بلدوين» كونت الرها.

(٤) البداية والنهاية: (١٧٥/١٢ - ١٧٦).

* وفي حوادث سنة ثلاث عشرة وخمسمائة: (.. سارت الفرنج إلى مدينة حلب ففتحوها عنوة وملكوها، وقتلوا من أهلها خلقاً، فسار إليهم صاحب ماردين إيلغازي بن أرتق في جيش كثيف، فهزمهم ولحقهم إلى جبل قد تحصنوا به، فقتل منهم هنالك مقتلة عظيمة، والله الحمد. ولم يفلت منهم إلا اليسير، وأسر من مقدميهم نيفاً وتسعين رجلاً، وقتل فيمن قتل «سيرجال» صاحب أنطاكية وحمل رأسه إلى بغداد^(١).

* وفي حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة: (حاصر ملك بن بهرام وهو ابن أخي إيلغازي مدينة الرها، فأسر ملكها جوسكين الإفرنجي وجماعة من رؤوس أصحابه، وسجنهم بقلعة خرترت^(٢)).

* وفي حوادث سنة عشرين وخمسمائة: (اقتتل طغتكين صاحب دمشق وأعداؤه من الفرنج فقتل منهم خلقاً كثيراً، وغنم منهم أموالاً جزیلة والله الحمد والمنة^(٣)).

* وفي حوادث سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة: (حاصرت الفرنج مدينة «دمشق»، فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم قتالاً شديداً... حتى نصرهم الله من عنده، فإن المسلمين هزموهم، وقتلوا منهم عشرة آلاف، ولم يفلت منهم سوى أربعين نفساً، والله الحمد والمنة. وقتل «بوهيموند» الفرنجي صاحب أنطاكية^(٤)).

* وفي حوادث سنة أربع وعشرين وخمسمائة: (.. ملك عماد الدين زنكي^(٥) بلاداً كثيرة من الجزيرة، وهما «كذا» مع الفرنج، وجرت

(١) البداية والنهاية: (١٢/١٨٤).

(٢) البداية والنهاية: (١٢/١٨٨).

(٣) البداية والنهاية: (١٢/١٩٦).

(٤) البداية والنهاية: (١٢/٢٠٠).

(٥) عماد الدين زنكي بن آقسنقر. مؤدب الأميرين ألب أرسلان وفروخ شاه =

معهم حروبٌ طويلة، نصر عليهم في تلك المواقف كلها والله الحمد. وقتل خلقاً من جيش الروم حين قدموا الشام^(١).

* وفي حوادث سنة سبع وعشرين وخمسمائة: (..) اقتتلت الفرنج فيما بينهم قتالاً شديداً فمحق الله بسبب ذلك خلقاً كثيراً. وغزاهم فيها عماد الدين زنكي فقتل منهم ألف قتيل، وغنم أموالاً جزيلة، ويقال لها غزوة «أسوار»^(٢).

* وفي حوادث سنة ثمان وعشرين وخمسمائة: (فتح زنكي قلاعاً كثيرة، وقتل خلقاً من الفرنج، وفيها فتح شمس الملوك الشقيف وتيروت، ونهب بلاد الفرنج)^(٣).

* وفي حوادث سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (١١٤٤م): (أخذ عماد الدين زنكي الرها وغيرها من حصون الجزيرة من أيدي الفرنج، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وسبى نساء كثيرة، وغنم أموالاً جزيلة، وأزال عن المسلمين كرباً شديداً)^(٤).

يقول الدكتور قاسم عبده قاسم: (كانت تلك هي أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربي الإسلامي، وكان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين، ترددت أصدائها في كل مكان. إذ أن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر. كما أن سقوطها بعد

= السلجوقيين. تولى واسط سنة (٥١٦هـ)، وانتزع الرها من أيدي الصليبيين، واغتيل سنة (٥٤١هـ) في حروبه ضد الصليبيين. انظر: البداية والنهاية (١٢/ ١٩٠، ٢١٩، ٢٢١).

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٠٠).

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٠٤).

(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ٢١٩).

(٤) البداية والنهاية: (١٢/ ٢١٩).

أقل من خمسين عاماً من استيلاء بلدوين البويوني عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين^(١).

وهكذا مال ميزان القوى لصالح المسلمين الذين لم يزالوا يعانون من التفكك والفتن الداخلية، وإن كانت بوادر العافية قد بدأت تظهر بعلو نجم آل زنكي في أرض الموصل.

ثانياً: الحملة الصليبية الثانية: (١١٤٥ - ١١٤٩م).

جاءت هذه الحملة رد فعل بطيء لسقوط إمارة الرها، في عهد البابا «إيجينيوس الثالث» (١١٤٥ - ١١٣٥م)، وتكونت من جيوش ألمانيا بقيادة الإمبراطور «كونراد الثالث»، وفرنسا بقيادة ملكها «لويس التاسع». ووصلت إلى المنطقة نهاية عام ١١٤٧م، وقد منيت بالفشل الذريع، وعاد الملكان الصليبيان يجران أذيال الخيبة^(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة: (حاصرت الفرنج وهم في سبعين ألف مقاتل، ومعهم ملك الألمان في خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل، دمشق، وعليها مجير الدين أرتق، وأتابك معين الدين، وهو مدبر المملكة، وذلك يوم السبت سادس ربيع الأول، فخرج إليهم أهلها في مائة ألف وثلاثين ألفاً، فاقتتلوا معهم قتالاً شديداً، قتل من المسلمين في أول يوم نحو من مائتي رجل، ومن الفرنج خلق كثير لا يحصون، واستمر الحرب مدة، وأخرج مصحف عثمان إلى وسط صحن الجامع، واجتمع الناس حوله يدعون الله رَحِمَهُ اللهُ، والنساء والأطفال مكشفي الرؤوس يدعون ويتباكون، والرماد مفروش في البلد، فاستغاث أرتق بنور الدين محمود^(٣) صاحب حلب، وبأخيه

(١) ماهية الحروب الصليبية (١٣٨).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٣٩ - ١٤٠).

(٣) نور الدين محمود بن زنكي (عماد الدين)، أبو القاسم، الملقب بالملك =

سيف الدين غازي صاحب الموصل، فقصداه سريعاً في نحو من سبعين ألفاً بمن انضاف إليهم من الملوك وغيرهم، فلما سمعت الفرنج بقدوم الجيش تحولوا عن البلد، فلحقهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً^(١).

وكان من آثار هذه الحملة على الجانب الإسلامي مزيد من التوحد بين الممالك الإسلامية، فقد صارت بلاد الشام جبهة واحدة تحت قيادة نور الدين محمود، في مواجهة الإمارات الصليبية على امتداد الساحل. وبقيت الجبهة الجنوبية، مصر بأيدي العبيدين الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

وقد تصدى نور الدين محمود زنكي لجهاد الصليبيين، وانتزع الحصون والبلاد من أيديهم في بلاد الشام في وقائع مظفرة من أشهرها:

* غزوة سنة أربع وأربعين وخمسمائة التي قتل فيها ملك أنطاكية. ثم فتح حصن فاميا قرب حماة^(٢).

* فتح حصن إعزاز سنة خمس وأربعين وخمسمائة، وأسر جوسلين الإفرنجي وابنه^(٣)، وأخذ كل ما كان تحت يده من البلاد في السنة التي تلتها.

= العادل، ملك الشام والجزيرة ومصر، وهو أحد ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، كان مداوماً للجهاد يباشر القتال بنفسه، وقارع الصليبيين وهزمهم في مواقع، وكان متواضعاً مهيباً وقوراً مكرماً للعلماء، توفي سنة ٥٦٩هـ. الأعلام (١٧٠/٧)، الروضتين (٢٢٧/١ - ٢٢٩) وما قبلها، الكامل في التاريخ (١٥١/١١)، تاريخ ابن خلدون (٢٥٣/٥)، وفيات الأعيان (٨٧/٢)، مرآة الزمان (٣٠٥/٨).

(١) البداية والنهاية: (٢٢٤/١٢).

(٢) البداية والنهاية: (٢٢٥/١٢ - ٢٢٦).

(٣) البداية والنهاية: (٢٢٨/١٢).

* وقعة سنة سبع وأربعين وخمسمائة وكانت (وقعة عظيمة بين نور الدين الشهيد وبين الفرنج، فكسرهم وقتل منهم خلقاً ولله الحمد)^(١).

* وقعة حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، (فكسرهم كسرة فظيعة، وأسر البرنس «بيموند» صاحب أنطاكية، والقومص، صاحب طرابلس، والدوك صاحب الروم، وابن جوسلين، وقتل منهم عشرة آلاف، وقيل عشرين ألفاً)^(٢).

* فتح «بانياس» في سنة تسع وخمسين أيضاً، وقيل ستين^(٣).

* فتح حصن «المنيطرة» في الشام، سنة إحدى وستين وخمسمائة^(٤).

ولكن انتصار الصليبيين في عسقلان، وانتزاعهم إياها من أيدي العبيديين سنة ٥٤٨هـ أثار مخاوف نور الدين محمود من طمعهم في الاستيلاء على مصر، في وقت كانت الدولة العبيدية تلفظ أنفاسها الأخيرة. وحصل ما توقعه نور الدين - فعلاً - فقد (أقبلت الفرنج في جحافل كثيرة إلى الديار المصرية، وساعدهم المصريون، فتصرفوا في بعض البلاد)^(٥) وذلك سنة ثنتين وستين وخمسمائة، فبعث نور الدين أحد أمرائه وهو أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين^(٦) يوسف بن

(١) انظر: البداية والنهاية: (٢٢٩/١٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٢٤٨/١٢).

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: البداية والنهاية: (٢٥١/١٢).

(٥) انظر: البداية والنهاية: (٢٥٢/١٢)، و(المصريون) يطلق في تلك الحقبة على ملوك مصر من العبيديين.

(٦) يوسف بن أيوب بن شادي، أبو المظفر، الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام، له المناقب الجمة، والسيرة العظيمة، فمن مناقبه قضاؤه على العبيديين بمصر، والإصلاح الداخلي في البلاد حيث جمع بين ملك مصر =

أيوب، فهزما الفرنج وعادا بعد ذلك إلى الشام^(١). ولكن الأمر استفحل في سنة أربع وستين وخمسمائة فقد (.. طغت الفرنج بالديار المصرية... وتحكموا في أموالها ومساكنها، أفواجاً أفواجاً ولم يبق شيء من أن يستحوذوا عليها، ويخرجوا منها أهلها من المسلمين، وقد سكنها أكثر شجعانهم، فلما سمع الفرنج بذلك جاءوا إليها من كل فج وناحية، صحبة ملك عسقلان في جحافل هائلة... فعند ذلك أرسل صاحبها «العاضد» يستغيث نور الدين، وبعث إليه بشعور نسائه يقول: أدركني، واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج...)^(٢).

فحينئذ بعث نور الدين - مرة أخرى - أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين فانسحب الصليبيون. وتم فتح مصر في تلك السنة، ولم يلبث أسد الدين أن توفي بعد شهرين، وولي صلاح الدين، وزارة العاضد، وكان نائباً لنور الدين في مصر. وبعد فك الحصار عن «دمياط» سنة خمس وستين^(٣)، اتجه صلاح الدين إلى إصلاح ما أفسده العبيديون الرافضة، ففي سنة ست وستين وخمسمائة: (عزل صلاح الدين قضاة مصر، لأنهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدور

= والشام والجزيرة والموصل. فعمل على جمع الصفوف وتوحيد الكلمة ومن ثم جابه الصليبيين ونازلهم حتى كانت موقعة «حطين» الشهيرة بقيادته، وكانت وفاته سنة ٥٨٩هـ. وللمصنفين كتب كثيرة في سيرته منها كتاب «تاريخ الروضتين» لأبي شامة، وغيرها.

الأعلام (٢٢٠/٨)، وفيات الأعيان (٣٧٦/٢)، تاريخ ابن خلدون (٧٩/٤)، ٢٥٠/٥ - ٣٣٠، الكامل في التاريخ (٣٧/١٢)، طبقات السبكي (٣٢٥/٤)، مرآة الزمان (٤٢٥/٨).

(١) انظر: البداية والنهاية: (٢٥٢/١٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٢٥٥/١٢).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٢٦٠/١٢).

الدين عبد الملك بن درباس المارداني الشافعي^(١)، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية، وبنى مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية.. وعمّر صلاح الدين أسوار البلد، وكذلك أسوار إسكندرية، وأحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً، وركب فأغار على بلاد الفرنج بنواحي عسقلان وغزة، وضرب قلعة كانت لهم على أيلة، وقتل خلقاً كثيراً من مقاتلتهم... وفيها قطع صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل من ديار مصر كلها، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس على المنابر^(٢).

وفي أول جمعة من سنة سبع وستين وخمسائة هلك العاضد، آخر ملوك الدولة العبيدية، وأقيمت الخطبة لبني العباس بمصر وأعمالها في الجمعة الثانية بعد انقطاع دام أكثر من مائتي سنة (٣٥٩ - ٥٦٧هـ)، واجتثت تلك الشجرة الخبيثة من أرض الإسلام، وعادت مصر إلى حظيرة السنة، وعاصمة الخلافة^(٣). والله الحمد والمنة.

وإنما مُني المسلمون بأوطانهم، وغزاهم عدوهم في عقر دارهم بسبب هؤلاء الباطنية الذين أرادوا إطفاء نور الإيمان، ونشر البدعة والشرك والعصيان، ومكنوا لأعداء المسلمين من الصليبيين والتتار وسائر ملل الكفار، وملكوهم الحصون والثغور، كهؤلاء العبيديين

(١) صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارداني: قاضي الديار المصرية، الكردي الشافعي، ولد بأعمال الموصل عام ٥١٦ تقريباً، ورحل في طلب الفقه، وكان مشهوراً بالصلاح والفقه، توفي سنة ٦٠٥هـ، وكان من أبناء التسعين. السير (٤٧٤/٢١)، التكملة لوفيات النقلة (٢/الترجمة ١٠٦٢)، تاريخ الإسلام ١٨/١/١٩٦ - ١٩٧، العبر (١٣/٥)، البداية والنهاية (٥٢/١٣)، حسن المحاضرة (١٩٠/١).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٢٦٣/١٢).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٦٤/١٢).

اللثام، وقد بين المؤرخ الفاضل عماد الدين بن كثير هذه اللازمة، فقال: (وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالاً، وكانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة. ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وأنطاكية وجميع ما والى ذلك، إلى بلاد إياس وسييس، واستحوذوا على بلاد آمد والرها ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين خلقاً، وأمماً لا يحصيهم إلا الله، وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها، وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن الله سلم، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله ﷻ هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته^(١)).

وقد توفي الملك المجاهد نور الدين محمود زنكي رَحِمَهُ اللهُ سنة تسع وستين وخمسمائة بعد حياة حافلة بالجهاد في سبيل الله، وتسلم الراية بعده الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وبعد أربعة عشر عاماً قضاها في لم الشمل وجمع الكلمة، والقضاء على الفتن الداخلية، والإثخان في الصليبيين، وإصلاح أمور الرعية^(٢)، تهيأ في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة للملحمة الكبرى مع الفرنج التي كانت مقدمة ضرورية لفتح القدس، فكانت معركة حطين الفاصلة في شهر ربيع

(١) البداية والنهاية: (١٢/٢٦٧).

(٢) انظر: تفاصيل ذلك في البداية والنهاية من (٢٨٥) إلى (٣٢٠) ج (١٢).

الآخر، حشد فيها الجانبان قواتهما، وشهداها ملوكهما، ودارت رحى الحرب يومي الجمعة والسبت لخمس بقين من ربيع الآخر، (ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة فحملوا وكان النصر من الله وَجَلَّ، فمَنَحَهُمُ اللهُ أَكْتافَهُمْ، فقتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم، وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم، سوى قومس طرابلس، فإنه انهزم في أول المعركة، واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم، وهو الذي يزعمون أنه صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة، ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودمغ الباطل وأهله^(١)).

ثم قتل صلاح الدين رَحِمَهُ اللهُ «أرياط» صاحب الكرك بيده، لكونه تعرض لسب النبي ﷺ.

وفي الخامس عشر من شهر رجب من السنة نفسها ٥٨٣هـ سارت جحافل المسلمين إلى بيت المقدس ففتحوه يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، بعد أن بقي بيد عبدة الصليبان اثنتين وتسعين سنة (٤٩٢ - ٥٨٣هـ)^(٢) (١٠٩٩ - ١١٨٧م). ثم اتجه صلاح الدين رَحِمَهُ اللهُ لفتح الحصون الممتنعة واستنقاذ مدن الساحل الشمالية، حتى كاد يفتح أنطاكية. والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٦هـ = ١١٩٠م):

كان وقع أنباء انتصارات صلاح الدين مؤلماً في أوروبا، حتى إن البابا أربان الثالث (١١٨٥ - ١١٨٧م) مات من هول الصدمة حين بلغته الأنباء^(٣). قال ابن الأثير: (ثم إن الرهبان والقسوس، وخلقاً كثيراً من

(١) البداية والنهاية: (٣٢١/١٢).

(٢) انظر: تفاصيل ذلك الفتح العظيم في البداية والنهاية (٣٢٣/١٢ - ٣٢٧).

(٣) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٤٨).

مشهورهم وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج، يطوفها بهم جميعاً، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوروا المسيح ﷺ، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح ﷺ، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا، وحشدوا حتى النساء^(١).

وقد تكونت الحملة الصليبية الثالثة من كبار ملوك أوروبا، وهم:

• الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠م) الذي هلك غرقاً في أحد أنهار آسيا الصغرى، وتمزق جيشه، وملك إنجلترا، ريتشارد الأول (١١٨٩ - ١١٩٩م)، وملك فرنسا، فيليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣م).

وقد وصل الفرنسيون عكا في ربيع الأول سنة سبع وثمانين، ثم وافاهم الإنجليز في جمادى الأولى من السنة نفسها، وحاصروها حصاراً شديداً، واستبسل أهلها وحاميتها في الدفاع عنها، ومن ورائهم الملك صلاح الدين يمددهم بالمؤن والأقوات عن طريق البحر، حتى سقطت بأيدي الفرنج في السابع من جمادى الآخرة. وقتل الفرنج ثلاثة آلاف أسير من أهلها صبراً. رحمهم الله.

ولم تتمكن هذه الحملة التي علقت عليها الآمال تحقيق أهدافها من استعادة بيت المقدس ومدن الساحل، رغم ما بذلوه من محاولات،

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير، عز الدين، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م) (٦٩/١٠).

وتكبدوه من خسائر وهزائم متكررة. وانحصرت مكاسبهم في الاستيلاء على عكا، التي دافع عنها صلاح الدين الأيوبي سبعة وثلاثين شهراً. وحاولوا أخذ عسقلان فصدّهم المسلمون حتى يئسوا وطلبوا الصلح والأمان، وجرت الهدنة بين المسلمين والنصارى في السابع من شعبان من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة على وضع الحرب ثلاثين سنة ونصف. وعاد ملوك أوربا يجرون أذيال الخيبة، وعاد صلاح الدين إلى بيت المقدس يصلح شؤونها، ثم إلى دمشق، حيث توفي رحمته الله جاهدًا مجاهدًا في السابع والعشرين من شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة^(١).

رابعاً: الحملة الصليبية الرابعة: (٦٠٠هـ - ١٢٠٤م):

كان هدف هذه الحملة «مصر»، وذلك في عهد البابا «إنوسنت الثالث» (١١٩٨ - ١٢١٦م)، ولكن مسار الحملة انحرف عن القاهرة إلى القسطنطينية، تحقيقاً لأحلام بابوية روما القديمة في القضاء على الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية. فدمروا المدينة الحصينة ونهبوها، وقتلوا إخوة الدين، وكفى الله المؤمنين القتال سوى فرق قليلة من هذه الحملة اتحدت مع المستوطنين في بلاد الشام من الصليبيين. قال ابن كثير: (ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام، وقد تقووا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا وأغاروا على كثير من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل^(٢)، وكان بدمشق،

(١) انظر: تفاصيل ذلك في البداية والنهاية (١٢/٣٣٤ - ٣٥١).

(٢) الملك العادل (٥٤٠ - ٦١٥ هـ): محمد بن أيوب بن شادي، أبو بكر، سيف الإسلام، الملقب بالملك العادل. أخو السلطان صلاح الدين ونائبه على مصر. من كبار سلاطين الدولة الأيوبية. تنقل بين الولايات، ثم ضمها جميعاً، وقسمها بين أولاده. كان حازماً مجرباً داهية حسن السيرة توفي وهو يجهز العساكر لقتال الإفرنج بعالقين، وقضى على بقايا الإسماعيلية بمصر سنة =

واستدعى الجيوش المصرية والشرقية، ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد وحصار عظيم، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة، وأطلق لهم شيئاً من البلاد، فإننا لله وإننا إليه راجعون^(١).

خامساً: الحملة الصليبية الخامسة: (٦١٥ - ٦١٨هـ) (١٢١٨ - ١٢٢١م):

استهدفت هذه الحملة مصر، أيضاً، وانطلقت من عكا على الساحل الشامي قوات الصليبيين، ونزلت على «دمياط»، وذلك سنة خمس عشرة وستمائة. وفي تلك الأثناء توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أخو صلاح الدين، فسقطت دمياط وما وراءها، ثم سار الصليبيون متجهين نحو القاهرة، ونازلهم المسلمون في مواقع كثيرة حتى إن الملك الكامل^(٢) (عرض عليهم في بعض الأوقات أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل، ويتركوا «دمياط»، فامتنعوا من ذلك ولم يفعلوا. فقدر الله تعالى أنها ضاقت عليهم الأقوات، فقدم عليهم مراكب فيها ميرة لهم، فأخذها الأسطول البحري، وأرسلت المياه على أراضي «دمياط» من كل ناحية، فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا في أنفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن، فحينئذ أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة^(٣)). وكان ذلك سنة ثمان عشرة وستمائة. يقول

= ٦٠٤هـ. قال المقرئزي: «ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم»، انظر: الأعلام (٤٧/٦).

(١) البداية والنهاية: (٣٧/١٣).

(٢) الملك الكامل (٥٧٦ - ٦٣٥هـ): محمد بن محمد العادل ابن أيوب، أبو المعالي، ناصر الدين. من سلاطين الدولة الأيوبية، ولي مصر سنة ٦١٥، ووسع نطاق ملكه، فشمّل الشام والحجاز واليمن والجزيرة. جاهد الصليبيين بدمياط. كان حازماً عفيفاً عن الدماء مهيباً، يباشر أمور الملك بنفسه. توفي بدمشق، ودفن بقلعتها. انظر: الأعلام (٢٨/٧).

(٣) البداية والنهاية: (٩٥/١٣).

د. قاسم عبده قاسم: (كانت الحملة ضد دمياط آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط، ولحسابها منفردة)^(١).

سادساً: الحملة الصليبية السادسة: (٦٢٦هـ - ١٢٢٨م):

قائد هذه الحملة هو الإمبراطور الألماني المحنك فردريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠م)، الذي استغل تفرق حكام الدولة الأيوبية، وروح الضعف والمسالمة التي أبداهها الملك الكامل أثناء حصار دمياط، فحقق عن طريق السياسة مكاسب لم تحققها الحملات الصليبية العسكرية الضخمة. فقد قدم فلسطين بستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل^(٢)، ومع ذلك رجع وقد تسلم بيت المقدس! ويصف ابن كثير هذه المبالسة العجيبة في أحداث سنة ست وعشرين وستمائة فيقول: (استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون، قد صاروا أحزاباً وفرقاً، وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمد صاحب مصر، وهو مقيم بنواحي القدس الشريف، فقويت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر، وبموت المعظم^(٣)، واختلاف من بعده من الملوك. فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم، فوقع المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده! وتبقى بأيديهم بقية البلاد. فتسلموا القدس الشريف، وكان المعظم قد هدم أسواره، فعظم ذلك المسلمين جداً، وحصل وهن شديد، وإرجاف عظيم. فإنا لله وإنا إليه راجعون)^(٤).

(١) ماهية الحروب الصليبية: (١٥٨).

(٢) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٠).

(٣) الملك المعظم: توران شاه بن أيوب بن شادي، شمس الدولة، فخر الدين، أخو صلاح الدين الأيوبي. تولى اليمن ثم دمشق، ثم انتقل إلى مصر سنة ٥٧١هـ حتى مات فيها سنة ٥٧٦هـ. انظر: الأعلام (٩٠/٢).

(٤) البداية والنهاية: (١٢٤/١٣).

وظل بيت المقدس بيد الصليبيين عشر سنين (٦٢٦، ٦٣٦هـ)، (١٢٢٩ - ١٢٣٩م) تمثل الهدنة السابقة. وما أن انقضت سني الهدنة حتى هجم الصليبيون على جنوب فلسطين فقاتلهم الأيوبيون في غزة سنة ست وثلاثين وستمائة وهزموهم شر هزيمة، ثم استنقذوا بيت المقدس في السنة نفسها والله الحمد. وظلت بأيدي المسلمين حتى استولى عليها الإنجليز، ثم اليهود الصهاينة في العصور الأخيرة^(١).

سابعاً: الحملة الصليبية السابعة: (٦٤٧هـ - ١٢٤٩م):

كانت هذه الحملة موجهة أيضاً إلى مصر، لكن دون المرور بعكا، معقل الصليبيين في السواحل الشامية. بل انطلقت من ميناء مرسيليا الفرنسي بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزل قبالة «دمياط»، وذلك في آخر حياة الملك الصالح^(٢) أيوب. (فهرب من كان فيها من الجند والعامّة، واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين)^(٣). ثم توفي الملك الصالح في تلك الأثناء واستدعي ابنه الملك المعظم توران شاه. وفي مطلع السنة التالية، سنة ثمان وأربعين وستمائة (في ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج على ثغر دمياط، فقتل منهم ثلاثين ألفاً، وقيل مائة ألف، وغنموا شيئاً كثيراً والله الحمد، ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا.

(١) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٢).

(٢) الملك الصالح (٦٠٣ - ٦٤٧هـ): أيوب بن محمد الكامل بن أبي بكر العادل بن أيوب، أبو الفتوح، نجم الدين. من كبار الملوك الأيوبيين بمصر. ولد ونشأ بالقاهرة. وولي بعد خلع أخيه العادل الثاني سنة ٦٣٧هـ. كان شجاعاً مهيباً عفيفاً صموتاً. عمّر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوك بني أيوب. أغار الإفرنج في أواخر أيامه على دمياط سنة ٦٤٧هـ. فتوفي بالسل أثناء جهادهم بالمنصورة. ودفن بالقاهرة. انظر: الأعلام (٣٨/٢).

(٣) البداية والنهاية: (١٣/١٧٧).

وكان فيمن أسر ملك الفرنسيين وأخوه^(١). وقد أفرج عنه فيما بعد لقاء فدية كبيرة والانسحاب عن دمياط. وقد كانت هذه الحملة آخر حملة صليبية على مصر^(٢)، بل كانت آخر حملة صليبية ذات بال على المشرق الإسلامي.

وبعد أن آل الأمر إلى دولة المماليك الفتية التي قضت على الهجوم التتري الكاسح في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، اتجه القائد المظفر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري^(٣) (٦٥٨ - ٦٧٦هـ) إلى تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام بحزم وعزم وصرامة، فتهافت معاقل النصارى واحدة تلو الأخرى في موسم حصاد رابع: قيسارية وأرسوف (٦٦٣هـ - ١٢٦٨م)، قلعة صفد، معقل الفرسان الداوية (٦٦٤هـ - ١٢٦٦م) يافا، وحصن شقيف أرنون (٦٦٦هـ - ١٢٦٨م).

وفي نفس العام حصل الفتح الكبير لأنطاكية بعد أن ظلت أسيرة بيد الصليبيين أكثر من مائة وخمسين عاماً.

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون^(٤) تابع فتوح سلفه بيبرس،

(١) البداية والنهاية: (١٣/١٧٨).

(٢) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٥).

(٣) الظاهر بيبرس (٦٢٥ - ٦٧٦هـ): بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر. ولد بأرض القبحاق، وأسر فبيع حتى آل إلى الملك الصالح، نجم الدين أيوب فقربه ثم أعتقه. صار «أتابك» العساكر المصرية زمن الملك قطز وقاتل معه التتار في «عين جالوت». تولى سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨هـ. وقاتل الصليبيين، وفتح بلاد النوبة. وكان شجاعاً جباراً. توفي في دمشق. انظر: الأعلام (٧٩/٢).

(٤) المنصور قلاوون (٦٢٠ - ٦٨٩هـ): قلاوون الألفي العلائي الصالحي، النجمي، أبو المعالي، سيف الدين، السلطان الملك المنصور. أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام. قبجاقى الأصل. أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ، خدم الظاهر بيبرس، وابنه العادل ثم خلعه، وتولى =

فقد سقط حصن المرقب سنة ٦٨٤م - ١٢٨٥م، ثم اللاذقية في سنة ٦٨٦هـ - ١٢٨٧م، ثم طرابلس وبيروت وجبله سنة (٦٨٨هـ - ١٢٩١م)، في عهد السلطان الأشرف خليل^(١) ابن السلطان المنصور قلاوون، مؤذناً بنهاية الوجود الصليبي على أرض الإسلام بعد مائتي عامٍ تماماً من حملتهم الأولى^(٢).

لقد مرت بالمسلمين فترة عصبية طوال هذين القرنين (٤٩٠ - ٦٩٠هـ) من جراء هذا الغزو الصليبي، وكانت حرباً عقدية صرفة في مظاهرها وأعلامها وأهدافها المعلنة^(٣) وخطابها للجمهور. ودافع المسلمون دفاعاً مجيداً عن ديارهم ومقدساتهم، وبذلوا المهج والأرواح والأموال، ولم يدعوا عدوهم يهنأ بعيش، أو يقر له قرار. ولا ريب أن الصليبيين خسروا خسائر فادحة، وباءت محاولاتهم المتكررة بالفشل والخيبة، وتكسر نصالهم على صدور أهل الإسلام المنيع، وتعلموا درساً راسخاً من دروس التاريخ. والحقيقة أنه ما كان يمكن أن يكون لهم موطئ قدم، لولا عوامل داخلية مهدت لهم الطريق، أهمها:

= السلطنة. وكانت له حروب مع التتار والنوبة، ظفر فيها وغنم. مات بالقاهرة. انظر: الأعلام (٢٠٣/٥).

(١) الأشرف ابن قلاوون (٦٦٦ - ٦٩٣هـ): خليل بن قلاوون الصالح، الملك الأشرف، صلاح الدين، ابن السلطان الملك المنصور. من ملوك مصر. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩، واستفتح الملك بالجهاد، فقصد البلاد الشامية، وقاتل الإفرنج، واسترد منهم عكا وصوراً وصيدا وبيروت وجميع الساحل، وكان شجاعاً مهيباً عالي الهمة جواداً. قتل غيلة بمصر. انظر: الأعلام (٢/٣٢١).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية: (١٦٦ - ١٧٠) والبداية والنهاية (١٣/٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٢، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٠).

(٣) انظر: في مناقشة دوافع الحملات الصليبية وأهدافها: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية د. عبد الله الربيعي (٢٢ - ٣٨).

أولاً: تسلط دول الرافضة على رقاب المسلمين، وإشاعتهم الكفر والفسوق والعصيان والبدع، وتواطئهم مع أعداء الإسلام، والنشاط الباطني المدمر، الذي اعتمد أسلوب الاغتيالات الانتحارية على أيدي «فداوية» الإسماعيلية الرافضة في هذين القرنين، ومحاولة إجهاض أي بادرة قوة، وزعامة صالحة من ملوك أهل السنة^(١).

ثانياً: التشرذم السياسي، والفتن الداخلية، داخل معسكر أهل السنة، وضعف الخلافة العباسية في معظم الأحوال.

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه رحى حرب صليبية في المشرق الإسلامي، كانت تجري أحداث مشابهة في الساحة الأندلسية. إذ لم تشترك «إسبانيا النصرانية» في الحملات الصليبية المتجهة إلى بيت المقدس لأنها كانت تخوض حرباً صليبية حامية الوطيس في عقر دارها، هدفها طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية وإعادةنها إلى المنظومة الأوروبية، والكنيسة الكاثوليكية.

فبعد سقوط «طليطلة» الخطير، مستهل ثمان وسبعين وأربعمئة (٤٧٨هـ - ١٠٨٥م)، لم يوقف تقدم الأسباب الجارف لالتهام دويلات ملوك الطوائف إلا جواز أمير المرابطين، يوسف بن تاشفين^(٢) (٤٦٣ - ٥٠٠هـ).

(١) انظر: شواهد لهذه المحاولات والاغتيالات المتكررة في المواضع التالية من البداية والنهاية (١٢/١٥٨، ١٥٩، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٩٨).

(٢) يوسف بن تاشفين (٤١٠ - ٥٠٠هـ): يوسف بن تاشفين بن إبراهيم، المصالي الصنهاجي اللمتوني الحميري، أبو يعقوب أمير المسلمين، وملك المثلثين، سلطان المغرب الأقصى، وباني مدينة مراكش. كتب إليه المعتمد بن عباد، صاحب أشبيلية يستنجد على قتال الفرنج، فجاز إلى الأندلس بمجموعة، وكسر النصراني في وقعة الزلاقة الفاصلة سنة ٤٧٩ وباعه ملوك الطوائف، وملك الجزيرة كلها وبلاد المغرب. وكان حازماً ضابطاً. انظر: الأعلام (٨/٢٢٢).

إلى البر الأندلسي، والتحام المسلمين والنصارى في سهل «الزلاقة» في معركة فاصلة من معارك التاريخ الكبرى، كان النصر فيها حليف المسلمين، في الثاني عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة (٤٧٩هـ - ١٠٨٦م)^(١). وكان من ثمرات هذه المعركة إلى جانب وقف الزحف النصراني، إنهاء عهد ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس المسلمة تحت راية المرابطين، ثم من بعدهم الموحيدين. وتوج المرابطون انتصاراتهم ضد النصارى بفتح حصن «أقليش» على رأس القرن السادس الهجري سنة خمسمائة وواحد (٥٠١هـ - ١١٠٨م). واستمرت المعارك العنيفة بين المسلمين والنصارى فسقطت «سرقسطة» سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، ثم «قلعة أيوب» بعدها بسنة. وسقطت دولة المرابطين سنة إحدى وأربعين وخمسمائة تحت مطارق الموحيدين في البر المغربي، والنصارى في الأندلس.

وانبعثت روح الجهاد الإسلامي في بلاد المغرب مع دولة «الموحيدين» الفتية، في الوقت الذي انبعث فيه هذه الروح على يد «آل زنكي» ثم «آل أيوب» في بلاد المشرق الإسلامي. فقد قام عبد المؤمن بن علي الموحيدي بشن غارات برية وبحرية على ثغر «المهدية» على الساحل التونسي، واستعادها من الفرنج النورمانديين، حكام صقلية، بعد أن بقيت رهينة بأيديهم اثنتي عشرة سنة. وذلك سنة خمس وخمسين وخمسمائة (٥٥٥هـ - ١١٦٠م).

وجاءت الوفود الأندلسية تستنصر إمام الموحيدين عبد المؤمن بن علي القيسي^(٢) في الدين، فجاز البحر في سنة ست وخمسين

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٣٠٧/٨).

(٢) عبد المؤمن بن علي (٤٨٧ - ٥٥٨هـ): عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، أبو محمد الكومي، أمير المؤمنين مؤسس دولة الموحيدين في المغرب وإفريقية وتونس. التقى بآبن تومرت فتصادقا وانتهى الأمر بأن =

وخمسماية (٥٥٦هـ - ١١٦١م). وضم ممالك الأندلس ومدنها تحت راية الموحدين وأثخن في النصارى. حتى توفي سنة ثمان وخمسين، وقد حشد حملة عسكرية ضخمة كانت مؤهلة للقضاء على ممالك النصارى الخمس شمال الجزيرة. وخلفه في جهاد النصارى ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن^(١)، الذي قضى أربعة عشر عاماً في الفتوح ومناوشة الأعداء حتى قضى نحبه في معركة «شتترين» سنة ثمانين وخمسماية (٥٨٠هـ - ١١٨٤م)^(٢).

وبعد خطاب تحدٍ واستفزاز بعث به ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى سلطان الموحدين أبي يوسف يعقوب بن يوسف المنصور^(٣)، كتب على ظهره مجيباً: «ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها،

= ولي ابن تومرت ملك المغرب الأقصى، ولقب بالمهدي، وجعل لعبد المؤمن قيادة جيوشه، ثم خلفه سنة ٥٢٤هـ، وقاتل المرابطين، فاستأصلهم، ودخل الأندلس واستولى على مدائنها. ودفن إلى جوار ابن تومرت. انظر: الأعلام (١٧٠/٤).

(١) يوسف بن عبد المؤمن (٥٣٣ - ٥٨٠هـ): يوسف بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، أبو يعقوب. أمير المؤمنين. ثالث ملوك دولة الموحدين بالمغرب والأندلس. كان حازماً شجاعاً حسن السيرة. له ميل إلى الفلسفة. جاهد الفرنجة، فأصيب في «شتترين» فمات متأثراً بجراحه. انظر: الأعلام (٢٤١/٨).
(٢) انظر: الكامل في التاريخ (٤٨٠/٩).

(٣) المنصور الموحدي (٥٥٤ - ٥٩٥هـ): يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحدي، أبو يوسف المنصور بفضل الله من ملوك الموحدين في المغرب، وأعظمهم آثاراً. وجه عنايته إلى الإصلاح والفتوح. استرد أربع مدن من الإفرنج بالأندلس، كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل أربعين عاماً. فخافه الفونس، صاحب طليطلة، فطلب منه الصلح خمس سنين، ليجمع لحربه ولكنه كسرهم سنة ٥٩١هـ. كان ديناً، نهى الفقهاء عن الإفتاء إلا بالكتاب والسنة. بنى كثيراً من المساجد والمدارس، والمستشفيات أجرى عليها الأرزاق. انظر: الأعلام (٢٠٣/٨).

ولنخرجهم منها أذلةً وهم صاغرون» الجواب ما ترى، لا ما تسمع، التقى جحفلان عظيمان كأمثال الجبال، حشد فيها كل طرف وسعه، يوم التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة (٥٩١هـ - ١١٩٥م) في معركة فاصلة، عرفت باسم «الأرك» انتصر فيها الموحدون، تذكر بمعركة «الزلاقة» التي انتصر فيها المرابطون قبل أكثر من مائة عام (٤٧٩هـ). وسار الموحدون الظافرون يخترقون الأراضي القشتالية حتى بدت لهم مشارف «طليطلة» معقل النصارى، فحاصروها، ولكنها امتنعت، فأعقب ذلك هدنة. وهكذا أوقفت موقعة الأرك زحف النصارى البطيء عشرين سنة لاحقة.

وابتداً الوهن في جانب الموحدين إثر موقعة «العقاب» التي مُني فيها أبو عبد الله محمد الناصر^(١)، سلطان الموحدين - بهزيمة فادحة وذلك سنة تسع وستمائة (٦٠٩هـ - ١٢١٢م) أعقبها انتكاسات خطيرة في النصف الأول من القرن السابع الهجري. فقد سقطت «ماردة» و«بطلوس» سنة ثمان وعشرين، «وأبد» سنة إحدى وثلاثين، و«قرطبة» سنة ثلاث وثلاثين، ثم «بلنسية» و«شاطبة» و«دانية» سنة ست وثلاثين، ثم «مرسية» سنة إحدى وأربعين، وأخيراً «إشبيلية» سنة ست وأربعين وستمائة.

وهكذا تهاوت حواضر الأندلس الشهيرة، الواحدة تلو الأخرى في ملحمة مأساوية، وبدأت الأندلس المسلمة في النصف الثاني من القرن السابع تسير نحو مصيرها المحتوم، وخاتمتها البائسة، لولا نفحة ربانية

(١) محمد الناصر: محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الزناتي، الكومي، الموحدي، الناصر لدين الله. من خلفاء دولة الموحدين في المغرب والأندلس. في أيامه كانت وقعة «العقاب» مع نصارى الأندلس سنة ٦٠٩، كسر فيها الموحدون. عاد بعدها إلى مراكش، وتوفي بها سنة ٦١٠هـ. انظر: الأعلام (١٤٥/٧).

أجراها الله تعالى على أيدي «المرينيين» أنعشت الوجود الإسلامي في جنوب الجزيرة المتمثل في مملكة بني الأحمر في «غرناطة»، الذين لم تفدهم مصانعتهم للنصارى في تجنب استنزافهم إياهم، واستنقاصهم أراضيهم من أطرافها، فاستنجد بنو الأحمر بإخوة الدين، فهب أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني^(١) لنجدتهم، وتمكن من دحر النصارى سنة أربع وسبعين وستمائة (٦٧٤هـ - ١٢٧٥م)، وقتل قائدهم «دونونة» الذي عاث في أرض المسلمين قتلاً ونهباً وفساداً. ثم سار فحاصر «أشبيلية» و«شريش» سنة خمس وسبعين، وتوغل في أراضي النصارى سنة سبع وسبعين. كما قام الأسطول المريني بالانتصار على الأسطول القشتالي في معركة بحرية سنة ثمان وسبعين وستمائة أسفرت عن تحرير «الجزيرة الخضراء» التي أراد النصارى بالاستيلاء عليها قطع الطريق على المدد الآتي من المغرب الإسلامي. واضطر «شانجة» ملك قشتالة إلى طلب الصلح من المسلمين. وهكذا اكتشف النصارى أن من الخير لهم الرضى بوجود إسلامي محدود في جنوب الأندلس، دون المخاطرة بعمل عسكري أحقق يثير حمية المسلمين في العدوّة المقابلة، فيتعرضون لحملة إسلامية لا يستطيعون التنبؤ بآثارها. وقد أجلت هذه التحسبات والمخاوف دولة بني الأحمر قرنين من الزمان، إلى أن سقطت آخر الحواضر الإسلامية من بلاد الأندلس، مدينة غرناطة في

(١) المنصور المريني (٦٠٧ - ٦٨٥هـ): يعقوب بن عبد الحق المريني الزناتي. أبو يوسف، السلطان المنصور بالله، بربري من أصل عربي. آلت إليه إمارة بني مرين سنة ٦٥٦هـ، قضى على دولة الموحدين سنة ٦٧٤، وصفا له المغرب كله، ثم جاز إلى الأندلس، فأثخن في النصارى واسترد منهم ما أخذوه من مدائن الأندلس. وكان عهده عامراً بالفتوح والعمران والإصلاح الاجتماعي والإحسان إلى المرضى والعمي والفقراء، وبناء المدارس لطلبة العلم. واستمر غازياً مجاهداً، بانياً مصلحاً إلى أن توفي في الجزيرة الخضراء بالأندلس. انظر: الأعلام ٨/ ١٩٩.

الثامن من ربيع الأول سنة سبع وتسعين وثمانمائة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م).
ولله الأمر من قبل ومن بعد^(١).

لقد كانت حرب الاستعادة الإسبانية - Spanish Reconquest - كما يسميها المؤرخون النصارى - حرباً صليبية صرفة، تقف خلفها حركة الإصلاح الكلوني، التي ولدت في «دير كلوني» في مطلع القرن العاشر الميلادي (٩١٠م)، وأشعلت فكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين الغزاة، الذين استولوا على الممالك النصرانية. فقد أكد البابا غريغوري السابع بأن إسبانيا جزءٌ من أرض القديس بطرس، وأن الجزيرة الأيبيرية جزء لا يتجزأ من الجسد المسيحي. كما حرم البابا «باسكال الثاني» (١٠٩٩ - ١١١٨م) وكان راهباً كلونياً على الفرسان الإسبان المشاركة في الحروب الصليبية في الشرق^(٢). وذلك لأولوية المشاركة في الحرب الصليبية في الغرب على أرض الأندلس.

أما على الصعيد الداخلي في «دار الإسلام»، فقد بقي أهل الذمة يواصلون عيشهم في أحضان المجتمع الإسلامي وفق القواعد المقررة في الكتاب والسنة والإجماع، والمستقرة منذ القرون الأولى، ولا يعكر هذا الصفو سوى حوادث متفرقة مردها إلى عمليات استفزاز محلية تثور في أوساط العوام، دون أن تتبناها أو حتى تقرها السلطة المركزية^(٣). ولا تكاد تمثل هذه الحوادث نسبة تذكر إذا قورنت بحوادث الشعب التي تجري بين السنة والروافض في بغداد وغيرها، أو حتى حوادث التعصب المذهبي الفقهي بين الجهلة من أتباع المذاهب الفقهية.

(١) انظر: مقالة «حرب الاستعادة الإسبانية: هل هي حرب كلونية مقدسة ضد الإسلام؟ ل: فيسنت كانتارينو. مجلة الاجتهاد (٢٩/٥٩ - ٨١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: على سبيل المثال حادثة لليهود في بغداد. في البداية والنهاية (١٢/٢٩٨).

لقد كان المسلمون خلال هذين القرنين يفرقون بين «أهل الذمة» و«الفرنج» الحربيين. بل إن النصارى الشرقيين أنفسهم عانوا الأمرين من هؤلاء الغزاة التابعين للكنيسة الكاثوليكية بوصفهم إياهم هراطقة، عليهم أن يعودوا إلى حمى النصرانية الصحيحة، بالرغم من أن البابا أربان الثاني سَوَّق دعايته للحملات الصليبية بحجة حماية النصارى المضطهدين على أيدي المسلمين بزعمه.

يقول الباحثان فيليب فارج، ويوسف كرباج: (كان الفرنجة قد جاءوا لتقديم العون إلى المسيحيين الشرقيين. وبدلاً من تحقيق هذا المشروع الأولي، سوف تنتهي حملتهم بتدهور ملحوظ لوضع الجماعة المسيحية الشرقية.

وعندما يبدأ المسلمون في استعادة الأرض المقدسة، فإنهم لن يتهموا الجماعة المسيحية المحلية بالتواطؤ «مع العدو». والواقع أن إعادات الفتح الإسلامي المتعاقبة قد لقيت حيادها، وأحياناً تعاونها. وكان الاحتلال الإفرنجي قد أدخل نوعاً من التواطؤ فيما بين السكان المحليين المنتمين إلى مختلف الملل. ويصل الأمر بالمسيحيين العرب إلى حد اعتبار انتصارات نور الدين في الشمال، وانتصارات صلاح الدين في الجنوب خطوة أولى نحو تحررهم من النير الديني الإفرنجي، بل ويبدو أنهم سوف يذهبون في القدس إلى حد التفاهم مع صلاح الدين بهدف تسهيل الاستيلاء على المدينة. والواقع أن مسيحيي القدس والمدن الساحلية سوف يكون بوسعهم البقاء حيث هم وصون ممتلكاتهم، بشرط دفع ضريبة رأس. هذه الأخيرة تنزلق من جديد من خزانة إلى أخرى، ولكن في اتجاه مضاد: فهي تنتقل الآن من خزانة المملكة اللاتينية إلى خزانة المملكة الإسلامية^(١).

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٨٥).

وبدلاً من أن يتحالف أهل الذمة من النصارى مع إخوة الدين من الفرنجة، نجد وقائع محدودة يتحالف فيها هؤلاء مع المغول الوثنيين ضد المسلمين مما كلفهم بعد ذلك عملية تصفية حساب مريعة يستحقونها.

قال ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ثمان وخمسين وستمائة حين دخول التتار دمشق بقيادة أمير منهم من قبل هولاكو^(١) يقال له: «إبل سيان»: (وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصوله بسببه، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته^(٢). ودخلوا من باب توما، ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، ويذمون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني فيها خمر، لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرًا، وقماقم ملائنة خمرًا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبيهم... فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى، وذم دين الإسلام وأهله، فإنا لله وإنا إليه راجعون^(٣)).

(١) هولاكو (١٢١٧ - ١٢٦٥م): حفيد جنكيزخان المغولي. باطش جبار، أغار على الممالك الإسلامية الشرقية، وأعمل في أهلها السيف، حتى بلغ بغداد فحاصرها سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)، وتواطأ معه ابن العلقمي الرافضي، وزير المستعصم، فدخلها واستباحها، وقتل الخليفة والقضاة والعلماء، ثم احتل الشام، وعاد إلى إيران. انظر: البداية والنهاية (٢٤٨/١٣).

(٢) وهكذا صنع لعنه الله حين دخول بغداد، حيث استباح دماء المسلمين غدراً، وأمن اليهود والنصارى. انظر: البداية والنهاية (٢٠٢/١٣) واتخذ لنفسه زوجة نصرانية، ويقال إنه اعتنق النصرانية سرّاً.

(٣) البداية والنهاية: (٢١٩/١٣).

لم يكن ثم مبررٌ لتلك المظاهرة الغادرة، سيما وأجواء الشام لا تزال معطرة بسيرة صلاح الدين الأيوبي وتسامحه مع خصومه، فلم هذا الحلف المغولي - النصراني الأحمق؟ ولم يمض سوى سبعة أشهر حتى انهزم المغول في عين جالوت، في العشر الأخير من رمضان من تلك السنة هزيمة منكرة، (فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب، فانتهبوا ما فيها، وأحرقوها، وألقوا النار فيما حولها، فاحترقت دور كثيرة إلى النصارى «كذا» ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة. وهمت طائفة بنهب اليهود، فقليل: إنه لم يكن منهم الطغيان كما كان من عبدة الصليبان)^(١).

لم يقيم المسلمون المنتصرون على الفرنج خلال هذين القرنين بعمليات تطهير ديني، وتهجير واسعة النطاق كما فعل الأسبان بالمسلمين، بل غاية ما في الأمر وقوع عمليات تأديب وثأر وانتصار.

ويشاء الله تعالى أن «ينقلب السحر على الساحر» وينعكس الأمر على أولئك النصارى الذين طمعوا في التعاون مع الغزاة الجدد لإطفاء نور الإسلام، فيقع ما لم يكن لهم بحسبان؛ ففي سنة أربع وتسعين وستمائة (ملك التتار «قازان» بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيزخان، فأسلم وأظهر الإسلام على يدي الأمير «توزون» رَحِمَهُ اللهُ، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام، ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة وخرّب كنائس كثيرة، وضرب عليهم الجزية)^(٢).

وهكذا يعز الله دينه، ويعلي كلمته بأقوام قدموا من أقصى المشرق ليجتثوه من أرضه، ويطمسوا معالمه، فأبى الله إلا أن يتم نوره،

(١) البداية والنهاية: (١٣/٢٢١).

(٢) البداية والنهاية: (١/٣٤٠).

فيخضع أولئك البرابرة الجفافة لقوة الإسلام الذاتية، وتأثيره العجيب بعد أن عجزت السيوف والرماح عن إخضاعهم. ويعوض الله المسلمين عما فقدوه في الحروب الصليبية، وفي الأندلس بأعداد هائلة من المسلمين الجدد الذين أعادوا ترتيب «النَّسَب» السكانية، فتحول «أهل الذمة» إلى أقلية مطلقة^(١).

المرحلة الرابعة: (٦٩٠هـ - ١٢١٣هـ):

لم تكد تطوى صفحة الصليبيين في بلاد الشام، وهم يستقلون مراكبهم هاربين من عكا سنة تسعين وستمائة (٦٩٠هـ - ١٢٩١م)، حتى فتحت صفحة جديدة من صفحات المواجهة الإسلامية النصرانية. لكن ميدان المعركة انتقل هذه المرة إلى الطرف الآخر، وعلى وجه التحديد على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لممالك السلاجقة المسلمين.

لقد شهد النصف الأخير من القرن السابع الهجري نشأة إمارة صغيرة لقوم من الترك النازحين إلى هضبة الأناضول فراراً من بطش المغول، وإثر مشاركتهم في بعض المعارك المحلية منحهم سلطان «قونية» ثغراً على حدود سلطنته مع الإمبراطورية البيزنطية، انطلق منه هؤلاء المجاهدون يشخنون في الأرض، ويوسعون نفوذهم، حتى تأسست لهم دولة مستقلة على يد أميرهم عثمان بن أرطغرل، صارت فيما بعد أطول دولة في التاريخ عمراً، عرفت باسم الدولة العثمانية^(٢).

(١) انظر: فصل «سبعة قرون من الأسلمة» في: المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي التركي (٢٣ - ٣٧).

(٢) انظر في نشأة الدولة العثمانية وتاريخها: الفتوحات الإسلامية: دحلان، أحمد زيني. مطبعة السعادة - مصر. أحمد زيني دحلان. (٨٩/٢ - ٩٠)، صحوة الرجل المريض؛ د. موفق بني المرجة. دار البيارق - بيروت. الطبعة الثامنة =

اتجه آل عثمان إلى قتال الروم، ووطئت أقدامهم أراضٍ لم يطأها فاتح مسلمٌ من قبل. فقد تمكن السلطان عثمان (٦٩٩ - ٧٢٦هـ) من توسعة الإمارة التي ورثها عن أبيه أرطغرل أكثر من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، وتمكن من النفاذ إلى بحر «مرمرة» سنة سبع وسبعمائة، وفي آخر أيامه تم فتح مدينة بيزنطية عظيمة؛ بروسة. فنقل إليها خليفته وابنه السلطان «أورخان» كرسي مملكته ليكون قريباً من ساحات الفتوحات الجديدة في أوروبا الشرقية، فافتتح مدينة «نيقوميديّة» و«أزينق» من بلاد اليونان، وفتح مدينة «غليبولي» التي تعد مفتاح «القسطنطينية» سنة ثمانٍ وخمسين وسبعمائة. وفي عهد ابنه السلطان الشهيد «مراد الأول» (٧٦١ - ٧٩٢هـ) تم فتح «أدرنة» في العام التالي لحكمه. ونقل إليها عاصمة مملكته، وأخضع معظم الأراضي البيزنطية بحيث صارت «القسطنطينية» محاصرة تماماً بالأراضي العثمانية، التي بلغت حدود مملكة الصرب وبلغاريا وألبانيا. وقد تحالف ملوك البوسنة وصربيا والمجر ضد العثمانيين - إثر سقوط أدرنة - بمباركة وتأييد من البابا «أربانوس»، وهاجموا المدينة المفتوحة فهزمهم السلطان عندها هزيمة منكرة سنة خمسٍ وستين وسبعمائة (٧٦٥هـ - ١٣٦٣م).

وتواصل الفتوح العثمانية حتى تسقط بلغاريا في أيدي المسلمين، ويأسرون أميرها. وأمام هذا السيل الجارف من الانتصارات يتحالف أمراء أوروبا الشرقية ضد السلطان مراد الأول، فتدور معركة حامية الوطيس، من معارك الإسلام الفاصلة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة

= (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، العثمانيون في التاريخ والحضارة: د. محمد حرب. دار القلم، دمشق. الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م). د. محمد حرب (١٣، ١٥)، تاريخ المشرق العربي. د. عمر بن عبد العزيز عمر (٣٥ - ٣٨)، الشعوب الإسلامية: د. عبد العزيز سليمان نوار. دار النهضة العربية. بيروت. طبعة عام ١٩٧٣م. (٢٣ - ٢١٠).

(٧٩٢هـ - ١٣٨٩م) عرفت باسم «قوصووة» ينتصر فيها العثمانيون، ويؤسر ملك الصرب، ويقتل. ولكن السلطان مراد يقضي نحبه بطعنة غادرة من جندي صربي وهو يتفقد ساحة المعركة. ولكنه خلف أراضيه شاسعة تبلغ خمسة أضعاف ما ورثه عن أبيه أورخان في مدى ثلاثين سنة تقريباً قضاها رحمته الله في الفتوح والجهاد.

وفي عهد ابنه السلطان «بايزيد الأول» الملقب بـ «الصاعقة»، استمرت الجيوش العثمانية النظامية المعروفة بـ «الإنكشارية» تنتقص أوروبا من أطرافها، بطموحات عالية، وهمة مضاعفة، ففتح رومانيا وألبانيا وجزيرة رودس، وحاصر «القسطنطينية» سبعة أشهر كاملة. فقام ملك المجر «سيجسموند» بالاستنجاد بالبابا لتكوين حملة صليبية أوربية حملت شعار: سحق الأتراك أولاً، ثم احتلال «القدس».

وتجمعت جيوش مجرية وألمانية وفرنسية وإنجليزية وإيطالية وإسبانية بلغ تعدادها مائة ألف مقاتل، وعبرت نهر الدانوب لتتصدم بجيوش بايزيد الصاعقة على مقربة من مدينة نيكوبولي «نيقوبوليس»، فتصعق بهزيمة نكراء سنة تسع وتسعين وسبعمائة (٧٩٩هـ - ١٣٩٦م) كانت هزيمة لأوروبا كلها، وللنصارى عامة على يد آل عثمان.

لقد كان بايزيد الصاعقة يطمح إلى اجتياح أوروبا كلها. وكان الأوروبيون يدركون ذلك، فحينئذ يتجدد الحلف النصراني - المغولي الذي سبق أن أبرمه النصارى مع «هولاكو»، لكن في هذا الزمان مع طاغية مغولي آخر هو «تيمورلنك»^(١). ف (في سنة اثنتين وثمانمائة اجتمع

(١) تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥م): ملك المغول، وحفيد جنكيزخان. ولد في كش بالقرب من سمرقند. اعتلى العرش بدهائه وبطشه. فتح خوارزم وكشغر وفارس وسورية ومصر. خرب بغداد سنة ١٣٨٦م، واحتل موسكو، وانتصر على العثمانيين في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢م. انظر: المنجد في الأعلام (٢٠٠).

كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملكهم السلطان يلدرم^(١) بايزيد، وساروا إلى تيمور مستغيثين به، يشكون إليه من السلطان بايزيد، ويرغبونه في المسير إلى الروم، يستنجدون به عليه في رد ممالكهم، فأجاب تيمور سؤالهم، وسار بجيوش كثيرة...^(٢). وكان نهاية هذا السلطان المجاهد أن وقع أسيراً في يد تيمور، وتوفي في عاصمته تبريز.

قام السلطان «محمد الأول» (٨١٦ - ٨٢٤هـ) بلم شعث الدولة بعد تمزيقها، وإخماد الفتن والانشقاقات حتى استقرت الأمور، وخلفه ابنه السلطان «مراد الثاني» (٨٢٤ - ٨٥٥هـ)، وجرت بينه وبين ملوك أوروبا وبابواتها حروب وملاحم عظيمة تراوحت بين نصر وهزيمة، ولكنها أسفرت في نهاية المطاف عن إخضاع الصرب والبوسنة وبلاد المورة، وضرب الجزية على الأقاليم المجاورة.

ولما آل الأمر إلى «محمد الثاني» (٨٥٥ - ٨٨٦هـ) الملقب بالفتاح، استهل ولايته بالتهيؤ لفتح القسطنطينية، فتم ذلك فعلاً سنة سبع وخمسين وثمانمائة (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م). وكان حدثاً هاماً اهتز له العالم الإسلامي فرحاً وسروراً، وهز أوروبا وسائر النصارى في العالم حزناً وثبوراً، وسقطت الدولة البيزنطية العريقة، واعتبر ذلك التاريخ مبدءاً للتاريخ الحديث، لجلالة المناسبة وعميق آثارها. وتحولت مدينة قسطنطين «القسطنطينية» إلى مدينة الإسلام «إسلامبول»، وصارت كنيستها العظمى «أياصوفيا» جامعاً للمسلمين^(٣).

(١) يلدرم تعني «الصاعقة» بالتركية.

(٢) الفتوحات الإسلامية (١٠١/٢).

(٣) انظر: في تفاصيل هذا الفتح العظيم وسيرة محمد الفاتح: محمد الفاتح د. سالم الرشيد، محمد الفاتح: عبد السلام فهمي.

وقد تابع السلطان محمد فتوحاته حتى أخضع بلاد المورة والصرب والبوسنة والأرناؤوط وألبانيا، إلى سنة إحدى وسبعين وثمانمائة (٨٧١هـ - ١٤٦٧م). ثم ولى وجهه نحو بلاد القرم فأخضعها سنة تسع وسبعين وثمانمائة (٨٧٩هـ - ١٤٧٥م). أما أهم دولتين في أوروبا ذلك العهد، وهما جمهوريتا البندقية وجنوة فقد اضطرتا للصلح مع السلطان محمد الفاتح، والتنازل عن كثير من المواقع.

لقد كان النصف الثاني من القرن التاسع الهجري يمثل قمة تألق الدولة العثمانية وقوتها ونفوذها بحيث لا تساميتها دولة من دول العالم آنذاك. وكان فاتح القسطنطينية يطمح إلى فتح «روما»، معقل البابوية، لولا أن عاجله الأجل سنة ست وثمانين وثمانمائة (٨٨٦هـ - ١٤٨١م)، بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة، أبلاها في الحروب والفتوح وتسطير الأمجاد الخالدة، ﷺ رحمة واسعة.

وفي نهاية القرن التاسع سجل التاريخ ثلاثة أحداث كبار:

١ - سنة ست وثمانين وثمانمائة (٨٨٦هـ - ١٤٨١م) وصل الرحالة البرتغالي «فاسكو دي جاما» إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح.

٢ - سنة سبع وتسعين وثمانمائة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) وصل الرحالة الأسباني كريستوفر كولومبس إلى إحدى جزر الهند الغربية - كما كان يظن - وتم اكتشاف قارة أمريكا.

٣ - في نفس العام كان سقوط «غرناطة» آخر ممالك المسلمين في الأندلس على يد النصارى الأسبان، وجرى طرد المسلمين من أسبانيا إلى الشمال الأفريقي.

لقد كان للحدثين الأولين آثار استراتيجية، واقتصادية بالغة الأثر في تغيير ميزان القوى لصالح الغرب النصراني. كما كان للحدث الثالث أثر نفسي في رد الاعتبار، والثار الديني لنصارى أوروبا لقاء الهزائم

المتكررة التي منوا بها في الجانب الشرقي من قارتهم، لا سيما سقوط القسطنطينية.

وتجددت الأمجاد الإسلامية في عهد أشهر سلاطين «آل عثمان» وهو السلطان «سليمان القانوني» (٩٢٦ - ٩٧٤هـ)، الذي هز أركان أوروبا بفتوحاته العظام، وجهاده الدؤوب في كل صوب، ومن أشهر مآثره:

* فتح «بلغراد» سنة سبع وعشرين وتسعمائة (٩٢٧هـ - ١٥٢١م).

* هزيمة الجيش المجري وحلفائه الألمان والنمساويين في معركة «موكر»، وقتل ملك المجر، القائد الأعلى للقوات النصرانية «لويس الثاني»، سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة (٩٣٢هـ - ١٥٢٦م)، والاستيلاء على العاصمة المجرية «بشت»، التي تعرف الآن باسم «بودابست»، وخضوع مملكة المجر للحماية العثمانية.

* حصار «فيينا» عاصمة النمسا، سنة خمس وثلاثين وتسعمائة (٩٣٥هـ - ١٥٢٩م)، وفرار الأرشيديوق النمساوي «فرديناند» منها، والإغارة على الأراضي الألمانية.

* تجريد حملة عثمانية بقيادة السلطان عرفت باسم الحملة العثمانية على ألمانيا لتأديب أسرة «هابسبرج» العريقة، اخترقت البلقان والمجر والنمسا إلى ألمانيا، فاضطر «فرديناند» ملك النمسا إلى التوقيع على معاهدة صلح مذلة، ودفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوق ذهباً للخزينة العثمانية.

* استعادة مدينة «بودين» المجرية سنة ثمان وأربعين وتسعمائة (٩٤٨هـ - ١٥٤١م) وتحويل أضخم كنائسها إلى جامع للمسلمين، وتعيين ملك للمجر من قبل السلطان.

* القضاء على حملة صليبية بإشراف البابا بول الثالث، ومشاركة

ملكى النمسا والمجر سنة إحدى وخمسين وتسعمائة (٩٥١هـ - ١٥٤٣م)، وإلزامهما بدفع الجزية. ولما نقض النصارى المعاهدة قام أمراء سليمان القانوني بتأديب النمساويين وإلزامهم بالاعتراف بالحماية العثمانية لمملكة المجر، ودفع الجزية سنة تسع وستين وتسعمائة (٩٧٩هـ - ١٥٦٢م).

كانت هذه الانتصارات المجيدة في ميادين القتال البرية، يقابلها على ثبح البحار انتصارات مماثلة جعلت من البحر الأبيض المتوسط شبه بحيرة عثمانية تروح فيها أساطيلهم وتغدو، كما جحافلهم البرية، فمن أشهر الوقائع البحرية في عهد السلطان سليمان القانوني:

■ فتح جزيرة «رودس» سنة ثمان وعشرين وتسعمائة (٩٢٨هـ - ١٥٢٢م)، وانتزاعها من فرسان القديس يوحنا. وكانت قلعتها أقوى قلعة بحرية في العالم آنذاك. وقد استعصت على الأسطول العثماني سنة خمسٍ وثمانين وثمانمائة زمن السلطان محمد الفاتح.

■ كسر الأسطول الصليبي المتحالف في موقعة «برويزة» سنة خمسٍ وأربعين وتسعمائة (٩٤٥هـ - ١٥٣٨م)، الذي دعا لتكوينه البابا «بول الثالث»، وقاده أشهر القادة البحريين في العالم حينذاك «أندريا دوريا»، وضم ثلاثمائة قطعة بحرية. فهزمهم القائد العثماني «خير الدين برباروس»، الذي لم يكن تحت يده سوى مائة وعشرين قطعة.

■ هزيمة أسطول «شرلكان» ملك الألمان سنة ثمان وأربعين وتسعمائة (٩٤٨هـ - ١٥٤١م)، وصده عن مهاجمة الجزائر.

■ تحرير «طرابلس الغرب» من احتلال فرسان مالطة النصارى، ومحاصرتهم سنة تسع وخمسين وتسعمائة (٩٥٩هـ - ١٥٥٢م) على يد قبطان البحر العثماني «طورغود رئيس».

■ كما قامت القوات البحرية العثمانية بأربع حملات بحرية تأديبية

للبرتغاليين المعتدين على مسلمي الهند، بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح، منذ عام أربع وأربعين وتسعمائة (٩٤٤هـ - ١٥٣٨م) إلى أربع وستين وتسعمائة (٩٦٤هـ - ١٥٥٧م).

وتوفي السلطان سليمان القانوني، بعد حكم دام ثمانٍ وأربعين سنة، عام أربع وسبعين وتسعمائة (٩٧٤هـ - ١٥٦٦م). يقول الدكتور محمد حرب: (كان عهد القانوني قمة العهود العثمانية سواءً في الحركة الجهادية، وفي الناحية المعمارية والعلمية والأدبية والعسكرية. كان هذا السلطان يؤثر في السياسة الأوربية تأثيراً عظيماً، وبمعنى أوضح كان هو القوة العظمى دولياً في زمنه. نعمت الدولة الإسلامية العثمانية في عهده بالرخاء والطمأنينة)^(١).

شهد آخر القرن العاشر بعد وفاة سليمان القانوني فتح العثمانيين لجزيرة «قبرص» وانتزاعها من أهل «البندقية» سنة تسع وسبعين وتسعمائة (٩٧٩هـ - ١٥٧١م)، ثم أعقبه اتحاد نصراني مكون من أسبانيا والبندقية والبابوية أخذوا المسلمين على حين غرة وهزموهم في معركة «لينتر البحرية» في نفس السنة.

أما القرن الحادي عشر الهجري فقد كان قرناً جهادياً حافظ العثمانيون فيه بشكل عام على تفوقهم العسكري، وأخضعوا الشعوب الأوربية المتمردة تحت ولايتهم، كما أضافوا عدداً من الفتوحات والانتصارات الهامة، باستثناء فترة اضطرابٍ قصيرة في مستهل ولاية السلطان «محمد الرابع».

ومن أبرز أحداث ذلك القرن على صعيد العلاقات الإسلامية النصرانية:

١ - فتوح في المجر في مطلع القرن، زمن السلطان «محمد

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة (٨٩).

الثالث» (١٠٠٣ هـ - ١٠١٢ هـ)، ثم نصر عظيم على التحالف الأوربي في سهل «كرزت» سنة أربع بعد الألف (١٠٠٤ هـ - ١٠٩٦ م).

٢ - تأديب المتمردين من أهل بولونيا وهم من القوزاق، والقضاء على المتحالفين معهم من الروس والفرنسيين والنمساويين سنة ثلاثين بعد الألف (١٠٣٠ هـ - ١٦٢١ م) إثر معارك طاحنة بقيادة السلطان «عثمان» (١٠٢٧ هـ - ١٠٣١ هـ) وفرض عليهم الجزية.

٣ - فتح جزيرة «كرت» وانتزاعها من البنادقة سنة ثمانين بعد الألف (١٠٨٠ هـ - ١٦٦٩ م).

٤ - غزو بولندا سنة ثلاث وثمانين بعد الألف (١٠٨٣ هـ - ١٦٧٢ م).

٥ - حصار مدينة «فيينا» سنة إحدى وتسعين (١٠٩١ هـ - ١٦٨٠ م)، ثم حصارها مرة ثانية سنة أربع وتسعين (١٠٩٤ هـ - ١٦٨٣ م). وتم فك الحصار على أيدي قوات مشتركة من النمسا وألمانيا وبولونيا وسائر الأمم الأوروبية، وأوقعت بالمسلمين خسائر فادحة. ويبدو أن هذه الحادثة رفعت معنويات النصارى المنحطة وأيقظت فيهم روح الأمل في التحرر من الهيمنة العثمانية. ويصف أحمد زيني دحلان^(١) تلك التغييرات بعد حادثة «فيينا» بقوله: (. . . وبعد تلك الوقائع الشديدة، والحروب المهولة، أخذ البابا يحرض أهل أوروبا على طرد المسلمين من قرة بلادهم، فاجتمعت العساكر من كل الجهات، وصمموا على

(١) أحمد بن زيني دحلان (١٢٣٢ - ١٣٠٤ هـ) فقيه، مكّي، مؤرخ. ولد بمكة، وتولى فيها الإفتاء والتدريس. وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة، فطبع فيها بعض كتبه. ومات في المدينة، من تصانيفه «الفتوحات الإسلامية». وكان من أعداء دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمته الله وقد شوه سمعتها، وافترى عليها برسالة ظالمة جائزة نشرها بين الحجيج عنوانها: «رسالة في الرد على الوهابية». انظر: الأعلام (١/١٢٩).

إخراج المسلمين من أوروبا. فتكفلت النمسا، وتكفلت مقدونيا ببلاد بولونيا، والبندقية وغيرهم من ساكني شطوط البحر الأبيض في دلمانيا - هكذا - بكثير من البلاد، وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الأطراف، فكانت عساكر الدولة تحارب الإفرنج من جملة أماكن، والبابا يحرض الإفرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة^(١).

وفعلاً، مُني العثمانيون في نهاية القرن الحادي عشر بخسائر فادحة بلغت إلى حد حصار النمساويين لبلغراد. وبعد معارك متعددة في عهد السلطان «مصطفى الثاني» (١١٠٦هـ - ١٦١٥م) تراوحت بين النصر والهزيمة، وقعت معاهدة «كارلونز» سنة عشر ومائة بعد الألف (١١١٠هـ - ١٦٩٩م).

لقد تم في هذه المرحلة نشر الإسلام في مواطن كثيرة من آسيا وأوروبا لم تبلغها دعوة الإسلام من قبل، واعتنقت شعوب وأعراق بأكملها هذا الدين في فترة وجيزة. فقد اعتنق الألبان الإسلام وظلوا يشكلون غالبية سكان ألبانيا رغم عمليات التهجير والاضطهاد النصراني والشيوعي التي تمت فيما بعد. كما دخل «البوغوميليون»^(٢) في دين الإسلام أفواجا في بلاد البوشناق وبلغاريا وغيرهما. كما انتشر الإسلام في رومانيا واليونان وقبرص. وكذلك الحال في الجانب الآسيوي من القرم والشراكسة «الداغستان» وغيرهم، وامتزجت هذه القوميات في هذا الكيان الإسلامي الكبير، وانتقلت أعداد كبيرة من الألبان والأرناؤوط والشركس والقرم إلى المشرق الإسلامي في مصر والشام والعراق لدواع أمنية ووظيفية واقتصادية متنوعة. كما استقر عشرات الآلاف من الأتراك

(١) الفتوحات الإسلامية: (٢/ ١٩٠ - ١٩١).

(٢) انظر: البوغوميليون والمسيحيون والبوسنة. لطفي المعوش. مجلة الاجتهاد (٢٩/ ١٠٧ - ١١٦)، وانظر أيضاً: الدعوة إلى الإسلام. السير توماس أرنولد، ومحمد الفاتح د. سالم الرشدي (١٩٨ - ١٩٩).

المسلمين في البلاد المفتوحة شرق أوروبا، وشادوا معالم الإسلام التي لا تزال شواهدا باقية حتى يومنا هذا في دول البلقان. وصار المسلمون، رغم كل ما تعرضوا له من صنوف القهر والفتنة - ولا يزالون - جزءاً لا يتجزأ من بنية الشعوب الأوروبية الشرقية. ولولا الوضع القلق والفتن والقلاقل المتتابة لاعتنقت تلك الشعوب الإسلام بالكلية.

أما القرن الثاني عشر الهجري فقد كان قرن المجابهة مع الروس الذين نهضت دولتهم على يد قيصرهم «بطرس الأكبر»، الذي اعتدى على الأراضي العثمانية في «أزاق»، فأعلنت إستانبول الحرب على روسيا سنة ثلاث وعشرين بعد المائة والألف (١١٢٣هـ - ١٧١١م)، وانتصرت على القوات الروسية عند نهر «بروث»، حتى حاق الخطر بالقيصر، فلجأت زوجته «كاترينا» إلى إبرام معاهدة «بروث» المذلة لهم. ثم استغلت روسيا انشغال العثمانيين بمحاربة العجم فتحالفت مع النمسا، وأشهرت الحرب ضد العثمانيين لكنهما منيتا بالهزيمة سنة ثمان وأربعين (١١٤٨هـ - ١٧٣٥م).

وهكذا انقضى النصف الأول من القرن الثاني عشر وكفة المسلمين راجحة ضد الروس، بالإضافة إلى استرجاع بلاد المورة من جمهورية البندقية سنة سبع وعشرين (١١٢٧هـ - ١٧١٥م). أما النصف الثاني منه فكانت الكفة تميل فيه لصالح الروس، فقد هُزم العثمانيون في موقعة «شكزم» سنة اثنتين وخمسين (١١٥٢هـ - ١٧١٥م). واتبعتها توقيع معاهدة بين الطرفين في بلغراد، وسرعان ما نقضت «كاترينا الثانية» ملكة روسيا المعاهدة واعتدت على بلاد «القرم». فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا سنة اثنتين وثمانين (١١٨٢هـ - ١٧٦٨م). ولكنها هزمت في معركة «جزيرة خيوش» البحرية سنة أربع وثمانين (١١٨٤هـ - ١٧٧٠م)، ثم عقدت معاهدة «كجوق كينارجة» سنة

١١٨٨هـ، ثم معاهدة القسطنطينية سنة ١١٩٨هـ إثر ضم روسيا بلاد القرم إليها سنة (١١٩٧هـ - ١٧٨٣م). واستمر التفوق الروسي في مطلع القرن الثالث عشر على حساب الممالك العثمانية في صربيا والمجر حتى أبرمت معاهدة «باسي» بتوسط دولة إنجلترا ودولة بروسيا.

لقد شاخ هذا المحارب القديم، وأثخنه الجراحات الداخلية والخارجية، وتكالبت عليه الأعداء ينهشونه من كل جانب، وهو يحاول أن يستمسك ويستقيم، ولكنه يترنح ويهتز أمام أمم فتية ناشطة يؤلف بينها الحقد الصليبي واثارات التاريخ، كما يطعن في خاصرته الباطنيون من أحفاد هولوكو وتيمورلنك، مرتدين عباءة التشيع في أجزاء كثيرة من بدنه المترهل. وكانت قاصمة الظهر حقاً لهذا الكيان الإسلامي المتقادم، أن رفض دعوة التوحيد والتجديد التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر على يد الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب^(١)، والتي كانت مرشحة حقاً لبث روح الصفاء

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي، التميمي، النجدي، الإمام المجدد المصلح. ولد سنة ١١١٥هـ في بلدة «العين» حفظ القرآن دون العاشرة، وتعلم في صباه على والده، قاضي العين ثم حريلاء. ثم رحل في طلب العلم إلى الحرمين والشام والبصرة. وكان شغوفاً بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، عظيم التأثير بمنهجهما السلفي في الاعتقاد والعمل. فعاد إلى نجد يدعو إلى إخلاص التوحيد، ونبذ الشرك، ومحاربة البدع الاعتقادية والعملية، فلقى معارضة وتخديلاً، حتى ناصره أمير الدرعية الإمام محمد بن سعود سنة ١١٥٧هـ وجاهد في سبيل نشر دعوته هو وأبناؤه من بعده، حتى دانت لهم معظم الجزيرة العربية، وبلغوا أطراف الشام والعراق. وعرف أتباعه بأهل التوحيد، ونبزههم خصومهم بالوهابية، إيهاماً بأنهم قد استحدثوا مذهباً جديداً. وسرى هذا المصطلح إلى كتب الغربيين وغيرهم. وكان لدعوته الإصلاحية رحمته الله تأثير في نشوء اليقظة الدينية في كثير من مناطق العالم الإسلامي. توفي رحمته الله في الدرعية سنة ١٢٠٦هـ. من آثاره: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وأصول الإيمان. ورسائل متعددة. انظر: =

والنقاء العقدي في جسم الدولة العثمانية، الذي أنهكته الطرق الصوفية البدعية، والمظاهر الشركية، لكن علماء السوء، وبطانة الشر ما زالت تفتل في الذروة والغارب حتى حملت «الباب العالي» على إيراد أبوابه في وجه دعوة الحق، وتجريد الحملات المتتابة للقضاء على الدعوة السلفية في نجد والحجاز. ولا عجب أن نرى الاقتران التام بين هذا الموقف العدائي وأقول نجم الدولة العثمانية.

لقد أخطأت الدولة العثمانية حين تعاملت مع دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمته الله كتعاملها مع «إسماعيل الصفوي»^(١) أو «فخر الدين المعني»^(٢) أو غيرهما من أصحاب الضلالات العقدية أو المطامح الدنيوية. كان اللائق بدولة جهادية تقف على ثغور المسلمين أن تعنى بالبناء الداخلي والإصلاح العقدي وتنقية المجتمعات الإسلامية مما شابها من البدعة والشرك والفسوق، وكانت جميع هذه العناصر

= تاريخ ابن غنام، والكتب المؤلفة باسمه للندوي وابن حجر آل أبي طامي وغيرهم. وانظر: الأعلام (٦/٢٥٧).

(١) إسماعيل الصفوي (١٤٨٧ - ١٥٢٤م): ولد في أردبيل، وتوفي فيها. مؤسس الدولة الصفوية في إيران. استولى على أذربيجان وفارس. تلقب بالشاه سنة ١٥٠٣م. وسع ممتلكاته إلى هراة شرقاً، وبغداد جنوباً، وفرض سيادته على كربلاء والنجف، ونشر مذهب الرافضة. اصطدم بالعثمانيين، فكسروه في معركة جالدران ١٥١٤م. انظر: المنجد في الأعلام (٤٤)

(٢) فخر الدين المعني (٩٨٠ - ١٠٤٤ = ١٥٧٢ - ١٦٣٥م) فخر الدين (الثاني) ابن قرقماس ابن فخر الدين الأول، من آل معن. من أكبر أمراء هذه الأسرة من دروز الشوف بلبنان. ولي سنة ١٠١١هـ، عظم أمره واستولى على صيدا وصفد وبيروت، وناوأ حكومة الأستانة، فجردت حملة للقضاء عليه، ففر إلى إيطاليا، ثم عفي عنه وأعيد إلى إمارته، ولقب بسلطان البر، فطمع في التوسع مجدداً، فقبض عليه سنة ١٠٤٣هـ، فسجن في الأستانة مدة، ثم عفي عنه السلطان واستبقاه، ثم كثرت الوشايات فيه فقتله وولديه.

والمؤهلات مجتمعة في دعوة التوحيد السلفية مضافاً إليها روح الجهاد، وحب الاستشهاد، ولكن هذا الأمل لم يقع، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وهكذا أطل القرن الثالث عشر الهجري على الساحة الإسلامية وهي تشهد تراجعاً وانحساراً في خطوط المواجهة مع النصارى الأوربيين والروس، الذين أخذوا يخطون خطوات واسعة في ميادين التقدم المادي والصناعي، ويرمقون الممالك الإسلامية التابعة للدولة العثمانية بنظرات طامعة حاقدة.

المرحلة الخامسة: (١٢١٣هـ - ١٣٦٨هـ):

تمثل هذه المرحلة فترة تمتد من قيام الحملة الفرنسية على مصر عام ثلاثة عشر بعد المائتين وألف (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) وتنتهي بالإعلان عن قيام دولة يهود (إسرائيل) فوق أرض فلسطين عام (١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م).

والسمة العامة لهذه المرحلة هي التقهقر السياسي والعسكري والعلمي للأمة الإسلامية مقابل النمو الأوربي المطرد في كافة المجالات المادية مما أفضى إلى انهيار الخلافة العثمانية، وطي بساطها من أوروبا الشرقية، ثم احتلال البلدان الإسلامية العريقة من قبل الاستعمار الأوربي بشكل لم يسبق له مثيل حتى في الحروب الصليبية.

والتغير الوحيد في هذه المرحلة عن مرحلة الحروب الصليبية أن الحكومات الأوربية المتأثرة بالثورة الفرنسية (١٧٨٩م) العلمانية باتت أكثر دهاءاً، وغزت المجتمعات الإسلامية بأسلحتها المتفوقة، تحت شعارات منمقة لا تحمل الطابع الديني الصليبي، بل تحاول أن تتجنب استفزاز المشاعر الإسلامية، وتتستر تحت لافتات سياسية مثل «الانتداب» و«الوصاية» و«الحماية»... إلخ.

ومن أبرز الحوادث التاريخية التي ترسم معالم هذه المرحلة ما يلي:

١ - الحملة الفرنسية على مصر: بعد عشر سنوات تقريباً من قيام الثورة الفرنسية جرد «نابليون بونابرت»^(١) حملة بحرية للاستيلاء على مصر، أسوة بأسلافه الصليبيين الذين كان آخرهم «لويس التاسع». فرست العبّارة الفرنسية أمام شواطئ الإسكندرية في المحرم من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م). وبث نابليون مرسوماً في المصريين تضمن العبارات الخادعة التالية: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له، ولا شريك له في ملكه، من طرف فرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش فرنساوية بونوبارته يُعرّف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد، الصناجق^(٢) الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون في الذل والاحتقار في حق الملة فرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة، يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله. فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم. يا أيها المصريون: قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفتريين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين. وإنني أكثر

(١) نابليون (١٧٦٩ - ١٨٢١م): ولد في أجاكسيو، من عائلة بونابرت. إمبراطور فرنسا (١٨٠٤ - ١٨١٥). اشتهر في حملة على إيطاليا مرتين، قاد حملة على مصر سنة (١٧٩٨ - ١٧٩٩)، وجلب إليها مطبعة من الفاتيكان. تحالفت أوروبا ضده، فهزم في معركة «واترلو» سنة ١٨١٥، فنفي إلى جزيرة سانت هيلانة، حيث توفي. انظر: المنجد في الأعلام (٧٠٣).

(٢) الصناجق: كلمة تركية تعني هنا الحكام على جزء من الولايات العثمانية.

من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم...
أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرجية^(١) وأعيان البلد: قولوا
لأمتكم إن فرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم
قد نزلوا في «رومية الكبرى»، وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً
يحث النصارى على محاربة الإسلام. ثم قصّدوا جزيرة مالطة، وطرّدوا
منها «الكوالرية» الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة
المسلمين، ومع ذلك، فرنساوية في كل وقتٍ من الأوقات صاروا
محبين لمخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله
ملكه...^(٢).

بهذه المزايدات الرخيصة، والتلون الساخر أراد هذا الداهية أن
يطمأن جموع المسلمين إلى سلامة أهدافه ونبلها، وادعاء الإسلام،
وتعظيم النبي والقرآن والسلطان أمام السذج الجهلة من العامة، وأرباب
الطرق الصوفية وأتباعهم، الذين كانوا جمهور الناس في تلك الحقبة
المنحطة وللأسف، بلغة سوقية منحطة، قصد بها مخاطبة الغوغاء.
وتكشف أحداث هذه الواقعة عن مدى التضعف العقدي والاجتماعي
والنفسي الذي آلت إليه المجتمعات الإسلامية، فضلاً عن الفوضى
السياسية، وانفراط عقد الأمن والتدبير في مواجهة هذا الخطر
الداهم^(٣).

مكث الفرنسيون في مصر حتى جمادى الأولى سنة ست عشرة

(١) الجرجية: مصطلح تركي يعني زعماء العساكر الإنكشارية.

(٢) انظر: النص الكامل في تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار:
الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن. دار الجيل - بيروت. (١٨٢/٢ - ١٨٤).

(٣) انظر في وصف الواقع السياسي والاجتماعي والديني ما كتبه المؤرخ النابه،
والناقد البصير عبد الرحمن الجبرتي في تاريخ عجائب الآثار في التراجم
والأخبار (١٧٩/٢ - ٥٠٠).

ومائتين وألف (١٢١٦هـ - ١٨٠١م)، ولولا وجود منافس آخر في الساحة من طينتهم، وهم الإنكليز، لبقوا أكثر من ذلك. فقد كان الإنكليز يحسدون الفرنسيين على هذه «الغنيمة الباردة» فتظاهروا بمساندة الدولة العثمانية لطرد الفرنسيين، وإزاحتهم عن ميدان الصراع واقتسام الغنائم.

وقد كان لهذه الحملة آثار ثقافية واجتماعية على المجتمع المصري^(١)، كما كشفت عن تواطؤ الأقباط مع أهل ملتهم، وسومهم - لما تمكنوا - المسلمين العذاب^(٢).

٢ - الحملة الإنكليزية على مصر: جرّد الإنكليز حملةً عسكرية على مصر، في غرة محرم سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف (١٢٢٢هـ - ١٨٠٧م)، فاستولوا على الإسكندرية. ثم تصدى لهم «محمد علي باشا»^(٣) (١١٨٣هـ - ١٢٦٥هـ) فهزمهم، وعقد معهم صلحاً فغادروا البلاد في شهر رجب من تلك السنة^(٤).

٣ - ثورة اليونان: أدى الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية، وهزائمها المتوالية أمام الجيوش الروسية في البلقان إلى طمع اليونانيين

(١) انظر: في المصدر السابق على سبيل المثال (٤٣٦/٢ - ٤٣٧، ٤٨٦).

(٢) انظر: في المصدر السابق على سبيل المثال (٢/٢٥٠، ٣٤٧، ٤٣٧، ٤٩١).

(٣) محمد علي باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩م): محمد علي بن إبراهيم أغا بن علي، ألباني الأصل مستعرب. ولد في «قولة» التابعة الآن لليونان، واحترف تجارة الدخان، فأثري، ولي مصر سنة ١٢٢٠هـ ففضي على المماليك سنة ١٢٢٦هـ غدرًا. أوعزت إليه الحكومة العثمانية أن يجرد حملة للقضاء على الدولة السعودية الأولى، وشارك في حرب «المورة»، واستولى على سورية، ثم قايض الدولة العثمانية على ردها لقاء أن يكون حكم مصر وراثياً في أسرته. أرسل البعثات التعليمية إلى أوروبا، وبنى المدارس والمعامل في مصر. اعتزل الأمور لابنه إبراهيم سنة ١٢٦٤هـ. انظر: الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٤) انظر: تاريخ عجائب الآثار (٣/ ١٧٦ - ٢١٤).

في الاستقلال. فشبت نار الثورة في بلاد المورة سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف (١٢٣٧هـ - ١٨٢٦م)، فعقدت الدول الأوربية الكبرى مؤتمراً في لندن ذلك العام بدعوى الاحتجاج على الممارسات غير الإنسانية لإبراهيم باشا^(١)، ودمروا السفن العثمانية والمصرية، واحتلت فرنسا بلاد المورة سنة أربع وأربعين (١٢٤٤هـ - ١٨٢٨م). ثم أرغمت روسيا والدول الأوربية العثمانيين على القبول باستقلال اليونان في معاهدة «أدرنة» سنة خمس وأربعين ومائتين وألف (١٢٤٥هـ - ١٨٢٩م).

٤ - احتلال فرنسا للجزائر: وذلك سنة ست وأربعين ومائتين وألف (١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م)، بدعوى أن أهلها كانوا يعتدون على مراكبهم البحرية! وظلت الجزائر رهينة الأسر مدة مائة وخمسة وثلاثين عاماً، حتى انسحابهم منها سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وألف، تحت وطأة الجهاد الإسلامي المستميت (١٣٨١هـ - ١٩٦٢م).

٥ - احتلال الإنكليز لعدن والسيطرة على مضيق باب المندب: سنة أربع وستين ومائتين وألف (١٢٦٤هـ - ١٨٣٩م). وقد بقيت تحت نير الاحتلال حتى، سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).

(١) إبراهيم «باشا» بن محمد علي «باشا» (١٢٠٤ - ١٢٦٤هـ) قائد بعيد المطامح، من ولاية مصر. قدم مصر مع طوسون بن محمد علي سنة ١٢٢٠هـ، فتعلم بها، وأرسله أبوه، أو متبنيه محمد علي سنة ١٢٣١هـ بحملة إلى الحجاز ونجد، ثم إلى بلاد المورة - اليونان - ١٢٩٣هـ، ثم إلى سورية سنة ١٢٤٧هـ، فانقادت له بلاد الشام. ودخل في معارك طاحنة مع الدولة العثمانية، ظفر في معظمها حتى قارب الأستانة. وفي عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٢٥٤هـ اتفق مع الإنجليز على إخراجه من سورية، فعاد إلى مصر سنة ١٢٥٦هـ في مدة ولاية محمد علي الذي تنازل له، وجاء الفرمان من الأستانة بتوليته، ثم مات قبل وفاة محمد علي. انظر: الأعلام (١/ ٧٠).

٦ - سقوط رومانيا واستقلالها عن الدولة العثمانية: سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٣هـ - ١٨٥٧م)، بعد حكم دام أكثر من أربعة قرون ونصف.

٧ - حرب القرم: بين الحكومة العثمانية وحلفائها الإنكليز والفرنسيين من جهة، وروسيا من الجهة الأخرى سنة تسع وستين ومائتين وألف (١٢٦٩هـ - ١٨٥٣م) بسبب تحرشات الروس بالعثمانيين وإهانتهم إياهم، واستمرت حتى توقيع معاهدة باريس سنة ثلاث وسبعين (١٢٧٣هـ - ١٨٥٦م). وقد أنهكت هذه الحرب الدولة العثمانية وفقدت أجزاء من أراضيها، وزادت من نفوذ الإنكليز والفرنسيين في سياسات الحكومة العثمانية تجاه الأقليات النصرانية، وغيرها.

٨ - سقوط الهرسك: سنة ثلاث وتسعين ومائتين (١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م) بمساندة الروس والدول المجاورة في أول ولاية السلطان عبد الحميد الثاني، وقد امتدت الحرب وتقهقر العثمانيون إلى قرب أدرنة. وأعقب ذلك معاهدة تقضي بتملك الروس لتلك البلاد، ويبقى للعثمانيين أدرنة - عاصمتهم القديمة - وما يليها إلى إستانبول مع تحميلهم دفع غرامة الحرب. وتلتها معاهدة برلين ١٨٧٨م التي كانت أشد إذلالاً.

٩ - احتلال الفرنسيين تونس: سنة سبع وتسعين ومائتين وألف (١٢٩٧هـ - ١٨٨١م) بدعوى تأديب بعض قبائل العرب المعتدين! وظلت تونس بأيديهم ثمان وسبعين سنة حتى نالت استقلالها سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وألف (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م).

١٠ - احتلال الإنكليز لمصر: سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف (١٢٩٨هـ - ١٨٨٢م) للقضاء على ثورة «عراي باشا»^(١)، والتحكم في

(١) عراي باشا (١٢٥٧ - ١٣٢٩هـ = ١٨٤١ - ١٩١١م) أحمد عراي بن محمد =

ولاتها من أحفاد محمد علي باشا ثم احتلال السودان تبعاً لمصر. وقد ظل الإنكليز في مصر حتى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م)، وفي السودان إلى ما بعد ذلك بستين.

١١ - انعقاد المؤتمر الصهيوني في مدينة «بال» بسويسرا: سنة ١٨٩٧م الذين ضم زعامات اليهود في العالم لرسم الخطط للسيطرة على العالم، وإنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين.

١٢ - سقوط بلغاريا: سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف (١٣٢٨هـ - ١٩٠٨م) بعد حكم دام أكثر من خمسة قرون.

١٣ - قيام ثورة جمعية الاتحاد والترقي العلمانية التركية وخلع السلطان عبد الحميد الثاني^(١): سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وألف

= عرابي بن محمد وافي بن محمد غنيم. زعيم مصري. ولد في قرية رزنة من قرى الزقازيق بمصر، وجاور في الأزهر سنتين، ثم انتظم جندياً في الجيش سنة ١٢٧١هـ، وبلغ رتبة «أميرالاي». تزعم هو وبعض الضباط حركة تتضمن مطالب وطنية أيام الخديوي توفيق فاعتقل ثم أفرج عنه، وجعل وكيلاً لنظارة الجهادية، وأنعم عليه بلقب لواء «باشا». وبعد استيلاء الإنجليز على مصر سنة (١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م)، نفوه إلى جزيرة سيلان سنة ١٣٠٠هـ، فمكث فيها ١٩ عاماً، ثم عاد إلى مصر أيام الخديوي عباس، وتوفي بالقاهرة. انظر: الأعلام (١/١٦٨).

(١) السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨م) عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد العثماني، آخر سلاطين آل عثمان الفعليين. ورث مملكة مترامية الأطراف يتربص بها الأعداء من كل جانب. حاول أن يحيي فكرة الجامعة الإسلامية لمواجهة الأطماع الأوروبية المتنامية لتقاسم إرث الرجل المريض كما كانوا يصفون الخلافة العثمانية، ولكنه فشل بسبب مؤامرات جمعية الاتحاد والترقي التي عزلته عن منصبه سنة ١٩٠٩م، ونصبت سلاطين صوريين بعده. وقد شوهت سيرته من قبل الغربيين والنصارى العرب. انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، صحوة الرجل المريض.

(١٣٢٩هـ - ١٩٠٩م) الذي كان آخر خليفة عثماني فعلي، وذلك لوأد فكرة الجامعة الإسلامية التي صار يدعو إليها لمواجهة التسلط الأوربي.

١٤ - سقوط ألبانيا وانتزاعها من الدولة العثمانية: سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٢هـ - ١٩١٢م) بعد حكم إسلامي دام قرابة أربعة قرون ونصف.

١٥ - احتلال فرنسا لمراكش وتقاسمها مع إسبانيا الأراضي المغربية: سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف (١٣٢١هـ - ١٩٠١م)، حتى نالت الاستقلال سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وألف (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م). وبقيت مدينتا «سبتة» و«مليلة» تحت الحكم الأسباني إلى الآن.

١٦ - احتلال إيطاليا ليبيا: سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٤هـ - ١٩١٤م) وظلت أسيرة في أيديهم قرابة نصف قرن حتى سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف (١٣٧١هـ - ١٩٥١م).

١٧ - إبرام اتفاقية (سايكس - بيكو): سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٦هـ - ١٩١٦م) بين فرنسا وبريطانيا بشأن اقتسام المنطقة العربية المتبقية من تركة الرجل المريض - أي الدولة العثمانية - وهي العراق وسوريا الكبرى والخليج العربي وفلسطين والأردن، باسم «الحماية» لحكومات مصطنعة، تنشأ بعد مسرحية الثورة العربية الكبرى، التي يعلنها الشريف حسين بن علي^(١) في الحجاز ضد العثمانيين في

(١) الشريف حسين (١٢٧٠ - ١٣٥٠هـ = ١٨٥٤ - ١٩٣١م) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، من أحفاد أبي نمي ابن بركات، الحسني الهاشمي. ولد في الأستانة، وانتقل مع والده إلى مكة، فتعلم فيها، ونبغ في شؤون الإمارة، فطلب عمه عون الرفيق من الحكومة العثمانية إبعاده، فنفي إلى الأستانة عام ١٣٠٩هـ حتى مات عمه فعاد أميراً لمكة سنة ١٣٢٦هـ. وفي عام (١٣٣٤هـ - ١٩١٦م) أعلن بمساندة من الإنجليز الثورة العربية على =

تلك السنة، وتدعم من قبل طرفي الاتفاقية. وقد كشف البلاشفة بنود هذه الاتفاقية في العام التالي.

١٨ - صدور وعد «بلفور» رئيس وزراء بريطانيا: سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٧هـ - ١٩١٧م) بتعهد من الحكومة البريطانية لليهود بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي فوق أرض فلسطين. وفي نفس العام دخل القائد الإنكليزي «النبّي» مدينة القدس هاتفاً: الآن انتهت الحروب الصليبية، كما دخلوا بغداد، وفي السنة التالية دخل الفرنسيون بيروت.

١٩ - اندلاع الثورات العربية في فلسطين وسوريا ضد الانتداب الأجنبي: سنة أربعين وثلاثمائة وألف (١٣٤٠هـ - ١٩٢٠م) وقمعتها من قبل القوات الغازية المتفوقة عسكرياً، كما في موقعة «ميسلون» قرب دمشق في نفس العام. وتبع الإنجليز لفصائل المجاهدين التابعين لعز الدين القسام^(١) وغيره في فلسطين. ثم توقيع معاهدات استعمارية مع الحكومات المحلية في كل من سوريا وفلسطين ولبنان والعراق ومصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٦هـ - ١٩٥٦م).

= الأتراك. وحين منع أهل نجد من الحج قصده الملك عبد العزيز بن سعود، وتخلّى عنه الإنجليز، فخرج من جدة إلى العقبة ثم قبرص عام ١٩٢٥م، ثم رجع إلى عمّان، فمات بها، ودفن في القدس. انظر: الأعلام (٢/٢٤٩).

(١) عز الدين القسام (١٣٠٠ - ١٣٥٤هـ): محمد عز الدين بن عبد القادر القسام، مجاهد من أسرة كريمة في جبلة من أعمال اللاذقية. تعلم في الأزهر بمصر، واشتغل في بلده بالتعليم والوعظ إلى أن احتل الفرنسيون ساحل سورية في ختام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م، فثار في جماعة من تلاميذه ومريديه، وطارده الفرنسيون. ثم انتقل إلى دمشق، فحيفا في فلسطين، وتولّى فيها إمامة جامع الاستقلال وخطابته، وخاض معارك جهادية ضد الإنجليز لما استفحل خطر اليهود، وظهرت بطولته، حتى قضى مجاهداً. ودفن في قرية «الشيخ» قرب حيفا رحمّه الله. انظر: الأعلام (٦/٢٦٧).

٢٠ - إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية: سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف (١٣٤٤هـ - ١٩٢٤م) بعد حكم دام أكثر من ستة قرون، بعد انتخاب مصطفى كمال، أتاتورك^(١)، رئيساً للجمهورية التركية العلمانية الحديثة. وكان لليهود «الدونمة» الدور الأكبر في اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة، ومن خلفهم المؤتمر الصهيوني العالمي، بإثارة الفتن وتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني، وتأسيس الجمعيات المناوئة في داخل تركيا وخارجها^(٢).

أما وضع «أهل الذمة» فقد تحول إلى مشكلة ضخمة في هذه المرحلة. فقد كان يعيش بين ظهراي المسلمين في الولايات العثمانية أكثر من عشر طوائف نصرانية أساسية^(٣)، ونصف هذا العدد من اليهود^(٤). وكانت معاملتهم تجري وفق القواعد الشرعية المتبعة من سائر الدول الإسلامية المتعاقبة.

(١) مصطفى كمال (١٨٨١ - ١٩٣٨م): قائد تركي، ولد في سلانيك، ينتمي إلى يهود الدونمة من جهة أمه. شارك في ثورة الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد الثاني، التي دعت إلى إحلال الدستور محل الشريعة الإسلامية، ثم خلعت السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وألغت السلطنة عام ١٩٢٢م، ثم الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م، بعد تأسيس الجمهورية التركية، وكان أول رئيس لها عام ١٩٢٣م. قام بمحاولة القضاء على مظاهر الإسلام في تركيا، واستبدل الأبجدية العربية باللاتينية، وعمل على علمنة البلاد وتغريبها. انظر: الرجل الصنم، وصحوة الرجل المريض.

(٢) انظر: في الأحداث المسروقة في الفقرات من ٣ إلى ٢٠. العثمانيون في التاريخ والحضارة (١٠٧ - ١٢٧)، صحوة الرجل المريض (٢٢٨ - ٢٥٨).

(٣) هي: الروم الأرثوذكس، الروم الكاثوليك، السريان الأرثوذكس، النساطرة، الموارنة، الأقباط الأرثوذكس، الأقباط الكاثوليك، الكلدان الكاثوليك، اللاتين الكاثوليك، والبروتستانت.

وانظر في هذا: المسيحية في العالم العربي، للحسن بن طلال، والعرب والنصارى لحسين العودات.

(٤) وهي: الربانيون، السامريون، السبتيون، الدونمة، وشهود يهوه.

ولكن الأطماع الأوربية أرادت أن تتخذ من هذه الطوائف موطئ قدم للنفاذ إلى العمق الإسلامي لدولة الخلافة، وأن تتذرع بالدفاع عن حقوقها كلما أرادت أن تسوغ تدخلاً في الشؤون الداخلية لها.

يرجع أول تنظيم مقنن لشؤون أهل الذمة إلى عهد السلطان «محمد الفاتح» إثر سقوط القسطنطينية (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)، وهو ما عرف بنظام الملة (الذي قسم «الرعايا» إلى ملل حسب أديانهم، وأعطى لرجال الدين المسيحيين على طوائفهم ما هو موكول إلى رجال الدين المسلمين على طوائفهم، وخاصة الأمور الدينية والتعليمية والأحوال الشخصية وغيرها. ثم اكتشف أن طقوس العبادة النصراني تختلف من طائفة لأخرى، فزاد عدد الملل حسب الطوائف أيضاً، وليس حسب الأديان فقط^(١).

وقد تمتعت الطوائف المسيحية واليهودية، منذ سقوط القسطنطينية بالاعتراف بها اعترافاً رسمياً. فقد أقرت السلطنة العثمانية للبطاركة الأرثوذكس والأرمن ولحاخام العاصمة الأعظم بأنهم ليسوا رؤساء طوائفهم الروحية فحسب، بل رؤساؤها السياسيون أيضاً. أما الطوائف الأخرى، كالأقباط في مصر، والموارنة والنساطرة والسرمان والأرثوذكس في لبنان وسوريا والعراق فكانت على اتصال أقل بالحكام لإقامتها بعيداً عن العاصمة، ومع ذلك فقد كان بطاركتها ينالون اعتراف السلطان بهم من وقت إلى آخر، وكان السلطان يقوم بتنصيب البطاركة والحاخاميين رسمياً^(٢).

كما يرجع أول تنظيم للامتيازات الأجنبية لدى الدولة العثمانية إلى

(١) العرب النصاري: حسين العودات. الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق. الطبعة الأولى ١٩٩٢م. (١٥٦).

(٢) الفكر العربي في عصر النهضة. ألبرت حوراني (٤٦).

عهد السلطان سليمان القانوني، الذي تربطه علاقة مميزة بفرانسوا الأول ملك فرنسا. فقد وقع مع فرنسا معاهدة سنة (٩٤١هـ - ١٥٣٥م) يمنحها بعض الامتيازات التجارية طالما أن الحاكمين على قيد الحياة. وظل الفرنسيون يجددون تلك المعاهدة حتى أقرت رسمياً سنة (١١٥٣ - ١٧٤٠م). كما منح السلطان سليمان القانوني فرانسوا الأول لقب «حامي الكاثوليكية» في البلاد الإسلامية^(١). كما نصت المعاهدة الموقعة في ١١٥٣هـ - ١٧٤٠م على إعفاء الفرنسيين المقيمين في الدولة العثمانية من الخراج. (وإذا حدث خلاف بين فرنسا وبين فرنساويين فللسفراء والقناصل أن يفحصوا ويحكموا حسب شرائعهم وعوائدهم بدون أن يمانعهم بذلك أحد)^(٢). وتضمنت المعاهدة نص المرسوم السلطاني التالي: (إن الأمم النصرانية المعاديتنا - كذا -، والمسالمة إمبراطور فرنسا، التي ترغب في زيارة القدس الشريف تقدر على الذهاب والإياب بكل حرية وأمان، وإن وجد فيما بعد السماح للأمم المذكورة بالاتجار في ممالكنا المحروسة، فذهابهم وإيابهم حلتئذ يكون تحت الراية الفرنسية)^(٣). كما عززت المعاهدة الوضعية الخاصة للهربان الفرنسيين المقيمين في الأراضي المقدسة^(٤).

ومع الضغوط المتتالية على الحكومة العثمانية الآخذة في الضعف والاضمحلال منحت مثل هذه الامتيازات لبقية الدول الكبرى؛ بريطانية ثم روسيا والنمسا وغيرها، واختصت كل دولة بحماية طائفة معينة؛ ففرنسا حامية الكاثوليك، وروسيا حامية الأرثوذكس، وبريطانيا حامية البروتستانت وهكذا.

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، موفق بني المرجة (١٧٦).

(٢) انظر: نص المعاهدة في المصدر السابق (٤٠١ - ٤٠٣) البنود (٢٦، ٣٢، ٣٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

وحين استولى إبراهيم باشا على بلاد الشام أثناء الصراع المصري العثماني سنة (١٢٤٨هـ - ١٨٣٢م) سن أنظمة جديدة عرفت بالقانون (البيورلدي) تقضي بإلغاء الضرائب عن جميع الطوائف، ومعاقبة من يطالبهم بأدنى إتاوة مهما كان مسماها. كما سمح للنصارى بترميم معابدهم، وبناء معابد جديدة. وألغى نظام «الغيار» الخاص بملابس أهل الذمة، ومكنهم من لبس ما يشاءون، وركوب الجياد، وولاهم المناصب في المجالس المحلية، بل وجلد من أنكر عليهم هذه المساواة مع المسلمين^(١).

ومجارةً لهذه التنظيمات الجريئة، سارع خصمه السلطان عبد المجيد الأول العثماني إلى إرضاء الأوربيين فأصدر مرسومه الشهير بـ (خط شريف كولخانه) الذي ألغى رسمياً (نظام الملل) العثماني، وذلك سنة (١٢٥٥هـ - ١٨٣٩م)، فقرر المساواة بين المسلمين وغيرهم، وإلغاء نظام الذمة، ومشاركة غير المسلمين في الخدمة العسكرية على حدٍ سواء مع المسلمين. وتفرع عنه «فرمانات» تنفيذية لضمان الحرية الدينية، وإزالة مظاهر التحقير والصغار، وتخصيص مرتبات مالية للربان، وفسح بناء المعابد وغير ذلك^(٢).

وقد استغلت الدول الكبرى امتيازات الحماية استغلالاً بشعاً، طال ضرره تلك الطوائف، وحولها من مللٍ مشمولة برعاية الدولة المسلمة وعهدها وذمتها إلى «أقليات» تعيش وسط أغلبية مسلمة ترى فيها وكرّاً للتآمر وإيواء الأجنبي. بل جعل منها أقليات متنافرة مختلفة الولاءات رغم اتحاد الدين. وكان من آثار ذلك اندلاع الفتن الطائفية في لبنان والشام بين الدروز والموارنة سنة (١٢٥٧هـ - ١٨٤١م) وانتهائه

(١) انظر: العرب النصارى (١٦٨ - ١٧٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧٠ - ١٧٣)، الشعوب الإسلامية (١٨٤ - ١٨٥).

بتقسيم لبنان إلى قائمقاميتين^(١): درزية ومارونية بعد ذلك بسنة. ثم عودة النزاع الطائفي على أوسع نطاق في بلاد الشام سنة (١٢٧٦هـ - ١٨٧٠م)، كانت بريطانيا تسلح فيه الدروز، وفرنسا تسلح المارونيين. وبلغ عدد الضحايا من الجانبين أكثر من عشرة آلاف قتيل.

ومن صور الاستغلال البشع أن روسيا استغلت الخلاف الواقع بين طائفتي الروم الأرثوذكس، الواقعين تحت حمايتها، واللاتين الكاثوليك في بيت المقدس للتحرش بالدولة العثمانية وإشغال فتيل حرب القرم سنة (١٢٦٩هـ - ١٨٥٣م)^(٢). واستمرت هذه الحرب الفاجرة ثلاث سنين، ثم جلست الأطراف الكبرى المتحاربة على مائدة المفاوضات في باريس سنة (١٢٧٣هـ - ١٨٥٦م). (واتفق لقبول الدولة العثمانية ضمن المجموعة الأوروبية أن تصدر «خطاً» جديداً يضع برنامجاً واضحاً للإصلاح أكثر اتساعاً ودقة من «خط كلخانه» وعلى هذا الأساس صدر الخط الهمايوني (١٨٥٦م)^(٣).

قضى هذا القانون الجديد «الخط الهمايوني» على البقية الباقية من تميز المسلمين، وتمييز غيرهم في المجتمع العثماني، ومكن لأهل الذمة أن يصبحوا مواطنين من الدرجة الأولى. ونص على معاقبة كل من يستعمل عبارة مهينة ضد الأقليات، وأطلق لهم الحرية في شغل الوظائف العامة المدنية والعسكرية، وبيع وشراء الأملاك العقارية... إلخ^(٤). كما شهدت هذه المرحلة الخامسة من سلسلة العلاقات الإسلامية النصرانية نشاطاً ملحوظاً في الإرساليات التنصيرية من أوروبا

(١) تعبير سياسي تنظيمي كان سائداً في الولايات التابعة لتركيا العثمانية، (قائم مقام).

(٢) انظر: الفتوحات الإسلامية: (٢/٢٦٩).

(٣) الشعوب الإسلامية: (١٩٣).

(٤) انظر: العرب النصارى: (١٧٣)، الشعوب الإسلامية (١٩٣).

وأمریکا، وافتتاح الجامعات والكليات الدينية والمدنية المختلفة في بلاد المسلمين. وقد تلقفت بالدرجة الأولى أبناء الطوائف النصرانية، وثقفتهم بالعلوم العصرية مما مكنهم لاحقاً من البروز والتصدر في المناصب السياسية والفكرية في بلاد المسلمين بعقول أوربية، وكان لهؤلاء أسوأ الأثر في سلخ المجتمع الإسلامي عن خصوصيته^(١).

هكذا بدا العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر، (التاسع عشر الميلادي إلى منتصف القرن العشرين). بدت صورته كئيبة قاتمة؛ هزائم متلاحقة، فوضى سياسية، جهل وبدع وانحرافات عقدية ومسلكية، تخلف في جميع مناحي الحياة الفكرية والمادية، أزمة ثقة بين شعوبه، وتحالف مع الأعداء أحياناً، في مقابل قفزات سريعة لدى الأمم النصرانية في مجال الإعداد المادي، والقوة الصناعية والعسكرية والاقتصادية، وتنسيق دائب على اقتسام التركة، وإذلال الورثة. أدى هذا وذاك إلى قطع شجرة الخلافة الإسلامية الجامعة، من أصلها بفرع من فروعها، وبأيدي أبنائها، أو هكذا يبدو ظاهراً على الأقل. ثم قسم متاع الأيتام وعيونهم زائغة.

لقد كانت الحركات الإسلامية الجهادية التي ظهرت في أجزاء من العالم الإسلامي إبان فترة الاستعمار الحديث كانتفاضات الطير الذبيح، سرعان ما أخمدت أنفاسه.

جاء النصارى هذه المرة دون صلبان، يتقدمهم المستشرقون وليس القسس، ويفاوضون بقناصلهم ومندوبيهم السامين لا ببطرس الناسك. إنهم هذه المرة لا يهدمون الجوامع - غالباً - ويحولونها إلى كنائس وكاتدرائيات، ولكنهم يظهرون تعظيم الدين والمشايخ، ويدغدغون

(١) انظر في تاريخ وأثر هذه الإرساليات: صحوة الرجل المريض (١٦٥ - ١٧٣)، المسيحية في العالم العربي (١١٧ - ١٢٧)، الإسلام والحضارة الغربية. د. محمد محمد حسين.

مشاعر العامة والدهماء. لقد فقحت أوروبا النصرانية درس الحروب الصليبية، وتحاشت أن تنجب الاستفزازات الدينية أمثال «نور الدين زنكي»، و«صلاح الدين الأيوبي»، و«الظاهر بيبرس البندقداري».

جاء النصارى هذه المرة باسم السياسة لا باسم الدين، فحققوا ما لم يحققه أسلافهم المتعصبون. لقد أوهنوا عرى الدين في المجتمعات الإسلامية، وغزوا الأفكار قبل الديار، وغسلوا الأدمغة، وهزوا الثواب والعقائد، ونشروا الرذيلة باسم الحرية، ونفخوا في صورة أهل الذمة باسم حماية الأقليات، وأحلّوا الفكرة «العلمانية» محل الفكرة الدينية، واستنطقوا بذلك رجالاً من بني جلدتنا يتكلمون بألسنتنا.

فيا لها من داهية على المسلمين عظيمة، ونازلة لم يشهد تاريخ الإسلام لها نظيراً. فالرزايا والبلايا التي وقعت في تاريخ هذه الأمة تكون على الأبدان والأموال والبلدان، ولكن هذه الداهية الأخيرة تستأصل العقول والأفكار. وتورث الردة والإلحاد، وقد كان؛ فكم التهمت نار المبادئ الضالة التي ولدت وترعرعت في حضن هؤلاء المستعمرين من أبناء هذه الأمة، وسخرتهم في تدميرها. ولولا أن الله تعالى تكفل بحفظ الذكر، وتجديد الدين، وبقاء الطائفة المنصورة، وإلا لكان الإسلام نسياً منسياً. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف].

وبعد هذه القراءة التاريخية لأبرز الأحداث التي رسمت حدود العلاقات الإسلامية الكتابية في مراحلها المختلفة على مدى أربعة عشر قرناً هجرياً، وفي مدٍ وجزر على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، والدول المطلة عليه، حيث جرت معظم هذه الوقائع، ندرك مقدار الكم الهائل من الصور والذكريات التي تختزنها كلٌّ من الذاكرتين الإسلامية والنصرانية، وتستدعيها كلما تجدد لونٌ من ألوان المجابهة والتّماس.

لقد كانت علاقة ساخنة لا تبرد، هادرة لا تهدأ، متصلة لا

تنقطع، أشبه ما تكون بمعركة حامية الوطيس، لا يكف طرفاها عن الكر والفر، إلا أن يفنى صاحبه، أو يحتويه.

إن الذاكرة النصرانية لا يمكن أن تنسى كيف طوي بساطها، وقلص ظلها عن مقدساتها، ومهد مسيحها، وأرض التوراة والإنجيل، وانتزعت من يدها مواطن أشرف كنائسها في بيت المقدس، والإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية، وصارت الأرض التي تدر عسلاً ولبناً دار إسلام، فما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين.

لقد روعت النصرانية حين اخترقت جحافل الإسلام شمال إفريقيا، وعبرت مضيق جبل طارق، واستوعبت شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال)، ثم تسلقت جبال البرانس لتمكث في جنوب فرنسا سبعين سنة. إن الذاكرة النصرانية لا يمكن أن تنسى كابوس العثمانيين الذين دوّخوا أوربا، وأقضوا مضاجع البابوية عدة قرون، وأخضعوا عواصم البلقان تحت سنانك خيولهم، وهدموا أسوار القسطنطينية، وبلغراد، وبودابست بمدافعهم العملاقة، وحاصروا «فيينا» ثلاث مرات، وطموحهم لا يقف إلا عند روما معقل النصرانية. ولهذا يصبون لعناتهم على الأتراك ليل نهار في أدبياتهم فضلاً عن صلواتهم.

وبالمقابل فإن الذاكرة الإسلامية لا يعزب عنها تلك الفظائع التي أنزلها الصليبيون بوحشية وهمجية في بيت المقدس، وسواحل الشام، على مدى قرنين من الزمان.

ولا ينسى المسلمون حرب الاستعادة الأسبانية التي جازتهم على ما ساقوه إلى الأندلس من علم وحضارة جزاء «سنمار»، وطردتهم شر طردة، ثم أتبعها بمأساة «الموريسكيين»^(١) التي تعد من أعظم مآسي التاريخ. وكيف يغيب عن بال المسلمين صور الإذلال والقمع التي أحلها

(١) الاسم الذي كان ينز به النصارى الأسبان بقايا المسلمين في الأندلس ومعناه عندهم: العرب الأصاغر.

الغزاة النصارى بديار الإسلام على يد نابليون في مصر، وفضائع الروس بالعثمانيين في بلاد البلقان والقرم والداغستان وأواسط آسيا. وأخيراً تقاسم الدول الأوروبية لتركيا «الرجل المريض» كما يقسم المتاع، فيمتصون خيراتها، ويذيقون أهلها الذل والهوان.

إنه إرث تاريخي لا يتجاهله إلا مغفل مغرور، بلغت به السذاجة مبلغاً عظيماً، فصار ألعوبة بيد أعدائه المستبصرين. وهو إرث يتفق اتفاقاً تاماً، جملةً وتفصيلاً مع الثوابت العقدية لدى المسلمين في نظرتهم نحو أهل الكتاب، ومفرداته شواهد واضحة كالشمس في رابعة النهار على تلك الثوابت^(١). قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْلِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ أَسْطَلُّوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وبعد:

فأين نحن الآن؟ وما طبيعة المرحلة الراهنة؟ هل هي امتداد للمرحلة الخامسة، أم هي مرحلة جديدة لها خصائصها المميزة؟ لقد ورث البلدان الإسلامية التابعة للحكومة العثمانية عنها «الخط الهمايوني» بالإضافة إلى جملة القوانين الوضعية التي ابتداءً إصدارها في عهد السلطان «سليم الثالث» عام (١٢٢٢هـ - ١٨٠٦م) على الطريقة الفرنسية، وظلت تتتابع حتى آخر أيام الدولة العثمانية^(٢). ثم جاء الاستعمار الأوربي ليؤكد الفكرة العلمانية وينحّي الفكرة الدينية لتنظيم الحياة والعلاقات، عبر مستشرقيه وتلامذتهم المستغربين وغزوه الفكري.

وحينما حمل الاستعمار عصاه ورحل إلى بلاده، واستقلت الدول الإسلامية، وجدت نفسها في عالم متغير - بعد الحرب العالمية الثانية - عالم يرفع شعارات السلام الدولي، والمواثيق الدولية التي تعلن المساواة بين شعوب العالم في الحقوق والواجبات، وتدعو إلى نبذ

(١) راجع مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.

(٢) انظر: الشعوب الإسلامية: (١٧٥ - ١٩٥).

التمييز على أساس الدين والعرق واللون، وكوّن لتمثيل هذه المبادئ وتطبيقها منظمة عالمية عرفت باسم «هيئة الأمم المتحدة» تأسست عام ١٩٤٥م، وتفرعت عنها الهيئات والمنظمات واللجان العالمية التي تنتظم العالم بخيط واحد، وفق معايير متساوية - على الأقل من الناحية النظرية^(١) -.

فلا ريب أن الأمة الإسلامية تعيش مرحلة جديدة مستقلة لها خصائصها المميزة، وإن كانت لم تكتمل صورتها بعد، لا تحتاج فيها إلى إنشاء مبادئ فذلك أمرٌ محسوم مقرر منذ ظهور هذا الدين الخاتم، ومبادئه ثابتة لا تقبل النقاش، وإنما تحتاج إلى فقه علمي تؤسس عليه «السياسية الشرعية» التي تلائم وضعها الحالي في حلبة الصراع الدولي، دون المساس بالثوابت العقدية.

ومن المعالم البارزة التي ترسم خصائص هذه المرحلة الراهنة ما يلي:

* أولاً: نمو فكرة «العالمية» أو «العولمة» GLOBALIZATION، والدعوة إلى إلغاء الفروق العقدية والعرقية والإقليمية بين شعوب العالم، والسعي نحو قيام «الحكومة العالمية». وبذور هذه الفكرة وضعها الماسونية العالمية، وخلفها تقف المخططات اليهودية^(٢).

* ثانياً: قيام دولة إسرائيل فوق أرض فلسطين المسلمة، بدعم

(١) انظر: في تفاصيل ذلك: أصول القانون الدولي العام د. محمد سامي عبد الحميد.

المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية. د. محمد حسن الأبياري.

(٢) انظر في الماسونية: الماسونية في العراق. د. محمد بن علي الزغبى، الماسونية ذلك العالم المجهول. صابر طعيمة، الماسونية تحت المجهر: د. إبراهيم فؤاد عباس. دار الرشاد - جدة - السعودية. الطبعة الأولى (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، القوى الخفية لليهودية العالمية. داود عبد الغفور سنقرط.

وتأييد مطلق من القوى النصرانية في العالم، في مسرح الأحداث التي جرت عليها الحروب الصليبية. وفق خلفية توراتية مشتركة بين اليهود والنصارى.

* **ثالثاً:** تنامي الأصولية الإنجيلية، وتأثيرها الظاهر والخفي في السياسات الدولية^(١).

* **رابعاً:** تنامي الصهيونية المسيحية في أوروبا وأمريكا ضد الإسلام^(٢).

* **خامساً:** تنامي الصحوة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي، والأقليات المسلمة في العالم.

* **سادساً:** ظهور الدعوة لتقارب الأديان من الجانب النصراني، وتفعلها بصفة لم يسبق لها مثيل.

وهي معالم تبدو معقدة ومتشابكة ومتعارضة، فمن دعوة إلى الانخراط في الأممية العالمية وشعارات الإنسانية، إلى حركات ظاهرة وخفية تجذر التعصب الديني، إلى دعوات للحوار والتفاهم وفهم الآخر، والالتقاء حول نقاط الاتفاق.

كل ذلك يشعرونا أننا أمام وضع جديد، ومرحلة متغيرة عما سبقها في تاريخ العلاقات الإسلامية - الكتابية. وكل معلم من هذه المعالم جدير بالدراسة والفحص والتقويم لكي يتخذ المسلمون الموقف الشرعي والإجرائي المكافئ له.

ومن هذه المعالم الجديدة الطارئة في تاريخ العلاقات الإسلامية الكتابية الدعوة إلى تقارب الأديان، وهو موضوع دراستنا هذه التي نسأل الله تعالى أن تسهم في جلاء الغبش وبيان الحق في هذه النازلة.

(١) انظر: الأصولية الإنجيلية. صالح الهذلول.

(٢) انظر: الصهيونية المسيحية. محمد السماك، النبوة والسياسة. غريس هالسل.



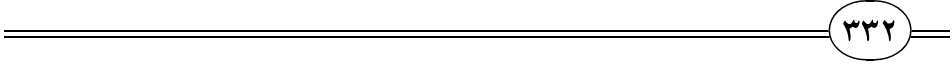
باب الأول

حقيقة التقريب بين الأديان وأصوله وبواعثه

ويتضمن:

- * الفصل الأول: حقيقة التقريب بين الأديان.
- * الفصل الثاني: الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان.
- * الفصل الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث.
- * الفصل الرابع: بواعث الدعوة إلى التقريب بين الأديان.





الفصل الأول

حقيقة التقريب بين الأديان

تطلق: «دعوة التقريب بين الأديان» على مجمل المحاولات الفكرية والعملية الساعية لإيجاد لونٍ من ألوان التلاقي والاتصال بين دين الإسلام وغيره من الأديان المحرفة، والملل الوثنية.

ومع أن هذه الدعوة بشقيها الفكري والعملي ذات جذور تاريخية، إلا إنها لم تظهر ظهوراً جلياً، ولم تنتشر انتشاراً عالمياً إلا في العصر الحاضر، وعلى وجه الخصوص في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري حتى أيامنا هذه، النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، حيث اكتسبت معاني جديدة، وأهدافاً متعددة، ووسائل متنوعة لم تكن متاحة من قبل، وصارت - بالفعل - إحدى المعالم المميزة لهذه الحقبة من التاريخ التي تسودها شعارات الإنسانية والمساواة والحرية، دون تمييز مبني على أساس ديني أو عرقي، وإن بالشعارات فقط، وذلك على مدى نصف قرن، منذ انقضاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م. وأخيراً، وفي أعقاب سقوط الكتلة الشيوعية، وتفكيك الاتحاد السوفيتي، وانحلال حلف وارسو، ولد مصطلحٌ جديد هو: «العولمة» أي توحيد العالم^(١). وذلك ما يعني المضي حثيثاً في إزالة الفوارق،

(١) يقول سمير أمين: (معنى ذلك: ولادة مفاهيم ومضامين وأفكار وأنساق جديدة على حساب انتهاء وانتفاء ظواهر وحالات ومضامين ومصطلحات ومفاهيم عدة، مثل: (شرق - غرب، شمال - جنوب) (العالم الثالث)، الشيوعية، (البلدان الاشتراكية)، (الحياد الإيجابي)، (عدم الانحياز)، (التأميم)... إلخ، وسيمضي زمن ليس بطويل تعيش فيه مفاهيم القرن العشرين في حالة =

وتميع الحدود، والقضاء على الخصوصيات للمجتمعات المتنوعة دينياً، وثقافياً. وذلك يتطلب المزيد من التقريب بين الأديان في المرحلة المقبلة.

يقول الكاتب الإسلامي الفاضل د. محمد محمد حسين^(١) رحمه الله: (العالمية في الاصطلاح الحديث مذهبٌ يدعو إلى البحث عن الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء المظاهر المتعددة في الخلافات المتباينة. ويزعم أصحاب الدعوة والقائمون عليها أن ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهبٍ واحد، تزول معه خلافاتهم الدينية والعنصرية، لإحلال السلام في العالم محل الخلاف)^(٢). وهي بهذا التعريف أوسع مدلولاً، وأشمل أثراً من «تقريب الأديان» أو «وحدة الأديان»، بل تصبح وحدة الأديان إحدى مفردات «العالمية»، ويوضح ذلك قوله: (وللعالمية تطبيقات واسعة في كل نواحي الحياة وأنشطتها المختلفة، من سياسية ودينية واقتصادية وأدبية ولغوية. وكلها تحاول أن تصل إلى

= اغتراب حقيقي، أو سيقضى عليها نهائياً، لتصبح تاريخاً أيديولوجياً عفى عليه الزمن. إذ ستنبثق مفاهيم ومصطلحات ومضامين جديدة، تتخذ لها صوراً وأشكالاً مختلفة كونها ستعبر عن واقع سياسي أو أيديولوجي مختلف). العولمة الجديدة، والمجال الحيوي للشرق الأوسط. مفاهيم عصرٍ قادم. سيار الجميل. مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق. بيروت. الطبعة الأولى (١٩٩٧م).

(١) محمد محمد حسين (نحو ١٣٣٠هـ - ١٤٠٣هـ) كاتب إسلامي ملتزم، وناقد أدبي، ذو غيرة إيمانية. ولد بسوهاج بصعيد مصر، وولي التدريس بجامعة الإسكندرية، وجامعة بيروت العربية، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. تميزت كتاباته بالأصالة والمنهجية، وكشف عوار الدعوات العصرية، من مؤلفاته: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، حصوننا مهددة من داخلها، الثقافة الغربية، أزمة العصر، الروحية الحديثة، وغيرها. انظر: ذيل الأعلام (١٩٩).

(٢) الإسلام والحضارة الغربية (١٧١).

النظام الواحد، الذي يجمع الناس في كل ميدان من هذه الميادين المختلفة على مذهب واحد، أو بعبارة أخرى تحاول أن تكتشف الأصول الإنسانية المشتركة - حسب زعمهم - وراء مظاهر التعدد المتباينة في هذه الأنشطة البشرية لتصبح الأرض وطناً واحداً يدين بدين واحد، ويتكلم لغة واحدة، يتذوق الفنون والآداب بذوق واحد مشترك^(١).

والواقع أن دعوة التقريب بين الأديان التي هبت رياحها بقوة من الغرب النصراني، قبل أكثر من ثلاثة عقود، إثر المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥م)، لا تحمل مدلولاً اصطلاحياً محدداً، فضلاً أن تكون ذات حقيقة شرعية. فلفظ «التقريب» أو «التقارب» **Rapprochement**، يدل على مسألة نسبية هي «القرب» تتفاوت في حقيقتها وتطبيقاتها لدى مختلف الأطراف، بل وفي نظرة كل طرفٍ على حدة، في فترة زمنية معينة، كما سيتضح لاحقاً، فقد تقتصر على حدٍ أدنى من المجاملات الشكلية، وقد توغل في الاقتراب إلى درجة الاندماج والوحدة وسقوط الفوارق، وبين هذا وذاك مراتب عديدة.

ومن بين أكثر من ثلاثمائة مؤتمر من مؤتمرات التقريب بين الأديان، والعديد من المناسبات والاحتفالات المشتركة، جرت في العصر الحديث، وتم حصرها وتوصيفها في الباب الثاني، بالإضافة إلى الكتابات الصادرة من دعاة التقريب ومنظريه، يمكن أن نميز ثلاثة اتجاهات:

أولاً: التقريب بين الأديان: ويمثل معظم المحاولات العالمية والإقليمية والمحلية لإيجاد تواصل، وبناء علاقات بين مختلف الأديان والملل. ويقوم على الخصائص الفكرية التالية:

(١) المرجع السابق (١٨٠).

١ - اعتقاد «إيمان» الطرف الآخر، وإن لم يبلغ الإيمان التام الذي يعتقده هو.

٢ - نبذ «التلفيقية» أو «التوفيقية» بجمع عناصر من مختلف الأديان أو محاولة حمل بعضها على بعض للوصول إلى وضع موحد.

٣ - الاعتراف بالآخر، واحترام عقائده وشعائره، ورفع الأحكام المسبقة.

أما من الناحية المنهجية، فيعتمد الأساليب التالية:

١ - الدعوة إلى التعرف على الآخر كما يريد أن يُعرف.

٢ - تجنب البحث في المسائل العقدية الشائكة.

٣ - نسيان الماضي التاريخي، والاعتذار عن أخطائه، ومحاولة التخلص من آثاره.

٤ - إبراز أوجه التشابه والاتفاق، وإقصاء أوجه الاختلاف والافتراق.

٥ - التعاون على تحقيق القيم المشتركة.

٦ - تبادل التهاني والزيارات والمجاملات في المناسبات الدينية المختلفة.

وقد تبلور هذا التوجه في العصر الحديث في مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، وتجاوب معه ذوو الاتجاه العصري من المسلمين وغيرهم. ومن ثم فقد حملت عناوين المؤتمرات المعقودة للتقريب بين الأديان في العقود الأربعة الأخيرة شعارات تعبر عن هذه الطبيعة العلائقية الجديدة، نرتبها حسب كثرة ورودها في مسرد المؤتمرات:

(الحوار = ٣٢ مرة)، (السلام = ١٨ مرة)، (التعايش = ١٦ مرة)،
(التعاون = ١٤ مرة)، (التفاهم = ٧ مرات)، (الانسجام = ٥ مرات)، (التعددية = ٥ مرات)، (الاشتراك - ومشتقاته = ٤ مرات)، (التسامح = ٣ مرات)،

(الانفتاح)، (التباحث)، (التعارف)، (الصداقة) = مرتين لكلٍ منها.

وهي معانٍ تصب في التيار العام للتقارب بدرجاتٍ متفاوتة، وجميعها تذكر مضافة إلى «الدين» أو «الإيمان»، أو إلى دينين معاً - غالباً: الإسلام والنصرانية - أو إلى ثلاثة: الإسلام، والنصرانية، واليهودية، أو إلى الأديان الخمسة الكبرى - على حد تعبيرهم - مضيفين البوذية والهندوسية.

وهذا المستوى من العلاقة هو السائد في العقود الأخيرة في المؤتمرات والندوات المعنية، وينخرط في فعالياته العديد من المفكرين ورجال الدين من سائر الملل، وبعض المنسوبيين إلى العلم والدعوة من المسلمين.

ومن شواهد هذا الاتجاه ما جاء في البيان المجمعي: «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية» الصادر عن المجمع الفاتيكاني الثاني في ٢٨ أكتوبر ١٩٦٥م، وفيه: (والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حق ومقدس. وتولي تقديرها باحترام صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم، التي وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به هي وتعلمه، تحمل، غير مرة، قبساً من شعاع الحقيقة الي تنير جميع الناس... ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم في ما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية)^(١).

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني. دساتير. قرارات. بيانات (٦٢٨ - ٦٢٩)، وسيأتي مزيد تفصيل لموقف الكنيسة الكاثوليكية من دعوة التقريب.

* يقول محمد مهدي شمس الدين^(١) واصفاً مشروعه للحوار الإسلامي المسيحي، بعد أن استبعد جميع أشكال الحوار التاريخية! : (يقوم بصورة أساسية على أن يبحث قادة الفكر والروح في كلا الدينين عن المساحات المشتركة بينهما في قضايا الإنسان والمجتمع والحضارة، فإذا اكتشفت هذه المساحات المشتركة، يتوجه الدينان معاً نحو العالم في عملية فتح روحي للحضارة الحديثة، وإنسانها - ثم يجمال «المساحات المشتركة» في ثمان نقاط: - الإيمان بالله، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان ببعثة الأنبياء - إجمالاً - الإيمان بالبعد الروحي للإنسان، الإيمان بحاجة الإنسان للعبادة، الإيمان بكرامة الإنسان، الإيمان بالأخلاق، الإيمان بالأسرة. مع التأكيد البالغ على الابتعاد عن دائرة «حوار اللاهوت وعلم الكلام» أي «الحوار العقدي»^(٢).

* ويقول د. يوسف القرضاوي: (نحن معاً نؤمن بالله، ولو إيماناً إجمالياً، نؤمن بالآخرة والجزاء الأخروي، نؤمن بعبادة الله، وبالقيم الأخلاقية، وبثبات هذه القيم، نؤمن بوحدة الإنسانية، وبأن الإنسان مخلوقٌ مكرم، نؤمن.. نأتي بأشياء يمكن أن تجمع بين المختلفين.

(١) محمد مهدي شمس الدين: ولد في النجف سنة (١٣٥٤هـ = ١٩٣٦م) توفي سنة (١٤٢١هـ = ٢٠٠١م)، وتتلّمذ على كبار علماء الشيعة في زمانه مثل: محسن الحكيم، وأبو القاسم الخوئي، شارك في النشاطات السياسية والعلمية والاجتماعية للحركة الشيعية في العراق، هاجر إلى لبنان عام (١٩٦٩م) وانضم إلى موسى الصدر مؤسس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان، ثم خلفه في رئاسة المجلس بعد اختفائه عام ١٩٧٨م، أسس العديد من المعاهد الدينية والمؤسسات الاجتماعية للطائفة الشيعية في لبنان. من مؤلفاته: «نظام الحكم والإدارة في الإسلام»، «دراسات في نهج البلاغة»، «ثورة الحسين»، «أنصار الحسين»، «عقائد الشيعة». ويبلغ المطبوع منها أكثر من عشرين مؤلفاً، انظر: الشيخ محمد مهدي شمس الدين بين وهج الإسلام وجليد المذاهب. فرج موسى (٢٩ - ٦٢).

(٢) انظر المرجع السابق (١٨ - ١٩).

فإذا وضعنا هذه الأشياء المتفق عليها، يمكن أن تُقَرَّب بين المختلفين بعضهم بعضاً. من جهتنا نحن المسلمين مستعدون للتقارب. المهم أيضاً أن يكون عند الآخرين مثل هذه الروح.. فيعاملونا بمثل ما نعاملهم به، ويقتربون منا بقدر ما تقترب منهم^(١).

ولسنا في هذا المقام بصدد مناقشة مفردات هذه المقولات الصادرة عن الإسلاميين حيث أفرد لذلك مبحث مستقل، وإنما لرسم معالم هذا الاتجاه تمييزاً له عن غيره.

ثانياً: وحدة الأديان: وهو الاعتقاد بصحة جميع المعتقدات الدينية، وصواب جميع العبادات، وأنها طرق إلى غاية واحدة. وهذا الاتجاه، بطبيعة الحال يستصحب الخصائص الفكرية والمنهجية العامة للاتجاه السابق، ويزيد عليها بالدعوة إلى التخفف من السمات العقدية والتشريعية الخاصة بكل ديانة، بحسبانها ظواهر وتقاليد تاريخية محلية لشعب معين، في حقبة تاريخية معينة، والانضواء تحت مفاهيم عامة، وجمل فضفاضة.

ويمثل هذا الاتجاه في التاريخ زنادقة الصوفية من أرباب وحدة الوجود، كابن عربي الطائفي^(٢) القائل:

-
- (١) الإسلام والغرب مع د. يوسف القرضاوي: حسن علي دبا. دار البشير للثقافة والعلوم. طنطا - مصر. الطبعة الأولى (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م). (١٦).
- (٢) محمد بن علي بن محمد بن عربي، أبو بكر، الحاتمي الطائفي الأندلسي، الملقب بالشيخ الأكبر عند الصوفية. ولد في مرسية في الأندلس سنة ٥٦٠هـ. طاف في البلاد الإسلامية واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة ٦٣٨هـ قال عنه الذهبي: «قدوة القائلين بوحدة الوجود». له نحو أربعمئة كتاب ورسالة من أشهرها: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم. كثره بسبب مقالاته وشطحاته كثير من العلماء. انظر: الأعلام (٢٨١/٦). وتنبيه الغبي للبقاعي، وجزء في عقيدته وحياته للفاسي.

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح تورا ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني^(١)
والفرق الباطنية مثل: إخوان الصفا وخلان الوفا^(٢).

كما يمثله في العصر الحاضر متصوفة العصر السائرون على خطى
ابن عربي وأمثاله، حيث يقول أحدهم: (جوهر أديان السماء كلها، وما
جاءت به من شرائع إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد وبوذا، وغيرهم
من الأنبياء والحكماء ما هو إلا نقل الإنسان وتطويره من السيئ إلى
الحسن، ثم إلى الأحسن، ومن الجهل إلى العلم، ومن الشقاء إلى
السعادة، ومن الظلم إلى العدالة والتراحم والمحبة)^(٣). أما الاختلاف
بين الإسلام وسائر الأديان ف (مثله مثل الزهور المتنوعة الألوان، التي
إذا اجتمعت في باقة متناسقة بهرت العيون، وهزت الشعور)^(٤).
كما نحا هذا المنحى بعض شعراء المهجر من النصارى العرب.
يقول جبران خليل جبران^(٥): (تقول فكرتكم: الموسوية،

(١) ذخائر الأعلام شرح ترجمان الأشواق (٣٩).

(٢) انظر فصل: (الأصول التاريخية لدعوة التقريب) من هذا الباب (٣٩١).

(٣) الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق: إعداد:
د. محمود حسن الحمصي. دار الرشيد. دمشق - بيروت، مؤسسة الإيمان -
بيروت. الطبعة الأولى (١٤١١هـ = ١٩٩١م). (٢/٧٢٨، ١٠٥٩).

(٤) الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق. (٢/٦٧١).

(٥) جبران بن خليل بن ميخائيل، الماروني، اللبناني. ولد في قرية «بشري» سنة
١٣٠٠هـ ١٨٨٣م، تعلم في بيروت، ورحل إلى باريس ثم الولايات المتحدة
الأمريكية سنة ١٨٩٥م، وتوفي فيها سنة ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م). يعد نابغة
الكتاب المعاصرين في المهجر الأمريكي. من آثاره: دمة وابتسامة، عرائس
المروج، الأرواح المتمردة. انظر: الأعلام (٢/١١٠).

البرهمية، البوذية، المسيحية، الإسلام. أما فكري فتقول: ليس هناك سوى دين واحد، مجرد، مطلق، تعددت مظاهره، وظل مجرداً مطلقاً، وتشعبت سبله. ولكن مثلما تتفرع الأصابع من الكف الواحد^(١).

وفي هذا السياق التأم عددٌ من عشاق التصوف في مؤتمرات متتابعة في عقدي السبعينيات والثمانينيات، تحت مسميات «الإيمان» و«الروحانيات» ونحوها، كان من أبرزها «فرقة الأبحاث الإسلامية المسيحية GRIC» المنطلقة من دير «سينكا» في فرنسا^(٢)، بالإضافة إلى المؤتمرات المنعقدة في تخليد ذكرى بعض «أولياء الصوفية»، و«قديسي النصرانية».

ومن أبرز منظري هذا الاتجاه «وحدة الأديان» في العقود الثلاثة الأخيرة، المفكر الفرنسي «روجيه جارودي»، ولكن من منطلق «إنساني» بالدرجة الأولى، قبل وبعد إعلان إسلامه عام ١٩٨٢م، ثم باستدلال «صوفي» بدرجة ثانية، بعد ذلك. وهو يطرح نوعين من الوحدة:

● **أحدهما:** وحدة صغرى، وهي «الإبراهيمية»، ويهدف من ورائها إلى توحيد الأديان التي تعلن انتماءها إلى أبي الأنبياء «إبراهيم» عليه السلام، أي: الإسلام والنصرانية واليهودية، فيقول في الملتقى الإبراهيمي الذي دعا إليه في قرطبة عام ١٩٨٧م: (إن رسالة القرآن عالمية، وتحويل هذه الرسالة إلى التقاليد الخاصة بحقبة من الزمن أو بشعب ما، يعتبر دفاعاً عن فلكلور، وليس عن عقيدة... استرجاع رسالة إبراهيم التي هي موحدّة، وذلك للإجابة والرد على التحديات في عصرنا هذا بعيداً عن تناقضاتنا)^(٣). وقال في كتابه «الإسلام» الصادر عام ١٩٩٦م: (إنهم

(١) قصة الأدب المهجري. محمد خفاجي (١٦٦).

(٢) سيأتي التعريف بها في الفصل الثاني من الباب الثاني (١٢٤٧).

(٣) النص المترجم للمحاضرة لدى الباحث.

كثيرون أولئك الذين يتطلعون في العالم المسيحي، كما في العالم المسلم إلى توحيد قواهم، لينبوا معاً القرن الحادي والعشرين بوجه إنساني، أي بوجه إلهي، باسم إيمانٍ وحيد، بصورة أساسية عبر تنوع العبادات والطقوس^(١).

• **الثاني:** وحدة كبرى: تشمل جميع الأديان والملل الوثنية، بل والملحدين! بجامع أن تلکم الوثنيات آثار نبواتٍ سابقة، وأن الملحدين يؤمنون بـ «الإنسان» وأن للحياة «معنى». فيقول: (إن الفكرة الأولى لعلاقات المسلمين مع بقية الطوائف الدينية في فكر ورأي النبي ﷺ، كانت إقامة ما نسميه اليوم: «وحدة فيدرالية» للطوائف الدينية... أي على الإيمان بمعناه الأرحب والأوسع، وحتى مع الملحدين ممكن أن يكون لديهم إيمان بالإنسان. وبإمكانهم إقامة طائفة دينية بالمعنى الذي قلناه فيما سبق، لتعميق هذه الاحترام الأساسي للإنسان^(٢). ويقول: (إن مهمتنا هي أن نجتمع جميع الناس ذوي الإيمان - أياً كان إيمانهم - ضد العالم الحالي، عالم اللامعنى، وأن نخلق نويات لمقاومة اللامعنى، شاجبين ومقاتلين كل ما هو مناقض لوحدة العالم

(١) الإسلام: روجيه جارودي. ترجمة: وجيه أسعد. دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م. (٤٢).

(٢) من مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م. «مجلة الموقف» شهرية - ثقافية - عربية. تصدر عن: المركز الوطني للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع. لبنان - بيروت. عدد (٧٥) أبريل ١٩٩١م، رمضان ١٤١١هـ، عن كتاب: روجيه جارودي، من الإلحاد إلى الإيمان: لقاءات ومحاضرات. إعداد: رامي كلاًوي. دار قتيبة. بيروت - دمشق. الطبعة الثانية عام ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م. (١٨١ - ١٨٢).

ومعنى (فيدرالية) (Federalism): اتحاد بين وحدات سياسية تتنازل عن سيادتها الفردية لسلطة مركزية، ولكنها تحتفظ بسلطات حكومية محدودة. انظر: المورد (٣٤١).

السمفونية)^(١). ويقول: (وليكن كلُّ منا ما يكون مسلماً أو مسيحياً، فإن ذلك لا يفصله عمن لا يشاركه دينه... وسنلتقي جنباً إلى جنب مع كل أعضاء البشرية التي تحطم قيود الجزئي، قيود الفردية والقومية التي تفت العالم)^(٢). وهذا غيُضُّ من فيض من مقولاته.

• **ثالثاً: توحيد الأديان:** ويقصد به المحاولات الساعية، قديماً وحديثاً، إلى دمج جملة من الأديان والملل في دين واحد مستمد منها جميعاً، بحيث ينخلع أتباع تلك الأديان منها، وينخرطون في الدين الملفق الجديد.

وفرق ما بينه والاتجاه السابق، أن المناداة بـ«وحدة الأديان» تعني تصويب أوضاع قائمة ضمن أطرها الخاصة التي تميزها، بشرط عدم نفي أو استبعاد الآخرين، وربط تلك الوحدات المفردة بإطار عام يسوغ توجهاتها جميعاً. في حين أن «توحيد الأديان» تفعيلٌ يقتضي إنهاء وحل تلك الأوضاع السابقة ونسخها بوضع جديد، وإن كانت عناصره مأخوذة من حطام السابق.

ويميز الباحثون في تاريخ الملل بين لونين من ألوان الدمج والتوحيد؛ فيقول د. محمد هلال: (يطلق باحثو الأديان اسم «الالتقاطية» «الألكتزم» على عملية دمج عناصر مختلفة دون محاولة إيجاد تنسيق منهجي... بينما يسمون عملية الدمج هذه، مع محاولة إيجاد تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقطة المختلفة، بالتلفيقية

(١) نحو حرب دينية، جدل العصر: روجيه جارودي. تقديم: ليوناردو بوف. ترجمة: صيَّاح الجهم. دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٦م. (٧٣). وكلمة (سيمفونية) (Symphonic) تعني: متناغم، متآلف الأصوات. انظر: المورد ٩٣٩.

(٢) جولتي وحيداً في القرن (٤٣٧). وقد أفرد لجارودي مبحث مستقل في الباب الثاني (٧٢٧ - ٨١٥).

«السنكرتزم»^(١). وهذا يتضح جلياً في نشأة وتكون الأديان الوثنية الشريكية التي تتلاقح فيما بينها، وتستعير من بعضها بعضاً أسماء المعبودات والطقوس والمعتقدات الدينية^(٢). بل قد دب ذلك إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فجرى في جسم الديانتين إدماج بعض الفلسفات الوثنية والعقائد الشريكية، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]^(٣).

ونستطيع أن نميز هذين اللونين في المحاولات الحديثة لتوحيد الأديان:

١ - الالتقاطية: تظهر بشكل جلي بالديانة «المونية» Moonism التي اخترعها في أواخر الخمسينيات الميلادية الكوري الشمالي: «صن مون»، واستمد مكوناتها العقدية من النصرانية أساساً، وخليط عجيب من اليهودية والإسلام والبوذية، بل والنظريات العلمية الحديثة، وادعى النبوة، وسعى بثروته الهائلة إلى توحيد الأديان تحت رسالته، كما جاء في القانون الأساسي للحركة المونية، المنقح عام ١٩٨٤م: (إن الهدف الرئيسي هو العمل من أجل توحيد العالم تحت راية إله واحد، بحيث تضمحل من هذا العالم كل الحواجز والعوائق الكنسية والسياسية و الوطنية والقومية والاجتماعية)^(٤).

ويتبع «مون» قرابة ثلاثة ملايين نسمة في العالم، يعتقدون صحة تعاليمه^(٥).

-
- (١) مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام: د. محمد هلال. دار البشير - عمان - الأردن. الطبعة الأولى (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م). (٦٨).
 - (٢) انظر في كتاب: «الله» لعباس محمود العقاد.
 - (٣) راجع مبحث «أهل الكتاب» في التمهيد.
 - (٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (٤٩٢).
 - (٥) انظر مبحث «المونية» في الفصل الأول من الباب الثاني.

ومن شواهد الالتقاطية في محاولة توحيد الأديان تاريخياً، البهائية^(١).

٢ - التلفيقية: تأسيساً على أن السمة التي تميز التلفيقية عن الالتقاطية هي وجود تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقطة، يمكن أن نحسب محاولات الأب الأسباني إيميليو غاليندو أغيلار ومجموعته التي تطلق على نفسها «كريسلام» «Crislam»، لوناً من ألوان التلفيقية البطيئة، التي تسعى إلى الوصول إلى صيغة عقدية موحدة، تتجاوز حدود «الإبراهيمية» التي جاء بها جارودي وغيره لتشمل سائر الوثنيات، ولكن ليس تحت شعار غير ديني كما صنع جارودي أيضاً باسم «الإنسانية» أو «المعنى»، وإنما النفاذ إلى «البؤر الدينية» لكل دين أو نحلة، التي ستكون واحدة، في حساب غاليندو، وهي ألوهية المسيح، تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً، كما يشير إليه النص التالي: (إن خطورة كل حوار بين الأديان... هو أن لا يتحول إلى حوار ديني داخلي. وعلى الدوام يجري الحوار انطلاقاً من الأديان باعتبارها شيئاً نسبياً. فحوار ديني يرمي أن يكون مناسباً يتخطى الحدود الضيقة للإسلام والمسيحية... ويستلزم هذا بالضرورة أن ينتقل كل دين من مظهره المؤسساتي إلى طابعه السري الأكثر عمقاً، للاتصال بهذا الجذر العالمي، مع هذه البؤرة الديناميكية... إنه بقدر قليل من وضوح الرؤية يمكن أن نفهم أن هذا هو الطريق الوحيد البشري الذي يوجد أمامنا كي نقترّب أكثر فأكثر بمرور الوقت من «المطلق»^(٢). ثم يؤكد لاحقاً: (إن كل حوار ديني لا ينطلق من تجربة الإله، إنما يكون كلمة مشرّكة)^(٣).

(١) انظر الكلام عن البهائية في فصل «الأصول التاريخية لدعوة التقريب».

(٢) من تقدمته لأعمال المؤتمر الدولي الأول بالمراسلة (العقيدة للأمام) تنظيم كريسلام (١٢ - ١٣).

(٣) العقيدة للأمام (١٧٥).

وفي نهاية المطاف يفصح عن العلاقة المتطابقة بين «تجربة الإله» و«المطلق» فيقول: (إن أولئك الذين دخلوا في تجربة ابن عربي نحو عيسى يعرفون بنور واضح كالنيران، أن المطلق الوحيد هو الرب)^(١).

وهذا الاتجاه يستدعي بوعي وإدراك، خلافاً لسائر الاتجاهات السابقة، المشكلات العقدية الجذرية، ويناقشها، ليقينه التام أنه لا يمكن تخطيها في سعيه نحو توحيد الأديان، ثم يقوم بتنسيقها ضمن منظومته العقدية الخاصة في علاقة الله بالإنسان^(٢).

تلك خطوط عامة للاتجاهات الرامية إلى التقريب بين الأديان، وفي الفصول التالية تفصيل لحقيقة التقريب لدى مختلف الفرقاء، ودرس للمحاولات الفردية والجماعية المبذولة في هذا السبيل.

ولا يعزب عن البال أن هذه المستويات الثلاثة: «التقريب»، و«الوحدة»، و«التوحيد»، لا يفصلها حدود حاسمة في مجال التطبيق العملي الميداني، حيث تتمازج تياراتها، وتصب مفرداتها الفكرية بنسب متفاوتة في مجرى «سبيل المجرمين» الذي يشطح بعيداً عن «سبيل المؤمنين»، ويرغب عن «ملة إبراهيم».

وقد آثرت في عنوان هذا البحث تغليب لفظ «التقريب»، لأنه الأعم من حيث الدلالة، والأقدم من حيث الاستعمال، كما أنه الاتجاه السائد من حيث التطبيق.

(١) من تقدمته لأعمال المؤتمر الدولي الثالث بالمراسلة (من أنا في قولكم أنتم) تنظيم كريسلام (١٣).

(٢) انظر الكلام عن محاولات غاليندو في الفصل الأول من الباب الثاني (٩٣٩).

الحوار بين الأديان:

شاع في العقود الأخيرة استعمال مصطلح «الحوار» DIALOGUE على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية، وطال ذلك دعوة التقريب بين الأديان، فطغى هذا التعبير على ما عداه، وصارت تعرف بـ (حوار الأديان) أو (الحوار بين الأديان) Inter Faith أو Interreligious Dialogue، وصار محبذاً لدى المشتغلين في هذا الحقل، مقدماً على غيره من الاصطلاحات، مما يستدعي إلقاء الضوء على دلالاته:

ف «الحوار» من حيث اللغة، مادته «حور» و(الحور: الرجوع عن الشيء إلى شيء... والمُحاور: المجاورة. والتحاور: التجاوب... والمُحاور: مراجعة المنطق، والكلام في المخاطبة)^(١). وعلى هذا جاء استعماله في القرآن، قال الراغب في «مفردات القرآن»: (والمُحاور، والحوار: المراءاة في الكلام. ومنه التحاور. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْمَعُ تَحَاوُرُهُمْ﴾)^(٢).

فحقيقته اللغوية مطابقة لحقيقته الاصطلاحية التي تعني التباحث بين طرفين أو أكثر، ومراجعة الكلام بينهم بغرض التوصل إلى اتفاق، وإبداء وجهة نظر. يقول د. عبد العزيز التويجري^(٣): (مفهوم الحوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر، من المفاهيم الجديدة، حديثة العهد بالتداول؛ ولعل مما يدل على جدة هذا المفهوم وحدائته أن

(١) لسان العرب: ابن منظور، جمال الدين، أبو الفضل، محمد بن مكرم الأنصاري، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي. دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت. الطبعة الأولى (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م). (٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤).

(٢) مفردات القرآن (١٣٥)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَصَاحِبِهِ هُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ هُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٤، ٣٧].

(٣) المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).

جميع المواثيق والعهود الدولية التي صدرت في الخمسين سنة الأخيرة، بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة، تخلو من الإشارة إلى لفظ «الحوار»... فليس الحوار من ألفاظ القانون الدولي... وعلى هذا الأساس، فإن الحوار مفهوم سياسي إيدلوجي ثقافي حضاري، وليس مفهوماً قانونياً^(١).

ولعل من أسباب شيوع هذا الشعار في دعوة التقريب بين الأديان، كونه لا يفصح - بحد ذاته - عن هدفٍ مبيّت، أو يوحى بتوجهٍ معين، يمكن أن يعد ملزماً أو محرّجاً للمنادين به من الطرفين. فالحوار لافتة تخفي وراءها أشكالاَ متنوعة من المضامين، ووعاءٌ يمكن أن يحوي مواد متباينة. فقد يكون حواراً يقصد به التقريب وفق الأسس الفكرية والمنهجية التي سبق بيانها، وربما كان غطاءً لوحدة الأديان كما في «الحوار الإبراهيمي»، وقد يتذرّع به دعاة توحيد الأديان للتسلل إلى مقاصدهم الخفية كما تصنع المونية، ومجموعة كريسلام.

وفي نفس الوقت، يستعمل مصطلح الحوار خارج نطاق دعوة التقريب بين الأديان، فيما يعرف بقضايا «التعايش»، وحينئذٍ فالأمر لا يتعلق بالدين من حيث هو دين، عقيدة وشريعة، ولكن بالعلاقة المعيشية البحتة بين معتنقي الأديان. وهو بهذا الاعتبار يهدف إلى تحسين مستوى العلاقة بين شعوبٍ أو طوائف، وربما تكون أقلّيات دينية، ويعنى بالقضايا المجتمعية كالإنماء، والاقتصاد، والسلام، وأوضاع المهجّرين واللاجئين، ونحو ذلك. ومن أمثلة هذا اللون من الحوار: (الحوار العربي الأوروبي)، و(حوار الشمال والجنوب).

(١) الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - الطبعة الأولى (١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م). (٧).

وهذا الحوار بحد ذاته - بصرف النظر عما يصاحبه من تأطيرات قد تلتحق بالأنواع السابقة - تفرضه طبيعة الحياة البشرية، وحاجاتها الفطرية المختلفة، ومن ثم فلا غبار على الدخول في مفاوضات أو مداولات من هذا القبيل، حسب ما تقتضيه السياسة الشرعية لمصلحة الأمة الإسلامية. وقد رافق هذا اللون من حوار التعايش نشأة الأمة الإسلامية منذ عهد النبوة، كما جرى في المعاهدات النبوية مع يهود المدينة وغيرهم، وزخر الفقه الإسلامي المؤسس على الكتاب والسنة بتراثٍ ضخم في مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

وعليه فلا بد من التبين والاستفصال لدعوات الحوار المجملّة، ومعرفة أهدافها ومادتها قبل الخوض في غمارها، وألا يجز المسلمون إلى مواقف لم يحسبوا لها حساباً، ولم يرسموا لها خطة. والجانب المقابل يدرك هذا جيداً. يقول الكاتب الروسي المعاصر إليكسي جورافسكي في كتابه: (الإسلام والمسيحية: من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم): (في كتابنا هذا حيث تناقش إشكالية الحوار الإسلامي - المسيحي لا بد قبل كل شيء من تحديد وضبط مفهوم الحوار ذاته. ففي المعنى العريض للكلمة يمكن فهم الحوار الإسلامي المسيحي كتاريخ للعلاقات المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين على مدى أربعة عشر قرناً... ولكن في الوقت الحالي يتشكل مفهوم آخر للحوار - كمحطة تاريخية واعية، كوضع شديد الأهمية والحساسية، يتطلب دراسة مفاهيمية - نظرية متكاملة، ومعالجة مؤسساتية، عملية مثمرة وفاعلة. إن تاريخ الحوار المذكور لا يمتد لأكثر من بضعة عقود من الزمن. وتقويم هذه الظاهرة الجديدة من زاوية واحدة أمرٌ غير ممكن. وبغية تقدير مضمونه الفكري، فإنه لا بد أولاً من تحديد سياسي واجتماعي - ثقافي للبلد أو للإقليم، الذي يجري فيه الحوار. حيث إن الاتجاهات الخاصة بالحوار يمكن أن تكون ذات أهدافٍ متشعبة، ووفق

مستويات مختلفة أيضاً تصعب الإحاطة بكل أطرافها وتفرعاتها وميادينها المعقدة ومتعددة الجوانب، التي تنضوي تحت عنوان «الحوار الإسلامي - المسيحي». ولكن من الضروري في الوقت ذاته إيجاد مرتكزات منهجية سليمة، من شأنها أن تمنحنا زاوية ملائمة، تسمح برؤية الجوانب المتنوعة في وحدة مشكلية واضحة المعالم إلى حدٍ معقول^(١).

ونحن بدورنا إذ نستشرف البحث في موضوع يعد «نازلة» جديدة بالمسلمين - بصورته المعاصرة - ويحتل رقعة جغرافية تسع العالم بأكمله، كما يستشف من مسرد المؤتمرات المعقودة، ومواقعها، ويتناول موضوعاتٍ على درجةٍ فائقة من الخطورة والحساسية والآثار المتعدية، لا بد لنا من منهجية صارمة في استقراء معالم هذه الظاهرة المعاصرة ومراميها المعلنة والخفية، وتتبع أصولها التاريخية ومفهومها المعاصر لدى مختلف الفرقاء.



(١) الإسلام والمسيحية، من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم: أليكسي جوارفسكي. ترجمة: د. خلف محمد الجراد. مراجعة: أ. د. محمود حمدي زقزوق، عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت طبعة (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م). (٢١ - ٢٢).

الفصل الثاني

الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان

مرت دعوة التقريب بين الأديان بمراحل متعددة قبل أن تصل إلى الصيغة السائدة النشطة في النصف الثاني من القرن العشرين. ذلك أن المسافة بعيدة جداً بين الرفض المطلق والقبول النسبي، أو النبذ الكلي والاعتراف الجزئي، وتحتاج إلى سلسلة طويلة من الممهدات الفكرية لإحداث تغييرات جذرية لدى الملل التي لا تحتكم إلى معايير ثابتة، وعقائد راسخة في مبادئها وتقويمها للآخرين، وهذا ما حدث بالفعل من جانب أهل الكتاب، والنصارى خاصة، ومن بعض الشذاذ المتسبين إلى الإسلام على مدار التاريخ.

وقد بدأت محاولات تقريب الإسلام إلى الملل والأديان الأخرى منذ وقت مبكر، في العهد النبوي المكي، من قبل المشركين كما حكى الله عنهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم]، وحين عرضوا على نبينا محمد ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فأنزل الله آيات حاسمة حازمة تقطع طمع كل طامع مراوغ: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (١) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٤) [الكافرون].

(١) روى الطبري، وابن أبي حاتم - رحمهم الله - عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قریشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا: هذا لك عندنا يا محمد، وكُفَّ عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك، ولنا فيها صلاح. قال: ما هي؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة، اللات =

وتكررت المحاولة في العهد النبوي من قبل أهل الكتاب لزعزعة المسلمين عن دينهم وإعادتهم إلى الشرك، أو الدخول في اليهودية أو النصرانية. قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ

= والعزى، ونعبد إلهك سنة. قال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي. فجاء الوحي من اللوح المحفوظ: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]، وأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلِلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤﴾﴾ [الزمر]. جامع البيان (٣٠/٣٣١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقوله في الحديث: «حتى أنظر ما يأتي من ربي» قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين بالتى هي أحسن، ليجعل حجته أن الذي أنزل عليه طاعته قد منع من ذلك. فيؤخر الجواب حتى يستأمره. وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل إليه... فليس في مثل هذا الجواب تردد ولا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك) مجموع الفتاوى (١٦/٥٤٤).

وفي رواية الطبري وابن أبي حاتم أبو خلف، عبد الله بن عيسى، قال الحافظ ابن حجر: «ضعيف» التقريب (١/٤٣٩). وقد روى الطبري عن سعيد بن مينا أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك. فأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون] حتى انقضت السورة. جامع البيان: (٣٠/٣٣١). ونسبها القرطبي إلى ابن عباس (٢٠/٢٢٥)، وانظر: أسباب النزول للواحدي (٥٠٥)، ولباب النقول للسيوطي (٢٣٧) من رواية عبد الرزاق عن وهب قال: قالت كفار قريش للنبي ﷺ: إن شرك أن تتبعنا عاماً، ونرجع إلى دينك عاماً. فأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة.

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُتِنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿البقرة: ١٠٩﴾، وقال: ﴿وَقَالُوا كُتُبُوا هَؤُلَاءِ أَوْ نَصَرَئِ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة]. ومن ذلك ادعاؤهم الإبراهيمية، ومحاجتهم المسلمين في ذلك، فأدحض الله حججهم، وأكذبهم بقوله: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

فإذا تجاوزنا هذه المرحلة من العهد النبوي الذي تم فيها إرساء قواعد الإيمان وتقرير أحكام أهل الكتاب من الناحيتين العقدية والشرعية، والتحذير التام من الانسياق لإغراءاتهم المختلفة: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، نجد أن تاريخ اليهودية والنصرانية والإسلام يضم بعض الشواهد التاريخية المتناثرة، أو بعض الممهّدات الفكرية المتسلسلة لفكرة التقريب.

وهدف هذا الفصل تتبع تلك الشواهد، ورد الفروع الراهنة إلى الأصول الماضية في مسارب الزمن، وثنايا التاريخ.

كما أن التاريخ البشري العام، خارج حدود اليهودية والنصرانية والإسلام، يحتفظ بمحاولات للتقريب بين الأديان، لعل ممن أشهرها محاولة الملك المغولي الإمبراطور أكبر^(١)، في الهند، الذي كان يجمع

(١) الإمبراطور أكبر: (١٥٤٢ - ١٦٠٥م)، سليل تيمورلنك، ابن همايون من زوجته الفارسية حميدة، ثبت إمبراطورية المغل المتداعية حين استلم الحكم ١٥٥٦. يعتبر أعظم الملوك المسلمين، وأباطرة المغل في الهند. ترك=

زعماء الأديان المختلفة من مسلمين ونصارى وهندوس، ويعقد بينهم المناظرات إبان فترة حكمه في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. «وقد شيد لهذا الغرض بناية فخمة في عاصمة مملكته «فاتحبور سكري»، أطلق عليها اسم «خان العبادات»، وسعى لتحقيق المساواة بين الأديان، فألغى الجزية والامتيازات الأخرى، وحاول تأسيس دين جديد ملفق من سائر الأديان سماه «دين إلهي».

وقد أثار نهمة بالمناظرات التنافس بين أتباع الأديان المختلفة، حتى إن نصارى الهند بعثوا سفارات إلى روما وفرنسا وأسبانيا للاستعانة بهم في مناظرة المسلمين أمام الإمبراطور، فأمدوهم باليسوعيين والفرنسيين، طمعاً في تنصير المغول، ولكن المناظرات التي كان يديرها الإمبراطور نفسه أسفرت عن اعتناقه للإسلام، وتسميه بمحمد، وتلقبه بجلال الدين، وتكنيه بأبي الفتح^(١).

ولا بد من تحديد مدلول واضح لما هو «تاريخي» وما هو «معاصر»، وقد اعتمدت عرف المؤرخين باعتبار التاريخ المعاصر هو القرن الراهن، أي المائة سنة الأخيرة^(٢).

= إمبراطورية قوية منظمة، امتدت من كابل غرباً إلى بنغال شرقاً، ومن أسفل الهمالايا شمالاً إلى نهر نرمدة جنوباً، استعاد من الفرس مستعمرات أجداده في أواسط آسيا. المنجد في الأعلام (٥٨).

(١) انظر: المنجد في اللغة والأعلام: لويس معلوف اليسوعي. دار المشرق. بيروت - لبنان. الطبعة الحادية والعشرون ١٩٧٣م. (٥٨). ومجلة الأمة عدد ٥٤ عام ١٩٨٥م (٤٣) وانظر صوراً لخان العبادات وجلسات المناظرات في Recognize the Spiritual Bonds which Unite Us. p:4,87,88.

وانظر تمجيد روجيه جارودي له في الباب الثاني، المحاولات الفردية.

(٢) ليس ثم تقسيم حاسم، متفق عليه، للعصور التاريخية، والتقسيم الغربي التقريبي يدل على ما يلي:

العصور الوسطى التي تلت العصور القديمة: تبتدئ من سقوط الإمبراطورية=

وسوف تتم دراسة الأصول التاريخية من خلال ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: عند اليهود.
- المبحث الثاني: عند النصارى.
- المبحث الثالث: عند المسلمين.

= الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ وتنتهي باكتشاف كولومبوس لأمريكا عام ١٤٩٢م، وأما عصر النهضة فيطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة (القرون ١٤ - ١٦) ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية (١٤٥٣م). وتمثل القرون (١٧، ١٨، ١٩) العصر الحديث. انظر: الموسوعة العربية الميسرة: إشراف: محمد شفيق عطا غربال. دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. الطبعة الأولى عام ١٩٦٥م. (١٢١٦ - ١٢١٧).

المبحث الأول

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند اليهود

لم يُبدِ اليهود ميلاً إلى التقارب مع الديانات الأخرى، سواءً في المجتمعات النصرانية التي سيموا فيها سوء العذاب، أو في المجتمعات الإسلامية التي نعموا فيها بالأمن والاستقرار ورغد العيش، بل وتبوءوا فيها المناصب العليا، فيما عرف في اصطلاح اليهود أنفسهم بـ «العصر الذهبي لليهود»، في أسبانيا المسلمة، «الأندلس»^(١).

ويرجع ذلك إلى عقيدة صارمة راسخة، هي عمدة الديانة اليهودية المتوارثة وهي: «عقيدة شعب الله المختار» الذي حظي بالاصطفاء، وأقيم العهد الرباني معه دون غيره، وما أنشأ ذلك من عقائد تلمودية^(٢) باعثها الحقد والتشفي من الأمم الغالبة، بوصفها «أغياراً» أو «جويم» - أي أممين - لا تستحق مُصافَّة اليهود، فضلاً عن مقاربتهم.

لذا عاش اليهود ردىً من الزمن في عزلة اجتماعية وفكرية وسياسية عن المجتمعات التي يقطنونها كأقليات. وضرب الحاخامات حول أتباع الديانة اليهودية سياجاً من التحذيرات والإرهاب الروحي، وأحياناً البدني لمن تسول له نفسه خرق التعاليم الدينية. ولم يطور اليهود من موقعهم الديني - خلافاً للنصارى - أي مشروع للتقارب مع الآخرين، رغم شدة الضغوط والاضطهاد التي يلقيها غالباً، قال

(١) انظر: التاريخ اليهودي. الديانة اليهودية، وطأة ثلاث آلاف سنة. إسرائيل شاحك (٩١).

(٢) انظر: حقيقة التقريب عند اليهود في هذا الباب.

تعالى: ﴿صُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَصُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمَ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، بل وحين واتتهم الفرصة، أسفروا عن خبايا نفوسهم، وصرخوا بأفضلية دينهم على سائر الأديان، كما جرى ذلك حين هجم المغول على الممالك الإسلامية، وقضوا على الخلافة العباسية، وقتكوا بالمسلمين في بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٨٥م، في حين آمنوا اليهود والنصارى^(١)، وفتح الوزير الرافضي الخبيث، ابن العلقمي^(٢)، والخواجه نصير الدين - بل نصير الشرك - الطوسي^(٣) الباب على مصراعيه للزنادقة والفلاسفة، وبنى لهم «دار الحكمة»^(٤). ففي تلك الأحوال المضطربة التي ينشق فيها بوم الكفر والزندقة، ويغيب فيها سيف السلطان، وكلمة الحق، أَلْف اليهودي سعيد بن منصور بن كمونة^(٥) كتابه «تنقيح الأبحاث في البحث

(١) انظر: البداية والنهاية: (٢٠٢/١٣).

(٢) محمد بن أحمد بن علي (٥٩٣ - ٦٥٦هـ) أبو طالب، مؤيد الدين! الأسدي، البغدادي، المعروف بابن العلقمي، وزير المستعصم العباسي، وصاحب الجريمة النكراء في ممالأة هولاء على غزو بغداد، كان رافضياً، وقد أهين على أيدي التتار بعد دخولهم بغداد، ومات غماً في قلة وذلة، ودفن في مشهد موسى بن جعفر «الكاظمية» ببغداد.
انظر: الأعلام (٣٢١/٥).

(٣) محمد بن محمد بن الحسن (٥٩٧ - ٦٧٢هـ) أبو جعفر، فيلسوف، كان رأساً في العلوم العقلية، علت منزلته عند هولاء فكان يطيعه فيما يشير عليه. ابنتى بمراغة قبة ومرصداً عظيماً، وقرر منجمين لرصد الكواكب، وجعل لهم أوقافاً تقوم بمعاشهم، وكان هولاء يمدونه بالأموال. صنف كتباً عديدة في الفلسفة وعلم الهيئة والرياضيات. وهلك ببغداد. انظر: الأعلام (٣٠/٧).

(٤) المرجع السابق (٢١٥/١٣).

(٥) سعيد بن منصور بن سعد، هبة الله، ابن كمونة: الإسرائيلي، عز الدولة، =

عن الملل الثلاث». (لقد وضع ابن كمونة بحثه في الوقت الذي كان فيه الإسلام - تماماً كالمسيحية واليهودية - ديانة تتقبلها السلطة المغولية - البوذية. هذه المساواة في نظر السلطة بين الأديان الثلاثة هي ما أتاح لابن كمونة القيام بهذه المقارنة التاريخية...).

إنه حوار الديانات الثلاث كما كان يقدر لمثل هذا الحوار أن يقوم في بغداد في القرن الثالث عشر^(١).

والحقيقة أنه كان حواراً من طرف واحد، بل إنه يفتقر إلى المساواة خلافاً لما يزعمه الكتاب الغربيون المغرمون بالنقد التاريخي للأديان. وقد أجحف ابن كمونة الإسلام حقه، وطعن في صدق القرآن، مما حمل العامة على محاولة قتله^(٢).

وحين أبدى الربّي إبراهيم بن موسى بن ميمون، الذي ورث عن والده الشهير لقب «رأس الجالوت»، في مصر الأيوبية سنة ١٢٣٧م، نوعاً من الميل والتقارب مع الشريعة الإسلامية، قوبل بمقابلة عنيفة من أبناء الجالية اليهودية، ورمي بالابتداع لأنه دعا إلى (تقليد المحيط المسلم، مثلاً في الصلاة... يقترح إزالة المساند من الكنيس، وتوزيع سجاجيد الصلاة على الأرض، كما هو الحال في المساجد. واقترح أيضاً الركوع كما هو الحال في صلاة المسلمين... ويمتدح

= أديب، منطقي كيميائي فيلسوف اليهود. من أهل بغداد، توفي بالحلة سنة (٦٨٣هـ). من مؤلفاته: «شرح تلويحات السهروردي في الحكمة»، «اللمعة الجوينية»، «شرح الإشارات لابن سينا»، «الحكمة الجديدة في المنطق»، «شرح التلويحات في المنطق والحكمة»، انظر: الأعلام (١٠٢/٣)، كشف الظنون (٩٥، ٤٨٢، ٤٩٥، ٦٨٥)، معجم المؤلفين (٢١٤/٢).

(١) الحقيقة بنت زمانها، مقارنة الأديان عند ابن كمونة. فريدريش نيفونر. مجلة الاجتهاد (١٦٦/٢٨ - ١٦٧).

(٢) المرجع السابق (١٧٢ - ١٧٨).

الصمت المحترم في المساجد الذي كان على نقيض الضوضاء غير المبجلة والصخب الذي تميزت به المعابد اليهودية في ذلك الزمن...^(١).

وقد آل به الأمر أن اشتكاه اليهود إلى الملك العادل، بدعوى أنه يحاول إرغامهم على تبني بدعة محرمة في دينهم... لذلك أجبر إبراهيم أن يعتذر للحاكم المسلم، وأن يعلن توبته، وأنه لن يسيء استخدام سلطته باعتباره «رأس الجالوت» للطائفة اليهودية، وذلك عن طريق إدخال بدعٍ عليها^(٢).

إن اليهود، لبوا عث عنصرية بحتة، لم يخضعوا ديانتهم لتجربة التقارب بين الأديان، وحرصوا أشد الحرص على التميز عن الأميين، ولكنهم استعاضوا على تعريض دياناتهم للمساومة بإنشاء الجمعيات الهدامة التي تدعو إلى «العالمية» وتطلق الشعارات الإنسانية الفضفاضة، كالحرية والإخاء والمساواة ليتم تذويب، وصهر جميع الأديان، والثقافات العالمية في صهر يجه الضخم، وتبقى «اليهودية» نقية، متماسكة أمام تيار «العالمية»، فيتسنى لها بعد القضاء على الخصوم، تحقيق السيادة على العالم.

الماسونية:

ومن أقدم تلك الجمعيات وأشهرها، وأكثرها نفوذاً: «الماسونية». وهي منظمة سرية يهودية، عالمية، يرجع بعض الكتاب تاريخ إنشائها إلى حقبة بعيدة في التاريخ، ترفع شعارات إنسانية، وتخفي ملامح

(١) الفكر الإسلامي والفكر اليهودي: بعض جوانب التأثير الثقافي المتبادل، هافا لازاروس - يافه. مجلة الاجتهاد (٢٨/٢٠٤ - ٢٠٩).

(٢) المرجع السابق.

يهودية في طقوسها ورموزها واصطلاحاتها، وتهدف في آخر المطاف إلى سيطرة اليهود على العالم^(١).

وليس من هدف البحث الاستطراد في حقيقة هذه الجمعية الغامضة وما أحيطت به من مبالغات وتهويلات - ربما كان وراءها الماسون أنفسهم - بل الذي يعنينا هو موقفها من قضية التقريب بين الأديان، بوصفها جناحاً قوياً من أجنحة اليهودية، في موازاة الصهيونية. فالماسونية لاستغلال غير اليهود في مصالح اليهود، والصهيونية للحفاظ على هوية اليهود خاصة.

يقول رئيس محفل الشرف الأعظم الماسوني، محمد رشاد فياض، في كتابه النور الأعظم: (الميمات الثلاث في الموسوية والمسيحية والمحمدية)^(٢) يجتمعون - هكذا - في ميم واحدة هو ميم الماسونية، لأن الماسونية عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات. إنها تجمع وتوحد المتفرقات والمتشتتات، وإن باءي البوذية والبرهمية يجتمعان في باء البناء، بناء هيكل المجتمع الإنساني الصالح المنزه من العمالة العنصرية والعملاء. إن ما أورثه الآباء الصالحون للأبناء هو مبادئ الحرية والمساواة والإخاء، ونحن نزيد عليها المحبة والعدالة

(١) انظر عن الماسونية: السر المصون في شيعة الفرّمسون، لويس شيخو، أسرار الماسونية: الجنرال رفعت أتلخان، الماسونية: داود سنقرط، بروتوكولات حكماء صهيون: ترجمة وتقديم: د. إحسان حقي. دار النفائس. بيروت - لبنان. الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)، الماسونية: محمود ثابت الشاذلي، الماسونية ذلك العالم المجهول. صابر طعيمة، الماسونية في العراق. د. محمد الزغبى.

(٢) المحمدية: تعبير يراد به المسلمون. وقد نقل الشيخ بكر أبو زيد عن محمد علي مؤلف: الفكر الخوالد قوله: (أما التسمية بمحمدي ومحمدية فلم تكن في يوم من الأيام سائدة ولا مستساغة لدى أتباع هذا الدين، وعقب قائلاً: (إذاً: فالتوقي من هذا الإطلاق مناسب). معجم المناهي اللفظية (٤٩٧).

والعطاء... الماسونية على حقيقتها ليست عمالة لأية ديانة أو عنصرية معينة. إنها عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات، وبالمبادئ الإنسانية مزينة. عقيدة الأحرار، هي عقيدة لجميع أبناء البشرية دون تمييز أو تفریق. وإنها لن تمنح الفضل والأولوية لفريق دون فريق^(١).

وهذه عبارات مشبعة بالرموز الباطنية التي تذكر بمقالات البهائية والصوفية من جهة، ومسكونة بروح التهمة من جهة أخرى، لا سيما وهي تصدر عن ماسوني عربي يحاول تحسين وجه الماسونية اليهودية الكالح، وإلا فإن عدااء الماسونية للأديان جميعاً أمرٌ لا يخفى قد طفحت به تصريحاتهم، كما جاء في البرتوكول الرابع عشر لحكماء صهيون: (عندما نغدو سادة لن نترك ديناً قائماً غير ديننا القائل بالإله الواحد الذي يرتبط به مصيرنا. لأننا نحن شعب الله المختار، وبنا ارتبط مصير العالم، ولذا يجب أن نقضي على كل الأديان، فإذا نشأ عن ذلك وجود ملحدین عصریین فإنهم سيكونون عناصر انتقالية، وهذا لا يضر مخططنا لأنهم سيكونون مثلاً للأجيال التي ستعتنق تعاليم دين موسى، الذي بفضل قوته وعقلانيته يجب أن ينتهي بنا إلى التسلط على العالم كله)^(٢).



(١) النور الأعظم (١١٢ - ١١٥). عن الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين (١٨١).

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون (٨٦). ترجمة: د. إحسان حقي. وانظر الماسونية تحت المجهر (٥٦ - ٥٧).

المبحث الثاني

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند النصارى

لقد كان ظهور الإسلام وانتشاره السريع في القرن السابع الميلادي صدمة عنيفة للكنائس النصرانية المختلفة التي تهيمن على شعوب منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وما جاورها، فقد تهاوت معاقل النصرانية العريقة ومهد المسيح ﷺ وأنبياء بني إسرائيل، أمام الفاتحين الجدد من أصحاب العمائم، رعاء الشاء والإبل، الضاربين في تيه الجزيرة العربية لقرون بعيدة، وفي تيه الشرك والوثنية والتخلف لقرونٍ أبعد. وفي مدةٍ تقل عن مائة عام تمكن المسلمون من إخضاع جميع السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر الأبيض المتوسط وفي مدةٍ تزيد على المائة قليلاً بلغوا أعماق أوروبا النصرانية في جنوب فرنسا. (وهكذا كان الإسلام يتوسع على نحوٍ مندفعٍ مخلفاً، في الحقيقة، صدماتٍ هائلة تستعصي على التصور)^(١). كما عبر أحد الكتاب الغربيين.

والصدمة الكبرى التي تفوق إخضاع الأرض وضمها لدار الإسلام، كانت تتمثل في خضوع القلوب لدعوة الحق، ودخول الناس في دين الله أفواجاً. كما وعد الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف]، فـ (في مرحلة لاحقة، ومع الرسوخ السياسي واللاهوتي للدين الإسلامي،

(١) انظر: الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام. دانييل ساهاس. مجلة الاجتهاد (١١١/٢٨).

وتنامي النزعات والاتجاهات الانتقادية للمسيحية، تحولت الكتلة الأساسية لمسيحيي الشرق الأدنى إلى الإسلام^(١)، كما يعترف كاتب آخر.

وربما ظنت الدولة البيزنطية لأول وهلة أنها أمام زوبعة عارضة نشأت بسبب انفجار سكاني، وضيق معيشي حاق بأعراب الجزيرة، سرعان ما تخبو جذوته ويخمد لهيبه، لافتقار القوم لأسس التنظيم والتخطيط الذي يحفظ مكاسبهم.

وربما ظنت الكنيسة الأرثوذكسية، وغيرها من الكنائس المحلية الأخرى أنها أمام همج رعاع لا يرتقون في تفكيرهم إلى آفاق الثقافة الهلنستية^(٢)، فلا تملك تقاليدهم البدوية الصمود أمام الفلسفة النصرانية العريقة.

ولكن هذه الظنون من المؤسسات الرسمية والكنسية تهاوت، كما تهاوت جحافلهم أمام إيمان الفاتحين المسلمين، ومثانة ووضوح عقائدهم.

ولم تشأ كبرياء الكنيسة النصرانية المصطنعة أن تدعن للحق، كما لم تشأ الإمبراطورية البيزنطية أن تدعن للأمر الواقع، ومن ثم فقد اتسمت العلاقات بين المسلمين والنصارى بالعداء المستمر طوال التاريخ، كما أن العلاقة بين الإسلام والنصرانية المحرفة اتخذت نفس الطابع، ولم يكن هناك مجالاً لما عُرف أخيراً باسم «التقريب» أو

(١) الإسلام والمسيحية. أليكسي جورافسكي. (١٧٨).

(٢) الهلنستية أو الهيلينية: Hellenism الثقافة الناشئة من امتزاج الفلسفة اليونانية بثقافات حوض البحر المتوسط. وهي الثقافة السائدة إذ ذاك، انظر: الموسوعة الفلسفية: د. عبد المنعم الحفني. دار ابن زيدون - بيروت، مكتبة مدبولي - القاهرة. الطبعة الأولى. (٥٠٢).

«الحوار» من الجانبين، بالصفة التي تمخضت عنها النصرانية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

ويصف المستشرق الروسي إليكسي جورافسكي هذه العلاقة التاريخية في جانبها السياسي والعقدي بالعبارات التالية: (إن المجابهة العسكرية - السياسية بين هاتين الديانتين - أو قل بين هاتين الحضارتين - منذ بدء ظهورهما المتجاور، ووصولاً إلى القرن العشرين كانت هي الطابع المسيطر على علاقاتهما الأخرى، - بما في ذلك العلاقات الدينية - الأيديولوجية. وبودنا التأكيد في هذا السياق أن ترسيخ الإسلام وتوطيد أركانه العقائدية في سوريا، ومصر وشمال أفريقيا سحبا من المسيحية النصف الغني بثرواته من المجال الجغرافي الحضاري لشاطئ البحر المتوسط.

إن فتح المسلمين إسبانيا وصقلية، والحملات الصليبية إلى فلسطين، واستيلاء الصليبيين على القدس، وثأر صلاح الدين الأيوبي وانتصاره عليهم، وطرد العرب - المسلمين من أسبانيا، وسقوط القسطنطينية، وهجوم الأتراك العثمانيين على مناطق البلقان، وتمرد الشعوب الإغريقية والسلافية، كل هذه المصادمات والمجابهات العنيفة ألبست رداء الدين، والحرب من أجل تعزيز راية الإيمان ضد «الكفرة»^(١). ولهذا فإن مقولات مثل: «الحروب المقدسة» أو «الجهاد» ترسخت في وعي ومدارك، وفي لاوعي أتباع الديانتين كأوامر إلهية لا راد لها، بل أصبحت فريضة على المؤمنين من كلتا العقيدتين أن يلتزموا

(١) وهذا هو الواقع ظاهراً وباطناً لدى المسلمين في فتوحاتهم، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وغيرهما، أما بواعث النصاري فالرجل أدري بقومته.

بأدائها، والاستشهاد في سبيلها، وصولاً إلى إلغاء الطرف «الكافر»، أو «إخضاعه» وإلزامه بشروطٍ مذلة في كثيرٍ من الحالات والمواقف^(١).

أساليب النصارى في مواجهة الإسلام:

لقد احتاجت النصرانية إلى ثلاثة عشر قرناً من الزمان، بدءاً من القرن السابع إلى القرن العشرين حتى تبلغ مرحلة «الحوار». وبين التنافر والتقارب برزت في الفكر النصراني ممارسات متنوعة في مواجهة الإسلام في جانبه العقدي، يمكن تحديدها بما يلي:

أولاً: أسلوب التشويه والتضليل:

وقد ولد هذا الأسلوب في وقتٍ مبكر، لمواجهة موجات الفتح الإسلامي والاعتناق الجماعي لدين الإسلام. ومن أشهر من أرسى قواعده قسيسٌ دمشقي عرف باسم «يوحنا الدمشقي»^(٢) المتوفى سنة ٧٥٠م، وقد عاش هو وأبوه منصور بن سرجون في أكناف أمراء بني أمية. وقد ألف عدة مؤلفاتٍ ضمنها القدح في الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن. فالإسلام عنده ليس دين إبراهيم ﷺ، بل هو مؤذن بالمسيح الدجال. والرسول ﷺ واحد من أتباع بدعة آريوس، لا يعرف من العهدين القديم والجديد إلا ما ضحلت قيمته، والقرآن نتاج لأحلام اليقظة، كما ينتقد إجراءات الزواج والطلاق في الشريعة^(٣).

(١) الإسلام والمسيحية (٣٦ - ٣٧).

(٢) ولد في دمشق عام ٦٧٥ تقريباً. من آباء ومعلمي الكنيسة، ويوصف بـ«القديس». قاوم ما يسميه النصارى بدعة تحطيم الصور «الأيقونات»، وألف في اللاهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر. انظر: المنجد في الأعلام (٧٥٣).

(٣) انظر مقالة: (الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام) دانييل ساهاس مجلة الاجتهاد: (١٠٩/٢٨ - ١٣٦).

إن هذا القسيس المضلل، الذي يصفه النصارى بـ «القدیس»، يبوء بإثم إشاعة هذه الافتراءات التي صدت كثيراً من النصارى في الشرق والغرب عن الوقوف على حقيقة الإسلام^(١). يقول إليكسي جورافسكي: (إذا كنا نتفق على واقعة أن التصورات الأوربية عن الإسلام تشكلت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد، فإننا يجب أن نشير إلى حقيقة أن هذه التصورات تكونت في كثير من جوانبها وخطوطها الكبرى على خلفية التفسير المسيحي الشرقي للعقيدة الإسلامية. وتعد المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي، المتوفى سنة ٧٥٠م من أكبر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام.

والواقع أن التصورات المتكونة عن الإسلام كبذعة مسيحية، مرتدة، ومنشقة، وعن محمد كنبي مزيف، انتقلت من مسيحيي سوريا إلى البيزنطيين، ومنهم إلى الأوربيين^(٢).

وإذا كان يوحنا الدمشقي، وهو عربي النسب واللسان، يلجأ إلى كتابة مفترياته وتشويهاته المتعمدة عن الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه العزيز، باللغة اليونانية، وهو يعيش بين ظهراي المسلمين، وفي خدمة البلاط الأموي خشية رد الفعل العلمي والاجتماعي والسلطوي، فللقارئ أن يتخيل ما يمارسه القسس الحاقدون الذين يعيشون خلف الحدود في أرجاء أوروبا البيزنطية، ثم الرومانية، حيث لا يعلمون عن الإسلام وعقيدته وشريعته وتطبيقه سوى ما يتلقفون من إنتاج نظرائهم الذين يتميزون غيظاً وحسداً في المشرق الإسلامي، ثم يضيفون إليه ما تبلغه

(١) يقول دانييل ساهاس: (يبدو أن يوحنا الدمشقي هو أول كاتب بيزنطي استخدم هذا التشويه الإتيولوجي - أي الاشتقاقي - لأغراض الجدل العنيف، وتحفيز الذاكرة) الاجتهاد (١٢٦/٢٨) وذلك حين نبز المسلمين بلقب «السرازين Saracens»، أي الذين أبعدتهم سارة باحتقار.

(٢) الإسلام والمسيحية (٧٠ - ٧٣).

أوهامهم المريضة، وخيالاتهم الفاسدة من أساطير وحكايات مسفة. وهذا ما حدث بالفعل في أوروبا، طوال القرون الوسطى. فقد رُوجت العديد من الخرافات والتهم السخيفة عن الإسلام، وعن شخص نبينا محمد ﷺ نَعَف عن ذكرها إكراماً له وتوقيراً، مما حدا بباحث غريب معاصر أن ينتقدها بإنصاف قائلاً: (وللحقيقة، يجب القول أن تلك الأساطير المختلقة تمثل سخرية مأساوية، لأن النبي «محمد» الذي حارب أكثر من أي مخلوق آخر عبادة الأوثان، والذي حطم جميع أصنام الكعبة، يتحول في تصور المسيحيين إلى «صنم يؤلهه أتباعه» الذين يطلقون عليهم ازدراءً واحتقاراً لقب «عبيد سارة» أو «أبناء الجارية»^(١). وقد ظل هذا الأسلوب هو الأسلوب السائد والأسهل في الأوساط الشعبية للتنفير من الإسلام والصد عن سبيله، حتى اعتنقت أوروبا المذاهب العقلية، وانعتقت من سلطان الكنيسة الكهنوتية، فانحسر نوعاً ما، وإن كنا لا نزال نطلع على خائنة منهم، تحملها وسائل الإعلام المختلفة، تنبئ عن حقدٍ دفين^(٢).

ثانياً: أسلوب المجادلة العقلية وإثارة الشبهات:

ورائد هذا المسلك هو الراهب الفرنسي (بطرس المبجل) - كما يصفه النصارى - عاش في الفترة ١٠٩٤م - ١١٥٦م، وشغل منصب رئيس كهنة دير كلوني، وقد عاصر قيام الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦م والثانية ١١٤٥م، وأدرك فشل المسلك العدواني العسكري في تحقيق الأهداف النصرانية. (وقد انطلق من مُسلّمة حتمية الصراع ولكن ليس

(١) الإسلام والمسيحية (٧٧)، وانظر أيضاً ما جاء في (٦٧، ٧٤ - ٧٦).

(٢) دأبت وسائل الإعلام الغربي النصراني - ومن خلفها اليهود - على تشويه صورة الإسلام والمسلمين بتصويرهم بصورة الأحمق الجاهل المتخلف، وأخيراً الإرهابي، وبث ما يسيء إلى المسلمين ويحتقرهم من الدعايات التجارية التي تسخر بعقائد الإسلام وشرائعه.

بالسيف، وإنما بالكلمة والإقناع والحجة. وفي نظرتهم للمسلمين كهراطقة، واعتقد بطرس المبجل بإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة، وذلك إذا تمكن اللاهوتيون والمبشرون المسيحيون من أن يظهروا لهم بشكل مقنع، أين تكمن انحرافاتهم وضلالاتهم^(١).

ومن المعروف أن دير كلوني الذي ينتمي إليه بطرس المبجل - عندهم - كان له دورٌ بارز في تاريخ النصرانية، فيما عرف بـ «الإصلاح الكلوني» وعلى وجه الخصوص في تأجيج الروح الصليبية في حرب الاستعادة الأسبانية Reconquista، ولكن الفترة التي تولى فيها هذا الراهب رئاسة الدير، كانت أوروبا مشغولة عنه بتمويل الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ضد منطقة شرق المتوسط، مما أدى إلى إعطاء الحروب الأسبانية ضد المسلمين مكانة ثانوية. ولعل هذا ما حدا به إلى سلوك أسلوب المجادلة العقلية.

يقول أستاذ لاهوت الأديان «لودفيغ هاغمان»: (يعتبر رئيس كهنة دير كلوني بطرس المعروف بالمبجل «١٠٩٤ - ١١٥٦» أول من مهد الطريق للمجادلة العقلية مع الإسلام، وقد اكتسب بذلك شهرة عريضة. فأثناء زيارته التفتيشية والرعوية للأديرة الخاضعة لرهبنته في أسبانيا عام ١١٤٢، خطرت له فكرة القيام بمجادلة عقلية. فالمعلومات الناقصة وغير الواضحة التي كونها معاصروه لأنفسهم جعلته يصل إلى القناعة بضرورة سد هذا العجز عبر برنامج مُلح وصفه كما يلي:

- ١ - ردم حدة العجز الحاصل في المعلومات.
- ٢ - استنكار العمليات العسكرية.
- ٣ - إعطاء الأفضلية لتبرير الإيمان والمعتقد المسيحيين.

(١) الإسلام والمسيحية (٨١).

٤ - أخيراً الإقدام على وضع ترجمة لاتينية للقرآن الكريم^(١).

وقد استعان بطرس هذا بجملة من المستعربين في ترجمة بعض الأحاديث النبوية، وكتابة بعض المقالات والمحاورات المزعومة، كما وجه بنفسه خطاباً مفتوحاً إلى (العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل الذي يدعى محمداً)^(٢).

كما صنف كتاباً أسماه «دحض العقيدة الإسلامية» ضمّ لاحقاً إلى ترجمات أتباعه، وعرفت المجموعة باسم «المجموعة الطليطلية» أو «فيلق كلوني» (وهي المجموعة التي صارت بالنسبة للأوربيين المصدر الرئيسي للمعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي على مدى خمسمائة عام تقريباً)^(٣).

وعلى الرغم من أن هذا اللون من المقاربة يراد به النقض والهجوم، إلا إنه يمثل تحولاً في الاتجاه العام لدى نصارى القرون الوسطى من مرحلة المهارات والتلفيقات ونسج الأساطير والخرافات بغرض التنفير، إلى مرحلة متقدمة تعتمد التعرف على الخصم عن كثب، لمجادلته وإثارة الشبهات في وجهه. وقد نسج على منوال بطرس المبجل، فيما بعد، المستشرقون في القرون اللاحقة، كما لاحظ ذلك المستشرق جورافسكي، فقال: (يلاحظ أي باحث موضوعي، أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء أكان عداؤهما صريحاً مباشراً وعنيفاً، أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية)^(٤).

(١) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٢٥/٣٠ - ٢٦).

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٢ - ٨٣).

(٣) الإسلام والمسيحية (٨٤).

(٤) الإسلام والمسيحية (١٠٥).

ثالثاً: أسلوب التبشير «الدعوة إلى التنصر»:

ويمثل هذا الاتجاه الراهب الإيطالي فرنسيس الأسيزي «١١٨٢ - ١٢٢٦م». ويعده النصارى من أكبر قديسيهم، وإليه تنسب طائفة الرهبان الفرنسيين. وعمدتهم النص المنسوب إلى المسيح ﷺ: (أذهبوا في العالم أجمع، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين) (إنجيل مرقس ١٦: ١٥)^(١). وقد قام فرنسيس الأسيزي بنفسه بهذه المهمة، فقد صحب الحملة الصليبية السادسة الموجهة نحو مصر عام ١٢١٩م والتقى الملك الكامل الأيوبي ودعاه إلى النصرانية^(٢).

ومن أشهر الرهبانيات التي انتهجت هذا الأسلوب، وكانت معاصرة من حيث النشأة للفرنسيسكان، طائفة الرهبان الدومينيكان التي أسسها الراهب الإسباني دومنيك «١١٧٠ - ١٢٢١م» وإليها ينسب «توما الإكويني»^(٣) المتوفى سنة ١٢٧٤م، أكبر لاهوتي دومينيكاني.

ويقوم الفرنسيين والدومينيكان بذرع العالم، وبعث الإرساليات التنصيرية إلى شتى أنحاء المعمورة منذ تأسيسهما في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي حتى يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أن الدومينيكان قد أسسوا معهداً في القاهرة باسم «معهد الدراسات الدومينيكانية»، انبثقت عنه أولى جمعيات التقارب الديني في البلاد الإسلامية، وهي جمعية «الإخاء الديني» عام

(١) العهد الجديد (١٧٨).

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٧ - ٨٩).

(٣) توما الإكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) ولد في إيطاليا، وعلم في جامعة باريس. معلم الكنيسة وحجتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية «سكولاستيك». اطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية وانتقدها. من مؤلفاته العديدة: الخلاصة اللاهوتية، والخلاصة ضد الأمم. انظر المنجد في الأعلام (١٩٦).

١٩٤١م، كما عقدوا ندوة حوارية حملت اسم الأيام الدومينيكانية^(١).

رابعاً: أسلوب التقارب والحوار:

لعل أقدم تراث نصرائي يشير إلى نزعة التقارب والحوار الديني المفضي إلى تصويب جميع صور العبادات والأديان هو ما جرى به قلم الراهب «رامون لول»^(٢) الذي عاش حقبة الحروب الصليبية في المشرق، والصراع الإسلامي - النصراني في الأندلس. وكانت مدينة «ميورقة» الأندلسية، مسقط رأسه، تضم مسلمين ونصارى ويهود. وقد ألف كتاباً باللغة العربية عنوانه: «الملحد - أو الظريف - والحكماء الثلاثة» (يبين فيه كيف أن «الحكماء الثلاثة»؛ اليهودي والمسيحي والمسلم، أنقذوا «الظريف» «الكافر» من يأسه، إذ حملوا إليه الرسالة نفسها: ليس الإنسان وحيداً. وللعالم معنى)^(٣). ويحكي هذا الراهب، المتأثر بفلسفة ابن عربي - كيف اكتشف هؤلاء الثلاثة وحدة إيمانهم العميقة، وخطيئة انقسامهم.

وقد كان لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م بأيدي الفاتحين العثمانيين آثاراً بعيدة المدى على جميع المستويات، فقد اهتزت أوروبا من أدناها إلى أقصاها لسقوط مدينة قسطنطين الكبير، وحطم ذلك البقية الباقية من كبريائها. وكان من آثار ذلك أن (برزت أطروحات ومواقف

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي - ضرورة المغامرة: د. سعود المولى. دار المنهل اللبناني. بيروت - لبنان. الطبعة الأولى (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م). (١٤٠). وسيأتي التعريف بالجمعية ومناشطها في الباب الثاني (٩٤٢).

(٢) راهب فرنسيسكاني، ولد في ميورقة عام ١٢٣٢م، زاول التنصير في أفريقية، وعارض فلسفة ابن رشد. وشجع تعليم اللغات الشرقية. له مؤلفات بالعربية. توفي عام ١٣١٥هـ. انظر: المنجد في الأعلام (٦١٧).

(٣) انظر: الإسلام (١٣٦ - ١٣٨)، الإسلام في الغرب (٢٣٩ - ٢٤٠) لروجيه جارودي.

جديدة كل الجدة في هذا السياق، مثلها نيكولاي كوزاني (١٤٠١ - ١٤٦٤م) ويوحنا سيغوفي، (حوالي ١٤٠٠ - ١٤٥٨م) حيث انطلق الاثنان من رؤية، مؤداها أن الحرب لا تحل الخلاف بين الديانتين. وكلاهما اعتقد أن المحاولات الرامية إلى تحويل المسلمين إلى المسيحية بلا معنى ولا طائل منها، ولم تؤد إلى نتائج إيجابية. ولهذا طالبا بضرورة الكشف عن الفوارق والاختلافات الواقعية، والبحث الجاد عن الأمور المشتركة بينهما. وتماشياً مع هذا المنحى درس نيكولاي كوزاني ويوحنا سيغوفي فكرة وضع أساس راسخ للحوار بين ممثلي هاتين العقيدتين^(١). وقد ألف نيكولاي كوزاني كتابه «سلام الإيمان» في نفس العام الذي سقطت فيه القسطنطينية عام ١٤٥٣م. ثم ألف عام ١٤٦٢م (شرحاً نقدياً للقرآن الكريم «في غرلة القرآن» هادفاً إلى أن يباشر حواراً ينطلق مما هو مشترك بين المسيحيين والمسلمين)^(٢) وكذلك صنع صديقه سيغوفي. وهذه المحاولات في تاريخ دعوة التقريب لدى النصارى دفع إليها هول الصدمة الناتجة عن سقوط القسطنطينية. وقد تلاها سابقة ملفتة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، حيث وجه البابا بيوس الثاني ١٤٥٨ - ١٤٦٤م كتاباً إلى السلطان العثماني محمد الفاتح يتضمن بحثاً في مسائل عقدية^(٣)، ودعوة إلى النصرانية، ولكنه كما وصف لودفيغ هاغمان: (تشتم منه رائحة اليأس)^(٤).

وحين ظهرت حركة الإصلاح الديني «البروتستانتية» على يد مارتن لوثر^(٥) (١٤٨٣ - ١٥٤٦م)، بدت وكأنها تتجه نحو الموضوعية في فهم

(١) الإسلام والمسيحية. (٩١).

(٢) الإسلام. روجيه جارودي. (١٣٨ - ١٣٩).

(٣) الإسلام والمسيحية. (٩٢).

(٤) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي، مجلة الاجتهاد (٢٨/٣٠).

(٥) راهب أوغسطيني. لاهوتي ومفكر وكاتب. بدأ في ألمانيا الإصلاح الديني =

الإسلام، مما أطلق عليه مارتن لوثر «خرافات الأوربيين وجهالاتهم»
حيال الإسلام، ولكنه سرعان ما قلب ظهر المجن، وصب جام غضبه
وسبابه المقذع على الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحاصرون فيينا عام
١٥٢٩م^(١).

و(في عام ١٧٠٥ أصدر هادريان ريلاند «١٦٧٦ - ١٧١٨م» كتابه
«الديانة المحمدية» الذي يعتبر أول عرض موضوعي للإسلام من وجهة
نظر مسيحية... قامت الكنيسة الكاثوليكية بإلقاء الحرم عليه ومنعه.
وفي هذا العصر قدم غولتهولد أفرايم لسنغ (١٧٢٩ - ١٧٨١م) عمله
الأدبي «ناتان الحكيم»، الذي وضعه بصيغة رمزية جواباً عن السؤال
التالي: أي من الديانات الثلاث، اليهودية، والمسيحية والإسلام تعتبر
الدين الحق؟^(٢) ليصل إلى أن كلاً من الديانات الثلاث تعكس
وحي الله.

ولكن هذه النبرات التي تحاول أن تتسم بالموضوعية في مطلع
القرن الثامن عشر، ظلت خافتة ضعيفة وسط ضجيج التعصب والعماية
لأصوات أكثر شهرة وقبولاً من أمثال الكاتب الفرنسي الشهير «فولتير»^(٣)

= «البروتستانتية»، وانفصل عن الكنيسة في شأن الغفرانات، وسلطة البابا،
والتبتل، وإكرام القديسين، والمطهر والقداش. وفي ١٥١٧م نقل التوراة إلى
الألمانية، فكانت الترجمة حدثاً دينياً أدبياً، انظر: المنجد في الأعلام (٦١٥).

(١) انظر: المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/٢٩)، والإسلام والمسيحية (٩٧).

(٢) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/٣١).

(٣) فولتير (فرنسوا ماري أراوي) ولد في باريس. مؤلف فرنسي من نوابغ زمانه. أقام
في بروسيا وسويسرا. تزعم حركة الفلسفة المادية، وقاوم رجال السلطة الدينية
والمدينة، ونقدهم بقلمه الرشيق اللاذع، كتب في الشعر والتاريخ والمسرح
والمراسلة والفلسفة. من مؤلفاته: المحاورات الفلسفية «كنديد»، «زئير»،
«محمد»، «شارل ١٢». انظر: المنجد في الأعلام (٥٣٣).

(١٦٩٤ - ١٧٧٨م)، الذي ألف مسرحية بعنوان «التعصب، أو النبي محمد»، ونبز فيها شخص نبينا محمد ﷺ بأبشع الصفات، في عصر يوصف في التاريخ الأوربي بعصر الأنوار. (وبشكل عام يمكن التأكيد، أنه بدءاً من القرن الخامس عشر وإلى نهاية القرن التاسع عشر، نمت المعارف الواقعية عن الإسلام بصورة بطيئة لأقصى الحدود، وضمن وسط محدود جداً من الدوائر العلمية الأوربية)^(١).

ويرى جورافسكي أن (الإرهاصات الأولية، الممهدة فلسفياً ولاهوتياً للحوار الإسلامي - المسيحي، الذي نوقش رسمياً للمرة الأولى في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني) تمت على يد شخصيتين بارزتين:

أحدهما: الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيفوف «١٨٥٣ - ١٩٠٠»، الذي تدرج في فهمه للإسلام وسر ظهوره التاريخي، وشخصية نبیه محمد ﷺ وكانت ذروة أبحاثه في هذا المضمار في كتابه «محمد: سيرته وتعاليمه الدينية»، الذي ألفه قبل وفاته بأربع سنوات ١٨٩٦م، وفيه يرتقي إلى إثبات نبوة محمد ﷺ حيث يقول: (في مكة ولد هذا الإنسان «النبي محمد»، الذي نفذت من خلاله وعود الرب، التي قطعها حول إسماعيل جد العرب، وجد نبیهم هذا... - ويقول: - لقد كان محمد يملك بالتأكيد عبقرية دينية خاصة... وكل تصرفاته كانت مرهونة - دون شك - بأسانيد دينية واضحة. إن دعوة محمد وأحاديثه عن الله وصفاته وقدراته وعن الوحي الإلهي، وعن الأوامر والنواهي، وعن مصير الأشرار والأخيار، رغم أنها لم تكن كاملة، ولكن هذه المبادئ لم تكن كاذبة مطلقاً)^(٢).

(١) الإسلام والمسيحية (١٠٣).

(٢) عن الإسلام والمسيحية: (١١٦ - ١١٧).

ولا ريب أن هذا الفيلسوف يرصد الإسلام من وجهة نظر النصرانية حين يفتقد في الإسلام بعض عناصر اللاهوت النصراني، فيصفه بعدم الكمال. ودين الإسلام الذي أكمل الله به الدين وأتم به النعمة في غنى عن شهادته وأمثاله، ولكن المقام مقام تبين التدرج التاريخي في مقارنة النصارى لدين الإسلام وفهمه.

ولا ريب أن هذه الكلمات إذا قورنت بقائمة السباب المقذع الذي كان يصدر من كبار مفكري أوروبا ولاهوتيينها خلال القرون الوسطى والحديثة، تبدو تحولاً مهماً وتقدماً في طريق الحقيقة، وإن كان بقي على القوم مراحل. ولأجل هذا الطرح الجريء لفلاديمير سولوفيف في نهاية القرن التاسع عشر، عده جورافسكي (أباً مؤسساً لحوار بين الديانات الكتابية - التوحيدية الثلاثة)^(١) على حد تعبيره.

ولعل هذا الفيلسوف اللاهوتي الأرثوذكسي، قد مهد الطريق للشخصية الثانية، الكاثوليكية، التي هيأت للتقارب والحوار في النصف الأول من القرن العشرين وهو: المستشرق الفرنسي: لويس ماسينيون^(٢) ١٨٨٣ - ١٩٦٢م، الذي اشتغل بالدراسات العربية في دمشق والقاهرة، واستهواه التصوف، فكانت أطروحته في الدكتوراه في جامعة السربون بعنوان: (مأساة الحسين بن منصور الحلاج)^(٣)، شهيد الإسلام الزاهد)،

(١) الإسلام والمسيحية: (١١١).

(٢) لويس ماسينيون: مستشرق فرنسي، عضو في المجامع العلمية في بلدان عديدة شرقية وغربية، اهتم بنشر مؤلفات الحلاج. ترك آثاراً جمة في مختلف الشؤون الإسلامية، ولا سيما الصوفية منها. انظر: المنجد في الأعلام (٦٢٨).

(٣) أبو مغيث، فيلسوف من كبار الملحدين، كان يعتقد بالحلول ووحدانية الوجود. قبض عليه المقتدر العباسي، وقتل شر قتلة سنة (٣٠٩هـ). له كتب في تقرير كفره وزندقته تربو على الأربعين، اعتنى المستشرقون بسيرته وتعاليمه. انظر: الأعلام (٢/٢٦٠).

وكتب عن ابن سبعين^(١) الصوفي الأندلسي. واتجه إلى فكرة توحيد الديانات الكتابية الثلاث. (وفي رأي الدارسين، فإن مؤلفاته، وإسهاماته العلمية، ومنطلقاته الروحية، ونشاطاته السياسية مهدت الطريق للتحول الكاثوليكي الجذري بشأن الموقف من الإسلام)^(٢).

يقول الأب موريس بورمانس^(٣): (. . . بفعل «مسيحيين نبويين» مثل: ميجيل أسين إي بلاسيوس، ولويس ماسينيون وغيرهما، تجددت نظرة الكنيسة إلى الإسلام، وصارت ترى فيه، علمياً ولاهوتياً، دين توحيد يرتبط بالدعوة الإبراهيمية. . . فكان لا بد أن يؤدي ذلك إلى إعلان المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢ - ١٩٦٥م عن علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية، الذي أصبح للكاثوليك «شرعة الحوار الإسلامي المسيحي»^(٤).

(١) ابن سبعين (٦١٣ - ٦٦٩هـ) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسى الرقوتي، قطب الدين، أبو محمد، من الفلاسفة القائلين بوحدة الوجود. من كتبه: الحروف الوضعية في الصور الفلكية، أسرار الحكمة المشرقية، النصيحة. قال ابن دقيق العيد رحمته الله: جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر، وهو يسرد كلاماً تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته. وقال الذهبي: اشتهر عن ابن سبعين أنه قال: لقد تحجر ابن آمنه واسعاً بقوله: «لا نبي بعدي»، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية. الأعلام (٣/ ٢٨٠).

(٢) الإسلام والمسيحية. (١٢٠ - ١٢١).

(٣) ولد في «ليل» - فرنسا - عام ١٩٢٥م. رَسَم كاهناً في رهبانية الآباء البيض عام ١٩٤٩م. دكتوراه في الآداب من السربون عام ١٩٧١م، أستاذ اللغة والقانون الإسلامي والروحانية عند المسلمين في المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية بروما (١٩٦٤ - ١٩٨٤م)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الكهنوت بروما «أوربانينا»، مدير المجلة الدولية الإسلامية المسيحية Islamo Christiana، من مؤلفاته: «توجيهات في سبيل الحوار ط١٩٨١م»، الحوار الإسلامي المسيحي في العشر سنوات الأخيرة ط١٩٧٨م.

(٤) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: الأب: موريس=

لقد سلك ماسينيون في سبيل التقريب بين الإسلام والنصرانية مسلكين:

أحدهما: مسلك علمي يتجلى بجملة من الآراء والأفكار التي كونها عن الإسلام متأثراً باهتماماته الشخصية بالتصوف، وعلى الخصوص بالحلاج^(١). (إن تصور ماسينيون للدين الإسلامي يستند بالدرجة الأولى، ومن حيث الجوهر إلى النقطتين المركزيتين التاليتين:

- ١ - انتماء الإسلام للملة الإبراهيمية أو للشجرة الإبراهيمية.
- ٢ - النهج الذي سلكه الحلاج في تفسيره وممارسته للإشكالية اللاهوتية للإسلام^(٢).

وهذه الثانية تكشف سر حماس ماسينيون للتقارب مع الإسلام. ذلك أن الفرق الهائل بين الإسلام والنصرانية يتركز في مفهوم «التوحيد»، حيث ينعى الإسلام على النصرانية عقيدة الحلول والتجسد في شخص المسيح، ويكفر القائلين بها لمنافاتها للتوحيد الخالص لله رب العالمين. وحيث إن الخلاف في هذه القضية خلاف أساسي مبدئي، فقد وجد ماسينيون في شخصية الحسين بن منصور الحلاج، الصوفي الزنديق، منفذاً يتسلل به إلى المسلمين، بتمجيد زائع ينتسب إلى الإسلام ويقول بعقيدة الحلول، أي حلول الإله في شخصه، حتى حمله ذلك على أقوال وأفعال كفرية. قال ابن الجوزي^(٣) رَحِمَهُ اللهُ: (اتفق

= بورمانس. أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين. ترجمة: المطران يوحنا منصور. المكتبة البولسية. بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ١٩٨٦م. (٢٧ - ٢٨).

(١) سيأتي الكلام عنه قريباً.

(٢) الإسلام والمسيحية (١٢٧).

(٣) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، علامة عصره في التاريخ والحديث. ولد سنة (٥٠٨هـ)، كان كثير التصانيف له نحو ثلاثمائة مصنف، منها: «زاد المسير في علم التفسير»، «المنتظم في تاريخ=

علماء العصر على إباحة دم الحلاج^(١). فكأن ماسينيون يريد أن يجتذب المسلمين لعقيدة تأليه عيسى ﷺ بضرب المثل بشخص الحلاج الذي صلب كما صلب المسيح بزعمه - فصار شهيد الإسلام. ويقرر إدوارد سعيد في كتابه الحافل «الاستشراق» هذا المعنى الخفي فيقول: (كان الإسلام في عرف لويس ماسينيون الذي قد يكون أعظم المستشرقين الفرنسيين شهرة وتأثيراً، رفضاً منتظماً للتجسد المسيحي، وكان بطل الإسلام الأعظم، لا محمد، ولا ابن رشد، بل الحلاج، القديس المسلم الذي صلبه المسلمون السنيون لجراته على شخصنة الإسلام)^(٢). ويقول أيضاً: (كان النموذج المثالي لماسينيون هو الحلاج، الذي سعى لتحرير نفسه خارج الجماعة السنية بالبحث عن، وأخيراً بنوال، الصلب عينه الذي يرفضه الإسلام رفضاً قاطعاً؛ وكان محمد، كما يرى ماسينيون، قد رفض عمداً الفرصة التي أتاحت له لعبور الهوة التي كانت تفصله عن الله^(٣). ولذلك فإن إنجاز الحلاج تمثل في أنه حقق وحدة اسرارية بالله، وضد الطبيعة النظرية للإسلام)^(٤).

= الملوك والأمم»، «تلبس إبليس»، و«مناقب الإمام أحمد»، «الموضوعات»، وغيرها، توفي سنة ٥٩٧هـ.

مرآة الزمان (٨/٤٨١)، الكامل (١٠/٢٢٨)، الأعلام (٣/١٦)، وفيات الأعيان (١/٢٧٩)، البداية والنهاية (١٣/٢٨)، مفتاح السعادة (١/٢٠٧).

(١) تلبس إبليس. (١٧٢).

(٢) الاستشراق: المعرفة. السلطة. الإنشاء: إدوارد سعيد. ترجمة: كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت - لبنان. الطبعة العربية الرابعة ١٩٩٥م. (١٢٧).

(٣) قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ (سورة الإخلاص).

(٤) الاستشراق (٢٧١).

وبالتالي، فقد كان ماسينيون يهدف في دعوته الصريحة إلى التقارب بين الديانتين، ليس إلى الوصول إلى جوامع مشتركة فحسب، بل أساساً إلى استزلال المسلمين إلى القول بعقيدة الحلول وتأنيسها، وتصوير خصومها مترمّتين منغلّقين ضد «فردٍ متنور» من المسلمين أنفسهم، وليس من خارجهم، وهو الحلاج، دون أن يمس جوهر النصرانية الشركي القائم على ألوهية المسيح، وبنوته بأدنى تغيير. ويستدل بواقعة الحلاج الذي أظهر هذه الفكرة واستشهد وصلب في سبيلها بعد مرور ثلاثمائة سنة تقريباً على ظهور الإسلام على أن: (الإسلام مفتوح لفعل الخير، ويحمل في جوهره إمكان - «التحول من الداخل»، أو «التجدد والانبعاث الذاتيين». والمفهوم هذا يضعه ماسينيون معارضاً «نقيضاً» لمفهوم «التحول إلى دين آخر» وذلك عبّر الأولياء المسلمين الذي يأتي الحلاج على رأسهم ويشغل مكانة الصدارة بينهم^(١).

وإلى جانب هذه القضية الأساسية التي اتخذها ماسينيون ركيزة أساسية في مشروعه وتفنن في عرضها، يحشد شواهد دينية مشتركة ومواقف تاريخية سلمية لدعم فكرته في التقارب، ويعتقد (أن متابعة بحث تلك المحطات المشتركة - بين الديانتين - من شأنها تهيئة الأرضية الطيبة لحوار لاهوتي ثمر بين المسيحية والإسلام)^(٢).

المسلك الثاني الذي سلكه لويس ماسينيون، وتميز به عن كثير ممن سبقوه أو عاصروه مسلك عملي، لا يكتفي بتحبير الصفحات، وطرح الأفكار من بُعد، بل صاحبه تغلغل في أعماق المجتمع الإسلامي، واهتمام بقضاياها السياسية الساخنة ومناصرتها وتكوين جمعيات الصداقة المختلفة مع المسلمين:

● فقد تعلم اللغات الأساسية التي يتحدث بها المسلمون، وهي

(١) الإسلام والمسيحية. (١٢٥).

(٢) الإسلام والمسيحية. (١٢٧).

العربية والتركية والفارسية، وأتقن العربية حتى صار عضواً في مجعبيها في دمشق والقاهرة. وحاضر بالعربية.

• توجه للدراسة في الأزهر، وعين أستاذاً في جامعة القاهرة في الفترة ١٩١٢ - ١٩١٣م.

• صار مديراً لمجلة العالم الإسلامي عام ١٩١٩م.

• أسس الجمعية الفرنسية الإسلامية عام ١٩٤٧، وجمعية فرنسا - المغرب عام ١٩٥٣م، وأدان الاستعمار الفرنسي لبلاد المغرب: تونس والجزائر وسجن بسبب ذلك، ووقف مع الفلسطينيين^(١).

هذا من جانب المسلمين، أما نشاطه العملي في سبيل تحقيق فكرته مع أبناء ملته فيتمثل في دعوتهم إلى الاعتراف بـ «المصادقية النسبية» للقرآن، والاعتراف الجزئي «المشروط» بنبوة محمد، وأنه يجب على الكنيسة أن تعترف بالإسلام ومكانته الاعتبارية المستقلة كديانة توحيدية^(٢). (وضمن هذا الفهم تقدم ماسينيون، بمبادرات كثيرة لتغيير موقف الكنيسة الكاثوليكية - الرومانية «الفاتيكان» تجاه الإسلام. ولهذا يرى بعض دارسي مؤلفات ماسينيون والمهتمين بتحليل مواقفه العملية، وأنشطته الاجتماعية والسياسية أن مراسلاته واتصالاته الواسعة مع الهيئات الكاثوليكية العليا، بما في ذلك صداقته الشخصية مع جيوفاني باتيستا مونتيني - الذي أصبح البابا بولس السادس - مهدت التربة - إلى حد معين - للمناقشات التي دارت في المجمع الفاتيكاني الثاني «١٩٦٣ - ١٩٦٥» حول العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية والمسلمين)^(٣).

لقد كانت محاولات ماسينيون ذروة المحاولات التاريخية التي تمخضت عنها النصرانية طوال ثلاثة عشر قرناً في مقاربة الإسلام.

(١) انظر الأعلام (٢٤٧/٥).

(٢) انظر الإسلام والمسيحية: (١٢٥، ١٢٨).

(٣) الإسلام والمسيحية: (١٢٨).

المبحث الثالث

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند المسلمين

ثمَّ فارقَ كبير في تناول هذه القضية بالبحث بين المسلمين وغيرهم. ذلك أن بنية الإسلام المتماسكة عقيدة وشرعة، التي تكفل الله بحفظها بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر] تحول دون قبول بدعة في الدين، سيما ما يتصل بالأصول الاعتقادية الكبرى؛ من كون دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وأنه ناسخ لجميع الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿إِنَّ أَلَدِينَكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وذلك يقطع طمع كل صاحب هوى وبدعة أن ينسب إلى الإسلام ما ليس منه.

أما النصارى فقد اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، وأكثروا التنقل وفق أهوائهم دون ضابط رادع، أو معيار ثابت. فما عقدوا عليه الخناصر، وعضوا عليه بالنواجذ في مجمع، سرعان ما ينقضونه ويتبرءون منه في آخر، وما كان صاحبه ملعوناً محروماً في حقبة من التاريخ، تتغير الأحوال والقيم فيصبح بريئاً مظلوماً. والأمثلة على ذلك كثيرة، فاليهود الذين كانوا ألد أعداء المسيح وأتباعه لقرون متطاولة، أصبحوا في نظر الكنيسة ضحايا الظلم والتعسف، برآء من دم المسيح الذي صلبوه بزعمهم^(١). والعلماء التجريبيون في علوم الطبيعة والفلك وغيرهما الذين خالفوا علم الهيئة الكنسي واستحقوا الحجب والحرق أحياء، باتوا محل

(١) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ - ٦٣١).

التقدير لإسهاماتهم في حقل المعارف الإنسانية^(١). بل «الماسون»، الذين توالى بابوات روما منذ عام ١٧٣٨م على التنديد بهم وجميعياتهم السرية، وتحريم الانتماء إليها، توقف ذلك عام ١٩٦٥م حين أصدر البابا بولس السادس أمراً بإلغاء تجريم الماسونية^(٢).

أما اليهود فإن سر انكماشهم وانكفائهم على أنفسهم مرده لأسباب عنصرية، وشعور بالكبر والتفوق على سائر البشرية، وليس إلى معيارية دينية يلتزمون بها ويتحرجون من هتكها، فإن القوم أجراً الناس على حدود الله وتعيدها بأدنى الحيل.

أما المسلمون المعتصمون بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فعندهم من العلم والإيمان ما يعصمهم من اتخاذ دينهم غرضاً للأهواء، ومركباً للمطامع الشخصية أو الجماعية. فلم يقع، ولن يقع - بحفظ الله - في تاريخ السواد الأعظم، أهل السنة والجماعة، أدنى ملاسة تشير إلى مقارنة أهل الكتاب في دينهم ومعتقدهم، والبحث عن صيغة مشتركة، وعقيدة ملفقة يماثلون بها أهل الكتاب. وحاشاهم.

ولكن وقع في غضون التاريخ من بعض المنتسبين إلى الإسلام، الناشئين في أكناف المسلمين، ممن استهوتهم الشياطين، بعض الزنادقة والملحدين قديماً، والمنهزمين المشبوهين حديثاً، من صار إلى شعبة من هذه الدعوة الخبيثة. ومن ثم فالحديث عن الأصول التاريخية عند المسلمين حديث عن شواهد التصقت بجسم الأمة الإسلامية، وليست منها، كما يلتصق الدنس بالبدن. أما الحديث عن ذلك عند الآخرين فحديث عن تحولات حقيقية، وتغيرات جذرية تجري في صلب عقائدهم، وتنطق بها مجامعهم ومراجعهم المعتمدة. وشتان بين الحاليين.

(١) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني (٢٤٦ - ٢٤٩).

(٢) انظر: الماسونية تحت المجهر. د. إبراهيم فؤاد عباس. (٥٨).

ويمكن أن نحدد الأصول التاريخية لظهور دعوة التقريب عند المسلمين بالمحطات التالية:

- غلاة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود.
- الفرق الباطنية.
- طلائع العصريين.

أولاً: غلاة الصوفية، القائلون بوحدة الوجود:

وهم الذين استزلهم الشيطان فأوحى إليهم أن لا موجود في الكون إلا الله، وأن سائر الأعيان والأشياء والأفعال ما هي إلا مظاهر وجوده، وتجليات أفعاله. ومن ثم فكل ما في الكون هو ذات الحق سبحانه، وكل حركة وسكون، وخير وشر، وطاعة ومعصية، وإيمان وكفر، تنغمر في بحر وحدة الوجود حتى تعود شيئاً واحداً، وتسقط الحواجز والحدود والرسوم بين الذات والغير. وهذا غاية التوحيد عندهم، في عبارات مبهرجة عليها من زخرف القول، وبريق المعنى ما يستهوي كل قلب مفتون^(١).

قال شيخ الإسلام: (وهؤلاء المتفلسفة ومتصوفوهم كابن سبعين وأتباعه، يجوزون أن يكون الرجل يهودياً أو نصرانياً أو مشركاً يعبد الأوثان. فليس الإسلام عنده واجباً، ولا التهود والتنصر والشرك محرماً، ولكن قد يرجحون شريعة الإسلام على غيرها. وإذا جاء المرید إلى شيخ من شيوخهم، وقال: أريد أن أسلك على يديك. يقول له: على دين المسلمين أو اليهود أو النصارى؟ فإذا قال له المرید: اليهود والنصارى! أما هم كفار؟ يقول: لا، ولكن المسلمون خير منهم. وهذا

(١) انظر ما جمعه محمود عبد الرؤوف القاسم في: «الكشف عن حقيقة الصوفية» (١٠٥ - ٢٦٢).

من جنس جهال التتر أول ما أسلموا. فإن الإسلام عندهم خير من غيره. وإن كان غيره جائزاً، لا يوالون عليه ويعادون عليه^(١).

وقد أجمع الدارسون على أن من نتائج القول بوحدة الوجود القول بوحدة الأديان.

يقول برهان الدين البقاعي^(٢) رَحِمَهُ اللهُ: (وعلى هذا الأصل المخبث الخبيث - وهو الاتحاد بين جميع الكائنات، وأنه لا غير، ولا غيرية في شيء من الوجود - فرع صحة كل دين، لأن الفاعل عنده، إنما هو الله^(٣)). وذلك في رده على ابن الفارض^(٤). ويقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل: (آمنت الصوفية بأن الله سبحانه هو عين خلقه،

(١) كتاب الرد على المنطقيين: ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام. إدارة ترجمان السنة. لاهور - باكستان. الطبعة الرابعة. (١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م). (٢٨٢).

(٢) برهان الدين البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي البقاعي، أبو الحسن، برهان الدين، ولد سنة (٨٠٩ هـ)، مفسر، محدث، مؤرخ. تتلمذ على أساطين عصره كابن حجر العسقلاني، وابن ناصر الدين. توفي بدمشق سنة ٨٨٥ هـ، وصنف تصانيف عديدة منها: «المناسبات القرآنية» و«عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، و«تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» وغيرها. انظر: الأعلام (٥٦/١).

(٣) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي: برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. طبعة (١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م) (٢٤٠ - ٢٤١).

(٤) ابن الفارض: عمر بن مرشد، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين، ابن الفارض. ولد سنة ٥٧٦ هـ. تصوف حتى صار من كبارهم، ونظم الشعر حتى صار أشعر المتصوفين، في شعره كفر صراح من القول بوحدة الوجود، وقد جمع شعره سبطه علي في ديوان باسمه وشرحه كثيرون، مات سنة (٦٣٢ هـ)، كفره نحو أربعين عالماً. انظر: الأعلام (٥٥/٥) وتحذير العباد من أهل العناد للبقاعي.

هذه الأسطورة - أسطورة وحدة الوجود - استلزمت عند الصوفية الإيمان بوحدة الأديان سواء منها ما نسجته عناكب الأوهام، وافترته أساطير الخيال، وفارت به الشهوات، أو ما أوحاه الله إلى رسله، ولهذا آمن الصوفية سلفهم وخلفهم، بأن الإيمان والتوحيد عين الكفر والشرك، وبأن الإسلام على هداه وقدس، عين الدين المجوسي في ضلاله ورجسه^(١).

بل قد أدرك هذا المعنى كبار المستشرقين من أمثال: ر. أ. نيكلسون^(٢)، حيث يقول: (ومن لوازم مذهبهم في وحدة الوجود أيضاً قولهم بصحة جميع العقائد الدينية أياً كانت)^(٣). وجولدتسيهر^(٤) يؤكد

(١) هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل. دار الكتب العلمية - بيروت لبنان. الطبعة الرابعة ١٩٨٤م. (٩٣)، وانظر في هذا المعنى الرسالتين العلميتين: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها على الأمة الإسلامية. إدريس محمود إدريس (٢٧٧)، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة محمد أحمد لوح (٥٦٠)، وابن عربي دراسة وتحليل. سميح عاطف الزين (١٠٠ - ١٠٤)، وأصول التصوف. د. عبد الله حسن زروق (٧٩)، ونظرات في معتقدات ابن عربي. د. كمال محمد عيسى (٥٥).

(٢) ر. أ. نيكلسون: رينولد ألين نيكلسون Reynold Allen Nicholson مستشرق إنجليزي، ولد سنة (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م). أولع من صباه بالمشريات وتعلم في جامعتي أبردين وكمبردج، وتخرج منها سنة ١٨٩٣م وتعلم العربية والفارسية، وتخصص في التصوف الإسلامي، وأصدر: «مختارات من ديواني شمسي تبريزي» و«تذكرة الأولياء» للعطار، وألف في التصوف: «الصوفية في الإسلام» و«دراسات في التصوف الإسلامي» وغيرها. وتوفي سنة (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م)، انظر: الأعلام (٣/٣٩). ومقدمة الصوفية في الإسلام.

(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه (٨٨).

(٤) إجناس جولدتسيهر Ignas Goldziher، مستشرق مجري يهودي، ولد سنة (١٢٢٦هـ = ١٨٥٠م)، رحل إلى البلاد العربية، وصنف في الإسلام والأدب =

أنه (مهما تظاهر الصوفيون بتقديرهم للإسلام، فلغالبيتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود الفاصلة بين العقائد والأديان. وعندهم أن هذه العقائد كلها لها نفس القيمة النسبية إزاء الغاية المثلى التي ينبغي الوصول إليها)^(١).

ونسوق أدناه أمثلة صريحة لهذه الزندقة التي تفوه بها بعض كبار المتصوفة:

• قال ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني^(٢)
وقال أيضاً:

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه^(٣)
ويقول معللاً مذهبه الكفري هذا: (فإياك أن تتقيد بعقد
مخصوص، وتكفر بما سواه، فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر

= العربي باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وترجم إلى العربية كتابه «العقيدة والشرعية في الإسلام» وفيه شبهات ومطاعن. وأخرج جزءاً كبيراً من كتاب «فضائح الباطنية» للغزالي. توفي في بودابست سنة (١٣٤٠هـ) = ١٩٢١م. انظر: الأعلام (١/٨٤).

(١) العقيدة والشرعية. (١٧٠).

(٢) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق «ديوان ابن عربي» د. محمد الشقيري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة. الطبعة الأولى (١٩٩٥م). (٢٤٥).

(٣) فصوص الحكم. لابن عربي (٣٤٥).

على ما هو عليه. فكان في نفسك هيولى^(١) لصور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد... فالكل مصيب، وكل مصيب مأجور، وكل مأجور سعيد، وكل سعيد مرضي عنه^(٢).

• ويقول عصره ونظيره في الزندقة ابن الفارض:

تنزهت في آثار صناعي منزهاً
فبي مجلس الأذكار سَمْعُ مطالع
وما عقد الزنارَ حكماً سوى يدي
وإن نار بالتنزيل محراب مسجد
وأسفار توراة الكلیم لقومه
وإن خر للأحجار في البُدد^(٣) عاكف
فقد عبد الدينار معنى منزّه
وما زاغت الأبصار من كل ملة
وما احتار من للشمس عن غرة صبا
وإن عبد النارَ المجوس وما انطفت
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم
رأوا ضوء ناري مرة فتوهمو

عن الشرك بالأغيار جمعي وألفتي
ولي حانة الخمار عين طليعة
وإن حل بالإقرار بي فهي حَلَّتْ
فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
يناجي بها الأخبار في كل ليلة
فلا وجه للإنكار بالعصبية
عن العار بالإشراك بالوثنية
وما راغت الأفكار في كل نحلة
وإشراقها من نور إسفار غُرَّتِي
كما جاء في الأخبار في ألف حجة
سواي وإن لم يظهروا عقد نيتي
ه نارا، فضلوا في الهدى بالأشعة^(٤)

(١) «الهيولى» (لفظ يوناني بمعنى: الأصل والمادة. وفي الاصطلاح: هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، محل للصورتين: الجسمية والنوعية). التعريفات: الجرجاني علي بن محمد بن علي، تحقيق: إبراهيم الأبياري. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م). (٣٢١).

(٢) فصوص الحكم. (١٩١).

(٣) البُدد: بيت الأصنام.

(٤) ديوان ابن الفارض د. عبد الخالق محمود. عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية. القاهرة ط ١٩٩٥م (٣٠٨ - ٣٠٨).

وقد نقل البقاعي رحمته الله عن بعض شراح هذه الأبيات - ولم يسم - قولهم: (إنه مهد في هذه الأبيات أعذار كل فرقة، وإن كل صاحب ملة ونحلة - وإن بطل سعيه - على نصيب من الهدى. فعباد النار غير مؤاخذين من جميع الوجوه، بل من وجه دون وجه، ولا لوم على أحد، بل لكل واحد وجه، ومحمل خير يحمل عليه، فكل يعمل على شاكلته، وكذا عابد الأصنام، قالوا: لا تنكر عليه، فإن أنكرت لم يكن إنكارك إلا تعصباً؛ لأنك لا تنكر على المقبل على الدنيا، مع أنه أقوى شركاً من عابد الصنم! وقالوا: كما أن القرآن نور المساجد، فكذلك الإنجيل نور المعابد. وقالوا نحو هذا في التوراة، وفي عابد الشمس: إنه بإثبات عين الألوهية لم يكن ناقصاً، فقام له عذر من وجه من الوجوه. وذلك كاف للكريم^(١)، ثم عقب قائلاً: (ولا يقول بشيء من هذا مسلم)^(٢).

• وقال عبد الكريم الجيلبي^(٣):

وأسلمت نفسي حيث أسلمني الهوى ومالي عن حكم الحبيب تنازع
فطوراً تراني في المساجد راکعاً وإنّي طوراً في الكنائس راتع
إذا كنتُ في حكم الشريعة عاصياً فإنّي في علم الحقيقة طائع^(٤)

• وقال جلال الدين الرومي^(٥): (من قصيدة مترجمة عن الفارسية).

(١) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي. (٢٤٢).

(٢) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي. (٢٤٢).

(٣) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلبي، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، ولد سنة (٧٦٧هـ) من كبار المتصوفة، له كتب كثيرة منها: «الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل»، وأكثرها لا يزال مخطوطاً، توفي سنة (٨٣٢هـ). انظر: الأعلام (٥٠/٤).

(٤) فصوص الحكم (٢١٢).

(٥) جلال الدين الرومي: شاعر صوفي فارسي. ولد سنة (٦٠٤هـ = ١٢٠٧م) =

انظر إلى العمامة أحكمتها فوق رأسي .
 بل انظر إلى زنار زرادشت حول خصري .
 أحمل الزنار وأحمل المخلاة . . .
 مسلمٌ أنا ، ولكنني نصراني وبرهمي وزرادشتي . . .
 ليس لي سوى معبد واحد، مسجداً كان أو كنيسة أو بيت
 أصنام^(١) .

وينقل عنه ر. ا. نيكلسون شعراً:
 إن يكن في الدنيا محب - أيها المسلمون - فأنا ذلك المحب .
 إن يكن في الدنيا مؤمنٌ، أو كافر، أو راهب نصراني، فأنا
 هو . . .

أنا الثنتان وسبعون فرقة ومذهباً في الدنيا، وأقسم بربي أنها
 ليست شيئاً غريباً^(٢) ومن هنا استنتج هذا المستشرق أن (هذه المذاهب
 - منطقياً^(٣) - تلغي كل قانون ديني أو أخلاقي . وليس عند خيال العارف
 مشوبات أو عقوبات ربانية، ولا مقاييس للحسن أو القبيح . . . ومن هنا
 كانت جميع أشكال الأديان متساوية، وليس الإسلام بأفضل من الوثنية .
 وليس شيئاً عقيدة يعتقدها الإنسان، أو شعيرة يؤديها^(٤) .

= في بلخ إيران يلقب بجلبي أفندي، أسس الطريقة المولوية. ارتحل إلى مكة
 والشام، ثم استقر في قونية وتوفي بها سنة (٦٧٢هـ = ١٢٧٣م). من آثاره:
 «المثنوي» منظومة صوفية شهيرة، و«الروض الكبير» و«الصغير». انظر: المنجد
 في الأعلام (٢١٥) الطبعة السابعة، ومعجم المؤلفين (١٥٣/٣).

- (١) في التصوف الإسلامي وتاريخه، (٩٤).
- (٢) الصوفية في الإسلام: د. ر. ا. نيكلسون. ترجمة وتعليق: نور الدين شرييه،
 مكتبة الخانجي. القاهرة - مصر. طبعة (١٣٧١هـ = ١٩٥١م) ص ١٥١.
- (٣) أي كنتيجة منطقية للقول بوحدة الوجود.
- (٤) الصوفية في الإسلام. (٨٥).

ثانياً: الفرق الباطنية:

يطلق هذا الاسم «الباطنية» على جملة من الفرق والحركات والاتجاهات الكفرية، ويجمعها جميعاً مبدأ التحلل من النصوص الشرعية في العقائد والأعمال، بدعوى أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً. وجعلوا التأويل رسالة الأئمة. وراموا بذلك التحلل من نصوص الشرع كلها، وإدخال أديانهم الباطلة على الإسلام باسم الإسلام، وكل يتدين بدينه باسم الإسلام. قال أبو حامد الغزالي^(١) (إن الباطنية إنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة)^(٢). وقد نشأت معظم هذه الفرق وتفرعت عن شجرة «الرفض» الخبيثة، حيث لا ضابط من نقل صحيح، أو عقل صريح، أو دين رادع. وإنما هي أهواء تتجارى بأصحابها كما يتجارى الكلب بصاحبه. ولكن القوم أدرعوا بغلالة رقيقة من الإسلام زوراً ونفاقاً ليدفعوا عن أنفسهم غوائل سوء، وإلا فهم كما وصفهم الغزالي، وفضحهم بقوله: (ظاهر مذهبهما الرفض، وباطنه الكفر المحض)^(٣).

قال عبد القاهر البغدادي^(٤): (الذي يصح عندي من دين الباطنية

(١) محمد بن محمد الغزالي، الملقب بحجة الإسلام، زين الدين، الطوسي، ولد عام (٤٥٠هـ)، كان من كبار الشافعية وعظماء الفلاسفة والصوفية، من مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، «الوجيز»، «الوسيط»، «البسيط»، وغيرها. توفي عام (٥٠٥هـ). انظر: الأعلام (٢٢/٧)، وفيات الأعيان (١/٤٦٣)، طبقات الشافعية (١٠١/٤)، شذرات الذهب (١٠/٤)، مفتاح السعادة (٢/١٩١)، آداب اللغة (٩٧/٣).

(٢) فضائح الباطنية (١١).

(٣) المرجع السابق.

(٤) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أبو منصور، عالم متفنن من أئمة الأصول، =

أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدوم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع^(١).

إخوان الصفا:

ومن أقدم مآثوراتهم الخبيثة جملة من الرسائل تبلغ اثنتين وخمسين رسالة، عرفت باسم: «رسائل إخوان الصفا، وخلان الوفا» اعتنى بإخراجها وقدم لها بطرس البستاني^(٢)، وقال في مقدمتها: (تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري^(٣)) «القرن العاشر للميلاد»، وكان موطنها البصرة، ولها فرعٌ في بغداد، ولم يعرف من

= ولد ونشأ في بغداد ورحل إلى خراسان ثم فارقها إلى أسفرائين، من تصانيفه «الفرق بين الفرق» و«أصول الدين» و«الناسخ والمنسوخ» وغيرها. توفي سنة (٤٢٩هـ). انظر: الأعلام (٤٨/٤)، وفيات الأعيان (٢٩٨/١)، طبقات السبكي (٢٣٨/٣)، فوات الوفيات (٢٩٨/١)، مفتاح السعادة (١٨٥/٢).

(١) الفرق بين الفرق: عبد القادر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. بيروت - لبنان. (٢٩٤).

(٢) بطرس البستاني (١٣١٦ - ١٣٨٩هـ = ١٨٩٨ - ١٩٦٩م): بطرس بن سليمان بن حسن أفرام البستاني. أديب لبناني، حسن الأسلوب من مواليد دير القمر. تعلم المبادئ وأحسن الفرنسية. عمل في الصحافة، وألف كتباً منها: أدباء العرب، معارك العرب، آداب المراسلة. وأشرف على طبع كتب منها: لسان العرب. انظر: الأعلام (٥٩/٢).

(٣) تميز القرن الرابع الهجري باستيلاء الرافضة على معظم الممالك الإسلامية، فقد استولى البويهيون على مقر الخلافة العباسية في العراق، منذ عام ٣٣٤، وتملكوا بلاد فارس وسائر المشرق. وظهر القرامطة قبلهم في الأحساء والبحرين وعمان واليمن وأجزاء من الشام منذ ٢٧٨هـ حتى ٤٦٦هـ، وانطلق العبيديون من المغرب عام ٢٩٦، واحتلوا مصر عام ٣٥٨هـ، ثم بلاد الشام حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨هـ. وهكذا عم الرفض الأرض في القرن الرابع. وفي ظلهم ترعرعت هذه الجماعات الخبيثة. راجع مبحث نبذة تاريخية في التمهيد.

أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك، ولا يسفر اليقين عن حقيقة أمرهم بما يطمئن إليه خاطر، وينشرح له الصدر لما كانوا عليه من التستر والاكتتام^(١).

ويتضح بجلاء لقارئ تلك الرسائل أن أولئك «الإخوان» جماعة شيعية سرية منظمة، تعتمد أسلوب الدعوة الفردية، للتغلغل في مختلف طبقات الناس، واقتناص من سبقت لهم من الله السوأي. وتنقسم تلك الرسائل إلى أربعة أقسام: رياضية تعليمية، وجسمانية طبيعية، ونفسانية عقلية، وناموسية إلهية. وقد استمدوا معلوماتهم من كلام الفلاسفة، وزوّقوه بالنصوص الشرعية، فأولوها تأويلاً باطنياً، وصاغوا ذلك بأسلوب متأدب متلطف، وصدّروا فصولها بقولهم: (اعلم أيها الأخ البار الرحيم). وقد صرحوا في غير ما موضع:

(أن علومنا مأخوذة من أربعة كتب:

• **أحدها:** الكتب المصنفة على السنة الحكماء والفلاسفة، من الرياضيات والطبيعات.

• **والآخر:** الكتب المنزلة التي جاءت بها الأنبياء، صلوات الله عليهم، مثل التوراة والإنجيل والفرقان، وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة، وما فيها من الأسرار الخفية.

• **والثالث:** الكتب الطبيعية: وهي صور أشكال الموجودات، بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك، وأقسام البروج، وحركات الكواكب، ومقادير أجرامها، وتصارييف الزمان، واستحالة الأركان، وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات، وأصناف المصنوعات على أيدي البشر. كل هذه صور وكنائيات دالات على معانٍ لطيفة

(١) مقدمة رسائل إخوان الصفاء (٥/١) وانظر في تحقيق نسبتها كتاب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي. د. محمد أحمد الخطيب (١٦٩ - ١٧٧).

وأسرار دقيقة، يرى الناس ظاهرها، ولا يعرفون معاني بواطنها من لطيف صفة الباري جل ثناؤه.

• **والنوع الرابع:** الكتب الإلهية التي لا يمسه إلا المطهرون الملائكة، التي هي بأيدي سفرة كرام بررة...^(١).

ولا أظن باطنياً جاء بعدهم، إلا واستقى من هذا المستنقع الآسن، حتى إذا تضلع منه، واستروح زخمه ونتنه، قاء دعاوى ومفتريات، وهو قائم على باب من أبواب جهنم من أجابه قذفه فيها، وأورده إياها، وبئس الورد المورد.

وقد نقل البستاني عن المستشرق دي بور قوله: (إن آراء إخوان الصفاء ظهرت في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي: كالباطنية والإسماعيلية والحشاشين والدروز، وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق إخوان الصفاء)^(٢).

وقد تبين من سرد مصادرهم الأربعة منزلة الأديان عندهم، وكونها على حد سواء، وأن كتبها المنزلة من تورا وإنجيل وفرقان، وغيرها من صحف الأنبياء - كما زعموا - على درجة واحدة في المرجعية، بالإضافة إلى المصادر الثلاثة الأخرى. ولهذا نجدهم يهونون في مواضع كثيرة من شأن اختلاف الشرائع، ويجوزون الجميع، ويسوغونه بما يفضي إلى القول بوحدة الأديان. فمن ذلك قولهم: (اعلم أن اختلاف الشرائع ليس بضار، إذا كان الدين واحداً، لأن الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الأمر فيما يأمر وينهى المرؤوسين بحسب ما يليق

(١) رسائل إخوان الصفاء (٤٢/١٠).

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام (١١٣)، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة. عن المرجع السابق (٧/١).

بواحدٍ واحد، وما يرى أنه يصلح له ويصلح فيه، لأن أوامر أصحاب النواميس، ونواهيهم مماثلة لأمر الطبيب الرقيق الشفيق، فيما أمر العليل من الحمية في الصيف من تناول الأشياء الحارة بالطبع، وإجازته شرب المبرّدات في البلدان الحارة، وفيما يرى ويأمر له...

فهذا الوجه أيضاً اختلاف العلماء رحمة، واختلاف أهل الديانات في أمر الدين، وسنن أحكامه، حكمة جليلة لا يعرفها إلا المحققون المستبصرون^(١). فجعلوا اختلاف الأديان كاختلاف المذاهب في الدين الواحد، والكل سائع صحيح.

بل إن مذهبهم الباطني يتسع لكل شيء، ويقبل كل نحلة وملة، ولا يعادي أحداً. وبهذا يتواصلون قائلين: (ينبغي لإخواننا، أيدهم الله تعالى، أن لا يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها)^(٢).

ومن ثم تنمحق الأديان كلها، في ساح الباطنية الفساح، فلا يميز دين من دين، ولا دين من ملة، ولا ملة من نحلة، ولا آية محكمة من فلسفة مظلمة. ومن لبان هذه المعاني ارتضع أرباب وحدة الوجود، ودهاقنة الباطنية. فقد حكى بطرس البستاني (أن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين من عظماء الإسماعيلية ورؤسائها كان يكب على مطالعة رسائل إخوان الصفاء)^(٣).

وقال مصطفى غالب - الكاتب الإسماعيلي المعاصر -: (هذا هو دين الحب الإنساني الذي بشروا به ودعوا إليه. ومن الطبيعي أن يتأثر بأفكارهم هذه عباقرة الفلاسفة من المتصوفين، وعلى رأسهم

(١) رسائل إخوان الصفا. (٩/٤٨٧، ٤٩١).

(٢) رسائل إخوان الصفا. (٧).

محيي الدين بن عربي الذي نادى بدين الحب ووحدة الوجود ووحدة المعبود^(١).

البهائية:

ومن فروع هذه الشجرة الباطنية الخيثة، فرقة «البهائية»، المنسوبة إلى مؤسسها الميرزا حسين علي المازندراني^(٢)، المتلقب بـ «البهاء» أو «بهاء الله»، الفارسي، المولود سنة ١٢٣٣هـ، الذي ورث دعوة «البابية» إثر إعدام مؤسسها الباب، علي بن محمد الشيرازي^(٣) سنة ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م. وكلا الداعيين أفك أثير، عُتِلَّ زعيم، ادعى ما ليس له، وتشبع بما ليس فيه، ولكن البهاء كان أكثر مراوغة وذكاء، واحتماء بأعداء الإسلام، فاستحالت دعوته دعوة عالمية، واسعة الانتشار، وإن

(١) إخوان الصفا. مصطفى غالب (١١٧ - ١١٨) عن الحركات الباطنية في العالم الإسلامي (١٨٥).

(٢) البهاء (١٢٣٣ - ١٢٠٩هـ): حسين علي نوري بن عباس بن بزرگ، الميرزا، المعروف بالبهاء، أو بهاء الله. رأس «البهائية» ومؤسسها. إيراني مستعرب، أصله من «مازندران». اعتنق دعوة «البابية»، واتهم بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال شاه إيران، فاعتقل ونفي إلى بغداد. دعا إلى بدعته في العراق والآستانة، فنفي إلى أدرنة ثم إلى سجن عكا. ثم أفرج عنه والتف حوله مريدوه، ودفن في حيفا. من آثاره: «الأقدس»، و«الإيقان»، و«الهيكل»، انظر: الأعلام (٢/٢٤٨).

(٣) الباب (١٢٣٥ - ١٢٦٦هـ): علي محمد ابن الميرزا رضی الباز الشيرازي. مؤسس البهائية، التي هي أصل البهائية. إيراني. تقشف في صباه، فكان يمكث في الشمس ساعات عديدة، وأثر ذلك في عقله، ولما بلغ الخامسة والعشرين سنة ١٢٦٠هـ جاهر بعقيدة ظاهرها توحيد الأديان وقوامها تلفيق دين جديد. فادعى أنه «الباب» ثم «المهدي المنتظر» وتبعه خلق كثير. قام عليه علماء الشيعة، فحوكم وسجن، ثم قتل رمياً بالرصاص. له كتاب «البيان» وغيره. انظر: الأعلام (٥/١٧).

كانت قليلة الأتباع^(١). وساعده على ذلك مناداته بالتقارب بين الأديان، والوحد العالمية^(٢)، ونسخ الجهاد، والتنصل من أحكام الإسلام، وموالة اليهود والنصارى، وهي مسوغات كافية لدعمه وتشجيعه وتمكين أتباعه، من قبل الاستعمار الإنجليزي والروسي في ذلك الزمان.

يقول الميرزا حسين المازندراني «البهاء»: (يا علماء الأمم غضوا الأعين عن التجانب، وانظروا إلى التقارب والاتحاد، وتمسكوا بالأسباب التي توجب الراحة والاطمئنان لعموم أهل الإمكان)^(٣).

وهو لا يدعو إلى مجرد إقرار جميع الديانات القائمة، ولكنه يدعو إلى وحدة الأديان بالانسلاخ من الأديان السابقة، واعتناق ديانة ملفقة نحتها عقله المأفون من جميع الأديان، ونسخت ما سبقها. فالبهائية (ليست ديناً جديداً: إنها الديانة المجردة، والتي تقوم على قمة أهرامات الديانات البرتستنتية والكاثوليكية والإسلامية واليهودية والبوذية... إلخ التي تتصارع بعضها مع بعض، وهي تحاول أن تجلب الجميع رغم أنوفهم إلى صفوفها، لأنها وحدها فقط الديانة الحقيقية، وكل الديانات الأخرى خاطئة، وغير صحيحة)^(٤). ولهذا يقرر أنه (ليس لأحد أن

-
- (١) انظر في تاريخ هاتين الدعوتين وعقائدهما: حقيقة البابية والبهائية: د. محسن عبد الحميد. المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، دمشق - سوريا. الطبعة الثانية (١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م)، البهائية: تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية، عبد الرحمن الوكيل، البابية: عرض ونقد. إحسان إلهي ظهير، البهائية. السيد محب الدين الخطيب، البهائية والقاديانية: د. أسعد السحمراني.
- (٢) يقول المستشرق جولد تسيهر: (بيننا البابية، في حقيقتها ترمي إلى إصلاح الإسلام، يتقدم بهاء الله بفكرة واسعة النطاق، وهي إيجاد ديانة عالمية يتحقق بواسطتها الإخاء الديني بين الناس كافة) العقيدة والشريعة في الإسلام (٢٧٥).
- (٣) نبذة من تعاليم بهاء الله. (١٢٣). عن حقيقة البابية والبهائية. (٢٠٧ - ٢٠٨).
- (٤) مقالة عن البهائية، للمستشرق الفرنسي دريفوس ص ٨ نقلاً عن البهائية والقاديانية د. أسعد السحمراني. (٨٨).

يتمسك اليوم إلا بما ظهر في هذا الظهور. هذا حكم الله من قبل ومن بعد، وبه زين صحف الأولين^(١).

ومن ثم فقد نادى البهاء (أن يتحد العالم على دين واحد، ويصبح جميع الناس إخواناً، وتتوثق عرى المحبة والاتحاد بينهم، وتزول الاختلافات الدينية)^(٢)، ولكن كيف تزول الاختلافات الدينية، ويتحد العالم على دين واحد؟ يكون ذلك بالدعوة إلى «الديانة العالمية» والتبشير بها، وهي البهائية المملوكة من شظايا الديانات الأخرى. يقول عباس عبد البهاء^(٣) - ابن مؤسس الفرق البهائية: (لقد خطر ببالي أن أطوف البلاد الغربية، وأدعو في المنتديات الكبرى، وفي الكنائس، إلى وحدة العالم الإنساني حسب تعاليم حضرة بهاء الله، وأروج فكرة الصلح العام، وأرفع عقيرتي على قدر استطاعتي وأقول للعالم: الحمد لله لقد طلعت شمس الحقيقة من أفق الشرق^(٤)، وأرسلت أشعتها على جميع العالم، وإن أشعتها هي تعاليم السماء فهي تدعو العالم بأجمعه إلى الاتحاد والسلام العام، وإلى التحري عن الحقيقة، وتأسيس التآلف والمحبة بقوة الدين، وتحكيم العلم والعقل والدين في المعاملات)^(٥).

(١) الأقدس. (١٢). عن البهائية والقاديانية (٨٦).

(٢) بهاء الله والعصر الجديد. ل: أسلمنت ج. أ. (١٢١). عن البهائية والقاديانية (٩١).

(٣) عباس عبد البهاء (١٢٦٠ - ١٣٤٠هـ): عباس عبد البهاء بن حسين علي نوري، الملقب بالبهاء. صحب أباه في نفيه إلى العراق والأستانة وأدرنة وعكا. خلف أباه في قيادة البهائية وتنظيم جماعتها سنة ١٣٠٩هـ. زار أوروبا وأمريكا عامي (١٣٣٠، ١٣٣١هـ)، وعاد إلى فلسطين، فمات بحيفا. وله أتباع في أوروبا وأمريكا وغيرها من دول العالم. من رسائله، مكاتيب عبد البهاء، الخطابات. انظر: الأعلام (٢٦١/٣).

(٤) الحقيقة أنها شمس طلعت بين قرني شيطان من مشرق الفتن.

(٥) من رسالة بعث بها عبد البهاء إلى مدير مجلة المشرق البريطانية عام ١٩١٣. نقلاً عن المصدر السابق (٩٥).

لقد جهر البهاء بما أسَرَّه إخوان الصفاء بعد تسعة قرون. وهلك بعد ألف سنة من مهلك سلفه الحلاج سنة ١٣٠٩هـ.

ثالثاً: طلائع العصرانيين:

لعل أول من جهر بالدعوة إلى التقريب بين الأديان من الإسلاميين في العصر الحديث مؤسس المدرسة العصرانية الحديثة، وواضع لبناتها الفكرية الأولى: جمال الدين الأفغاني^(١)، إذ يقول: (.. هكذا نجد الأديان الثلاثة: الموسوية، والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، إذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية... لقد لاح لي بارق أمل كبير: أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وبهذا الاتحاد يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة.

وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً، وأخط أسطراً، وأحبر رسائل للدعوة، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكتب، ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد، وتفرقهم فرقاً

(١) هو محمد بن صفدر، ولد سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٨م، قيل في أسعد آباد التابعة لولاية كندر من أفغانستان، وقيل في أسد آباد التابعة لهمدان في إيران. كما اختلف في نسبه فقيل إنه شريف ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي عليه السلام، وقيل بل هو فارسي الأصل. وقد طوّف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية وكتب في الصحف، وألف الكتب، ودعا إلى ما أسماه بـ«الجامعة الإسلامية». وشخصيته غامضة مريبة، اتهم بالرفض وبالانخراط في الماسونية. توفي سنة ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م. انظر: الأعلام ١٦٨/٦ - ١٦٩، دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام (٩ - ٥٤). جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الإسلامية: سمير أبو حمدان، الشركة العالمية للكتاب (دار الكتاب العالمي) بيروت - لبنان. الطبعة الأولى (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م). (١٥ - ٧٤).

وشيعاً وطوائف. ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان تلك الهوات العميقة، وأولئك «المرازبة»^(١) الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة «حانوت»، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية... علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة، وبند الاختلاف، وإنارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف، رجوعاً إلى أصول الدين الحق فذلك الرجل هو هو، يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين في الدين، وهو هو في عرفهم الكافر الجاحد المارق المخردق المهرتق، المفرق... إلخ... إلخ»^(٢).

• ويتبين من هذا النص ما يلي:

١ - أن «وحدة الأديان» في نظر الأفغاني لا تقتصر على الاتفاق في المبدأ والغاية - مع أن هذا غير مسلّم بعد ما طرأ التحريف على اليهودية والنصرانية - ولكنها تعني أيضاً «التلفيقية» بدليل قوله: إذا نقص في الواحدة شيء استكملته الثانية.

٢ - أنه لا يرى «الإسلام» ناسخاً لما قبله من الأديان، ولا «مهيمناً» عليها، بل ينظر إلى الأديان الثلاثة على حدٍ سواء.

٣ - وبه يتبين أي لون من الائتلاف كان يدعو إليه، وأي لون من

(١) جمع مرزبان (هو بضم الزاي: أحد مرازبة الفرس. وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك. وهو معرّب) النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، مجد الدين، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية. بيروت - لبنان. طبعة (١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م). (٤/٣١٨).

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، د. محمد عمارة. القاهرة، ٢٩٦٨م. (٢٩٠ - ٢٩٥).

الاختلاف كان ينبذه، فهو يريد لها ديانة فضفاضة ينضوي تحت لوائها كل جاهل زنديق لا يقيم وزناً للحدود والرسوم، بل يردد شعارات عامة لا تلتزم بما جاء به ﷺ من الهدى ودين الحق. وهذا ما يفسر المقاومة العنيفة التي قوبلت بها دعوته من وصفه بالكفر والجحود والمروق... إلخ مما أفصح عنه، وعد ذلك محافظة على الأرزاق والنفوذ من قبل معارضيه المتجرين بالدين بزعمه.

٤ - وأخيراً، فإن هذا الاعتراف الشخصي يدل على قدم الفكرة في ذهنه وعشعشتها في خياله في مستقبل عمره، قبل أن يخالط أهل الأديان في الهند وإيران وبريطانيا وفرنسا وروسيا، كما يدل على تخطيط وعمل ودعوة لهذه الفكرة بكتابة الرسائل والتأليف. ثم جاءت سيرته الذاتية شاهداً عملياً على نظريته في توحيد الأديان، فقد كان تلاميذه خليطاً من اليهود والنصارى^(١).

وقد تبعه على هذا المنهج أخص تلاميذه، وأشهرهم نسبةً إليه، وهو الشيخ محمد عبده^(٢)، الذي حدث عن نفسه قائلاً: (في أثناء نفبي

(١) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد ومبادئ التغريب: محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الرياض. الطبعة الأولى (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م). (٣٦٨ - ٣٦٩).

(٢) محمد عبده بن حسن خير الله، التركماني، ولد عام ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م في قرية محلة نصر في مصر. تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا، ثم بالأزهر، وتصفوف وتفلسف، ولما قدم جمال الدين الأفغاني إلى مصر عام ١٨٧١م اتصل به وافتتن به. ناصر الثورة العرابية فسجن ثم نفى إلى بلاد الشام سنة ١٢٢٩هـ ١٨٨١م. ثم سافر إلى باريس، والتقى بشيخه الأفغاني، وأصدرا معاً جريدة «العروة الوثقى» وعاد إلى مصر عام ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م، وعين قاضياً. وتوثقت صلته باللورد كرومر، المندوب السامي لبريطانيا أثناء احتلالها لمصر. ثم ولي منصب المفتي العام للديار المصرية عام (١٣١٧هـ = ١٨٩٩م). وتوفي بالإسكندرية عام (١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م). انظر: الأعلام (٦/٢٥٢)، الفكر الإسلامي المعاصر (١٣ - ٥٤)، الإمام محمد عبده. جدلية العقل والنهضة.

في دمشق سنة ١٨٨٣م كان أحد القسس في إنجلترا واسمه «إسحاق تيلور»^(١) يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية، على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الإسلام، والموجودة عند الكنيسة الإنجيلية^(٢). وكان لي صديق فارسي «اسمه ميرزا باقر»^(٣)، يعتقد إمكان تحقيق هذه الفكرة. وقد تمكن هذا من إقناعي أنا وآخرين من علماء دمشق بكتابة رسالة إلى تيلور في الموضوع. وما إن وصلت هذه الرسالة إلى القس تيلور حتى فرح بها ونشرها، مستعيناً بها على إثبات صحة دعواه^(٤). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تابع الإيراني المتذبذب ميرزا باقر مهمته للجمع بين رجالات الدينين الإسلامي والنصراني لتحقيق فكرة التقريب. ويصف محمد رشيد رضا^(٥)، تلميذ محمد عبده، ومؤرخ

(١) نقل محمد رشيد رضا قطعاً من مقالاته في الصحف الإنجليزية في الثناء على الإسلام والدعوة إلى التقارب مع النصرانية. انظر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١/٨٢٢ - ٨٢٧).

(٢) التوحيد في الإسلام ليس مجرد «فكرة» بل هو «عقيدة» راسخة، ربانية المصدر، وليست بشرية من نتاج الأفكار كما عبر الكاتب. أما الكنيسة الإنجيلية فلا تخالف سائر الكنائس بالقول بالتثليث. وحاشا الإسلام أن يكون موافقاً لها في مسألة الألوهية والتوحيد.

(٣) ذكر محمد رشيد رضا أن ميرزا باقر كان إيرانياً قد تنصر، وتسمى بميرزا يوحنا، ونشط في الدعوة للنصرانية. ثم أظهر توبته وعودته إلى الإسلام وشارك في ترجمة بعض المقالات الإنجليزية لجريدة العروة الوثقى، وكان يحتج بالقرآن دون الحديث على أصول الإسلام التي يدعو إليها ويعمل بها، وكان له شذوذ في ذلك غريب.

انظر تاريخ الأستاذ الإمام (١/٨١٧ - ٨١٩).

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م). (٣١٩/٢) (نقلاً عن مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٣٩م ذي الحجة ١٣٥٧ س ٤٧ ص ٣٩٠ - ٣٩٣).

(٥) محمد رشيد بن علي رضا الحسيني، ولد ونشأ في «القلمون» من أعمال =

سيرته الذاتية - الخطوة التالية بقوله: (عرف ميرزا باقر في لندن وغيرها بعض رجال الإنكليز المستقلي الفكر، المحبين لحرية البحث في الدين. ولما وُجد هو والأستاذ الإمام في بيروت بعد تعطيل العروة الوثقى اجتماعاً فيها بالأستاذ بيرزاده، وعارف أبي تراب، تابع السيد الأفغاني، وبجمال بك نجل رامز بك التركي، قاضي بيروت الشهير. . وألفوا جمعية سياسية دينية سرية موضوعها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، وإزالة الشقاق بين أهلها، والتعاون على إزالة ضغط أوربة عن الشرقيين، ولا سيما المسلمين منهم، وتعريف الأفرنج بحقيقة الإسلام وحقائقه، من أقرب الطرق، وقد دخل في هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية في الأستانة، وبعض الإنكليز واليهود. وكان من أعضائها من رجال الدين في لوندرة القس إسحاق طيلر، بل كان هو داعيتها هنالك، ومن رجال الحكومة «جي، دبليو، لينتر» مفتش المدارس في الهند. وكان الأستاذ الإمام صاحب الرأي الأول في موضوعها ونظامها، وميرزا باقر هو الناموس «السكرتير» العام لها^(١).

كما أشار رشيد رضا إلى موقف محمد عبده من أحد دعاة التقريب النصاري، واسمه «خريستفورس جبارة»، الذي كان ناشطاً

= طرابلس الشام عام ١٢٨٢ هـ ١٨٦٥ م. هاجر إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ، ولازم الشيخ محمد عبده وتلمذ له. وأنشأ مجلة المنار عام ١٨٩٨ م. وقد زار عدداً من الأقطار الإسلامية والأوربية، وكتب وألف. وتأثر أخريات عمره بالدعوة السلفية، وطبع في مطابع المنار كثيراً من كتب أئمة السلفية. وتوفي فجأة عام ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥ م. انظر: الأعلام (١٢٦/٦)، الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: سمير أبو حمدان. الشركة العالمية للكتاب. دار الكتاب العالمي. بيروت - لبنان. الطبعة الأولى (١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م). (٩ - ٥٥). (١) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: محمد رشيد رضا. مطبعة المنار. مصر. الطبعة الأولى (١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م). (١/٨١٩ - ٨٢٠).

متحمساً لهذه الدعوة في أمريكا، فقال: (ثم جاء إلى مصر وألف فيها كتباً ورسائل كثيرة يوفق فيها بين التوراة والإنجيل والقرآن، فحرمته الكنيسة الأرثوذكسية. وكان قد وصل من رتبها الكهنوتية إلى رتبة «لارشمندريت»، وكذلك قابله المسلمون بالهزء والسخرية، إلا الأستاذ الإمام، وصاحب المنار، فاحتمل من الإيذاء ما هو معهود في كل من يدعو الناس إلى خلاف ما هم عليه)^(١).

ومن هذه الوقائع والاعترافات الشخصية نستخلص ما يلي:

١ - اقتناع الشيخ «محمد عبده» بفكرة التقريب بين الأديان، وأخذه زمام المبادرة، ونظرائه، بالكتابة إلى القس الإنكليزي إسحاق تيلور، داعية التقريب النصراني، وكان ذلك عام ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م في دمشق.

٢ - الانتقال من طور الفكرة إلى العمل، بعد عودته من باريس، إثر تعطيل جريدة العروة الوثقى عام ١٨٨٥م، فأسس مع موافقيه جمعية التقريب بين الأديان السماوية، في بيروت بصفة سرية، وكان صاحب الرأي الأول فيها.

٣ - ضلوع الرافضة المبكر، بل وقوفهم خلف قيام هذه الجمعية فكرة وعملاً ومشاركة، كما يتضح من جهود الإيراني ميرزا باقر، ومؤيد الملك، وحسن خان، وكلهم إيرانيون.

٤ - استمرار هذه الفكرة لديه بعد عودته إلى مصر عام ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م وتعيينه مفتياً عاماً، كما يتضح من إيوائه لداعية التقريب «خريستفورس جبارة» وحده عليه.

وبهذه المواقف الفكرية والعملية لرائدي المدرسة العصرية، تم

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١/٨٢٧).

إرساء دعامة كبيرة من دعائم الاتجاه العصري الحديث، وهي الدعوة إلى «وحدة الأديان»، وتمييع الحواجز والحدود بين دين الله الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وهو دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ عقيدة وشريعة، والأديان المحرفة المنسوخة من اليهودية والنصرانية.

وقد تتابع تلاميذ هذه المدرسة على النسج على منوال أشياخهم، وترديد أفكارهم، بل والتوسع والإيغال فيها بما تقشعر منه جلود المؤمنين، ويذكر بمقالات الزنادقة والملحدين.



الفصل الثالث

حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث

جرت الإشارة في الفصل الأول من هذا الباب إلى الاتجاهات العامة لدعوة التقريب بين الأديان. وفي هذا الفصل نحاول الوقوف عن كثب على حقيقة هذه الدعوة لدى مختلف الفرقاء من خلال وثائقهم الرسمية أو كتابات زعاماتهم الدينية في هذه الحقبة من التاريخ المعاصر.

ونظراً لكون الجانب النصراني هو صاحب المبادرة في هذه الدعوة وتفعيلها على اختلاف طوائفه، وهيئاته الرسمية، فسيتم عرض موقفه بشكل أكثر تفصيلاً، ثم نتبعه بالحديث عن اليهود، ثم الإسلاميين العصرانيين: على النحو التالي:

- ١ - المبحث الأول: حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية.
- ٢ - المبحث الثاني: حقيقة التقريب بين الأديان عند مجلس الكنائس العالمي.
- ٣ - المبحث الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان عند النصارى العرب.
- ٤ - المبحث الرابع: حقيقة التقريب بين الأديان عند اليهود.
- ٥ - المبحث الخامس: حقيقة التقريب بين الأديان عند الإسلاميين العصرانيين.

المبحث الأول

حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية

تعني كلمة «كاثوليكية» جامعة. وهو الوصف الذي تضمنه الإيمان النيقاوي الذي أقر في مجمع «نيقية» سنة ٣٢٥م للكنيسة الشرعية، فجاء فيه: (وأعتقد بكنيسة واحدة جامعة رسولية)^(١).

وقد اعتبرت الكنيسة الغربية التي مقرها حاضرة الفاتيكان^(٢) في روما نفسها مستحقة لهذا الوصف دون ما سواها من الكنائس، بدعوى أن مؤسسها هو «بطرس» حوارى المسيح ورسوله، بل كبير الحواريين ورؤيسهم، والباباوات بعده خلفاؤه^(٣). وكان أخطر وأكبر انقسام جرى في تاريخ الكنيسة هو الانفصال بين روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤^(٤)، أفضى إلى تمايز مزمن بين:

(١) راجع التمهيد. (٩٦ - ٩٨).

(٢) الفاتيكان Vatican: مقام البابوات في روما. يتألف من البلاط والمعابد والمتاحف والمكتبة... ودولة الفاتيكان: دولة اعترفت بها إيطاليا في معاهدة «لاتران» ١٩٢٩م. رئيسها «البابا»، مساحتها نحو ٤٤ هكتاراً، عدد سكانها لا يتعدى الألف شخص. تتألف من كنيسة القديس بطرس، والبلاط البابوي وملحقاته، بالإضافة إلى القصور والبنائات الموجودة في العاصمة الإيطالية، و(كاستل غوند ولفو) خارج حدود مدينة الفاتيكان. المنجد في الإعلام (١٥٦)، وانظر على سبيل التوسع كتاب: الفاتيكان عاصمة الكشلكة في العالم. تأليف بول بويار. منشورات عويدات. بيروت.

(٣) انظر: محاضرات في النصرانية (١٤٦).

(٤) انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية. (٣٨١ - ٣٩٠).

١ - الكنيسة «الرومانية» «اللاتينية» «الكاثوليكية».

٢ - الكنيسة «البيزنطية» «اليونانية» «الأرثوذكسية».

وقد تبادلتا قرارات الحجب والحرمان عبر القرون، وتحاولان التقارب في النصف الأخير من هذا القرن^(١).

وتعد الكنيسة الكاثوليكية أكبر الكنائس النصرانية أتباعاً، إذ يتجاوز عددهم تسعمائة مليون نسمة موزعين في شتى أنحاء العالم، ويتركزون في دول الغرب القديمة: إيطاليا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وغيرها^(٢)، بالإضافة إلى مستعمرات تلك الدول في أمريكا اللاتينية - الجنوبية - والفلبين.

وتتميز الكنيسة الكاثوليكية بتنظيم هرمي دقيق، يتربع على سدة «البابا» أسقف روما، وخليفة بطرس الرسول - كما يزعمون - ويلقب بـ«الحبر الأعظم». وقد منحته بعض مجامعهم صفة «العصمة»^(٣).

المجمع الفاتيكاني الثاني:

أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في مدينة «روما»، في الفترة الممتدة من ١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م، عقال الكنيسة الكاثوليكية في نظرتها وتعاملها مع الآخرين المخالفين، من النصارى أتباع الكنائس

(١) انظر: تاريخ الحركة المسكونية: الأب: روبير كليمان اليسوعي. ترجمة الأب: صبحي حموي اليسوعي. دار المشرق. بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩١م. ج(١، ٢).

(٢) انظر: تاريخ الكنيسة الشرقية، وأهم أحداث الكنيسة الغربية: المطران ميشيل يستيم. الأرشمندريت أغناطيوس ديك. معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت. حريصا. المكتبة البولسية. بيروت - لبنان. الطبعة الثالثة ١٩٩١م. (٣٨٨).

(٣) جرى ذلك في المجمع الفاتيكاني الأول عام ١٨٦٩م.

الأخرى، وغير النصارى من اليهود والمسلمين، بل والوثنيين والعلمانيين.

ولقد كان هذا المجمع حدثاً كبيراً، ومنعطفاً خطيراً، في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، التي آلت إلى حالة من الجمود والشلل في أعقاب الحربين العالميتين، وما أعقبهما من تغيرات كبرى في العالم، وانفتاح بين الشعوب والأفكار والمعتقدات. وكان لا بد لهذه الكنيسة الصارمة أن تنفض عنها غبار القرون الوسطى، ولغتها الإملائية لتتمكن من العيش في هذا الواقع الجديد المنفتح، أو تقبل لنفسها ومؤسساتها ذات التنظيم الهرمي التراتبي الدقيق بالموت البطيء، والانحسار التدريجي أمام الأيديولوجيات التي تنافسها بقوة على الساحة العالمية، وعلى الأخص في عقر دارها «أوروبا الحديثة»، التي اعتنقت الديمقراطية والحرية، وانعتقت من نير الكنيسة وسلطانها الكهنوتي.

لقد وجدت الكنيسة الكاثوليكية نفسها في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي أمام ثلاثة خيارات فيما يتعلق بصلتها بالعالم:

(١) - موقف «الجيتو»^(١) الهارب إلى عالمه الخاص، والمنكفي على ذاته.

٢ - موقف التحريم، والاقتراب من العالم فقط بهدف إدانته.

٣ - موقف الحوار^(٢). ولا ريب أن المصلحة اقتضت ترجيح الخيار الثالث، حتى مع بعض التنازلات الجوهرية، والتخلي عن بعض التقاليد والأفكار العتيقة، في سبيل مواكبة حركة المجتمع الإنساني التي

(١) الجيتو أو «الغيتو» Ghetto تعني في الأصل حي اليهود، حيث ينعزل اليهود عادة في تجمعات سكنية خاصة، ولا يختلطون بالسكان المجاورين. ثم صار تعبيراً شائعاً في الدلالة على العزلة.

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية. إليكسي جورافسكي (١٦٤).

لم تنتظر إذناً من الكنيسة، ولم تعد تخشى حجباً أو حرماناً منها. ومن ثم كانت ولادة المجمع الفاتيكاني الثاني.

وبعد ما يقرب من أربع سنوات من المداولات والمجادلات، بل والنزاعات بين التيار المحافظ والتيار التقدمي، تبنت الكنيسة الخيار التقدمي المنفتح على الآخرين، مما يعد «تطويراً لاهوتياً» في هذا المجمع (الذي أدخل في الكنيسة نهجاً جديداً في التفكير اللاهوتي والعمل الراعوي)^(١). فبعد أن كانت الكنيسة ترى أنها وحدها تمتلك «الحقيقة المطلقة»، وأنه لا سبيل إلى «الخلاص»^(٢) إلا عن طريقها، أبدت قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني مرونةً وتنازلاً عن هذه المعتقدات العتيدة التي كانت الأساس في القرون السابقة لقرارات الحجب والحرمان.

جاء في أول دساتير المجمع (الكنيسة: دستور عقائدي) فقرة ١٦: (...). بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد الرحمن الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر)^(٣). وهذا النص (يسجل تغييراً جذرياً في موقف الكنيسة

(١) انظر مقدمة: المجمع الفاتيكاني. (٢١) للمطران كيرلس سليم بسترس. وانظر فصل: المجمع الفاتيكاني الثاني ولاهوت التحرر من كتاب: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة (٧٩ - ٩٣). والراعي أو الرُعوي أو الرعائي اصطلاح كنسي تنظيمي ف (الراعي... كل من ولي أمر قوم كالأسقف والبطريرك وغيرهما... والرعية... الخاضعون لأوامره. ومنه رعية الأسقف ونحوه) المنجد (٢٦٨).

(٢) الخلاص: مصطلح كنسي عقدي يعني (النجاة... يوم الخلاص: الفوز بآخرة صالحة. المخلص: لقب السيد المسيح) المنجد (١٩١). وراجع العقائد النصرانية في التمهيد. (٩٠ - ٩٣).

(٣) المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات (٥٢).

الكاثوليكية بالنسبة إلى سائر الأديان. وهو تغير لا رجوع ممكن عنه... وهو ملزم بما للمجمع المسكوني من سلطة^(١).

وفي البيان المتعلق بعلاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية: (..والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حقاً ومقدس، وتولي تقديرها باحترام صادق هذه الطرق السلوكية في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم التي وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به وتُعلمه، تحمل غير مرة قبساً من شعاع الحقيقة التي تثير جميع الناس. غير أنها تبشر، ويجب أن تبشر بلا انقطاع بالمسيح الذي هو «الصراط والحقيقة والحياة» (يو ١٤: ٦).

من أجل ذلك تحرض أبنائها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها وإنمائها، وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم، بمقتضى الفطنة والمحبة، مع الشهادة للإيمان والحياة المسيحية).

وبعد هذا الانفتاح العام على الآخرين، والاعتراف بما لديهم من قيم ومثل في سابقة ليس لها نظير في الخطاب الكنسي، يتوجه البيان إلى خصوصية المسلمين بهذه الدعوة فيتابع قائلاً: (وتنظر الكنيسة أيضاً بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله، الواحد الحي القيوم، الرحمن، القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده^(٢)، كما سلم الله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وإنهم على كونهم

(١) البيانات الإسلامية المسيحية. جوليت حداد (٢٨).

(٢) يزعم نصارى المجمع الفاتيكاني أن روح المسيح يعمل بطريقة خفية في جميع الأديان والتقاليد الأخرى. وأن ما فيها من حق وصواب فمن أثره الخفي. وسيأتي لذلك مزيد تفصيل.

لا يعترفون بيسوع إلهاً، يكرمونه نبياً، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان^(١). ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعد ما يبعثون أحياء. من أجل هذا يقدرّون الحياة الأدبية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم خصوصاً.

ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهد صادق في سبيل التفاهم فيما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية).

ثم يتوجه البيان الكنسي إلى اليهود، فيذكر بأواصر الرحم والقربى، والتراث الروحي المشترك بين ورثة العهد القديم وورثة العهد الجديد، ويخلص إلى القول: (وبإزاء هذا الواقع، واقع التراث الروحي العظيم، المشترك بين المسيحيين واليهود، يريد المجمع أن يشجع ويحرض على التعاون والتقدير المتبادل بين الملتين، وذلك خصوصاً بالدراسات الكتابية واللاهوتية، وبطريق الحوار أيضاً).

وفي مسعى مُلَطَّف لتبرئة اليهود من دم المسيح في زعمهم، - خلافاً لما درج عليه النصارى طوال القرون السالفة - يتابع البيان قائلاً: (ولئن يكن ذوو السلطان من اليهود ومشايعوهم هم الذين دفعوا على قتل المسيح، فإن ما اقترفته الأيدي إبان آلامه لا يمكن إسناده، في غير تمييز، إلى جميع اليهود الذين عاشوا آن ذاك، ولا إلى اليهود العائشين في عصرنا. من أجل ذلك لا يجوز على كون الكنيسة هي الشعب

(١) هذا من افتراء النصارى على المسلمين. فالمسلمون لا يبتهلون إلا إلى الله وحده، ولا يدعون أحداً سواه قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن].

الجديد لله (!) أن يُشَهَّرَ باليهود بأنهم منبذون من الله، وأنهم ملعونون، كما لو كان ذلك يستنتج من الكتاب المقدس. فليحرص الجميع إذن، في التعليم المسيحي، وفي الوعظ بكلمة الله، ألا يعلموا شيئاً لا يتوافق مع حقيقة الإنجيل وروح المسيح.

وإلى ذلك فإن الكنيسة التي تستنكر جميع ألوان الاضطهاد لجميع الناس أياً كانوا، ولا قبل لها بأن تنسى التراث المشترك بينها وبين اليهود تأسف - لا لبواعث سياسية ألبتة بل بدافع من محبة الإنجيل الدينية - للأحقاد والاضطهادات وجميع مظاهر العداء للسامية التي أَلَمَّتَ باليهود، أياً كان عهداها، وأياً كان فاعلوها^(١).

وبالنسبة لموقف الكنيسة الكاثوليكية من الإسلام والمسلمين على وجه الخصوص يصور الكاتب الروسي أليكسي جورافسكي حجم الثقل قائلاً: (للمرة الأولى منذ أربعة عشر قرناً من وجود المسيحية والإسلام يتحدث مجمع مسكوني كاثوليكي بصورة إيجابية عن المسلمين، معترفاً بوضعهم الديني المتميز. ولهذا شبّهت المطبوعات الكاثوليكية التغير الحاصل في موقف الكنيسة تجاه الإسلام بـ«الانقلاب الكوبرنيكي»^(٢). وهو تشبيه غير مبالغ فيه، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن رسالة البابا بيوس الثاني عشر Fidei donum الصادرة في أواخر الخمسينيات (١٩٥٧م) رأت في انتشار الإسلام في أفريقيا «خطراً على الكنيسة»، وأن كتاب «تاريخ الإرساليات الكاثوليكية»، المؤلف من أربعة

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ - ٦٣١).

(٢) نسبة إلى العالم الفلكي البولوني «كوبرنيك Copernic (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الذي برهن على دوران الكرة الأرضية على ذاتها وحول الشمس. انظر المنجد في الأعلام (٥٩٦) خلافاً للفكرة السائدة آنذاك من كون الأرض مركز الكون، فأحدث انقلاباً كبيراً في علم الفلك، وهذا وجه التشبيه.

مجلدات، والصادر في المرحلة نفسها، نظر إلى نشاط الإسلام وفعاليته العالمية ككارثة تضاهي خطر الشيوعية^(١).

إن هذه الفقرات من دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني وبياناته، تمثل موقفاً عقدياً جديداً، تبني عليه طريقة عمل جديدة أيضاً. وهي تمثل أساساً متيناً لمشروع الحوار والتقارب بين الكنيسة والأديان الأخرى، وقاعدة انطلاق عريضة استند عليها الناشطون من دعاة التقارب والحوار منذ ذلك الحين. وبتحليل تلك الفقرات نلمس ما يلي:

أولاً: إيجاد المسوغ العقدي لمشروعية الحوار بتوسيع دائرة الخلاص، وإمكان شمولها غير النصراني. وهي خطوة هامة وضرورية بالنسبة للكنيسة حتى تقيم جسور التواصل مع المخالفين الذين كانوا في نظرها سابقاً «كفاراً»، و«محرومين من ملكوت الله». هذا مع عدم التخلي عن البشارة بالمسيح مطلقاً.

ثانياً: الاعتراف بالأصول الإيمانية، العقائد والشرائع الدينية لدى المسلمين، وإن لم يبلغ الأمر الاعتراف بنبوة محمد ﷺ، لما يستلزم ذلك من لوازم تعني نسخ الديانة النصرانية.

ثالثاً: إبداء الأسف على النزاع التاريخي العدائي مع المسلمين، والاعتذار لليهود مما نالهم من اضطهاد وتشهير.

رابعاً: دعوة المسلمين واليهود إلى التفاهم والتعاون عن طريق الحوار الأخوي.

وبالمقابل، فقد أبدى الكاتب الروسي إلكسي جورافسكي في تحليله العميق لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني تجاه الإسلام جملة

(١) الإسلام والمسيحية. (١٣٧ - ١٣٨).

من التعقبات، إذ يقول: (. . . لكن البقايا القصوى للنص لم تتمكن مع ذلك من إخفاء بعض التناقضات المبدئية، والنقاط الخلافية الجدية بين الديانتين، وعلى الرغم من الحل الإيجابي الذي قدمه المجمع للمشكلة المسيحية القديمة حول موقع المسلمين في عقيدة «الخلاص Salut»، فإنه صرح بتحفظ وأشار من بعيد إلى وضع الإسلام في ما يتعلق بالتقليد التوراتي وبالوحي. . . وقد امتنع المجمع عن الإشارة القاطعة والصريحة إلى اتباع المسلمين «ملة إبراهيم»، حيث يشير إلى ارتباط المسلمين بالتقليد الإبراهيمي، ولكن ليس من الناحية التاريخية، وإنما من حيث التبعية الإيمانية لإبراهيم^(١).

وقد سكت المجمع عن مشكلة وثوقية وصحة المكانة النبوية لمحمد، مع أن هذه المسألة جرى التعرض لها أثناء المناقشات والمداولات، حيث اقترح بعض المؤتمرين إدخال تعديل على القسم السادس عشر من مسودة الدستور العقائدي «الكنيسة» يؤكد أن المسلمين (يعبدون معنا الإله الواحد الرحيم، الذي كلم الناس بالأنبياء)، إلا أن اللجنة اللاهوتية المختصة ألغت هذه العبارة، نظراً لأنها يمكن أن تؤول

(١) يشير الكاتب إلى قضية مهمة وهي اعتقاد النصارى أن عهد الله لإبراهيم قد تحقق عبر فرع إسحاق في عيسى عليه السلام، ولم يسر في الفرع الإسماعيلي إلى محمد ﷺ. وكذب النصارى، وصدق الله العظيم إذا قال لخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]. فما أبعد إخوان القردة والخنازير من اليهود، وعباد الصليب والصور من النصارى عن عهد الله، وملة إبراهيم الذي دعا ربه وهو يرفع القواعد من البيت - الكعبة - ومعه ابنه البكر إسماعيل عليه السلام، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [١٨] رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [١٩] [البقرة]. فكانت هذه الأمة وكان هذا الرسول ﷺ.

بشكل مشير للإشكال، كأن يفهم منها أن الله «تكلم عبر محمد» في حين أن التصريح الختامي صاغ هذه العبارة بصورة مقتضبة: «الذي كلم الناس». من الملاحظ، أن كثيراً من النواحي، وخصوصاً تلك التي تتناقض مع طقوس المذهب الكاثوليكي ظلت خارج دراسة المجمع. كما لم تناقش المشكلات المتعلقة مثلاً برأي الإسلام بالقدرة الكلية - المطلقة للإله، وحرية الاختيار الإنساني^(١).

كما لم يتعرض المجمع للمسائل ذات الصلة بمفهوم الأمة والكنيسة، وقضايا الوحي والإيمان، والدنيا والآخرة والعلمانية... إلخ علماً بأنه بالنسبة للوعي الديني، فإن هذه المسائل تشكل معطيات محددة للغاية، ولا يمكن فصلها عن النواحي الاجتماعية - الثقافية للتعاون والحوار بين هاتين الديانتين^(٢).

ورغم هذه التعقبات المهمة، تبقى قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني معلماً بارزاً في رحلة التقارب بين الأديان.

الكتب والوثائق الكاثوليكية المتعلقة بقضية التقريب بين الأديان:

لتبيين فهم الكنيسة الكاثوليكية لنصوص المجمع، وأسلوب تطبيق مقرراته، نختار بعض الكتابات والوثائق التي تجلي حقيقة التقريب في نظر الكنيسة:

أ - (نحو حوار مع الإسلام):

من أقدم البيانات الكاثوليكية بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، المقالة التي كتبها «لويس جاردت»، ونشرتها أمانة سر شؤون غير النصرى عام ١٩٦٦م بعنوان «نحو حوار مع الإسلام»، واستهلها

(١) دأب النصرى على وصف الإسلام بمذهب «الجبرية»! ربما لاعتقادهم أن العقيدة الأشعرية هي المعتمدة.

(٢) الإسلام والمسيحية: (١٤٥ - ١٥١).

بتوجيه لأبناء ملته قائلاً: (. . إن القيم المسيحية التي تبدو في حياة أولئك الذين يستقر إيمانهم في بواطنهم، لا تستدعي أن يظهروا ذلك الإيمان على صيغة سباب للقيم الإسلامية، وإنما عليهم أن يجعلوا غايتهم «رصف الحجارة» التي توجد حقاً في الإسلام مثل «الثقة بالله، والصبر على شدة البلاء، والإخلاص والصدق...»، تلك الصفات التي ظهرت في أفضل أشكالها في حياة المسلمين الروحية، على الإنسان أن يتعلم كيف يجد المسرة في الثناء على هذه الصفات دون تحفظ»^(١).

وبعد هذه المقدمة، يختار الكاتب «مواضيع محتملة للبحث» في الحوار الإسلامي المسيحي، هي عبارة عن: (ثلاثة «إرشادات عظيمة» تسيطر ليس فقط على فكر المسلم، ولكن على توجهه الكامل إلى العالم والإنسان والله، والتي تدفعني إلى الاعتقاد أنها مفيدة بشكل خاص من أجل استمرار البحث)^(٢).

وهذه القضايا «الإسلامية» التي يريد الكاتب أن يجعلها مادة للبحث والحوار، يحاول عرضها بطريقة حذرة، ذكية، وبأساليب ملتوية، هي على النحو التالي:

أولاً: (. . القضية الكبرى في الفكر اللاهوتي الإسلامي، مشكلة ازدواجية السببية؛ السببية الإلهية، والسببية الإنسانية، أو مشكلة أفعال الله وأفعال الإنسان، ويتبع ذلك مشكلة حرية الإنسان.

(١) Towards a Dialogue with Islam. Louis Gardet Secretaraitus pro-non Christianis:

Bulletin, VOL, NO.3 نحو حوار مع الإسلام. لويس جاردت. عن مجموعة

وثائق صادرة عن المؤسسة الإسلامية، لبيستر. بعنوان الحوار بين النصارى

والمسلمين ج(٢)، (٢)، (٣).

(٢) المرجع السابق، (٢)، (٣).

إن المشكلة هنا ليست مجابهة بين الفكر المسيحي والفكر الإسلامي، بقدر ما هي «جهد مشترك للتفكير» في قضية «السلوك». ونترك المجال للتقدم الحديث في علوم الإنسان وفي المعرفة نفسها، وقد يجد الفكر الإسلامي نفسه مدعواً إلى التجديد والتقدم، دون إضاعة طبيعته الخاصة^(١).

أليس هذا الكلام ترديداً لما افتراه بعض المستشرقين من اتهام العقيدة الإسلامية بـ«الجبر»، بناءً على جنوح بعض الفرق الإسلامية في مسألة «أفعال العباد»؟ وليس المقصود نقاش هذه القضية طبعاً^(٢)، ولكن التنبيه لطبيعة القضايا المرشحة للحوار، والتي يتعين على الفكر الإسلامي كما يتوقع الكاتب أن يحدث «تجديداً» و«تقدماً» فيها!

ثانياً: مفهوم «الشهادة»: بعد تحليل فلسفي لمدلول الشهادة يصل الكاتب إلى جمل واضحة لعلها «بيت القصيد» فيقول: (. . . تقوم النصرانية بمواجهة التحولات الظاهرية، والعمق النفسي بقضية الشخص وأساسه الوجودي بالمقابلة مع التصرفات ومواضيعها خارج فكره، وتتركز المشكلة الإسلامية على الشهادة وتهتم بها بشكل ربما كان شديد العنف، ولكنها مشكلة تثير بدورها التساؤل عن الشيء المثبت بكل نتائجه وقيمة الحكم على الوجود والحكم على الحقيقة)^(٣).

لم يشأ الكاتب أن يستدعي بعض المصطلحات الدينية في معنى

(١) المرجع السابق، (٣).

(٢) العقيدة الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تثبت للإنسان إرادة واختياراً وفعلاً وقدرة، ولكنها تابعة لإرادة الله وقدرته كما قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ [التكوير]، وقال ﷺ لأصحابه لما قالوا: أفلا نتكل؟: (لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له) رواه مسلم (٤/٢٠٤٠).

(٣) المرجع السابق، (٤).

الشهادة النصرانية، لأن السياق لا يناسب أن يقول في هذا المقام: «المسيح هو السبيل الأوحى إلى الله، ولا خلاص خارجاً عنه». وتلك هي الشهادة النصرانية في أبسط صورها، ولكنه يلمز الشهادة الإسلامية بكونها تؤدي «بشكل ربما كان شديد العنف» وذلك في إشارة واضحة إلى «الجهد في سبيل الله» الذي يثمر الشهادة في أعظم صورها، ويسمى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا «شهيداً» إذا قتل في هذا السبيل.

وبالتالي، فالكاتب يريد أن يخضع قضية «الجهد» التي تقض مضاجع المستعمرين النصارى لمبضع الجراح لكن من خلال دائرة أوسع، وتحت عنوان آخر هو مفهوم الشهادة، ويبدى تشوفه لحدوث تغيير أو تعديل في الموقف الإسلامي حين يقول: (إنني راغب جداً في أن أعتقد أن هناك مجالات جديدة تظهر أمام الفكر الإسلامي ليستكشفها فيما يتعلق بالشهادة...) (١).

ثالثاً: «القيم الخلقية الإسلامية». يقول الكاتب: (. . إن الإسلام في الماضي لم يقم بصياغة لاهوته الخلقى بنفسه، لقد كان يكفي أن يبرز العناصر حيثما تتطلب فرائض الله المتعلقة بمفاهيم القانون الإلهي «التكليف» استجابة أساسية من «المؤمن». ويبدو غريباً أن التقدم الحديث في علوم الإنسان لم يجعل المفكر المسلم يعيد النظر في مشكلة «التكليف» في إطار الأبعاد المتجددة لعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، وبتعبير آخر ضمن أبعاد فلسفية خلقية تأخذ بعين الاعتبار الماديات الأساسية لوضع لاهوت خلقي) (٢).

إن الكاتب يعيد صياغة شبهات المستشرقين والمبشرين بطريقة

(١) المرجع السابق، (٤).

(٢) المرجع السابق، (٤).

«حوارية». فأحد المطاعن التي يدندن حولها المستشرقون والمبشرون أن الإسلام دين تكاليف و«أحكام شرعية»، وأن «الفلاح» في نظر المسلمين إنما يكون بحسب التزام المسلم بهذه الأحكام فعلاً وتركاً، بخلاف النصرانية التي تخلي عهدة أتباعها من جميع الالتزامات والأعمال اكتفاءً بالإيمان القلبي بالمسيح^(١).

والكاتب يحاول أن يقرر أن هذه الجملة من التكاليف الخلقية ليست من أصل الإسلام في صياغتها الحالية، وفي ذلك إشارة إلى ما يزعمه البعض من أن الفقهاء المتأخرين هم الذين قننوا هذه الأعمال وأكسبوها الصفة الشرعية. ولذلك يبدي الكاتب استغراباً حول عدم تأثير التقدم الحديث في علوم الإنسان في إعادة النظر في مشكلة «التكاليف».

وغير خافٍ على كل مسلم أن تدينه الله رب العالمين مبني على أساس متين من العقيدة والشرعية المحفوظة التي لم تنلها أيدي التحريف والتبديل، وأن مجموع تلك العقائد والشعائر (الإيمان والعمل الصالح) هو الموصل إلى «الفلاح» الدنيوي والأخروي بعد رحمة الله تعالى، ولكن القوم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

ثم يتساءل الكاتب أخيراً: (ألا تستطيع هذه الإرشادات الثلاثة المتلاقية في نقطة واحدة أن تحدد مجالاً ما يمكن فيه القيام بحوار خاص مثمر بين الفكر النصراني والإسلامي؟)^(٢).

ومن حقنا نحن أن نتساءل: هل الحوار الذي تسعى إليه الكنيسة الكاثوليكية مع المسلمين يعني إثارة شبهات المستشرقين، وإن بشكلٍ مهذب، ونقل الحوار إلى قضايا تخص أحد الطرفين، ليقوم الطرف الآخر بتقويمها، وتقديم الحلول المناسبة من خلال المنظور الكنسي؟

(١) راجع مبحث الشريعة عند النصارى في التمهيد (٩٨ - ١٠١).

(٢) المرجع السابق، (٥).

لَمْ لم يطرح الكاتب معضلات العقيدة الكاثوليكية وأسرارها السبعة التي تأبأها الفطر والعقول السليمة كما يشهد التاريخ والواقع فهي أولى بالاستجلاء والاستكشاف، كعقيدة التثليث والصلب والفداء والخلاص وعصمة البابا... إلخ^(١)؟

إن هذه المقالة تكشف نوعاً من أنواع الأداء المبكر في أسلوب الحوار النصراني الإسلامي، يستهدف بحث مسائل عقدية، يأخذ الجانب النصراني فيها بزمam المبادرة والتخطيط والتوجيه، ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [الأنفال].

ب - (توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين):

ومن الإصدارات المهمة للكنيسة الكاثوليكية في مجال الكشف عن حقيقة التقريب بين الأديان لديها ما كتبه الأب «موريس بورمانس» بعنوان: «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين»، وحظي بمراجعة لفييف من كبار الآباء والخبراء في طبعته الثانية عام ١٩٨٠م، وتبنته ونشرته أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين (لتوطئة الحوار وقيام تعاون بين المسيحيين والمسلمين)^(٢) مما يجعله وثيقة رسمية للكنيسة الكاثوليكية، وشرحاً لعبارات ومقاصد المجمع الفاتيكاني الثاني.

والكتاب في أصله موجهٌ إلى النصاري، وبالأخص الكاثوليك منهم. وقد أفصح مؤلفه عن غايته قائلاً: (إن الذين يدينون بالإسلام، والذين يتبعون «يسوع» يتساءلون اليوم عما كان لمسيرتهم معاً على الطريق من الأشكال المتنوعة، طوال أربعة عشر قرناً من التاريخ المضطرب، إن الله يدعوهم اليوم إلى استخلاص العبر من ذلك،

(١) راجع مبحث العقائد النصرانية في التمهيد (٨١ - ٩٥).

(٢) من مقدمة الرئيس المساعد لأمانة السر، جان جادو للكتاب (١٤).

ليعرفوا على وجه أفضل، بلا ريب، أن سبل الحوار قد تصل بهم غداً إلى شهادة أنصع، وتعاون أخلص، في خدمة الله لمصلحة الناس وخير العالم. وهذه الفصول إنما كتبت لتساعد المسيحيين، ولا سيما الكاثوليك على ذلك، فقد دعاهم المجمع الفاتيكاني الثاني إلى العودة لما تقتضيه رسالة الحوار الصحيح، فيكون تقبلاً للآخر، وحديثاً عن الإيمان، ومشاركة في القيم. ولضمان هذه المرامي المجردة للحوار الذي كان قائماً على مر العصور، في الأوضاع التاريخية والحالات الشخصية الأشد تنوعاً، يجد المسيحيون في هذه الصفحات بعض الأفكار السريعة والمقترحات الوجيزة عن الأبعاد المتعددة لحوارهم الحاضر مع المسلمين^(١). ومن ثانياً هذا الخطاب الذي يوجهه الأب موريس بورمانس إلى مواطنيه، وأبناء ملته نلتقط بعض الجمل الكاشفة لحقيقة الحوار وغايته كما يراها أحد أقطاب المنادين بالحوار والتقارب المنتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية:

■ (الحوار في جوهره يهدف إلى تعزيز التعاون بين الجميع، وجعلهم يتعمقون في عقيدتهم وتراثهم الديني، وإلى تنشيط التماسهم لمشية الله وحدها، ورجوع كل منهم إلى الرب الذي يخاطبه، ويغفر له، ويغير ما فيه إلى الأفضل، فلا يسوغ إذن، على الإطلاق، أن تكون غاية الحوار سعي المحاور إلى اجتذاب الآخر إلى دينه بأي ثمن، أو حمله على الشك في الإيمان الذي يغتذي به، بل على العكس، يعتزم المؤمنون، في «تنافس روحي» وتسابق مقدس، حيث «يستبقون الخيرات» (القرآن ٤٨،٥)^(٢) أن يتعاونوا على «استباق

(١) توجيهات في سبيل الحوار (١٩).

(٢) الآية في سورة المائدة: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨] وهذا الأسلوب في عزو الآيات محاكاة لأهل الكتاب في عزوهم إلى ما يسمونه (الكتاب المقدس) فينبغي الحذر من التشبه بهم.

أنفسهم»، فيصيروا خيراً مما هم عليه، في سياق ما دعاهم الله إليه، ليزدادوا قرباً منه، ويزيدوا من وزن الخير في العالم^(١).

■ وفي تقويمه للعلاقة الإسلامية بأهل الكتاب في العهد النبوي يقول: (إن الإسلام الذي نشأ في شبه جزيرة العرب متصدياً للشرك المكي، كان في وسعه أصلاً الاعتقاد بأنه النسيب الداني أو القاصي لليهودية القائمة في يثرب «المدينة» وفي غيرها من المدن، أو الجار الذي تربطه أواصر الود والتكامل مع تلك الجماعات في اليمن والحبشة القائلة بالطبيعة الواحدة، أو مع تلك الكنائس النسطورية^(٢) في الإمبراطورية الساسانية، واليعقوبية^(٣) أو الملكية^(٤) في الإمبراطورية

(١) توجيهات في سبيل الحوار (٢٠).

(٢) النسطورية: النساطرة أو الآشوريون طائفة من المسيحيين ينتسبون إلى نسطور بطريرك القسطنطينية. قطنوا في كردستان بين الموصل وأرمينية إلى أن تبدد شملهم بعد حرب ١٩١٤م. ازدهرت عندهم الحياة الرهبانية فأوفدوا المبشرين إلى آسيا الشرقية القرن (٦) ونشروا المسيحية في إيران والهند والصين، انضم قسم منهم إلى الكثلكة في القرن السادس عشر، وهم الكلدان). انظر: المنجد (٧٠٨).

(٣) اليعقوبية: (السريان: هم اليوم النصارى أبناء اللغة السريانية. انفصلت منهم جماعة عن كنيسة أنطاكية، على أثر المجادلات اللاهوتية حول طبيعة المسيح. وتلتقي مع الكنيسة القبطية في اعتناقها للمونوفيسية، وقولهما معاً بأن للمسيح طبيعة واحدة. وتنظمت في سورية وفي بلاد ما بين النهرين، بفضل يعقوب البرادعي، كنيسة يعرف أبنائها باليعاقبة القرن (٦)، كما تفرعت منهم في القرن (٥) الكنيسة المارونية. وقد تكونت في القرن (٧) كنيسة سريانية كاثوليكية، وفي الهند طائفة لا يستهان بها من السريان هم المالكاريون، ولها أتباع في العراق أيضاً. وطقوس السريان الكنسية مأخوذة من الطقس الأنطاكي، يستعملون فيها اللغة السريانية). انظر: المنجد في الأعلام (٣٥٤)، الموسوعة العربية الميسرة ١٤١٩هـ.

(٤) الملكانية: (المَلَكِيُّون: هو الاسم الذي أطلقه العرب على مسيحيي سورية=

البيزنطية. ولكن سرعان ما اعتُمد أسلوب التحريم والنبذ، فلم يعد الحوار الإسلامي المسيحي، الذي بدأ مأسوياً عند مباهلة المدينة (٦٣١) (القرآن ٦١،٣)^(١) حين خضع مسيحيو نجران للدولة الإسلامية الفتية، وقبلوا عهد الذمة الذي فرضته، سوى سلسلة من المصادمات السياسية أو الثقافية أو الدينية، أو وجدت فيها المماحكات الجدلية، والتحديات الأيديولوجية، جماً من الأفكار الخاطئة الناجمة عن إساءة في الفهم أو تسرع في الحكم، وتفاقت الأمور على مر الزمن^(٢).

■ وفي محاولة لتحديد مفهوم «الحوار»: (إن كلمة «الحوار» وإن درجت في الاستعمال أكثر من اللزوم، وصارت عرضة للالتباس، حتى ليؤثر عليها البعض لفظة «المشاركة» أو «التلاقي» يراد بها هنا: التعبير عن نمط من الوجود والعمل يأبى كل اعتزال، ويعني دائماً بالآخر، بل يعتقد أن العلاقة بالآخر هي التي تكوّن الشخصية. فمن الواجب إذن أن يكون الحوار الأمانة العميقة لكل مؤمنٍ جدّي صادق)^(٣).

■ ويحدد الكاتب أربعة استعدادات أساسية في أشخاص المتحاورين، ضرورية في نظره لبلوغ حوار حقيقي، تكشف بدورها عن حقيقة ذلك الحوار وطبيعته:

= الذين خضعوا لقرارات المجمع الخلقيدوني (٤٥١)، وهم في ذلك من جهة الإمبراطور. انضم فرع منهم إلى الكنيسة الكاثوليكية القرن (١٨). والفرع الثاني هم الروم الأرثوذكس لغتهم الطقسية اليونانية والعربية). المنجد في الأعلام (٦٨٤).

(١) يشير إلى الآية (٦١) من السورة الثالثة، سورة آل عمران وهي آية المباهلة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران].

(٢) المرجع السابق، (٢٥ - ٢٦).

(٣) المرجع السابق، (٤٥).

١) - قبول الواحد للآخر: ... يفترض استقبال المسيحيين والمسلمين بعضهم بعضاً قبول بعضهم للبعض الآخر، على ما بينهم من اختلافٍ عظيم، واحترام بعضهم بعضاً في تنوع تراثهم الديني، ومحاولة اكتشاف الآخر في جِدَّة اللقاء، سعياً إلى المزيد من التقدير والحب له. من هنا يجب أن يبدأ كل حوار...

٢ - التفاهم: ... والمطلوب هو التلاقي في سبيل التفاهم، ومعرفة كل واحدٍ للآخر، لا كما هو فقط، بل كما يريد أن يكون أيضاً... ولكن تبادل الإعلام لن يكفي أبداً لبلوغ التفاهم. فعلى المتحاورين كذلك أن يتحرروا مما عندهم من عقد النقص أو التفوق، ويكونوا أكثر تقبلاً لما قد يبيده الآخر من توضيحاتٍ لذاته أو لتراثه الديني، بحيث يصبح كل واحدٍ في النهاية قادراً على أن يضع نفسه في موضع غيره...

٣ - التعايش والمشاركة: على المسيحيين والمسلمين المدعوين إلى أن يعترف بعضهم ببعض في أصالتهم، ويتبادلوا الشهادة لأمانتهم، أن يتلاءموا بعضهم مع بعض، ويخترعوا مواقف تعزز الوحدة، ويتعاونوا حيثما يشعرون بأنهم ملتزمون القيم نفسها، ولن نلح أبداً بكفاية على ما يتوفر للحوار من إغناء عندما يستطيع الجميع أن يأكلوا معاً، ويتعاضدوا في العمل، ويعانوا متضامنين الآلام نفسها، ويتقاسموا في نفس الأعياد الفرح والبهجة... إن الاعتراف لكل فردٍ وللجماعة التي ينتمي إليها بما يحق لهم من أفضال، وما يختصون به من فضائل يقوي حظ الحوار في بلوغ تكاملٍ أسمى.

٤ - الجرأة والمخاطرة: والحوار، في كل حال، هو دوماً مغامرة لا يعرف فيها المتحاورون إلى أين ينتهون، وبحبسهم أن تقوم بينهم الثقة، وأن يشرعوا في التخاطب والتعايش. ولا بد لذلك من فسحة من

الحرية حتى يجرب كل واحد فيها حظه، مع اجتهاده في مراعاة محاوره وجماعته^(١).

• - ويبرز الكاتب جملة من المحاذير والمحترزات التي تخالف روح الحوار الصادق - في نظره - .

(ليس أسوأ للحوار من السعي الكاذب إلى التكييف، وقوامه عند المسيحي، انتقاص إيمانه حين عرضه بحيث يجعله مقبولاً لدى المسلمين. إن الحوار يفقد كل معناه إذا انتقص الفريق المسيحي إيمانه إلى حد جعله عموميات، وحجب عقائده التي تفترق عما يؤكده القرآن.

وليس المقصود هنا تحولاً بالانتقال من دين إلى آخر، بفعل «مناورات» إيديولوجية أو مداخلات مجتمعية: المؤمنون الحقيقيون كلهم مجمعون على نبذ أشكال الاجتذاب الديني هذه، التي تليق بالإيمان الذي يعيشونه، وبالله الذي يخدمونه... .

فلا مجال عندئذٍ لانتصار الواحد على الآخر، أو لاحتمال ضم الواحد إلى الآخر، أو للتباري في المجاملة والملاطفة: إن الحوار هو تساؤل في الإيمان، وتنافس أخوي في العمل «باسم الله»، «فما الحوار إلا صبرٌ طويل... (دعوة) تخلصت من أدران الجدل والدعاية... فتصبح أصلاً تفتحاً على الغير وانتبهاً إليه، تصبح بحثاً متواصلاً عن الحقيقة، وذلك بالتعمق في فهم القيم الدينية والإيمان بها إيماناً راسخاً، حتى تصير حياة الإنسان شهادة بحثاً... .

إلا أن هناك خطراً دقيقاً قد يتهدد حوارهم المشترك، وهو الارتياب، الصحيح أو الباطل، بنوايا المحاور، فتنسب إليه أفكارٌ مبيتة تهدف إلى الاجتذاب الديني.

(١) المرجع السابق، (٤٩ - ٥١).

أو لا يتهم بعضهم الحوار اليوم بأنه أسلوبٌ جديد، بل «مناورة» بارعة، لضم الآخر إلى أيديولوجية من يقوم بالمبادرة، أو إلى إيمانه، فينبغي إذن تكرار القول أن الحوار الصحيح يفترض عند الطرفين العزوف عن السعي إلى حمل الآخر على تغيير دينه، على وجه مصطنع، أو حملة على الشك في معتقده الديني، وسيكون ذلك مسخاً أو خيانة للحوار الحقيقي...»^(١).

ويلح الكاتب في مواضع كثيرة على «الارتقاء» بالحوار إلى مستوى «الحوار الروحي»، بل «الوحدة الروحية» الناتجة من الانفتاح على الآخر، والإعجاب بما لديه:

(إن حوار القيم الحضارية لا يمكن أن يكون فيه الكفاية للمؤمنين الذين يعلمون أن الحوار الأساسي هو الذي يفتحه الله وينميه ويقوده إلى غايته مع كل واحدٍ منهم، في إطار تراثه الديني، وحسبما يراه الله في حرية مقتضياته غير المرتقبة...).

فإذا كان عند المسيحيين والمسلمين كلامٌ كثير يتبادلونه عن القيم التي تهيمن على التزامهم خدمة البشر والمجتمع البشري، فهم يتبينون أيضاً أن بإمكانهم التحالف عن اختباراتهم الدينية بالمعنى الحقيقي، وعن جوابهم الشخصي للتلمسات الإلهية، وعن كنوز القداسة والصالح التي أنمتها وادخرتها المسيحية والإسلام على مدى التاريخ. إن «الانفتاح في البحث الروحي» يدعو حينئذٍ كل محاور إلى الإعجاب بما يكتشفه عند المؤمنين في الديانات الأخرى...

هذه الدعوة إلى الوحدة الحية في نفوس المتحاورين من المسيحيين والمسلمين، تشبه المساعي المسكونية إلى لَمِّ شمل جميع الذين ينتمون إلى يسوع المسيح رباً أَوْحَد...»^(٢).

(١) المرجع السابق، (٥٧ - ٦٢).

(٢) توجيهات في سبيل الحوار (١٣٧ - ١٣٩).

• ويقترب الكاتب أكثر في تطبيق هذه الوحدة الروحية بأسلوب عملي فيقول:

(والمسيحيون الذين يحضرون صلاة المسلم الأمين، التي يرددها خمس مرات في اليوم يشعرون بالاحترام والإعجاب، وكذلك المسلمون الذين يشهدون أحياناً صلاة الساعات، أو صلاة القداس (الأفخارستيا)^(١) في جماعة مسيحية، يأخذهم العجب، ويحسون بالتعاطف. ومن مصلحة المسيحيين أن يزدادوا معرفة لصيغ الصلاة العديدة عند محاوريتهم من المسلمين، كما أن هؤلاء يجنون بلا ريب فائدة من إيلائهم الصلوات المسيحية انتباهاً أشد. وعلى حوار المؤمنين إذن أن يسهل هذا التبادل لكنوز الصلاة الروحية التي جمعها هؤلاء وأولئك على مدى التاريخ.

وقد يحدث أن يشعر المسيحيون والمسلمون بالحاجة إلى أن يصلوا معاً، ولكنهم يرون على الفور صعوبة تلبية تلك الحاجة. ويبدو أن على الجميع أن يحترم كل منهم احتراماً كاملاً قوام الصلاة الطقسية والعبادة المفروضة عند الآخر، دون أن يحاولوا أبداً المشاركة فيها مباشرة، على أن يتساهلوا ويقبلوا أن يشهدوها متعاطفين إذا ما دعوا إلى ذلك، أو طلبوا الحضور باسم الإضافة الإبراهيمية... قد يجد الفريقان في أسوة الأولياء والقديسين الجرأة الضرورية لاستنباط صيغ مشتركة جديدة للتسبيح والابتهاال تجمعهما في اختبار للصلاة يتم في حياة كل منهما)^(٢).

• ونختتم هذه النقولات بإمطة اللثام عن موقف الكاتب، وموقف

(١) راجع مبحث الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارى في التمهيد. الأسرار السبعة (١٠١ - ١٠٢).

(٢) المرجع السابق، (١٤٧ - ١٤٩).

الكنيسة الكاثوليكية بالطبع، من الحوار في أخطر القضايا، وهي قضية التوحيد والألوهية، وحقيقة عيسى عليه السلام، فيقرر قائلاً: (ليس من النافع، بل قد يكون من الضار للحوار، إعادة الجدل وتوسيعه كما حصل في أوائل القرون الوسطى. ويبدو أنه من المستحيل التقريب بين المسيحيين والمسلمين في هذا المجال، باعتماد البراهين الفلسفية، أو الاستدلالات اللاهوتية الكلامية)^(١).

ونكتفي بهذا القدر من كتاب «توجيهات في سبيل الحوار» لاستكناه حقيقة دعوة التقريب والحوار كما يراها الجانب النصراني، وهو يخاطب مواطنيه، وتتضح لنا معالم أساسية نستخلصها من العرض السابق:

أولاً: أن تاريخ العلاقات الإسلامية النصرانية خلا من الحوار بصورته الصحيحة، وعلى الأخص ما جرى في العهد النبوي مع نصارى نجران، حيث يصفه المؤلف بأنه «مأسوي» انتهى بالمباهلة والإخضاع، واعتمد أسلوب التحريم والنبد. وما أعقبه بعد ذلك طوال التاريخ كان سلسلة من المصادمات والمماحكات والتحديات.

ومن ثم فالحوار المطلوب وليد هذا العصر الحديث. وأسلوب المناظرة والمجادلة والردود لا يتفق ومشروع الحوار الحقيقي المقترح.

ثانياً: حقيقة الحوار المطلوب انفتاح مطلق على الآخر يأبى كل اعتزال، ويعنى دائماً بالآخر، يتقبله ويحترم تراثه، ويحاول أن يكتشفه ويتعرف عليه، ومن ثم يتعايش معه ويشاركه آلامه وأفراحه، وينطلق معه في حوار مطلق بلا قيد ولا شرط إلى المجهول، (كالمسافرين في الطريق لا يعرفون جيداً إلى أين يقودهم الله، ولكنهم يقرون بأنه يريدهم أن يسيروا معاً)^(٢). تلك حقيقة الحوار وأسلوبه في نظر الكنيسة الكاثوليكية.

(١) توجيهات في سبيل الحوار (١٠٩).

(٢) المرجع السابق، (٦٢).

ثالثاً: هدف الحوار تعزيز التعاون بين الجميع، الموصول إلى التعمق في العقيدة والتراث الديني، الحامل للتغيير إلى الأفضل، ومحاولة الارتقاء نحو الوحدة الروحية، والمشاركة التعبدية، بل واستنباط صيغ مشتركة جديدة للصلاة والتسبيح يمارسها الطرفان معاً.

رابعاً: والحوار الحقيقي، والتقارب الصادق يربأ في نظر المؤلف عن محاولات الاجتذاب الديني والدعوي بجميع أشكاله، بل يعد ذلك خيانة لا تليق بالهدف النبيل الذي يسعى إليه. كما يرفض الحوار الصادق التكيف الكاذب والمجاملة على حساب الضمير والمعتقد، بل يؤكد الكاتب لمواطنيه النصارى أن مجرد التعبير عن إيمانه بعموميات، وحجب معتقده الذي يخالف صريح القرآن إلى الحد الذي يجعله مقبولاً لدى المسلمين انتقاص وسعي كاذب. كما لا بد لطرفي الحوار من السلامة من مشاعر الارتياح تجاه بعضهما بعضاً من تبيت نية مسبقة للضم والتشكيك والاجتذاب.

خامساً: ومع طلاقة الحوار، ورحابة الدعوة إلى الانفتاح، إلا أن للحوار حداً لا يجوز تخطيه، بل ولا الاقتراب منه، ذلك ما يتصل بعقيدة التثليث والتجسد والفداء في شخصية المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، فالحوار هنا ضار بل مستحيل.

إن الحوار الذي يصفه الأب موريس بورمانس، شارحاً بذلك مضامين قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني وأهدافه ليمثل نمطاً غريباً، وبدعة محدثة على منهج الدعوة الإسلامية في ماهيته وفي أسلوبه وفي غاياته.

إن الكاتب يغالي في تعظيم شأن الحوار وتمجيده، حتى يستحيل في حس القارئ إلى هدف بدلاً من كونه وسيلة. لقد عرف المسلمون منذ فجر الدعوة الإسلامية دعوة أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن، بالحجة والبيان والدليل والبرهان، وتركوا في ذلك تراثاً

ضخماً، ولكن المحاور النصراني يريد أن يبرئ الحوار الصادق من أدنى تهمة للدعوة والاجتذاب والإقناع، ويرى في ذلك تعكيراً لصفاء الحوار!

كما استقر عند المسلمين بداهة أن أهم القضايا التي يجادلون فيها أهل الكتاب هي قضية التوحيد المطلق لله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ونبذ مظاهر الشرك وعبودية سوى الله تعالى، وعمدتهم في هذا الجدل الشرعي الصحيح قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. ولكن دعاة الحوار الحديث يريدون تنحية هذه القضية الأساسية وتحاشيها، لأن الحوار فيها يفسد الحوار، وهكذا يصبح الحوار غاية لا وسيلة. وفضلاً عن ذلك هو غاية غير واضحة يخطط المتحاورون فيه في التيه، بحرية ومغامرة لا يدرون إلى أين ينتهون! وكل ذلك مرفوض عقلاً، فضلاً عن كونه ردةً وزندقةً ديناً وشرعاً. ولا أدل على ذلك من تلك المطالب والمقترحات التي تقدم بها الكاتب للمشاركات الروحية من صلوات وابتهالات، لا يمكن أن يقبل بها مسلم يعي حقيقة دينه. وربما وجدت صدىً لدى بعض الزنادقة من المنتسبين إلى الإسلام من غلاة الصوفية الذين يسقطون الحدود والرسوم والشعائر، أو الفرق الباطنية الضالة. وهذا يفسر ميل الكاتب^(١) وغيره من الآباء الروحيين للنصارى إلى أقطاب التصوف من القائلين بوحدة الوجود والاتحاد والحلول، وإعجابهم بهم، وتمجيدهم لهم، وذلك لاتفاق المشرب.

(١) انظر في المرجع السابق، (٨٩ - ٩١، ١٠٣، ١٠٥، ١٥٠).

ج - (حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل):

وقد أثار هذا التحول التاريخي في موقف الكنيسة الكاثوليكية من الأديان سواء ما يتعلق بالقاعدة النظرية حول توسيع فكرة الخلاص وشمولها من هم خارج الكنيسة، أو ما ترتب على ذلك من الدعوة إلى الحوار والبحث عن القيم المشتركة والتعاون في تنميتها، أثار جدلاً واسعاً في أروقة الكنيسة ذاتها وخارجها، واشتعل فتيل الجدل - بطبيعة الحال - في الملتقيات الأولى للمجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٢م بين الدوائر الكنسية المحافظة في الفاتيكان والآباء التقدميين الراغبين في الانفتاح على عالم جديد منفتح.

وفي دورة المجمع الثانية عام ١٩٦٣م، بعد وفاة البابا يوحنا الثالث والعشرين وتتويج البابا بولس السادس، بلغ الجدل ذروته في مناقشة أهم دساتير المجمع المتعلق بتحديد هدف الكنيسة ورسالتها وعلاقاتها، ويصور الأب غابي هاشم البولسي هذه الأزمة بقوله: (احتل مشروع «الكنيسة»^(١) مكان الصدارة في هذه الدورة، بل في أبحاث المجمع كله، ولا عجب في ذلك، لأن لهذا الموضوع أهميته الأساسية في حياة الكنيسة، إذ عليه يتم الاعتماد، وإليه يتم الرجوع في بناء الأسس اللاهوتية وانعكاساتها على سائر مضامير الحياة الكنسية، لقد شكل هذا المشروع المنعطف الخطير، وتسبب بأزمة حادة، وضعت مصير الكنيسة وتوجه المجمع على المحك. وسرى الريب في النفوس الضعيفة، فراحت تتساءل: هل تقوى الكنيسة على مواجهة ذاتها والانفتاح على العالم المعاصر، أم تتمسك بأهداب سلطة زمنية، وامتيازات إدارية، فتدير بالتالي ظهرها للفرصة الذهبية، ضاربة عرض

(١) المقصود مشروع صياغة الدستور العقدي الأول للمجمع المسمى «الكنيسة».

الحائظ بآمال الكثيرين وتطلعاتهم؟ تلك لعمري أوج الأزمة التي بلغتها المناقشات قبيل التصويت التاريخي الذي جرى في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩٦٣م^(١).

وأسفر التصويت عن تفوق النزعة التقدمية، وتمخض المجمع عن تلك الوثيقة التاريخية المسماة «الكنيسة. دستور عقائدي» متضمنة تلك الفقرة المشار إليها آنفاً حول مفهوم الخلاص، والتخلي عن اعتبار الإسلام هرطقة دينية مسيحية، والاعتراف به ديناً رسمياً جديراً بالاحترام^(٢). وجرى جدل مماثل حول البيان المجمع حول «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية»^(٣). ولكن الروح الانفتاحية، والعبارات التصالحية سادت في النهاية.

ولكن هذا الجدل الذي حسم رسمياً بصدور دساتير المجمع وقراراته وبياناته^(٤) لم تنحسم مادته واقعياً في العقول والصدور. فثارت إشكالات متعددة حول بنوده المختلفة. ومن أبرز هذه الإشكالات المتصلة بموضوع بحثنا، معضلة العلاقة بين الحوار والبشارة، ومحاولة التوفيق بينهما. وسنلقي عليها بعض الضوء لكون ذلك يسهم بشكل جيد في كشف المفهوم الكنسي لقضية «الحوار» وأهدافه ومراميها، عند مقابلته بالقضية العتيقة التليدة لدى الكنيسة وهي «البشارة».

(١) من مقدمة: (المجمع الفاتيكاني الثاني) (١٦، ١٧).

(٢) المرجع السابق، (٥٢).

(٣) انظر مقدمة البيان في المرجع السابق، (٦٢٥، ٦٢٩).

(٤) خرجت الكنيسة الكاثوليكية من المجمع بمجموعة من الوثائق التي تتفاوت قيمتها من الناحية الإيمانية، كما تدل على ذلك العناوين الرئيسية الثلاثة: فالدستور غير القرار، وكلاهما غير البيان، ذلك لأن الدستور يحمل سمة الديمومة، فيما القرار له صفة عملية، وأحكام مرتبطة بظروف الزمان والمكان، وأما البيان فإعلان موقف من موضوع ما، وهو رهن بمناسبته التاريخية). من مقدمة كتاب: المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات (٢٠).

وقد أصدرت أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين عقب الجمعية العمومية التي عقدت سنة ١٩٨٤م وثيقة بعنوان: «موقف الكنيسة من مؤمني سائر الأديان: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار والرسالة» تضمنت ذكر أربعة أشكال من أشكال الحوار هي:

(أ) - حوار الحياة: حيث يعمل الناس على أن يعيشوا بروح انفتاح وحسن جوار، مقتسمين أفراحهم وأحزانهم، ومشاكلهم ومشاكلهم الإنسانية.

ب - حوار الأعمال: حيث يتعاون المسيحيون والآخرين في سبيل تنمية كاملة وتحرر للإنسان غير منقوص.

ج - حوار التبادلات اللاهوتية: حيث يعمل أخصائيون على تعميق الفهم للتراث الديني لدى كلٍ منهم، وتقدير القيم الروحية الخاصة بكل منهم تقديراً متبادلاً.

د - حوار الخبرة الدينية: حيث يتقاسم أشخاص متجذرون في تقاليدهم الدينية الخاصة بثرواتهم الروحية، من مثل ما يتعلق بالصلاة والتأمل، وبالإيمان وطرق البحث عن الله والمطلق^(١).

وبعد تحول «الأمانة» إلى «المجمع البابوي للحوار بين الأديان»، قام المجمع بمعالجة أوسع للقضية، وإعداد وثيقة جديدة بعنوان: «حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل»، تم إقرارها في الجمعية العمومية للمجلس البابوي من أجل

(١) حوار بشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان، والتبشير بالإنجيل (٣١) وانظر: شرح هذه الأشكال بمزيد من التفصيل عند: موريس بورمانس في: توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٤٦ - ٤٨)، وعادل تيودور خوري في الفاتيكان والحوار الإسلامي المسيحي، مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/٤٦ - ٥٠).

الحوار بين الأديان في نيسان - أبريل سنة ١٩٩٠م^(١). وقد اشترك في وضع الوثيقة كل من: رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان، ورئيس مجمع تبشير الأمم، ووقعها في أيار - مايو سنة ١٩٩١م.

ونظراً لحدثة الوثيقة وأهميتها ورسميتها، فسنعتمدها مرجعاً أصيلاً في استجلاء حقيقة الحوار من وجهة النظر الكاثوليكية بعد خضوعه لمطارق النقد من داخل الكنيسة نفسها.

• في مقدمة الوثيقة تصوير لأبعاد المشكلة: (إن عمل الحوار يبعث في نفوس الكثيرين بعض المسائل. فهناك من يبدو لهم في تفكيرهم الخاطئ، أن الحوار في رسالة الكنيسة الحالية، يجب أن يقوم مقام البشارة. وهناك آخرون يقفون موقفاً معاكساً، ويمتنع عليهم فهم قيمة الحوار بين الأديان. وهناك أخيراً من تولتهم الحيرة فتساءلوا قائلين: لئن بلغ الحوار بين الأديان هذه الدرجة من الأهمية، فهل فقدت الرسالة الإنجيلية دورها المُلح؟ هل أصبح العمل على ضم الناس إلى حظيرة الكنيسة أمراً ثانوياً، أو بالأحرى نافلاً؟ من هنا الحاجة إلى بعض التوجيهات العقائدية والراعوية، ترمي هذه الوثيقة إلى المشاركة فيها، من غير أن تدعي التمكن من الإجابة الشافية عن شتى الأسئلة المعقدة التي يثيرها الموضوع)^(٢).

تحاول الوثيقة أولاً إيجاد قاعدة لتسوية وتبرير عملية الحوار مع غير النصارى بإثبات تضمن عقائدهم وتقاليدهم ما يستحق الاحترام والتقدير أولاً، ثم، وهذا هو الجديد هاهنا، إشعار النصراني أن تلك

(١) انظر مقدمة: حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل، المجمع البابوي للحوار بين الأديان. تعريب دائرة الترجمة في المكتبة البولسية. الطبعة الأولى ١٩٩٣م. (٧، ٨).

(٢) حوار وبشارة (٩).

الجوانب المشرقة لدى الآخرين إنما هي أثر للنعمة الحاصلة بيسوع المسيح بطريقة سرية غير مدركة لدى أولئك الأقوام:

• (...) ينتج عن سر الوحدة هذا أن جميع المخلصين والمخلصات يشتركون، وإن بأشكالٍ مختلفة، بسر الخلاص عينه في يسوع المسيح بواسطة روحه. هذا ما يعيه المسيحيون جيداً بفضل إيمانهم فيما يغيب عن وعي الآخرين أن يسوع هو ينبوع خلاصهم. بيد أن سر الخلاص يشملهم بطرقٍ يعرفها الله، بفضل عمل روح المسيح غير المنظور. والواقع أن أعضاء الديانات الأخرى يستجيبون لدعوة الله، وينالون الخلاص بيسوع المسيح، بممارسة صادقة لما هو خير في تقاليدهم الدينية، واتباع توجيهات ضميرهم، حتى وإن لم يقرروا ويعترفوا به على أنه مخلصهم^(١).

• (...) إننا حين نؤكد أن التقاليد الدينية الأخرى تحتوي على «عناصر نعمة» لا نعني بذلك أن كل ما فيها ثمرة النعمة. فالخطيئة عملت في العالم. والتقاليد الدينية الأخرى، على ما لها من قيمة إيجابية، تعكس أيضاً حدود العقل البشري الذي يميل بعض الأحيان إلى اختيار الشر. وإن نظرة منفتحة وإيجابية على التقاليد الدينية الأخرى، لا تسمح لنا بالتغاضي عن التناقضات التي يمكن أن تكون بينها وبين الوحي المسيحي. وحيث يقتضي الأمر لا بد من الاعتراف بوجود تعارض بين بعض العناصر الأساسية للدين المسيحي، وبعض مظاهر هذه التقاليد^(٢).

وهكذا تجمع الوثيقة أزمة «الخلاص» التي سبق أن أثبتها المجمع الفاتيكاني لغير النصارى، بيد العقيدة النصرانية، فالآخرون لم يهتدوا

(١) حوار وبشارة (٢٤، ٢٥).

(٢) حوار وبشارة (٢٤، ٢٥).

في نظر الكنيسة إلى طريق الله، وسبيل الخلاص، بصفة مستقلة، وإنما بنوع من التأثير غير المدرك من الروح القدس، أحد أقانيم التثليث النصراني، وبالتالي فكل «عنصر نعمة» موجود في تلك الأديان والتقاليد الأخرى، فمن عمل يسوع. وما سوى ذلك مما لا تقره العقيدة النصرانية فمن أثر الخطيئة، ولا يمكن حينئذٍ التغاضي عنها.

وبهذا يتضح إن عملية «تأسيس» الحوار للرافضين له من الجانب الكاثوليكي، الذين يعتقدون أنه يعارض مهمة «البشارة»، تنطلق من محاولة نسبة ما لدى غير النصارى من معتقدات وممارسات صائبة، إلى تأثرهم غير الواعي بعمل الخلاص النصراني، ومن هنا فقط، تستحق الاحترام والتقدير، فلا تعارض إذاً يقع في ضمير النصراني الذي يعتقد أنه يمتلك «الحقيقة المطلقة»، ما دامت عناصر الخير والصواب لدى الآخرين هي من تأثير الأسرار النصرانية، شعر الآخرون أم لم يشعروا. فما أثر استبطان هذه الفكرة على قضية «الحوار»؟ تخلص الوثيقة إلى القول: (ذلك يعني إذن أن المسيحيين، وهم يعتقدون الحوار بروح منفتح مع أتباع التقاليد الدينية الأخرى، يستطيعون أن يحثوهم سلمياً على التفكير في محتوى معتقداتهم، وعلى المسيحيين أنفسهم أن يقبلوا بدورهم أن يكونوا موضع تساؤل، ومع ما لديهم من ملء الوحي الإلهي في يسوع المسيح، قد تكون الطريقة التي يفهمون بها ديانتهم ويعيشونها بحاجة إلى تنقية)^(١).

■ وبهذا الوضوح تفشي الوثيقة هدف الحوار وثمرته، وتوزع المهام على طرفي الحوار كالتالي:

١ - على أصحاب الديانات الأخرى إعادة النظر في مفردات عقائدهم، علّهم أن يكتشفوا أصولها النصرانية التي أثمرت لهم هذه الممارسات والمعتقدات الصائبة.

(١) حوار وبشارة (٢٥، ٢٦).

٢ - على النصارى حثهم على ذلك بطريقة سلمية وهي «الحوار»، لا «المجابهة». وليس عليهم أن يعيدوا النظر في معتقداتهم، لأنها حقٌّ مطلق! لكن عليهم أن يقبلوا - صابرين محتسبين - أن تكون تلك العقائد موضوع تساؤل من قبل الآخرين فحسب. ثم لا تنسى الوثيقة أن تكافئ المحاورين النصارى باعتبار ممارسة الحوار تتيح لهم «تنقية» تدينهم، و«تجديد» طريقة فهمهم له، وبذلك يلتقي «الحوار» و«البشارة» في هدفٍ مشترك، هو «الخلاص» بالمفهوم الكنسي. تقول الوثيقة: (في هذا الإطار يسهل أكثر فأكثر فهم السبب والمعنى اللذين يجعلان الحوار بين الأديان عنصراً جوهرياً من رسالة الكنيسة التبشيرية، والسبب الأساسي للالتزام الكنيسة بالحوار ليس «أنثروبولوجياً»^(١) فحسب، بل لاهوتي أيضاً. ففي حوار يستمر مدى العصور، وهب الله الخلاص، ولم يبرح يهبه للبشر. والكنيسة وفاءً للمبادرة الإلهية توجب على نفسها إذن أن تدخل في حوار خلاصي مع الجميع)^(٢).

ويشرح القرار المجمعي «إلى الأمم» طبيعة هذا الحوار الخلاصي وحقيقته: (إن تلاميذ المسيح المتحدين بحياتهم وعملهم اتحاداً وثيقاً بالبشر، يتمنون أن يقدموا لهم شهادة المسيح الحق، ويعملون من أجل خلاصهم حتى حيث لا يتمكنون من التبشير تبشيراً كاملاً بالمسيح. «إلى الأمم ١٢»^(٣)).

وهكذا يتبين أن الحوار ليس مشروعاً مستقلاً، بل هو مشمول

(١) الأنثروبولوجيا Anthropology: علم الإنسان (علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته) المورد: قاموس إنكليزي - عربي. منير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت طبعة ١٩٧٦م الطبعة العاشرة. (٥٢).

(٢) حوار وبشارة (٢٩).

(٣) حوار وبشارة (٣٠).

بالمشروع الأساسي العتيد؛ البشارة. وما لا يدرك كله لا يترك جُلّه. ولكن الوثيقة تعرب صراحة عن الأمنية النهائية حين تقول: (نظراً إلى هذا الهدف، أي قيام الجميع بارتداد أعمق إلى الله، يكون للحوار بين الأديان قيمته الخاصة. وفي أثناء هذا الارتداد، «قد يُولد القرار بالتخلي عن موقف روحي أو ديني سابق لاعتناق آخر» «موقف الكنيسة (٣٧)»^(١).

وتمضي الوثيقة قدماً في التأكيد على ضرورة «إعلان بشرى يسوع المسيح»، وأصالة هذه المهمة، ودور الكنيسة، وطرائق إعلان البشري، والعقبات التي تواجه ذلك^(٢)، حتى إن القارئ ليتساءل في ظل هذه التأكيدات الواضحة لأهمية التبشير المباشر الصريح، لِمَ الحوار إذن، وما الحاجة إليه؟

وتجيب الوثيقة عن هذا التساؤل في نهاية الفصل: (من البديهي إذن أن تكون الكنيسة لأسباب سياسية أو غير سياسية، في أوضاع يستحيل فيها عملياً إعلان البشري، فتقوم برسالتها التبشيرية ليس فقط بحضورها وشهادتها، بل بنشاطاتها، كالالتزام بالإنماء البشري، وبالحوار نفسه. وأما في الأوضاع التي تتوافر فيها للناس الاستعدادات لسماع رسالة الإنجيل، والإمكانات للاستجابة لها، فينبغي للكنيسة أن تبادر إلى تطلعات هؤلاء الناس وتحقيق آمالهم)^(٣).

إن هذا النص يدل على أن «الحوار» تَقِيّة تتخذ في الظروف غير المناسبة أو بعبارة أخرى: هو «أضعف الإيمان». فحينما يتعذر عملياً إعلان البشري فلا أقل من طرح الموضوع للحوار، فلن يعدم المحاور

(١) حوار وبشارة (٣٠).

(٢) انظر: حوار وبشارة (٤٣ - ٦٤).

(٣) حوار وبشارة (٦٤).

فائدةً مهما قلّت: (الحوار الحقيقي بين الأديان يفترض من قبل المسيحي الرغبة في حمل الغير على معرفة يسوع ومحبه أكثر فأكثر. وإعلان يسوع المسيح يجب أن يتم بروح الحوار الإنجيلية، ولا شك أن النشاطين يبقيان متميزين. إلا أن التجربة تدل على أن الكنيسة المحلية وحدها، والشخص وحده يستطيعان أن يلتزما بهذا أو ذاك^(١).

العبارات واضحة المدلول جداً على كون الحوار وظيفة وقتية تملئها ظروف محلية يقدرها الفرد أو الكنيسة، وهو على كل حال يهدف إلى حمل الغير على معرفة يسوع ومحبه أكثر فأكثر. لقد سقطت الأقنعة، وظهرت الحقيقة من بين ركام الجمل الغائمة والعبارات المطاطية، والأساليب حمالة الأوجه. ونختم بهذا النداء الذي توجهه الوثيقة للنصارى:

(جميع المسيحيين مدعوون شخصياً ليكونوا شركاء بهاتين الطريقتين لإتمام هذه الرسالة الوحيدة للكنيسة، أي إعلان البشرى والحوار. أما شكل مشاركتهم فيرتبط بالظروف، وبدرجة إعدادهم لها. ولكن عليهم أن يتذكروا بأن الحوار كما قيل في السابق لا يكون كل رسالة الكنيسة، وهو لا يستطيع أن يحل مكان إعلان البشرى إلا أنه يبقى متجهاً نحو إعلانها)^(٢).

إن هذه التحولات، والتقلبات في مناخ الكنيسة الكاثوليكية تجاه قضية الحوار، لتكشف عن صراع مبطن بين أجنحة القوى داخل الكنيسة، والتي تمتد جذورها إلى المداولات الحامية التي دارت في أروقة المجمع الفاتيكاني الثاني أثناء مناقشة مسودات الدساتير والقرارات والبيانات بين أصحاب النزعات المختلفة. بل في الحقيقة

(١) حوار وبشارة (٦٧).

(٢) حوار وبشارة (٧٣).

إلى ما قبل المجمع ذاته فيما يتعلق بالإسلام والقرآن والنبوة، في مجال الدراسات الكاثوليكية المعاصرة (الإسلاميات)؛ إذ يشير إلکسي جورافسكي إلى وجود ثلاثة اتجاهات سابقة للمجمع:

(اتجاه الحد الأعلى: ويعترف أنصاره بصورة أو بأخرى بالطابع الإلهي للقرآن. أما الاتجاه المضاد فيمثل في التيار «المنغلق» أو «المتحفظ» إزاء الإسلام، ويطلق على أتباعه «أصحاب الحد الأدنى»... الذي يرى في الإسلام محاولة فاشلة قام بها حاخام مكی لتهويد العرب. مستخدماً لهذه الغاية «الأمي» محمد^(١)).

تيار الوسط: الموقف الرسمي للكنيسة المعاصرة - موقف الود، والانفتاح، والحوار مع المسلمين. مع أن موقفهم بالنسبة لنبوة محمد ﷺ، والطبيعة الإلهية للقرآن أكثر تحفظاً... وينطلق موقفهم من ضرورة الحوار والتقارب مع الإسلام في الميادين الاجتماعية والسياسية، والثقافية والروحية، مع ابتعادهم عن المنطقة التي لا تمس، أو التي لا تتحمل المناقشة المفصلة لحساسية الأمر، ونعني بها المسائل المتعلقة بالأسس والمبادئ العقائدية الكبرى في كلا الديانتين^(٢).

والحقيقة أن المجمع الفاتيكاني الثاني قد سجل انتصاراً لأنصار التقارب والحوار، لكنه لم يقض على الاتجاهات الأخرى، بل ظلت تصطرع في الخفاء، (ففي مرحلة ما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، برزت في الكاثوليكية ثلاث نزعات من حيث الموقف تجاه الحوار مع الإسلام:

(١) قد حكى الله هذه المقولة البائرة عن أمثالهم من المنكرين في مكة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل].

(٢) الإسلام والمسيحية. (١٢٨ - ١٣٠).

■ أنصار النزعة الأساسية «الأكبر عدداً»، يؤسسون موقفهم المؤيد للحوار انطلاقاً من قرارات المجمع، ووثائق الفاتيكان، والرسائل البابوية اللاحقة، منطلقين من الاعتراف بـ«الصلة الروحية» القائمة بين الديانتين، والتي تتجلى أكثر وضوحاً في العقيدة التوحيدية^(١). وهي العقيدة السامية، التي ستؤدي إلى التفاهم المتبادل، والصون وتعزيز المشترك «للعدالة الاجتماعية والسلام»...

■ أما أنصار النزعة الثانية، فإنهم لا يمانعون من حيث المبدأ في إقامة الحوار بين الديانتين، لكنهم يشترطون إقامته ضمن المجال الديني البحت، بحيث ينأى الحوار عن مناقشة الإشكاليات والمسائل الدينية التي تتصل بمفهوم «الأمة» و«الكنيسة العالمية»...

■ بينما تتجلى مواقف أنصار النزعة الثالثة ومنطلقاتهم في رسالة الأسقف اللبناني ب. بسيم^(٢) إلى الكاردينال بينيدولي، الذي ترأس أمانة سر اللجنة الخاصة بشؤون الديانات غير المسيحية، فبعد أن يعمم بعض الآراء السياسية - التشريعية للنظرية الإسلامية، يؤكد ب. بسيم أن الشكل الوحيد المقبول لدى المسلمين فيما يخص النسق الاجتماعي - السياسي هو «الأمة» أي الجماعة الإسلامية الثيوقراطية^(٣)، التي تضع المسلمين الأغلبية في مرتبة «الحامي» و«الراعي» لديانات الأقليات الأخرى، ولهذا فإنه في حدود العالم الإسلامي لا يمكن الحديث عن أي مساواة، بما في ذلك الحقوق المدنية بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى، وهذا الواقع يحول وحده - حسب رأي ب. بسيم - دون إقامة أي حوار مفيد بين الديانتين^(٤).

(١) أين التوحيد في عقيدة التثليث؟!

(٢) بلوس باسيم - أو: بسيم - النائب الرسولي للاتين.

(٣) الثيوقراطية Theocracy: الحكومة الدينية.. دولة خاضعة لحكم رجال الدين. المورد (٩٦٢).

(٤) الإسلام والمسيحية. (١٥١ - ١٥٣).

إن هذه النزعات داخل الكنيسة الكاثوليكية عميقة متجذرة، وتتأثر كل منها قوة وضعفاً بحسب متغيراتٍ شتى، مثل مستوى الاستجابة الإسلامية للحوار، والأحداث العالمية السائدة في العالمين الإسلامي والنصراني، وقبل ذلك وأثناءه وبعده المصلحة العليا للكنيسة ورسالتها التنصيرية.

وحيث إننا لا نترقب مجمعاً مسكونياً وشيكاً ليفصل بين هذه الاتجاهات ويرجح إحدى الكفتين بقانون التصويت المعتمد في تلك المجمع منذ فجر النصرانية، فإننا لا نملك أن نقطع بالرأي السائد المعتمد إلا من خلال زاوية رصدٍ واحدة في نظري، وهي منهجية بابا الفاتيكان الذي يملك سلطات واسعة تصل إلى حد «العصمة» عندهم، ويقوم تباعاً بتوجيه الرسائل لأساقفته في مختلف القضايا في نشاطٍ دائم لا نظير له في تاريخ باباوات روما، وبالتالي فإن موقفه من قضية التقريب يعبر عن الموقف الرسمي للراهن للكنيسة الكاثوليكية. ونحاول في الصفحات التالية استطلاع هذا الموقف.

موقف البابا يوحنا بولس الثاني من التقريب بين الأديان:

يقف على رأس هرم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منذ عام ١٩٧٨م البابا «يوحنا بولس الثاني»، الذي تميز بنشاطه وحيويته، ورحلاته المتعددة لمختلف أقطار العالم لنشر النصرانية، وتفقد أحوال رعيته الكاثوليكية^(١).

ويعد بابا روما الرئيس الأعلى لنصارى العالم على اختلاف طوائفهم وتعدد انقساماتهم، ولا يداني منصبه هذا أي منصب ديني نصراني في العالم، ويحمل هذا البابا ألقاباً فخمة، تشي بالمكانة

(١) سيأتي مزيد تفصيل لمحاولات البابا يوحنا بولس الثاني العملية للتقريب بين الأديان في فصل: المحاولات الجماعية من الباب الثاني.

الكبرى التي يتبوؤها بين أتباع ملته. مثل: خليفة القديس بطرس، ونائب يسوع المسيح، والحبر الأعظم للكنيسة العالمية، إلى غير ذلك من الألقاب الدالة على مستوى تمثيله الرفيع للنصارى.

وقد دأب البابا يوحنا بولس الثاني على ترديد نصوص المجمع الفاتيكاني الثاني المتعلقة بالمسلمين في كل مناسبة يحصل بها نوع اتصال أو زيارة تتعلق بالمسلمين، والحوار معهم. وقد كان أيام انعقاد المجمع قد تجاوز الأربعين من عمره وكان من الأعضاء المشاركين الأساسيين بدرجة أسقف^(١).

وفي فترة بابويته كثر الحديث عن قضية الحوار، والعلاقة بين الحوار والبشارة، واستضاف «الفاتيكان» العديد من اللقاءات الدينية المتنوعة، وشارك في الكثير من مؤتمرات التقارب والحوار، وأصدر الوثائق والإرشادات المتعلقة بقضية الحوار والبشارة، وأكد البابا بنفسه على تبني الحوار مع الأديان عموماً، والإسلام خصوصاً، انطلاقاً من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه وضع الحوار في إطار المهمة الأساسية للكنيسة، وهي التبشير. فمع عناية البابا بالحوار واستمراره، كقوله في رسالة الفادي: (المؤمنون جميعهم، والجماعات المسيحية كلها، مدعوون إلى ممارسة الحوار... إن الحوار هو الطريق إلى الملكوت)^(٢)، إلا إنه في خطابه الموجه إلى أعضاء الجمعية العمومية للمجلس البابوي للحوار بين الأديان المنعقد عام ١٩٧٨م يجعله قسماً توأماً للتبشير، فيقول: (. . . كما أن الحوار بين الأديان هو مادة من مواد رسالة الكنيسة، فإن إعلان عمل الله الخلاصي في سيدنا يسوع

(١) انظر: يوحنا بولس الثاني والإسلام. للدكتورة: زينب عبد العزيز (١٩).

(٢) رسالة الفادي: البابا يوحنا بولس الثاني. اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام. جل الديب - لبنان. صدرت في روما ١٩٩٠م. (٩٠).

المسيح هو أيضاً مادة أخرى... وإنه من غير الجائز أن يختار الواحد، ويتجاهل الآخر، أو يطرح^(١).

أما الرحم الجامع لهذين التوأمين فيتبين بقوله: (إن الحوار بين الديانات يشكل جزءاً من رسالة الكنيسة التبشيرية. فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناء متبادلين، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم. إنه بالعكس، مرتبط بها، بنوع خاص، وهو تعبير عنها...).

إن الخلاص يأتي من المسيح، وإن الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل...

تعتبر الكنيسة أن ليس ثمة من تناقض بين البشارة بالمسيح، والحوار بين الديانات، ولكنها تشعر بضرورة تنسيقهما في إطار رسالتها إلى الأمم^(٢)، ولعل سر احتفاء البابا يوحنا بولس الثاني بالحوار، هو أنه يرى فيه معبراً ثقافياً ينفذ التبشير من خلاله إلى أعماق الحضارات الأخرى، بعد تأنيسه بالحوار، وذلك ما اصطاح الكنسيون على تسميته بالغرسة الثقافي للمسيحية المستنبت في تربة ثقافات أخرى. يقول البابا في الإرشاد الرسولي المعنون بـ«تبليغ التعليم الديني»: (إن رسالة البشارة متضمنة في الثقافة الإنجيلية التي لا يجب أن تنفصل عنها. إنها تنتقل عبر حوار رسولي متضمن بالضرورة في حوار ثقافي بعينه. إن قوة الإنجيل قادرة على التغيير والتجديد، لذلك لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات، وعندئذ فإن التعليم الديني سيتأصل في مختلف الثقافات، ويضفي كمال المسيح على قيمها الشرعية)^(٣).

(١) عن حوار وبشارة (١٠).

(٢) رسالة الفادي (٨٦ - ٨٧).

(٣) نقلاً عن: تنصير العالم. (مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني): د. زينب عبد العزيز. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. المنصورة - مصر. الطبعة الأولى (١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م). (١٠٧).

وفي هذا القدر تفسير وبيان لطبيعة «الحوار» الذي ينشده راعي الكنيسة الكاثوليكية، إنه الحوار المتدسس الذي لا يعني في الحقيقة معنى التبادل، والاستعداد للتغيير، والتجرد، والمجازفة، من طرفي الحوار كما كانت الكنيسة تدعي ذلك عقب المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه الحوار الذي يشترط مسبقاً أنه: (لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات).

إن الحوار في نظر البابا عملية نفسية يخضع لها المحاور الآخر، فيتعرض لحالة اهتزاز قيم، وزلزلة ثوابت تنتج «الارتداد» الذي يوصل في نهاية المطاف إلى اعتناق موقف عقدي جديد. ويصف البابا يوحنا بولس الثاني هذه العملية بقوله: (إن الحوار بالنسبة إلى الكنيسة هو - نوعاً ما - أداة، وعلى الأخص طريقة للقيام بعملها في عالم اليوم... إنارة الكون كله ببشارة الإنجيل، وتوحيد البشر بروح واحد... وفي الواقع إن الكنيسة تستعمل طريقة الحوار لكي تحسن حمل الناس - سواء أكانوا يعرفون أنفسهم أنهم أعضاء الجماعة المسيحية بالعماد والاعتراف بالإيمان، أم هم غرباء عنها - على الارتداد والتوبة، عن طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديداً عميقاً في ضوء سر الفداء والخلاص...).

إن الحوار الصحيح يرمي إذن، بادئ بدء، إلى تجديد كل الناس بالارتداد الباطني والتوبة مع احترام كل الضمائر^(١). والنص غني عن التعليق.

وإذا تجاوزنا ما بين أقواس التنصيص، والصياغات الرسمية، والجمل ذات الصفة التعميمية الصادرة عن البابا يوحنا بولس الثاني في حاضرة الفاتيكان، وشهدنا مواقف عملية، وتصريحات ميدانية خاض

(١) عن المرجع السابق، (١٠٩).

غمارها في تطوافه في بلاد العالم، تستوقفنا زيارته التاريخية لبلد مسلم بأكمله هو «المغرب»، حيث التقى الشبيبة المغاربة في الملعب الرياضي «الاستاد»، في الدار البيضاء يوم الاثنين ١٩/ أغسطس/ ١٩٨٥م، وخاطب ألوف الشباب المسلم الذين غصت بهم مدرجات الملعب، قائلاً:

(.. أما أنا من جهتي، في الكنيسة الكاثوليكية، فأحمل على عاتقي مهمة خاصة، بصفتي خليفة «بطرس الرسول» الذي اختاره سيدنا يسوع لكي يثبت قلوب إخوته في الإيمان. فبعد الأحبار العظام الذين تعاقبوا على مر التاريخ دون انقطاع، إنني اليوم أسقف مدينة روما، ومثله مدعو ليكون بين إخوانه في العالم شاهداً للعقيدة المسيحية، وضامناً لحرية جميع أبناء الكنيسة...)^(١).

بهذه المقدمة الدعائية يعرف البابا نفسه أمام جموع المسلمين، دون مواربة أو مراعاة لأدبيات الحوار ومجاملاته التي طمست الحقيقة في النداءات الأولى للكنيسة إثر المجمع الفاتيكاني الثاني، وتمخضاته كما في كتابات الأب موريس بورمانس.

ثم يتوجه البابا بالمطالبة التالية للجموع المحتشدة: (... وعلينا أن نحملنا هذا الخضوع لله، وهذه المحبة للإنسان على احترام حقوق الإنسان، تلك الحقوق التي هي تعبير عن مشيئة الله، والتي هي مقتضى الفطرة البشرية كما خلقها الله، فالاحترام والحوار يتطلبان إذاً المعاملة بالمثل في جميع الميادين، ولا سيما في ميدان الحريات الأساسية، وبالأخص، الحرية الدينية، وهما يعززان السلام والوئام بين الشعوب. ويساعدان على الحل المشترك لمشاكل الرجال والنساء في هذه الأيام، وبالأخص لمشاكل الشبان والشابات...)^(٢)، ماذا يمكن أن تعني

(١) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: (١٨٨).

(٢) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: (١٩١).

المطالبة بالحرية الدينية في بلد جميع أهله من المسلمين، سوى طلب الفسح بالردة عن دين أهل ذلك البلد، وقبول النشاط التنصيري تحت شعار الحرية والسلام والمحبة والحوار. الحوار الذي يفترض في الطرف المقابل إخضاع كل شيء للنقاش مهما كانت قداسته، على حد تعبير البابا حين ينادي:

(أيها الشبان والشابات، إنني على يقين من كونكم قادرين جميعاً على هذا الحوار. فأنتم لا ترضون أن تتقيدوا بالأحكام المسبقة. إنكم مستعدون لبناء صرح حضارة قوامها المحبة. وبإمكانكم أن تعملوا على هدم الحواجز التي شيدتها كبرياء الناس في بعض الأحيان، وضعفهم وخوفهم في أغلب الأحيان، وإنكم تريدون أن تحبوا الآخرين بصرف النظر عن أية حدود أمة أو عرق أو دين)^(١). ومقابل هذا الخطاب الإملائي الداعي إلى التحرر من الثوابت، وعدم التقيد بالأحكام المسبقة، والدعوة إلى كسر الحواجز، ينبري البابا يوحنا بولس الثاني في ختام كلمته الكنسية في نشر العقيدة النصرانية الكفرية، مستغلاً هذا الاجتماع الحاشد للشبيبة المسلمة في المغرب، لتقرير عقيدة ألوهية المسيح، فيقول: (. ومع ذلك فإن الصراحة تقتضي أيضاً أن نعرف بتبايناتنا، وأن نحترمها. ومن البديهي أن أهم هذه التباينات هي نظرنا إلى شخص سيدنا يسوع الناصري وعمله. إنكم تعلمون أن سيدنا يسوع في اعتقاد المسيحيين هو الذي يدخلهم في معرفة حميمة للذات الإلهية التي تفوق كل إدراك بشري، وفي نوع من الاتحاد الابنيّ بعطايا الله ومواهبه، ولذلك فهم يشهدون ويقولون أنه هو الرب والمخلص. إنها لتباينات هامة جداً، يمكننا قبولها بتواضع واحترام، وبروح التسامح المتبادل، ففي ذلك سر من الأسرار، أنا على يقين من أن الله سينيرنا بشأن خفاياه يوماً من الأيام)^(٢).

(١) المرجع السابق، (١٩٣ - ١٩٤).

(٢) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٩٦).

ثم ينهي هذا الخطاب التاريخي بدعاء وابتهاال تؤمّن عليه الجموع المحتشدة. وهكذا يتحول خطاب الاثنين إلى موعظة الأحد. وينقلب أسلوب الحوار واحترام ما لدى الآخر إلى قداس كنسي.

ولنا أن نتساءل: أهذا هو التطبيق العملي لفلسفة الحوار التي تنادي به الكنيسة الكاثوليكية على يد حبرها الأعظم، خليفة بطرس؟ أين ذهبت تلك الاحترازاات المشددة، والشروط المؤكدة في بيانات الكنيسة في الستينيات والسبعينيات برفض جميع صور الاجتذاب في عملية الحوار؟

هل أنست الكنيسة الكاثوليكية في هذه العقود الأخيرة، ممثلة بحبرها الأعظم، أن قد آن الأوان لزيادة حصة البشارة على حساب حصة الحوار، بعد أن آتى الحوار أكله بكسر الحواجز، وتمييع الحدود لدى الآخرين، فتوصل فقهاء التنصير إلى تغيير نمط الخطاب؟

لقد كانت هذه الزيارة لبلدٍ مسلم عريق، ومخاطبة شبابه الذين يمثلون معظم البنية السكانية فيه، سابقة خطيرة، ظل البابا يوحنا بولس الثاني يتغنى بذكرها، ويلهج بالإشادة بها، فيقول في عام ١٩٩٤م: (إن الرحلة التي قمت بها إلى المغرب... يمكن اعتبارها بالتأكيد حدثاً تاريخياً.

إنها لم تكن ببساطة زيارة ودية، بل كانت بحق ذات طابع رعوي.

لقد كان اللقاء مع الشبيبة في ملعب الدار البيضاء عام ١٩٨٥م، غير قابل للنسيان.

إن انفتاح الشباب لكلمات البابا كان مدهشاً عندما تحدث عن الإيمان بالله الواحد. لقد كان بالتأكيد حدثاً لا سابقة له^(١).

(١) عبور عتبة الرجاء (٩٤) Crossing the threshold of hope.

وتم شاهدٌ عملي صارخ على الأسلوب الذي يتناول به البابا يوحنا بولس الثاني قضية الحوار والعلاقة مع الأديان الأخرى، يتمثل في دعوته إلى الصلاة المشتركة بين أتباع الديانات في بلدة «أسيزي» الإيطالية عام ١٩٨٦م^(١).

وعوضاً من الجلوس على «مائدة مستديرة» كما تقتضي ذلك روح الحوار والتكافؤ لدى المنادين به، فإن (البابا قدم نفسه للعالم بأنه القائد الروحي للأديان جميعاً، وأنه حامل رسالة السلام للبشرية جمعاء)^(٢).

لقد ظهر البابا يوحنا بولس الثاني في تلك الخطوة الجريئة بصورة الأب الروحي ليس للكاثوليك، أو حتى النصارى فحسب، بل لجميع أتباع الديانات الأخرى من خلال إدارة ذلك اللقاء، وأسلوب تنظيمه وإخراجه، وضم جميع ممثلي الأديان تحت رداءه البابوي، كما احتواهم بكلماته الفضفاضة التي تجيش بعبارات الإيمان والمحبة والسلام. وأمام مواطنيه، ورجال دينه قدم لهم القاعدة النظرية التي تسوغ مثل هذا العمل المشترك مع أطراف لا تؤمن بالوهية المسيح، وأسرار العقيدة النصرانية، فقد (شدد البابا يوحنا بولس الثاني في الكلمة التي وجهها إلى الكوريا الرومانية، بعد يوم الصلاة في أسيزي، وكرر التشديد على الحضور الشامل للروح القدس قائلاً: «كل صلاة صحيحة هي من عمل الروح القدس الحاضر سرياً في قلب كل شخص بشري» سواء كان مسيحياً أو غير مسيحي، ثم إنه عاد وتطلع، في هذا الخطاب نفسه، إلى أبعد من الأفراد، وذكر بوضوح أهم العناصر التي تقوم من مجموعها القاعدة اللاهوتية للنظرة الإيجابية التي نقابل بها

(١) سيأتي وصف دقيق لهذه الصلاة المشتركة في الباب الثالث.

(٢) سلسلة تقارير المعلومات، صادر من مركز المعلومات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت برقم ٨٧/١٥ بتاريخ ١٩٨٧/٨/٥ م (١٠٠).

التقاليد الدينية الأخرى، ونمارس معها الحوار بين الأديان^(١).

ونظراً للنجاح الذي حققه البابا في أسيزي عام ١٩٨٦م على طريق الحوار والتفاهم، حسب الرؤية النصرانية، فقد انبرت جمعية كاثوليكية عريقة في التنصير، هي جمعية «سانت إيجيديو»^(٢) للعمل على استمرار هذا المشروع الناجح، وتبني الدعوة لمؤتمرات يحضرها ممثلو الأديان الكبرى سنوياً وتختتم بصلاة جماعية، كتلك التي أمّها البابا في أسيزي عام ١٩٨٦م، وذلك بتوجيه وتأييد منه. فقد (أصر قداسة البابا يوحنا بولس الثاني على ألا تبقى صلاة أسيزي حدثاً منفرداً، وطرح «روح أسيزي»، فشأت جمعية سانت إيجيديو أن ترحب بها، إذ شجعها عدد كبير من الشخصيات المسيحية والإسلامية، والشخصيات المنتمة إلى أديان أخرى. فنشأت هذه اللقاءات السنوية للصلاة من أجل السلام)^(٣).

وإذا فحصنا أهم الجوامع المشتركة التي يتذرع المجمع الفاتيكاني الثاني، سابقاً، والبابا يوحنا بولس الثاني، حالياً، لتكون قاعدة للحوار والتقارب بين المسلمين والنصارى، وهي قضية الإيمان بالله، فسنجد اعترافاً صريحاً من البابا بالتباين بين الديانتين في هذا الأصل الأصيل، ليس فقط من جهة عقيدة التثليث، بل حتى بقصر النظر على أقنوم (الأب) الذي يفترض أن يقابل عند المسلمين العقيدة في (الله) سبحانه وتعالى. بل نجد اتهاماً وتنقصاً وطعنًا علنيًا من داعية الحوار الفاتيكاني في العقيدة الإسلامية.

(١) حوار وبشارة (٢٤).

(٢) انظر التعريف بهذه الجمعية في الباب الثاني (١٠٦٦).

(٣) عن نشرة اللجنة الصداقة الإسلامية المسيحية» الصادرة عن جمعية سانت إيجيديو - روما (٤).

جاء ذلك في ثانيا كتاب صدر عام ١٩٩٤م بعنوان: (عبور عتبة الرجاء: Crossing the Threshold of Hope أو كما يترجمه البعض: (ادخلوا في الرجاء)، طبع منه ملايين النسخ بمختلف اللغات. وفي الفصل المعنون بـ«محمد» حسب الطبعة الإنجليزية، نال البابا يوحنا بولس الثاني من المفهوم القرآني لله سبحانه وتعالى، فقال: (إن كائناً من كان يخبرُ العهد القديم والجديد ثم يقرأ القرآن، سيرى بوضوح العملية التي تم بواسطتها تماماً اختزال الوحي الإلهي. إنه من المستحيل أن لا يلاحظ الابتعاد عما قاله الله عن نفسه، أولاً في العهد القديم من خلال الأنبياء، وانتهاءً في العهد الجديد من خلال ابنه، أما في الإسلام، فكل هذا الشراء الإلهي الخاص، الذي يُكوّن ميراث العهدين القديم والجديد، قد ترك جانباً بصورة حاسمة.

بعض أكثر الأسماء جمالاً في اللغة البشرية أطلقت على إله القرآن.

ولكنه في النهاية إله خارج العالم، إله جلاله فحسب، وليس «عمانويل» أي: إله معنا. الإسلام ليس دين فداء. ليس فيه مجال للصليب والقيامة.

لقد ذكر يسوع. ولكن بصفته نبياً مبشراً بالنبى الخاتم محمد فحسب.

هناك ذكرٌ أيضاً لمريم، والدته العذراء، ولكن مأساة الفداء غائبة بالكلية.

ولهذا السبب فليس علم اللاهوت فقط، بل حتى علم الناسوت الإسلامي بعيداً عنه في المسيحية^(١).

(١) عبور عتبة الرجاء (٩٢، ٩٣) Crossing the threshold of hop.

وبصرف النظر عما تضمنه النص من مغالطات واضحة، وافتراءات كاذبة^(١) عن الاعتقاد الإسلامي، في ذات الله وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فإن مؤدى كلام البابا يوحنا بولس الثاني إثبات إله للعهدين القديم والجديد مغاير تماماً لإله القرآن - على حد تعبيره - . فماذا بقي يا ترى لكي يكون أساساً لحوار مشترك مؤسس على جوامع مشتركة بين ديانتين، لا تتفقان، ولا تكادان تقتربان من بعضهما بعضاً في علم اللاهوت - كما الاصطلاح الكنسي - ولا علم الناسوت؟! لم التحدث بلغتين، والكيل بمكيالين؟ وهل يُظن بقائل هذا الكلام الواعي للفروق الأساسية لمعتقد الديانتين في ذات الله عز وجل، الممتلئ حماسة وتفانياً لنشر معتقده ذاك في أرجاء المسكونة، أن يُخضع هذه القضية للنقاش والحوار الحر النزيه الذي يطالب به الآخرين؟! أم أنها مناوره قد قُرت أحكامها سلفاً من جانبهم، ويتنظرون من أتباع التقاليد الدينية الأخرى - كما يعبرون أحياناً - أن يعيدوا النظر في مواقفهم وعقائدهم المسبقة، بتوجيه روحهم القدس المهيم على المصلين في أسيزي؟!

هذا من حيث حقيقة الحوار والتقارب المزعوم، أما من حيث مضمون الادعاءات الواردة فنقول بإجمال: إن أي تراث مزعوم لا يداني ولا يكاد، ما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة من التعريف بالله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، فقد وصف الله تعالى بصفات الكمال والجلال والجمال، ونزّهه عن صفات العجز والنقص والعيب بما تحصل به طمأنينة القلوب، وانشراح الصدور، وجلاء الأفهام وقبول العقول، ونقيض هذه المزايا، مجتمع برمته في العقيدة النصرانية المتوثنة، المليئة بالأسرار الغامضة، والتناقضات الفاضحة، وحسبك بهذا الكتاب الذي تضمن النص السابق دليلاً على ما نقول؛

(١) انظر الرد الذي كتبه الدكتورة زينب عبد العزيز بعنوان: (يوحنا بولس الثاني والإسلام).

فقد جاء إجابة على استفسارات مقلقة، وإشكالات مزعجة، جمعها صحفي شهير هو الكاتب: فيتوريو ميسوري من قلب المجتمع الأوربي العريق في نصرانيته، ومع ذلك ظلت هذه الأسئلة تعيش معه حتى الألف الثالثة من ميلاد المسيح، وستظل، ما داموا في غيهم يعمهون، وما دامت الكنيسة تمارس دور الإضلال والتعمية والصد عن سبيل الله، وإليك أيها القارئ مسرداً ببعض عناوين فصول الكتاب ومقدماتها:

- هل الله موجود؟ - ألا يزال موجوداً، وما الدليل؟
- إذا كان الله موجوداً فلماذا يختبئ؟
- هل عيسى ابن الله حقاً؟
- ماذا تحصّل من تاريخ الفداء؟ - لماذا هذا الكم من الشرور في العالم؟
- لماذا يحتمل «الرب» المعاناة؟ - هل البوذية عوض عن المسيحية؟
- هل ستموت المسيحية؟ - هل يمكن للإنسان أن يلعن نفسه إلى الأبد؟
- إلى غير ذلك من الأسئلة الموحشة التي تكشف عن فزع الفطرة الإنسانية من العقائد الدينية «البالية» التي تفرضها الكنيسة على أتباعها، وتدندن بها حول الحلول وألوهية المسيح والفداء، بما لم يغن ولم يسمن من جوع. أما الإسلام دين الفطرة، فأتباعه في راحة تامة من هذه التعقيدات، وقد حسم أمرها بمجرد إدراك حقيقة التوحيد المحض السالم من شوائب الشرك والخرافة، التي يعتبرها البابا ثراء دينياً قد تُرك جانباً في الإسلام.

وحسبنا في هذا المقام أن نميط اللثام عن حقيقة عبارات الاحترام والتقدير، ولغة المجاملات والمراوغات التي يتذرّع بها أئمة النصارى

وهم ينادون المسلمين إلى الحوار والتقارب، وما تخفي صدورهم أكبر مما يظهر أحياناً على فلتات ألسنتهم، ولحن قولهم.

ونختم الحديث عن حقيقة الحوار في منظور الكنيسة الكاثوليكية بهذا النص الوارد في وثيقة «حوار وبشارة» الآنف الذكر:

(عندما تقوم الكنيسة برسالتها تتصل بجماعات من الناس ذوي تقاليد دينية مختلفة جداً. فالبعض منهم يصبحون تلاميذ يسوع المسيح، في كنيسته، إثر اهتداء عميق، وبقرار من إرادتهم الحرة، وآخرين يجتذبهم شخص يسوع ورسالته، ولكنهم لا يدخلون حظيرته لأسباب مختلفة. وآخرون أيضاً يلبثون على غير اكتراث، أو على اكتراث ضئيل ليسوع. ومهما يكن من أمر فرسالة الكنيسة تتوجه إلى جميع البشر، وإنه يمكن أن يكون لها في الحوار، دور نبوي بالنظر إلى الديانات التي ينتمي إليها أولئك البشر. وهي عندما تؤدي الشهادة للقيم الإنجيلية تطرح سؤالاً على هذه الديانات، وهي كذلك بقدر ما تتسم بالحدود البشرية! تصبح هدفاً لأن يثار السؤال عنها بالطريقة نفسها، وبتعزيز هذه القيم إذن وفق ذهنية تقوم على التنافس واحترام سر الله، يلتقي أعضاء الكنيسة، ومؤمنو الأديان الأخرى، كرفاق على الطريق المشترك الذي تدعى إلى سلوكه البشرية بأسرها. وذلك ما أشار إليه يوحنا بولس الثاني في إسيزي في ختام نهار الصلاة والصوم والحج! لأجل السلام عندما قال: (لنر في هذا الأمر استباقاً لما قد يريد الله أن يراه متحققاً في تاريخ الإنسانية: سيراً أخوياً نترافق فيه نحو هدف سام يعده لنا)^(١).

والنص في ضوء ما تقدم غني عن التعليق. ولنا قول الله تعالى: ﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُم مِّمَّا أُنزَلَ إِلَهُهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنزَلَ إِلَهُكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَم أَنَّهُ يُرِيدُ إِلَهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ

(١) حوار وبشارة (٦٩).

كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴿٥٢﴾

[المائدة].

خلاصة وتحليل:

إن نظرة شاملة لمسيرة الكنيسة الكاثوليكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة التالية لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥م) حول قضية الحوار مع الإسلام تكشف عن ثلاث مراحل متميزة:

١ - المرحلة الأولى: وهي التي أعقبت المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي قدم المسوغ اللاهوتي للحوار، عن طريق توسيع عقيدة الخلاص، وهجر الدعوى الكنسية القديمة القائلة: «لا خلاص خارج الكنيسة»، والتخفيف من لوازم عبارة إنجيل يوحنا القائلة: «أنا الطريق والحق والحياة» (١٤ / ١)^(١).

وتميزت هذه المرحلة التي امتدت حتى نهاية السبعينيات تقريباً بـ(الرغبة في المعرفة الموضوعية الهادئة، وفي طلب القربى الروحية، وفي السعي إلى لقاء إنساني عن طريق المشاركة في التربية والمجتمع)^(٢). بل التوق إلى «الحوار الروحي»، و«الوحدة الروحية»،

(١) العهد الجديد (٣٣٦).

(٢) المسيحية والإسلام. مرايا متقابلة مجموعة من المؤلفين. مركز الدراسات المسيحية الإسلامية. جامعة البلمند. الطبعة الكاثوليكية. عاريا - لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٧م. من فصل: «الحوار المسيحي - الإسلامي في الواقع والرؤية» د. طارق متري. (١٧٢).

والتقاط شواهد التراث الروحي المشتركة بين الديانتين، حتى ولو لم تكن تتمتع بالصفة المرجعية المقبولة لدى الجانب الإسلامي، كالاكتفاء بالتراث الصوفي والفلسفي، لإثبات أواصر القربى والتشابه بين الديانتين.

كما سادت في هذه المرحلة التأكيدات المتتالية على نبذ نوايا الاجتذاب، والتحليل والإيحاء، والتزام النزاهة المطلقة في الحوار.

ومما يمثل هذه المرحلة تمثيلاً صادقاً كتاب: «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين» للأب موريس بورمانس، الذي سبق عرض جوانب منه، وطبع طبعة ثانية عام ١٩٨٠م^(١).

ولعل روح الانفتاح والجدة التي كانت سائدة ذلك الوقت، بالإضافة إلى الشعور بالخطر الإلحادي الشيوعي، كانا وراء صياغة أدبيات تلك الفترة، ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية في أي وقت مضى أقرب إلى مدلول «الحوار»، من الناحية اللفظية على الأقل - وأصدق لهجة منها في هذه المرحلة. وقد انتهت بنهاية حياة البابا بولس السادس الذي مهر قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني بختمه، وكان مشبعاً بأهدافها، حتى وافاه الأجل في أغسطس ١٩٧٨م. وربما امتد أثرها سنتين إضافيتين، بصفة أقل، حتى وفاة الكاردينال سيرجيو بينيدولي^(٢) رئيس الأمانة العامة للعلاقات بغير المسيحيين عام ١٩٨٠م، الذي كان على منهج البابا بولس السادس.

(١) مما يصب في هذا الاتجاه أيضاً مقالة بعنوان: (ما هو الاتجاه الديني الذي يجب أن يتبناه المسيحيون) أصدرتها أمانة سر شؤون غير المسيحيين عام ١٩٦٩م ضمن إضمامة من (إرشادات من أجل الحوار بين المسلمين والمسيحيين).

(٢) سيأتي تعريف بالرؤساء الذين تعاقبوا على أمانة السر الفاتيكاني للعلاقات بغير المسيحيين في الباب الثاني.

٢ - المرحلة الثانية: تمثل هذه المرحلة تنامي ردود الفعل المضادة للانفتاح على الديانات والتقاليد الأخرى، واعتبار أسلوب «الحوار» و«التقارب» خيانة لرسالة الكنيسة وتخلياً عن البشارة. هذا من جانب النقد الذاتي داخل الأسرة الكاثوليكية، لكن صاحب ذلك ما يشبه «خيبة الأمل» و«الإحباط» تجاه التجاوب الإسلامي مع دعوة الحوار، فنصارى الحوار فضلاً عن معارضيهم، لم يجدوا بغيتهم التي تلبى طموحاتهم في مسلمي الحوار فضلاً عن معارضيهم، وهذه المرحلة واكبت السنوات الأولى من سيامة يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان، وتولي رئيس الأساقفة جان جادوت الأمانة العامة للعلاقات بغير المسيحيين، الذي لم يكن في مستوى سابقه رتبة كهنوتية، ولا حماساً ونشاطاً في العمل، مما فسح المجال لنمو الرأي المضاد، حتى استقالته عام ١٩٨٤م.

ويصف الدكتور طارق متري^(١) هذا الموقف قائلاً: (وعندما أطلقت الكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، وعدد من الكنائس في الغرب خصوصاً، مبادراتها الحوارية تجاه المسلمين، لم تكن مدركة تمام الإدراك عمق التغيير الذي أصاب العقلية والأحاسيس اللاهوتية، ولا واثقة، على نحو كاف، بسرعة التجاوب معها في صفوف المسيحيين، ولم يكن بوسعها، من جهة أخرى أن تستبق كل ما سوف تثيره الحركة التي دفعتها من أفكار تتجاوز النصوص

(١) أستاذ جامعي في لبنان، أرثوذكسي. مسؤول العلاقات مع المسلمين في مجلس الكنائس العالمي «جنيف». له أبحاث وكتابات عديدة في مسائل الحوار الإسلامي النصراني، عضو مؤسس لمجلس كنائس الشرق الأوسط، وفريق العمل العربي في الحوار الإسلامي - النصراني. له مساهمات عدة، في آخرها الإشراف على تحرير كتاب:

Christian Muslim Discussion Religion, Law and Society. انظر مجلة الاجتهاد

(٣١، ٣٢/٤٢٢).

العقائدية، أو التوجيهات الرعائية، وسرعان ما وعت أنها، في حقيقة الأمر، اختارت الدخول في ما يشبه المجازفة، وتبيّن لها أن التجاذب حول مواقفها المعلنة، داخل الجماعة المسيحية واقع لا محال. ولم يقتصر التجاذب هذا على المواقف اللاهوتية الجديدة أو على تسويق الحوار، بل طال أيضاً اختيار مواضيعه، والشركاء فيه، من المسلمين والمسيحيين، بمن فيهم المسيحيون العرب.

لقد واجه الحوار مقاومةً من هنا وتحفظاً من هناك، ولم يكن يسيراً أن يبدل المسيحيون، نظراتهم إلى ذواتهم، وإلى المسلمين، مفلتين من قبضة التاريخ، ولم يكن سهلاً أن يضرب المسلمون صفحاً عن الماضي المثلث بمشاعر الريبة والعداء، وأن يحلوا الثقة محل الشك بنوايا الكنائس حيالهم. ذلك أن علاقات القوى الاقتصادية والسياسية والثقافية على الصعيد العالمي، ورغم التغيير النسبي الذي سبقت الإشارة إليه، ظلت مفتقرة إلى التوازن الذي يسمح للحوار أن يكون منزهاً عن المصالح، ومقدمها ما يخص تثبيت السيطرة الغربية، وإن بأشكال جديدة^(١).

هذا هو المناخ السائد في نهاية السبعينيات ومطلع الثمانينيات، فلا عجب حينئذ أن تنشغل الكنيسة بحل المعضلة اللاهوتية الناشئة بين أصالة البشارة، وحدثة الحوار. وحيث لا يمكن التنصل من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني وإعلاناته، فقد اتجهت الكنيسة لفلسفة مفهوم الحوار وفق المعطيات الجديدة. فجاءت وثيقة عام ١٩٨٤م الصادرة عن أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين، المعنونة بـ: «موقف الكنيسة من مؤمني سائر الأديان: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار والرسالة» وجرى تطويرها وتنقيحها، حتى أقرها المجلس البابوي للحوار بين

(١) المسيحية والإسلام: مرايا متقابلة (١٧٣ - ١٧٤).

الأديان، وصدرت موقعة من رئيسه، ورئيس مجمع تبشير الأمم عام ١٩٩١م بعنوان: «حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل» كما سبق التعريف بها، ممثلة لهم المسيطر على الكنيسة في هذه المرحلة أصدق تمثيل، وحقيقة الحوار في هذه المرحلة الثانية مساعدة الآخرين على اكتشاف التأثير الجزئي للنعمة الحاصلة بتأثير الروح القدس في تقاليدهم الدينية، والسير بهم إلى اكتشاف كامل الحقيقة. وبذلك يصبح مشروع الحوار مشمولاً بمشروع البشارة لاهوتياً وعملياً. كما أن من معالم هذه المرحلة المراوحة النسبية بين الحوار والبشارة حسب الظروف المحلية المحيطة بشخص ما، أو كنيسة ما.

ويلتقي مع هذا التحليل المستشرق الروسي إليكسي جورافسكي حيث يقول: (يمكن القول بعبارة مقتضبة، إن الحوار الذي أريد به أن يكون أسلوباً جديداً للتبشير المسيحي لم يعد كافياً على الإطلاق، حيث إن التحول الحاصل في توجه الكنيسة بالنسبة لموقفها من العالم، أدى بدوره إلى إعادة النظر في ما يخص مفهوم الرسالة المسيحية ومهام التبشير المسيحي في الشرق. ويفضل اللاهوتيون - الكاثوليك المعاصرون استعمال صيغة «الاهتداء إلى المسيح»، بدلاً من الصيغ القديمة «التحول إلى المسيح»، بحيث أن ذلك «التحول» أو «الاهتداء» يجري ليس على حساب القضاء على الديانات الأخرى، وإنما من خلال «نضجها» الطبيعي، فالمبشر المسيحي يتوجب عليه أن يساعد في تسريع ذلك النضج^(١).

لم يعد «الحوار» بصيغته المطروحة في الستينيات يفي بطموحات الكنيسة التنصيرية المتسارعة، بل صار أشبه بمركبة قديمة بطيئة يستعملها

(١) الإسلام والمسيحية. (١٧١).

صاحبها في بعض المناسبات، دون أن يتخلص منها نهائياً، لما استقل مركبة جديدة سريعة.

٣ - المرحلة الثالثة: وهي الفترة الممتدة من أواسط الثمانينيات وحتى وقتنا الراهن. وتتسم باستمرار التأكيد على أهمية الحوار من الناحية الإعلامية والمظهرية، ولكن باعتبار الحوار جسراً لنقل الثقافة الإنجيلية إلى الآخرين، أو ما صار يسمى «بالغرس الثقافي». وهذه المرحلة أعقبت رحلات البابا يوحنا بولس الثاني لأجزاء من العالم الإسلامي، ولقائه بمسلمين في آسيا وأفريقيا وأوروبا على مدى أربع سنوات (١٩٨٠ - ١٩٨٤م). وعاد بلا ريب مقتنعاً بعدم كفاءة أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين التي كان يشغلها إذ ذاك رئيس الأساقفة جان جادوت، في تفعيل الحوار الهادف إلى نشر النصرانية، فكان أن عين الكاردينال الأفريقي الأصل فرانسيس آرينزي في ذلك المنصب ليرضي طموحه، وفق النظرة الجديدة للحوار. ومن الملاحظ في هذه الفترة تكثيف النشاط التنصيري، واستخدام كافة وسائل التقنية الحديثة لتنصير العالم ومن أخطرها مشروع Lumen 2000، أي نور سنة ٢٠٠٠م، وهو القمر الصناعي المخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية: تقول الدكتورة زينب عبد العزيز: (ولا يتوقف الدور القيادي للبابا عند حد التدخل في الشؤون السياسية، والعمل على السيطرة عليها فحسب، وإنما يتعداه لفرض النمط الحضاري الغربي على العالم ليتواءم مع النظام العالمي الواحد، والدين العالمي الواحد! فذلك هو ما طالب به حينما أعلن ضرورة «تنصير العالم» في نوفمبر ١٩٨٢م من مدينة «شانت يقب» بشمال غرب أسبانيا... تلك المدينة التي كانت آخر ما وصل إليه الفتح الإسلامي، وأول ما سقط في حرب الاسترداد. ويكفي أنها تحمل اسم حامل الراية أثناء الحروب الصليبية ضد مسلمي الأندلس.

فبعد أن طالب بتنصير العالم أمام حشد مكونٍ من قرابة مليونين من الأتباع، وأغلبهم من الشباب الذي يحاول استرداده من الضياع، راح يردد ذلك النداء الذي جمع فيه بين الكنيسة وأوروبا والحضارة الأوروبية قائلاً: «يا أوروبا... عودي إلى رشدك، كوني نفسك! استكشفي أصولك! أحيي جذورك! أحيي تلك القيم الأصيلة التي جعلت تاريخك مجيداً، وجعلت وجودك مثمراً على القارات الأخرى»^(١).

هذه المرحلة أخطر مراحل الحوار الذي تمارسه الكنيسة الكاثوليكية، حيث تمطر الآخرين بعبارات ذات مدلولٍ فارغ تخدرهم فيها، وتصرف أنظارهم عن الاشتغال بما يهمهم حقاً، في الوقت الذي تستنفد فيه كافة السبل والوسائل للتبشير، والغرس الثقافي طويل الأمد، تحت ستار «الحوار» الطعم.

أما المرحلة القادمة فعلمها عند الله، لكن رؤية المنحنى المنحدر يشي بشيءٍ من معالمها الذي سيسفر عن الوجه الكالح للصليبية الجديدة.



(١) تنصير العالم (٩٤ - ٩٥).

